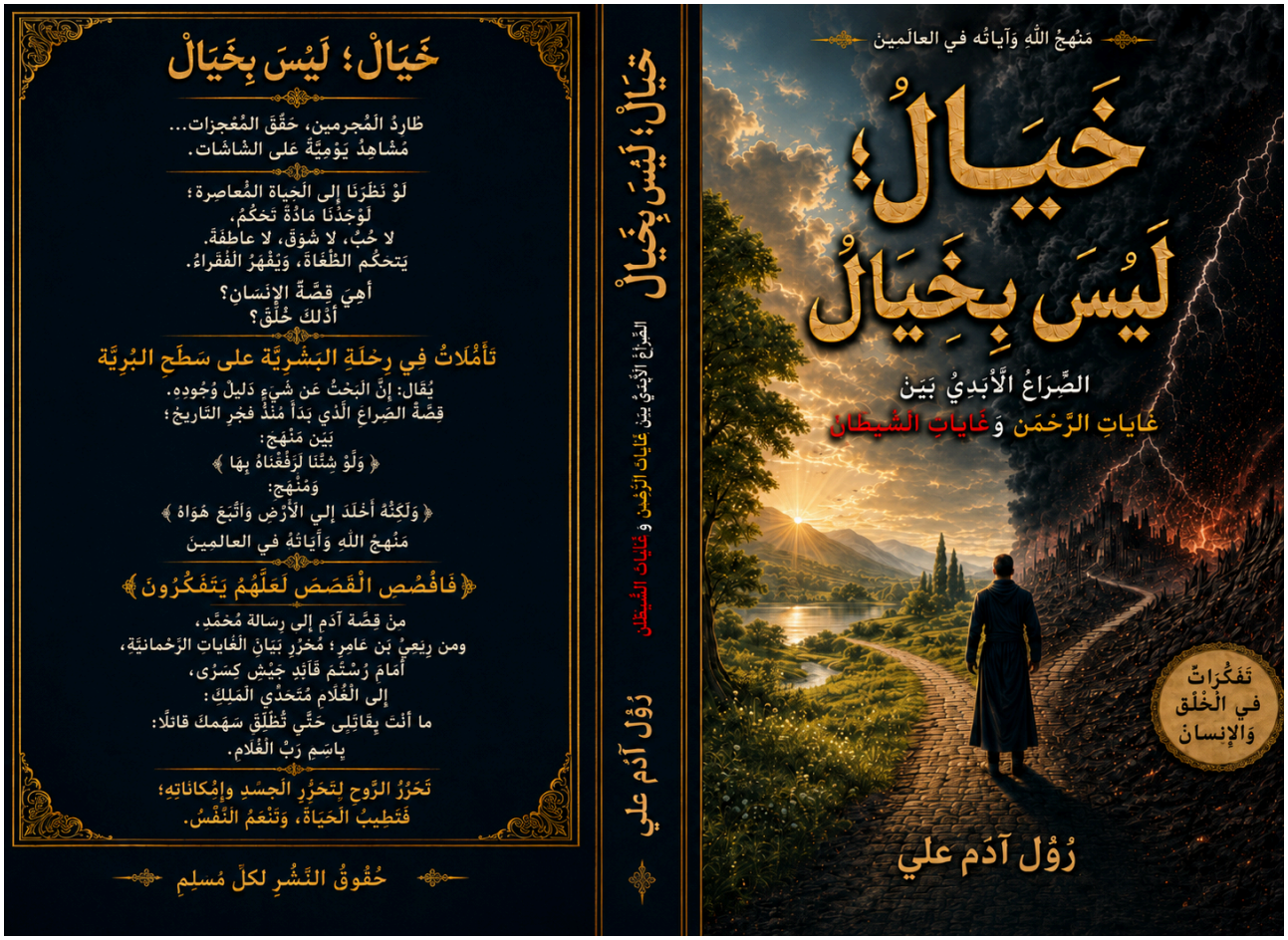

خَيَالٌ؛ لَيْسَ بِخَيَالٌ

ظَارِدُ الْمُجرمين، حَقِّقَ الْمُعْجزات...
مُشَاهِدُ يَوْمِيَّةٌ عَلى الشَاشَات.

لَوْ نَظَرْنَا إِلى الْحياة الْمُعاصِرة؛
لَوَجَدْنَا مَادَّةً تَحْكُمُ،
لا حُبٌّ، لا شَوْق، لا عاطِفَةٌ.
يَتحكَّم الطُّغَاةُ، وَيُقْهَرُ الْفُقَراءُ.
أَهِيَ قِصَّةُ الإِنْسَانِ؟
أَذَلِكَ خُلِقَ؟

تَأَمُّلاتٌ فِي رِحْلَةِ البَشَرِيَّة على سَطَحِ البُرِيَّة

يُقَال: إِنَّ الْبَحْثَ عَن شَيْءٍ دَليلُ وُجُودِهِ.
قِصَّةُ الصِّرَاعِ الَّذي بَدَأَ مُنْذُ فَجْرِ التَّاريخ؛
بَيْن مَنْهَج:
﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾
وَمَنْهَج:
﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾
مَنْهجُ اللّهِ وَآياتُهُ في العالَمِينَ

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

من قِصَّة آدَم إِلى رِسالة مُحَمَّد،
ومن رِبِعِيُّ بْن عَامِرٍ؛ مُحَرِّرِ بَيَانِ الْغَايَاتِ الرَّحْمانيَّة،
أَمَامَ رُسْتُمَ قَائِدِ جَيْشِ كِسرَى،
إِلى الْغُلَامِ مُتَحَدِّي الْمَلِكِ:
ما أَنْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تُطَلِّقَ سَهْمَكَ قَائِلًا:
بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ.

تَحَرُّرُ الرُّوحِ لِتَحَرُّرِ الْجَسَدِ وإِمْكَانَاتِهِ؛
فَتَطِيبُ الْحَيَاةُ، وَتَنْعَمُ النَّفْسُ.

حُقُوقُ النَّشْرِ لكلّ مُسلِمٍ

خَيَالْ، لَيْسَ بِخَيَالْ

كتاب الصِّراع الأَبَدِيّ بَيْنَ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ وَغَايَاتِ الشَّيْطَانِ
مَنْهَجُ اللهِ وَآيَاتُهُ فِي العَالَمِينَ

تأليف

رؤل آدم علي محمد

حقوق النشر: لكل مسلم

للتواصل مع الكاتب

البريد الإلكتروني: roal@roaladam.com

المدونة الشخصية: www.roaladam.com

البَابَ الأول

قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ

فَصْلٌ:(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

◆

طَارِدُ الْمُجْرِمِينَ، هَزَمَ الأَشْرَارَ، انْتَصَرَ لِلضُّعَفَاءِ، حَقَّقَ الْمُعْجِزَاتِ، أَعَانَ الْفُقَرَاءَ...

مَشَاهِدُ يَوْمِيَّةٌ عَلَى الشَّاشَاتِ، يَتَسَمَّرُ الشَّبَابُ وَالشُّيُوخُ وَالنِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ لِسَاعَاتٍ طِوَالٍ لِمُشَاهَدَتِهَا. يَجْنِي مُنْتِجُوهَا مَلَايِينَ الدُّولَارَاتِ، أَوْ رُبَّمَا الْمِلْيَارَاتِ مِنْ وَرَاءِ إِنْتَاجِهَا.

يُقَالُ: إِنَّ الْبَحْثَ عَنْ شَيْءٍ دَلِيلٌ وُجُودِهِ.

فِي الْمُقَابِلِ، لَوْ نَظَرْنَا إِلَى الْحَيَاةِ الْمُعَاصِرَةِ ، لَوَجَدْنَا النَّقِيضَ:

مَادَّةٌ تَحْكُمُ، سَرِقَةُ اللُّقْمَةِ مِنْ أَفْوَاهِ الْجَائِعِينَ، غِشٌّ وَخِدَاعٌ، تَكَبُّرٌ، ضَعْفٌ، وَرُكُونٌ لِلظُّلْمَةِ.

مَادَّةٌ تَحْكُمُ، لَا حُبَّ، لَا شَوْقَ، لَا عَاطِفَةَ.

مُجْتَمَعَاتٌ تُعْلِي الْمَظَاهِرَ الْجَوْفَاءَ عَلَى الْحَقَائِقِ النَّاصِعَةِ، يَتَحَكَّمُ الطُّغَاةُ، يُقهر الْفُقَرَاءُ، وَيَسْتَهْلِكُ الْجَرْيُ وَرَاءَ الْمَادَّةِ أَغْلَبَ الْحَيَاةِ.

أَهِيَ قِصَّةُ الْإِنْسَانِ؟ أَذٰلِكَ خَلْقٌ؟

أَصَحِيحٌ مَا سَأَلَتْ عَنْهُ الْمَلَائِكَةُ:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟

كَانَ ذٰلِكَ أَوَّلَ اسْتِفْسَارٍ سُئِلَ عَنْ آدَمَ، أَبِي الْبَشَرِيَّةِ.

خَلَقَ آدَمَ، اعْتَرَضَتِ الْمَلَائِكَةُ، أَجَابَ اللَّهُ: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

كَرَّمَ اللَّهُ آدَمَ، أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ. اعْتَرَضَ إِبْلِيسُ، رَفَضَ السُّجُودَ قَائِلًا: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61].

رَفَضَ أَمْرَ خَالِقِهِ تَكَبُّراً وَعُلُوّاً: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61]. طُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. صَارَ إِبْلِيسُ مَبْعُوثَ جَهَنَّمَ لِلْعَالَمِينَ: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَدْحُورًا ۖ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18].

الْوَعْدُ جَهَنَّمُ لِإِبْلِيسَ وَلِكُلِّ مَنْ رَفَضَ تَكْرِيمَ الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ، فَالْجَنَّةُ دَارُ كَرَامَتِهِ -وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ هُوَ مِنْ أَجْلِ تَكْرِيمِ الْإِنْسَانِ-.

أَدْخَلَ آدَمَ الْجَنَّةَ: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]. نَعِمَ بِظِلَالِهَا، شَرِبَ مِنْ مَائِهَا، ذَاقَ فَاكِهَتَهَا وَمَاءَهَا. وَعَدَهُ الرَّحْمَنُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: 118-119].

بَيَّنَ لَهُ عَدُوَّهُ مَنْ رَفَضَ تَكْرِيمَهُ وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: 117]. أَعْلَمَهُ عَاقِبَةَ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَغَايَتَهُ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، أَمَّا الشَّيْطَانُ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268].

خَدَعَهُ الشَّيْطَانُ إِبَّانَ الْجَانِبِ الْمُظْلِمِ مِنْ آدَمَ الَّذِي عَلِمَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِحَدْسِهَا، فَهِيَ مُسَيَّرَةٌ مِنْ قِبَلِ الرَّحْمَنِ لَا تَحِيدُ أَنْمُلَةً ، وَ ﴿اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28]. أَمَّا آدَمُ نُخْلِقَ مُخَيَّراً بَيْنَ أَنْ يُطِيعَ أَوْ أَنْ يَعْصِيَ، فَرَكَزَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى هَذَا الْجَانِبِ فَقَالَتْ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

فَصْلٌ: (شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)

◆

لَكِنَّ الشَّيْطَانَ مَنْ رَفَضَ تَكْرِيمَ الْإِنْسَانِ وَالسُّجُودَ لَهُ، كَانَ لَهُ رَأْيًا آخَرَ، فَسَعَى لِيَسْتَغِلَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مُخَيَّراً لِاسْتِمَالَتِهِ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، لِيَتَّبِعَ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ لِيَشْقَى. فَمُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ طَلَبَ مِنَ الرَّبِّ أَنْ يُنْظِرَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ لِغَايَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فِي هَذَا الْوُجُودِ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62].

حَرَّكَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهِ غَرَائِزَ الْمَعْصِيَةِ-الهَوَى- ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾، أَيْ لَأَسْتَمِيلَنَّهُ لِيَعْصِيَ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120].هَوَى الْمُلْكِ،هَوَى الْخُلْدِ، يَنْزِلُنَا مِنْ أَعَالِي دَرَجَاتِ التَّكْرِيمِ إِلَى أَسْفَلِ دَرَجَاتِ التَّسْفِيهِ. خَبَرَ ذَلِكَ الصَّحَابَةُ فَخَالَفُوا أَمْرَ الرَّسُولِ فِي أُحُدٍ بِسَبَبِ هَوَى الْمُلْكِ، وَلَوْ صَبَرُوا لَنَالُوا مَا يُرِيدُونَ، هُزِمُوا وَقَالُوا سَاءَتْ أَخْلَاقُنَا.

كَانَتْ عَاقِبَةُ آدَمَ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: 121]، فَالسَّوْأَةُ وَافِدُ الهَوَى, وَبِهِ يَزِلُّ الْإِنْسَانُ مِنْ أَعْلَى دَرَجَاتِ التَّكْرِيمِ. أَطَاعَ آدَمُ الشَّيْطَانَ وَاتَّبَعَ غَايَاتِهِ وَحَقَّقَهَا، فَأُهْبِطَ مِنْ دَارِ النَّعِيمِ لِدَارِ الْمُكَابَدَةِ وَالشَّقَاءِ. أَقَرَّ آدَمُ

بِذَنْبِهِ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، فَ ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122].

بَيَّنَ لَهُ السَّبِيلَ لِلْخَلَاصِ مِنْ كَدَرِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِبِهَا، فَهِيَ دَارُ بَلَاءٍ لَا تَطِيبُ إِلَّا بِالْعَيْشِ وَفْقَ مَنْهَجِ اللَّهِ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123]. أَمَّا مَنْ أَعْرَضَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: 124].

فَالْجَنَّةُ كُلُّهَا نَعِيمٌ وَعَافِيَةٌ، أَمَّا الْأَرْضُ: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36]؛ عَدَاوَةُ تَنَافُسٍ وَحَسَدٍ وَبَغْضَاءَ وَكِبْرٍ وَغُرُورٍ. الْجَنَّةُ لَا تَحْتَاجُ لِمَشَقَّةٍ بَلْ نَعِيمٌ سَرْمَدِيٌّ لَا يَفْنَى، الْأَرْضُ مَشَقَّةٌ لَا تَطِيبُ إِلَّا بِالْعَيْشِ وَفْقَ مَنْهَجِ اللَّهِ.

وَرِثَتْ ذُرِّيَّةُ آدَمَ الْخِلَافَةَ فِي الْأَرْضِ، وَوَرِثَتْ مَعَهَا وَصِيَّةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27]. يَفْتِنُكُمْ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ فَتَظُنُّوا السَّعَادَةَ وَطِيبَ الْعَيْشِ فِي غَيْرِهِ، فالشَّيْطَانُ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120].

فَصْلٌ: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ)

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27]. إِنَّ الشَّيْطَانَ وَلِيُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَ آدَمَ أَبَاكُمْ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ تَكْرِيماً. وَاجْتَبَاهُ فِي الْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَهُ هُدَاهُ، مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا هُوَ فَقَطْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ وَغَايَتَهُ ؛ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْقَى هَذِهِ غَايَتُهُ فِي الْوُجُودِ. وَيَعْجَبُ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ وَيُذَكِّرُهُمْ بِقِصَّةِ الشَّيْطَانِ مَعَ أَبِيهِمْ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

غَايَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268]. يُرِيدُ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْقَى هَذِهِ غَايَتُهُ فِي الْوُجُودِ، غَايَاتٌ شَيْطَانِيَّةٌ، غَايَاتٌ رَحْمَانِيَّةٌ، لَمَّةُ مَلَكٍ، مَسُّ شَيْطَانٍ.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا

لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. ثُمَّ قَرَأَ ﷺ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

بُعِثَتْ مَعَ مُحَمَّدٍ الْغَايَاتُ الرَّحْمَانِيَّةُ، أَوَّلُهَا تَوْحِيدُهُ سُبْحَانَهُ وَطَلَبُ رِضَاهُ وَحْدَهُ.

كَانَ مُصْعَبٌ أَنْعَمَ فَتًى بِمَكَّةَ؛ يَغْدُو فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، وَالطِّيبُ يَتْلُوهُ الطِّيبُ، وَمَالُ الْأُمِّ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنْفِقُ مِنْهُ كَيْفَ يَشَاءُ..

أَخْرَجَ الْإِسْلَامُ مِنْ رُعَاةِ الْغَنَمِ قَادَةَ الْأُمَمِ، وَمِنْ خُمُولِ الْأُمِّيَّةِ أَعْلَامَ الْعِلْمِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ.

مُرْسَلٌ نَالَ بِآيِ الذِّكْرِ مَا لَمْ يَنَلْهُ ... النَّجْمُ فِي عَالِي مَدَاهْ
بَشَّرَ الشِّرْكَ بِمَوْتٍ عَاجِلٍ ... أَيُّهَا الشِّرْكُ دَنَا يَوْمُ الْوَفَاهْ
فَإِذَا التِّيجَانُ تَهْوِي وَإِذَا ... بِرُعَاةِ الشَّاءِ لِلدُّنْيَا رُعَاهْ
سُؤْدَدٌ عَالِي الذُّرَى مَا شَادَهُ ... قَيْصَرٌ يَوْماً وَلَا كِسْرَى بَنَاهْ
وَمَحَارِيبُ بِشَرْقِ الْأَرْضِ أَوْ غَرْبِهَا ... تَشْدُو بِتَكْبِيرِ الْإِلَهْ

"النَّعِيمُ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ" - مُحَاضَرَةٌ لِلشَّيْخِ عَلِيٍّ الْقَرْنِيِّ

فَضْلٌ:(وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا)

◆

بُعِثَ مَعَ مُحَمَّدٍ الْغَايَاتُ الرَّحْمَانِيَّةُ، أَوَّلُهَا تَوْحِيدُهُ سُبْحَانَهُ وَطَلَبُ رِضَاهُ وَحْدَهُ. كَانَ مُصْعَبُ أَنْعَمَ فَتًى بِمَكَّةَ، يَغْدُو فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، الطِّيبُ يَتْلُوهُ الطِّيبُ، مَالُ الْأُمِّ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنْفِقُ مِنْهُ كَيْفَ يَشَاءُ <مُقْتَبَسٌ مِنَ النَّعِيمِ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ>.

لِنَتَصَوَّرْ مُسْتَقْبَلَ مُصْعَبٍ، كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ كَالْعِطْرِ وَاللُّؤْلُؤِ عَلَى جِيدِ أَعْظَمِ حَسْنَاءَ فِي مَكَّةَ أَوْ فِي الْعَالَمِ، كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثَ مِئَاتٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَنْ لِبَاسِهِ وَهَنْدَامِهِ. هَلْ سَيُغَيِّرُ مُصْعَبٌ مِنْ خِلَالِ غَايَةِ الشُّهْرَةِ شَيْئاً، أَوْ سَيَزْدَ مُصْعَبٌ فِي الْعَالَمِ شَيْئاً؟ لَا. لَكِنْ عِنْدَمَا صَارَتْ غَايَتُهُ التَّوْحِيدَ وَإِخْرَاجَ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عَادَاهُ قَوْمُهُ وَنَبَذَتْهُ وَعَذَّبَتْهُ أُمُّهُ.

جَلَبَتْ لَهُ أَعْظَمَ التَّحَدِّيَاتِ مَنْ كَانَ مُنْعَماً وَدِيعاً، قَدْ يَخْشَى ضَبّاً أَوْ وَرَلًا فِي الصَّحْرَاءِ، أَصْبَحَ أَسَدَ مَغَاوِرَ سَفِيراً لِلْإِسْلَامِ. أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ سَادَاتُ يَثْرِبَ، سَمِعَ بِهِ مَا يَقْرُبُ مِنْ سُدُسِ سُكَّانِ الْعَالَمِ أَوْ يَزِيدُ. كَانَ مُصْعَبٌ مُنْعَماً قَاسَى مَرَّاتِ الْفَقْرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِيَعِيشَ حَيَاةَ النَّعِيمِ الْحَقِيقِيِّ؛ نَعِيمِ الرُّوحِ الَّتِي تَغْدُو بِهِ كُلُّ عَذَابَاتِ الْأَرْضِ بَرْداً وَسَلَاماً كَمَا صَارَتِ النَّارُ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

وَمِنْ دُونِهِ تَغْدُو كُلُّ نِعَمِ الْأَرْضِ وَمَلَاذَاتِهَا سَقَماً وَعَذَاباً: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

أَمَّا بِلَالٌ فَكَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً فَقِيراً يَخْدُمُ سَادَاتِ مَكَّةَ.

هَلِ الْخُرُوجُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْفَقْرِ غَايَاتٌ تُفَجِّرُ طَاقَاتِ الْإِنْسَانِ؟

الْحُرِّيَّةُ غَايَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ كُبْرَى، فَالْإِسْلَامُ بُعِثَ لِيُحَرِّرَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعَبِيدِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعَبِيدِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَمُّ الْإِنْسَانِ الْأَكْبَرُ خِدْمَةَ وَابْتِغَاءَ الْأَجْرِ مِنَ اللَّهِ، أَمَّا الْمَعَايِشُ فَأَمرهَا يَسِيرٌ عَلَى مَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِهَذِهِ الْغَايَةِ. بَلْ جَعَلَ اللَّهُ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُكَافِئُ وَيَبَرُّ بِهِ الِابْنُ وَالِدَيْهِ -وَهَذَا لَشَيْءٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، إِذْ قَرَنَهُ اللَّهُ بِتَوْحِيدِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]- فَجَعَلَ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَجْزِي عَنْ هَذَا الْحَقِّ هُوَ تَحْرِيرُهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ.

> فَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِداً، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.وَلَا يُمْكِنُ لِعَبْدٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَرِّرَ نَفْسَهُ أَنْ يُحَرِّرَ الْعَالَمَ، لِذَلِكَ سَعَى مُحَمَّدٌ ﷺ لِتَحْرِيرِ الْعَبِيدِ، فَحَرَّرَ بِلَالاً، اشْتَرَاهُ أَبُو بَكْرٍ وَأَعْتَقَهُ، وَقَالَ فِيهِ لِأُمَيَّةَ: لَوْ طَلَبْتَ فِيهِ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ لَأَعْطَيْتُكَ.

وَحَثَّ الرَّسُولُ أَتْبَاعَهُ عَلَى مُسَاعَدَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ لِيُكَاتِبَ سَيِّدَهُ الْيَهُودِيَّ. وَالْقُرْآنُ وَالْكَفَّارَاتُ كُلُّهَا حَثَّتْ عَلَى تَحْرِيرِ الرَّقَبَةِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَهِيَ أَعْظَمُ الْكَفَّارَاتِ وَالْقُرُبَاتِ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: 11-13].

لَكِنَّ الْإِسْلَامَ غَايَتُهُ الْقُصْوَى بَعْدَ الْحُرِّيَّةِ هِيَ الْحُرُّ الْفَاعِلُ الْحَامِلُ لِرَايَةِ تَحْرِيرِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، الْحُرُّ السَّعِيُّ لِلدِّفَاعِ عَنْ تَكْرِيمِ الْإِنْسَانِ، مَنْ أَمَرَ اللَّهُ مَلَائِكَتَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ دَلَالَةً عَلَى عَظَمَةِ مَكَانَتِهِ. فَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ الْبَشَرَ عَبِيداً لِبَشَرٍ بَلْ خَلَقَهُمْ أَحْرَاراً لَكِنَّهُمُ اتَّبَعُوا غَايَةَ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعْبَدُوا غَيْرَهُمْ، وَحَطُّوا مِنْ كَرَامَةِ وَمَكَانَةِ الْإِنْسَانِ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ لَهُ.

التَّحَرُّرُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْعُبُودِيَّةِ غَايَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ، لَكِنَّ الْإِسْلَامَ جَعَلَ هَمَّ الْعَبْدِ أَنْ يُحَرِّرَ نَفْسَهُ لِيُسَاهِمَ فِي تَحْرِيرِ الْعَالَمِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ. أَمَّا الْفَقْرُ فَلَا يَحُدُّ مِنَ الْفَعَّالِيَّةِ، وَإِنَّمَا الرُّكُونُ إِلَيْهِ وَالْمَسْكَنَةُ وَالذُّلُّ هِيَ مَا تَحُدُّ مِنْ فَعَّالِيَّةِ الْإِنْسَانِ. فَأَصْحَابُ الصُّفَّةِ كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَجِدُ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ أَوْ يَسْتُرُ جِسْمَهُ، لَكِنْ إِذَا كَانَتِ الْحَقَائِقُ وَالْمَوَاقِعُ الْكُبْرَى كَانُوا هُمُ الرِّجَالُ. فَالْإِسْلَامُ يَسْعَى لِلْغَايَةِ الْقُصْوَى الَّتِي تَسْمُو بِالْإِنْسَانِ وَتُفَجِّرُ طَاقَاتِ النَّفْسِ وَإِمْكَانَاتِهَا.

تِلْكَ الْغَايَاتُ الَّتِي وَجَدَهَا بِلَالٌ وَلَمْ يَجِدْهَا وَحْشِيٌّ حِينَ كَانَ عَبْداً، وَعَدَتْهُ سَيِّدَتُهُ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بِالْحُرِّيَّةِ وَالْمَالِ إِنْ هُوَ قَتَلَ حَمْزَةَ عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ شِفَاءً لِغَلِيلِهَا وَمَا فِي صَدْرِهَا لِمَا فَعَلَهُ بِأَهْلِهَا فِي مَوْقِعَةِ بَدْرٍ. فَكُلُّ مَا أَتَى بِهِ هُوَ أَنْ صَارَ غَادِراً قَاتِلاً مَأْجُوراً. تَحَرَّرَ بِسَبَبِ فَعْلَتِهِ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدِ السَّعَادَةَ وَالْهَنَاءَ وَالْعِزَّةَ، فَأَسْلَمَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَأَسْلَمَتْ مَعَهُ مَنْ لَمْ يَشْقَ غَلِيلُهَا قَتْلُ حَمْزَةَ.

آمَنَ بِلَالٌ وَصَارَ عَبْداً مُوَحِّداً لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، غَايَتُهُ إِخْرَاجُ الْإِنْسَانِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، فَجَّرَتْ طَاقَتَهُ وَإِمْكَانِيَّتَهُ، جَلَبَتِ الْأَهْوَالَ وَالتَّحَدِّيَاتِ وَالِابْتِلَاءَاتِ. عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يُدْفَعَ عَنْهُ الْعَذَابُ وَيَنْعَمَ بِالنَّعِيمِ الدُّنْيَوِيِّ الْمَادِّيِّ مُقَابِلَ أَنْ يَعُودَ لِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، أَبَى

بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ حَلَاوَةَ وَطَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، وَتَنَعَّمَ بِنَعِيمِ الرُّوحِ الَّذِي لَا يَشْقَى صَاحِبُهُ بِالْعَذَابِ الْبَدَنِيِّ. عَذَّبَهُ سَيِّدُهُ، شَوَتِ السِّيَاطُ وَحَرَارَةُ بَطَاحِ مَكَّةَ ظَهْرَهُ وَجِلْدَهُ، فَرَدَّدَ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

مَزَجَ مَرَارَةَ الْعَذَابِ بِحَلَاوَةِ الْإِيمَانِ فَفَاقَتْهُ حَلَاوَتُهُ. صَارَ بِلَالٌ سَيِّداً مُؤَذِّنَ الْإِسْلَامِ، أَسَداً مَغَاوِراً، سَيِّداً عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ. مَا ذُكِرَ الْأَذَانُ إِلَّا وَذُكِرَ مُؤَذِّنُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ. صَارَ مَعَ ثُلَّةٍ مُؤْمِنَةٍ فِي الْمَدِينَةِ يَنْعَمُونَ بِطِيبِ الْعَيْشِ فِي مَنْهَجِ اللَّهِ وَمَعَ رَسُولِهِ، غَايَتُهُمْ إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنَ الشِّرْكِ إِلَى رِحَابِ التَّوْحِيدِ.

بَعْدَ أَنْ كَانَ أَقْسَى مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَهَامَّ قَبْلَ الْإِسْلَامِ جَلْبَ الْحَطَبِ وَحَلْبَ الشِّيَاهِ أَوِ التَّخْدِيمَ عَلَى السَّادَةِ، صَارَ جُنْدِيّاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَبِيلِ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ؛ يُوَاجِهُ فَارِسَ وَالرُّومَ أَعْتَى إِمْبِرَاطُورِيَّاتِ زَمَانِهِ. قَبْلَ الْإِسْلَامِ لَا أَظُنُّهُ يَحْلُمُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِهِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ، أَوْ حَتَّى لِنَبِيلٍ مِنْ نُبَلَائِهِمْ.

عَاشَ بِلَالٌ حَيَاةً عَظِيمَةً وَفْقَ مَنْهَجِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِهِ. بَكَتْ زَوْجَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ قَالَتْ زَوْجَهُ: "وَا حُزْنَاهُ!"، أَجَابَهَا بِلَالٌ: "وَا طَرَبَاهُ! غَداً نَلْقَى الْأَحِبَّةَ.. مُحَمَّداً وَحِزْبَهُ". فَاضَتْ رُوحُهُ لِنَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ بَعْدَ أَنْ عَاشَ نَعِيماً فِي الدُّنْيَا. مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، حَيَاةٌ مِلْؤُهَا الْفَعَّالِيَّةُ وَ الْإِيجَابِيَّةُ، حَيَاةُ كُلُّ النَّاسِ فِيهَا سَوَاسِيَةٌ لَا فَضْلَ لِأَسْوَدَ أَوْ أَبْيَضَ، وَلَا غِنِيَّ عَلَى فَقِيرٍ إِلَّا بِالْأَخْلَاقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَخَيْرُ الْعَمَلِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى قَلْبِ مُسْلِمٍ، تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، تُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ، تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ.

*

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

فَصْلٌ (أَكْرَمَكُمْ) (خِيَارُكُمْ)

مَنِ الْأَفْضَلُ بَيْنَ النَّاسِ؟ وَهَلْ يَحْتَقِرُ الْمُجْتَمَعُ نَفْسَهُ؟

إِنْ كُنْتَ تُمَيِّزُ وَتُفَضِّلُ مَنْ لَهُ أَمْوَالٌ كَثِيرَةٌ فَلَا شُعُورِيّاً تُعْطِيهِ الْحَقَّ لِيَحْتَقِرَكَ. لِمَاذَا؟ مَا هُوَ مِعْيَارُكَ؟ الْأَمْوَالُ الْكَثِيرَةُ. هَلْ أَنْتَ تَمْلِكُهَا؟ إِنْ كَانَ لَا، فَبِمِعْيَارِكَ أَنْتَ حَقِيرٌ، وَقَدْ تَكُونُ حَقِيراً جِدّاً إِنْ كُنْتَ تَمْلِكُ مِنْهُ الْقَلِيلَ جِدّاً!

وَهَكَذَا، فَمَنْ أَحْقَرَ إِلَى آخَرَ يُصَنَّفُ حَسَبَ مَا لَدَيْهِ مِنْ مَالٍ، فَهُمَا كَانَ مَالُكَ فَلَكَ فِي سِلْسِلَةِ الْحَقَارَةِ مَكَانٌ. وَلِأَنَّ الْأَغْنِيَاءَ نِسْبَةٌ قَلِيلَةٌ جِدّاً فِي الْمُجْتَمَعِ، فَأَيُّ مُجْتَمَعٍ يَتَّخِذُ الْمَالَ كَمِعْيَارٍ يَحْتَقِرُ نَفْسَهُ. لَيْسَ هَذَا تَقْلِيلاً مِنْ أَهَمِّيَّةِ الْمَالِ كَوَسِيلَةٍ، لَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِعْيَارُ الْخَيْرِيَّةِ، بَلْ قَدْ يُصْبِحُ الشَّخْصُ بِالْمَالِ قَادِراً عَلَى إِلْحَاقِ ضَرَرٍ كَبِيرٍ بِالنَّاسِ. وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ الْمَنْصِبَ كَمِعْيَارٍ، فَمَا دُونَ الرَّئِيسِ حَقِيرُونَ، وَإِنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِخَدَمٍ لِلرَّئِيسِ فَأَقْصَى مَا يَتَمَنَّوْهُ.

فَمَا الْمِعْيَارُ الَّذِي يَتَّخِذُهُ الْمُجْتَمَعُ يَبْنِي بِهِ الْأَفْضَلِيَّةَ وَلَا يَحْتَقِرُ بِهِ نَفْسَهُ!

نَحْنُ جَمِيعاً بَشَرٌ، فَمَنْ نَفَعَ الْبَشَرَ كَانَ خَيْرَهُمْ بِمِقْدَارِ نَفْعِهِ، وَهُوَ الْأَجْدَرُ بِالتَّقْدِيرِ وَالِاحْتِرَامِ. فَمَنْ نَاحِيَةِ الْخَيْرِ يُخْرِجُ مِنْ نَفْسِهِ خَيْراً، وَلِعِظَمِ تَقْدِيرِ أَشْخَاصِ الْمُجْتَمَعِ لِأَنْفُسِهِمْ فَمَنْ أَسْدَاهُمْ خَيْراً هُوَ مِنْ خِيَارِهِمْ، لَا كَمِعْيَارِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ يَحْتَرِمُونَ وَيُبَجِّلُونَ مَنْ يُذِلُّهُمْ وَيُهِينُهُمْ

كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: لَا تَشْتَرِي الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَكَ *** إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَلَاعِينُ

وَهُوَ الْمِعْيَارُ الْحَقُّ الَّذِي اخْتَارَهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فَقَالَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» [الأَلْبَانِيُّ]. وَمَا يَخُصُّ عَلَى ذَلِكَ سِوَى الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَهِيَ الْخَيْرِيَّةُ الَّتِي بُعِثَ بِهَا نَبِيُّنَا ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» [الأَلْبَانِيُّ]. لِيَسُودَ مِعْيَارُ التَّفَاضُلِ الْحَقِّ: «خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً» [البخاري].

وَالْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَمَدَارُهَا عَلَى أَنَّ الْخَيِّرَ مَنْ نَفَعَ الْإِنْسَانَ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ زَوْجَةً: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» [الأَلْبَانِيُّ]، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» [الأَلْبَانِيُّ] ، أَوْ مُتَعَامِلاً تِجَارِيّاً: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحاً إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى» [البخاري] ، أَوْ رَاعِياً لِلرَّعِيَّةِ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ» [مسلم].

وَفِي الْأُلْفَةِ وَالْعِشْرَةِ وَلِينِ الْجَانِبِ: «خِيَارُ أُمَّتِي أَلْفَاؤُهُمْ، الَّذِينَ يَتَأَلَّفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، الْبُسَطَاءُ، الَّذِينَ إِذَا لُقُوا النَّاسَ تَبَسَّمُوا» [الأَلْبَانِيُّ]. وَالْمَدَارُ وَالْمِعْيَارُ دَوْماً: «خِيَارُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ» [الأَلْبَانِيُّ]. وَهِيَ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لِذَا قَالَ خَيْرُ مَنْ عَرَفَهُ الْبَشَرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا» [متفق عليه].

وَطَبْعاً مَنْ لَمْ يَدَعْ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْخَيْرِ نَصِيبٌ، لِذَا كَانَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وَلَيْسَ مِنَ الْمُتَّقِينَ مَنْ لَمْ يَدَعْ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، بَلْ لَيْسَ بِكَامِلِ الْإِيمَانِ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ((شُرُورَهُ)). فَ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ

مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ [البخاري]. وَأَقْسَمَ الرَّسُولُ ﷺ ثَلَاثاً: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ». قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» [البخاري].

فَصْلٌ: (خَيْرَ أُمَّةٍ)

◆

وَدَعَاهُمْ لِلتَّعَاوُنِ فِي الْخَيْرِ وَنَهَى عَنْ ضِدِّهِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

وَأَشْمَلُ تَعْرِيفٍ لِلْأَخْيَارِ الَّذِينَ هُمُ الْمُتَّقُونَ -وَجْهَانِ لِعُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ- ذَكَرَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّزَوُّدِ بِالْمِعْيَارِ، فَكُلٌّ حَسَبَ مَا يُرِيدُ لِنَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197]. وَالْأُمَّةُ الدَّاعِيَةُ لِلْخَيْرِ وَالنَّاهِيَةُ لِلشَّرِّ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ فِيهَا نَزَلَ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110]. وَ الْعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ بِمَا وَرِثُوهُ مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَسَخَّرُوهُ لِخَيْرِ الْبَشَرِ

هُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ. وَمِمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ وَمَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا نَهِيَ، فَهُوَ أَسَاسُ الْخَيْرِيَّةِ وَعِمَادُهَا، لِذَا كَانَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [البخاري].

فَصْلٌ: (سَفِهَ نَفْسَهُ)(شِرَارُكُمْ)

وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ، فَ «شِرَارُكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ» [الأَلْبَانِيُّ]، وَ «شِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ» [مسلم]. «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ» [الأَلْبَانِيُّ]. وَالْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَنَتَ هُمُ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ لِلْأَبْرِيَاءِ عَنِ الْمَشَقَّةِ وَالزَّلَّاتِ.

وَمَنْ بَالَغَ فِي أَذَاهُ لِلنَّاسِ صَدَقَ فِيهِ قَوْلُ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ ﷺ: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ» [متفق عليه].

فَصْلٌ:(مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ)

فَلَا بُدَّ مِنِ اتِّخَاذِ الْمِعْيَارِ الصَّحِيحِ لِلْحُصُولِ عَلَى الْأَفْضَلِيَّةِ، أَمَّا سِوَاهُ فَخِدَاعٌ لِلنَّفْسِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57].

أَظُنُّ أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ كَوْنِكَ مُبْدِعًا حَقِيقِيًّا فَائِقَ الْإِبْدَاعِ، أَنْ تُقَيِّمَ نَفْسَكَ التَّقْيِيمَ الصَّحِيحَ شُعُورِيًّا وَلَا شُعُورِيًّا، فَالْأَشْيَاءُ الْقَيِّمَةُ فِي ظَنِّي لَا تَخْرُجُ إِلَّا مِنْ نَفْسٍ قَيِّمَةٍ. أَمَّا التَّظَاهُرُ بِالْأَفْضَلِيَّةِ كَمَا يَدَّعِيهِ الْبَعْضُ، فَلَيْسَ بِإِبْدَاعٍ، وَإِنَّمَا هُوَ ادِّعَاءٌ لِلْإِبْدَاعِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا شَاسِعٌ.

وَلِذَا، تَجِدُ الْمِيزَةَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُبْدِعِينَ هِيَ مُخَالَفَتُهُمْ لِلْخَطِّ الْعَامِّ لِلْمُجْتَمَعِ سُلُوكًا وَمِعْيَارًا. وَلَنْ تَجِدَ الرَّاحَةَ وَالسَّلَامَ الدَّاخِلِيَّ إِلَّا بِرَدِّ الْمُتَنَاقِضَاتِ عَنْ نَفْسِكَ، فَلَا تَعِشْ بَيْنَ أَفْضَلِيَّةٍ تَدَّعِيهَا وَسُلُوكٍ وَمَعَايِيرَ تُنَاقِضُهَا، بَلْ هِيَ تَحْقِيرٌ وَتَسْفِيهٌ وَظُلْمٌ لِلذَّاتِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ مَعَانِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنَّهُ لَا مِعْيَارَ وَحُكْمَ صَوَابٍ سِوَى مَا ارْتَضَاهُ رَبُّ الْبَشَرِيَّةِ وَخَالِقُهَا، فَمَا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ سِوَى مَا قَالَ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130].

الباب الثالث

﴿ أَحْسَنُ الْقَصَصِ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّةً

◆

فَالعَيْشُ وَفْقَ مَنْهَجِ اللهِ وَغايَتِهِ -مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ- سَبِيلٌ قَوِيمٌ اصْطَفَى اللهُ لَهُ أَصْحابَ مُحَمَّدٍ، وَقَبْلَهُمْ أَنْبِياءَهُ وَرُسُلَهُ؛ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ سَبِيلَهُ وَكَيْفِيَّةَ العَيْشِ بِهِ .يوسفُ عليهِ السلامُ، بيعَ كعبدٍ لعزيزِ مصرَ فشهدَ حريةَ العيشِ وفقَ مَنْهَجِ اللهِ ونعيمَهُ وهوَ في أغلالِ العبوديةِ والسجنِ، فالعبوديةُ الحقيقيةُ هيَ عبوديةُ الهوى والشيطانِ. قِصَّتُهُ سماها اللهُ: أَحْسَنُ الْقَصَصِ.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: 3]

لولا حسدُ إخوتِهِ لما تُرِكَ يوسفُ في البئرِ، ولا البئرُ لما بيعَ كعبدٍ عندَ عزيزِ مصرَ، ولولا كيدُ النسوةِ ليوسفَ لما أُودِعَ في السجنِ، ولولا السجنُ لما التقى يوسفُ بنادلِ الملكِ ليكونَ سبباً في أنْ يصبحَ يوسفُ عزيزَ مصرَ وخازنَ أموالِها.

نعمْ! إنها التحدياتُ والتعاطي الإيجابيُّ معَها بالصبرِ والتزامِ جانبِ الحقِّ وحملِ النفسِ على فعلِ الخيرِ:

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 90]

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: 52]

هلْ لديكَ تحدياتٌ في حياتِكَ تفجرُ طاقتَكَ؟! كيفَ تجدُها؟!

بدأتْ قصةُ يوسفَ برؤيا رآها يوسفُ:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: 4]

وانتهتْ محنتُهُ وتحققتْ رؤيتُهُ برؤيا رآها الملكُ:

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ [يوسف: 43]

رؤيا يوسفَ فيها خيرٌ لهُ وللبشريةِ، ففي رؤياهُ أنهُ سيصبحُ مُخْرِجاً منْ ظلماتِ الجهلِ والشركِ إلى أنوارِ العلمِ والتوحيدِ. ورؤيا الملكِ تدلُّ على ملكٍ مهمومٍ يراعي مصالحَهُم ويسهرُ لدفعِ الآفاتِ عنْهُم، فألهمَهُ اللهُ رؤيا تستبقُ الشرَّ لهُم ليقيَهُمُ الويلاتِ، وهوَ مسددٌ بالحكمةِ لمْ يمنعْهُ عظمُ منصبِهِ منْ إشهارِ جهلِهِ طلباً للعلمِ فقالَ:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف: 43]

البدايةُ رؤيةُ هدفٍ كبيرٍ فيهِ خيرٌ لبشرٍ عميمٍ، غايةٌ رَحْمانيةٌ لإخراجِ الناسِ بالتوحيدِ وتعاليمِهِ منْ شقاءِ الشركِ وظلماتِهِ، وبالخيرِ والعطاءِ منْ ضنكِ العيشِ وشدتِهِ إلى رحابِ رزقِ اللهِ وسعتِهِ. حصلَ ليوسفَ والملكِ الخيرُ لهُم ولغيرِهِم، وخلّدَ القرآنُ يوسفَ بسورةٍ وخلّدَ معَهُ ذكرَ ملكِ مصرَ.

هلْ لديكَ رؤيةُ هدفٍ كبيرٍ بخيرٍ عميمٍ لكَ ولغيرِكَ؟! إنْ لمْ يكنْ لكَ واحدٌ فابحثْ عنهُ فهو ما يجلبُ لكَ التحدياتِ لتجاوزِها.

لمْ ينسَهُ الرخاءُ في كنفِ العزيزِ دورَهُ في هدايةِ البشريةِ وحملِ الخيرِ لهُم ودفعِ الشرِّ عنْهُم:

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: 23]

ولا الشدةُ والعسرُ لمْ تنسَهُ أيضاً:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 39-40]

فهلْ لكَ عملُ خيرٍ ودورٌ إيجابيٌّ تداومُ دائماً على فعلِهِ وإنْ قلَّ؟! جدْ لكَ واحداً.

فتعاطى يوسفَ الصبرَ في السجنِ, وإيصالَه الخيرِ لصاحبيهِ كانَ هوَ ما جعلَهُ اللهُ سبباً في إخراجِهِ وتحققِ رؤياهُ، فالشكوى والسلبيةُ لا تُجدي بل تجلبُ مزيداً منَ الويلاتِ. وكانَ ذلكَ أيضاً بسببِ رؤيا خيرٍ:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 36]

وقالَ سبحانَهُ عنْ يوسفَ:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَكَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 22-56]

فصل: وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ

◆

وصدقَ جلَّ منْ قائلٍ:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: 111]

وليسَ للعالَمينَ أيُّ تذكرةٍ وعظةٍ لأصحابِ العقولِ ليعلمُوا مَنْهَجَ اللهِ وسُنَنَهُ في النفوسِ والمجتمعاتِ، وأيضاً لتغيّرَ بها النفوسَ والمجتمعاتِ. ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أيْ ليسَ تلفيقاً أوْ كذباً -تعالى اللهُ عما يقولونَ علواً كبيراً-. ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فما دعا اللهُ إليهِ في القرآنِ شيءٌ واحدٌ يصدقُ بعضُهُ بعضاً.

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ

يُقالُ كلما عظمتِ الرؤيةُ ضاقتِ العبارةُ، ومنْ أعظمُ منَ اللهِ رؤيةً وعلماً وقدْ وسعَ علمُهُ كلَّ شيءٍ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِعِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾، يعلمُ ما كانَ وما لمْ يكنْ لوْ كانَ كيفَ يكونُ. ولا يهولنَّكَ صغرُ الآيةِ وقصرُها فهيَ كالذراتِ في حالةِ انشطارِها تحوي أطناناً من طاقةِ العلمِ والتغييرِ الذي تستطيعُ أنْ تُمثّلَهُ فئةٌ مؤمنةٌ أنْ تغيّرَ دولاً ومجتمعاتٍ بلِ العالَمَ أجمعَ، لكنْ لا بدَّ لهذهِ الفئةِ أنْ تهتديَ بها في سيرِها وتلزمَ ركابَها.

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ منارةٌ ينعمونَ بها على هذهِ الحياةِ الدنيا التي طُبِعَتْ على كَدَرٍ ولا تطيبُ إلا بما بيَّنَهُ اللهُ لعبادِهِ المؤمنينَ في كتابِهِ العزيزِ ، فكما قالَ لأبينا آدمَ: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾. ففي السجنِ وجدَ يوسفُ الأمنَ وكانَ سجنُهُ سبباً في أنْ يكونَ عزيزَ مصرَ. منْ آمنَ بتوحيدِ اللهِ ولمْ يشركْ بهِ دخلَ في قولِهِ سبحانَهُ:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82]

« إِذَا تَوَكَّلَ عَلَيَّ عَبْدِي، لَوْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، جَعَلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ الْمَخْرَجَ » [الألباني].

والظلمُ هنا ليسَ بمعنى الذنوبِ، فكلُّ ابنِ آدمَ خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التوابونَ. ظنَّ ذلكَ الصحابةُ أيضاً:

« عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، بِشِرْكٍ. أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » [متفق عليه].

الظلمُ هنا نقيضُ التوحيدِ.

إنهُ دينُ التوحيدِ الحنيفيةُ السمحةُ التي بُعِثَ بها محمدٌ وهيَ مِلَّةُ أبيهِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: 130]

فصل: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

[النحل: 120-122]

أُمَّةٌ جامعةٌ لخصالِ الخيرِ، شاكرٌ لأنعمِهِ، أدى ذلكَ لأنْ يتمَّ اجتباءُ إبراهيمَ وهدايتُهُ للصراطِ المستقيمِ. أولُ هذهِ الخصالِ وأعظمُها ذكرَها في تمامِ الآيةِ ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، فإبراهيمُ قبلَ سنِّ التكليفِ لمْ يسجدْ أوْ يعبدْ غيرَ اللهِ، لذلكَ قالَ اللهُ عنْ إبراهيمَ: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 84]، سليمٌ منَ الشركِ.

من أعظمِ غايةٍ للشيطانِ أنْ يشركَ الإنسانُ بربِّ البريةِ الذي كرمَهُ وأسجدَ لهُ ملائكتَهُ، فإبراهيمُ ظلَّ على فِطرةِ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها، التوحيدِ، منذُ صغرِهِ إلى أنْ بعثَهُ اللهُ نبياً، رغمَ أنهُ نشأَ في بيتِ كاهنٍ وصانعٍ للأصنامِ -أباهُ آزرَ-. فقومُهُ هُم أهلُ بابلَ -كما يرجَّحُ عندي- برعُوا في الفلكِ والرياضياتِ، وإبراهيمُ كانَ نابغةً آتاهُ اللهُ نوراً في قلبِهِ على نورِ عقلِهِ الوقادِ.

فَكَمَا وَصَفَهُ اللهُ تَعَالَىٰ قَائِلًا: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 51]، فالرشدُ تمامُ العقلِ والفهمِ. فلعلهُ حارَ في ملكوتِ السماواتِ عالماً بقلبِهِ وعقلِهِ ضلالَ آلهةِ قومِهِ، فأنارَ بصيرتَهُ حسيّاً أوْ معنويّاً ليصلَ إلى علمِ اليقينِ بما آمنَ بهِ.

فَمَنَّ اللهُ عليه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75].

قومُهُ أهلُ بابلَ -غالباً- برعُوا في الفلكِ وفتحَ اللهُ فيضاً من علومِها، فكما قالَ العلماءُ المعاصرونَ:

"لقدْ كانتْ بابلُ هيَ المكانَ الذي بدأَ فيهِ البشرُ لأولِ مرةٍ يقرؤونَ 'كتابَ السماءِ'. لقدْ نظرُوا إلى النجومِ ولمْ يروْا مجردَ أضواءٍ، بلْ رأوْا قوانينَ خفيةً تحكمُ حياةَ البشرِ، وحاولُوا فكَّ شفرتِها بالأرقامِ." كارل ساغان (عالم فلك).

وقدْ وصفتْهُم فرانشيسكا روشبرغ (أبرز عالمة معاصرة في علمِ الفلكِ البابليِّ):

"بالنسبةِ للبابليينَ، لمْ تكنِ الطبيعةُ كياناً مستقلاً، بلْ كانتْ تجلياً للإرادةِ الإلهيةِ. لذا، لمْ يكنْ حسابُ مساراتِ الكواكبِ مجردَ علمٍ، بلْ كانَ محاولةً لقراءةِ 'عقلِ الآلهةِ' منْ خلالِ لغةِ الأرقامِ".

لكنهُ علمٌ فقدَ البصيرةَ حملَهُم ليصلُوا لتناقضاتٍ تنافي أبسطَ الأسسِ المنطقيةِ، ولعلَّ ذلكَ بتزيينِ الشيطانِ، وملوكٍ أرادُوا أنْ يُعبَدوا منْ دونِ اللهِ فاستعانُوا بكهنةٍ ليطمسُوا فِطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها. فانبرى إبراهيمُ يجادلُهُم بالحسنى وبمنطقٍ لا يكابرُ في الانقيادِ لهُ إلا ظالمٌ لنفسِهِ مكابرٌ، كما قالَ سبحانَهُ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: 56]

فهذا الكِبْرُ، وهوَ في حقيقتِهِ هوانٌ داخليٌّ، يدفعُ الإنسانَ لينكرَ حقيقةً قضاها اللهُ يومَ خلقَ السماواتِ والأرضَ، وهيَ تكريمُ بني الإنسانِ جميعاً، فقيرِهم وغنيِهم، جاهلِهم وعالمِهم، أسودِهم وأبيضِهم. أما التفاضلُ الذي قضى بهِ سبحانَهُ -وهوَ الحقُّ- فهو بأنَّ أفضلَ هؤلاءِ

المكرمينَ أنفعُهُم لبني الإنسانِ، وأنَّ هذهِ الأموالَ والأرزاقَ التي حابا اللهُ بها العبادَ هيَ نعمةٌ وفضلٌ، وأرادَ أنْ تُشكَرَ فيبارِكَ فيها.

وشكرُها أنْ تُستخدمَ في سبيلِهِ وغاياتِهِ الرَّحْمانيةِ هناءً لبني آدمَ ودفعاً لأقدارِ الضرِّ والحاجةِ، لا أنْ تُستخدمَ في سبيلِ الشيطانِ وغايتِهِ علوّاً وتكبراً على عبادِ اللهِ المكرمينَ وإفساداً في الأرضِ، لتصيرَ نقمةً على مكتنزِها وشرّاً عليهِ وعلى منْ حولَهُ.

فإبليسُ هوَ أولُ منْ خُصَّ بالعلمِ والإرادةِ ورأى بأمِّ عينِهِ عظمةَ اللهِ وملكوتَهُ وسعةَ علمِهِ وفضلِهِ. لكنهُ كفرَ بأنعمِ اللهِ وفضلِهِ وحكمتِهِ، وظنَّ بعلمِهِ القاصرِ ومنطقِهِ السقيمِ أنَّ لهُ حكماً وأمراً في ملكوتِ اللهِ وخلقِهِ. وسارَ على نهجِهِ جمعٌ منْ بني آدمَ حاباهُمُ اللهُ بالملكِ والمالِ كقارونَ:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: 78]

فإبراهيمُ بيّنَ لقومِهِ أنْ لا سلطانَ لهُم في أنْ يقررُوا باطلاً في ملكوتِ اللهِ وكونِهِ، فقومُ إبراهيمَ كانَ حالُهُم:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: 3]

فبيّنَ لهُم إبراهيمُ حقيقةً كونيةً جليةً لكلِّ منْ تجردَ منَ الأهواءِ ووساوسِ الشيطانِ وهيَ:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91]

فوجودُ إلهٍ متعددٍ يقتضي تضاربَ قوتِهم وتأثيرِهم وأوامرِهم. والمحصلةُ في النهايةِ أنْ يعلوَ أقواهُم وأقدرُهُم فيكونَ هوَ الإلهَ الحقَّ، أوْ أنْ يتنازعُوا ولا يستطيعَ أحدٌ أنْ يغلبَ الآخرَ فيكونَ لكلِّ واحدٍ منهُم منطقتُهُ ونفوذُهُ وتحكُّمُهُ -وهذا ملاحظٌ في عالَمِ ممالكِ البشرِ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 75-79]

فحاجَّهُم أولاً بمقياسِ "الكِبَرِ" وناقشَ قومَهُ بهذا المقياسِ؛ ففي بعضِ الليالي يبدو الزهرةُ -إلهُهُم- أكبرَ منَ القمرِ الذي يمرُّ بمراحلَ حتى اكتمالِه، فعلى هذا قالَ لهُم إبراهيمُ ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ بمنطقِهِم، فإبراهيمُ مؤمنٌ أنَّ خالقَ هذا الكوكبِ هوَ الإلهُ المستحقُّ للعبادةِ. وفي الصباحِ أتاهُم فقالَ لهُم: أينَ ذهبَ ربي؟ فقالُوا: أفَلَ -هذا الكوكبُ يختفي بالنهارِ- فأجابَهُم: ﴿ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾، كيفَ أعبدُ إلهاً يختفي بالنهارِ؟! إنهُ ليسَ بإلهٍ.

ثمَّ عندما اكتملَ القمرُ قالَ ساخراً -وأقوى المنطقِ ما يُضحِكُ بتبيينِ التناقضِ وهزالةِ الادعاءِ-: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾، لكنَّ إبراهيمَ يعلمُ حالَ القمرِ فأتاهُم صباحاً وكانَ القمرُ قدْ أَفَلَ كالكوكبِ، يغيبُ، فأيُّ إلهٍ هذا؟!. ونبَّهَهُم إبراهيمُ لحقيقةٍ هامةٍ، وهيَ وجوبُ طلبِ الهدايةِ منَ الإلهِ الحقِّ: ﴿ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾.

لمْ يتبقَّ إذنْ مما يعبدُهُ قومُهُ منَ الأجرامِ السماويةِ إلا واحدٌ، وهوَ الشمسُ، كانتْ موجودةً حينَ غابَ الكوكبُ وحينَ غابَ القمرُ، فقالَ إبراهيمُ: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ﴾، حسبَ منطقِكُم بأنَّ الحجمَ مهمٌّ فلعلَّ هذا هوَ الإلهُ الحقُّ. لكنْ أتاهُم ليلاً فسألَهُم: أينَ الشمسُ الإلهُ الأكبرُ؟ -ساخراً- فقالُوا: أَفَلَتْ، حينَها: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾؛ أعلمَهُم أنهُ كافرٌ بمنطقِهِمُ البائسِ والمتناقضِ وأعلمَهُم بعقيدتِهِ التي اختارَها لنفسِهِ: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾؛ عقيدةٌ حقةٌ ناصعةٌ حسبَ منطقِهِم إنْ تجردُوا منَ الأهواءِ.

فإبراهيمُ وظفَّ ما حاباهُ اللهُ بهِ منْ علمٍ وبصيرةٍ لإخراجِ العبادِ منْ ضيقِ عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ الباطلةِ إلى رحابةِ عبادةِ فاطرِ السماواتِ والأرضِ. وإبراهيمُ أبوهُ كاهنٌ منْ صانعي الأوثانِ، فلمْ يتبعْ سبيلَهُ الضالَّ وسعى لهدايتِهِ للحقِّ المبينِ فواجهَ أباهُ ودعاهُ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

[الأنعام: 74]

قالَ لهُ: ﴿ إِنِّي أَرَاكَ ﴾؛ إبراهيمُ نبيٌّ يوحى لهُ، قالَ: "إني أراكَ" أيْ لمْ يحكمْ عليهِ فيقولَ: أنتَ كافرٌ أنتَ ضالٌّ. "إني أراكَ" أيْ رؤيتي، قدْ تخطئُ رؤيتُكَ واجتهادُكَ لوْ لمْ أكنْ نبياً

معصوماً، وهذا أسلوبٌ رائعٌ: "فلنتحاورْ حولَ رؤيتي لكَ بدلاً منْ أنْ أتهمَكَ بأنكَ ضالٌّ كافرٌ وتتهمَني بذلكَ"، فيكونُ بدلاً منَ الحوارِ اتهاماتٌ لنْ تقودَنا إلى مكانٍ.

﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، رؤيتي مبنيةٌ على علمٍ ومنطقٍ:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: 42]

أإلهاً عاجزاً صَنَماً خيرٌ أم اللهُ الرزاقُ المحيي المميتُ الذي بيدهِ مقاليدُ كلِّ شيءٍ؟!

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: 43]

رؤيتي جاءتْ منْ علمٍ لمْ يأتِكَ ولمْ يبلغْكَ، لا أودُّ أنْ ألصقَ بكَ التهمَ والنقائصَ بلْ ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾، حملَ همَّ الدعوةِ والتوحيدِ وإخراجِ العبادِ منْ عبادةِ العبادةِ لعبادةِ ربِّ العبادِ.

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: 44]

فاتباعُ غايةِ الشيطانِ عبادةٌ لهُ، أُرسِلَ إبراهيمُ بالغاياتِ الرَّحْمانيةِ، طيبِ العيشِ وتكريمِ الإنسانِ في الدنيا والآخرةِ.

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: 45]

"يا أبتِ" أسلوبٌ لطيفٌ في الدعوةِ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. "إني أخافُ"- لَسْتَ أَنْتَ فِي جَهَنَّمَ - ﴿ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ

مِّنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ شفقةً ورحمةً، ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾؛ فمنِ اتبعَ غاياتِ الشيطانِ فقدْ كفرَ باللهِ الذي خلقَ الإنسانَ وكرّمَهُ واجتباهُ.

أجابَهُ أبوهُ بتهديدٍ ووعيدٍ:

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: 46]

كيفَ قابلهُ إبراهيمُ؟!

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: 47]

رأيتَ هذا الردَّ الغليظَ منْ أبِ إبراهيمَ؟! ما كانَ ردُّ إبراهيمَ؟! ردٌّ جميلٌ قالَ: "سلامٌ عليكُمْ"؛ فإبراهيمُ منْ عبادِ الرحمنِ الذينَ قيلَ فيهم: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: 63]. بلْ زادَ -وهوَ خيرُهُم بعدَ نبيِّنا محمدٍ-: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾؛ لا أبالي بردِّكَ وصدِّكَ ولا جزاكَ لي، إنَّ ربي يجزيني ويكرمني. ومنِ احتفى بهِ اللهُ فلا يضرُّهُ كيدُ العبيدِ أوِ احتقارُهُم، وأيضاً كلُّ إناءٍ بما فيهِ ينضحُ.

فصل: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

◆

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

[مريم: 48]

إيجابيةٌ وفاعليةٌ، "أعتزلُكُم" الاهتمامُ بالنفسِ وتغييرُها حينَ يستعصي تغييرُ المجتمعِ والتأثيرُ فيهِ ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾. وهذا الاعتزالُ منْ إبراهيمَ كانَ بعدَ أنْ قامَ للهِ مقاماتٍ مشهودةً في دعوةِ قومِهِ وأبيهِ للحقِّ، ختمَها بأنْ كسرَ أصنامَهُم.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: 51-57]

فإبراهيمُ بيّنَ لهُم أشدَّ البيانِ أنَّهم وآباءَهُم كانوا في ضلالٍ مبينٍ، فمَنْ لهُ عقلٌ يعي بهِ كيفَ يُعبَدُ صنمٌ لا ينفعُ ولا يضرُّ؟!. وكانَ إبراهيمُ لما حجَّ قومَهُ بالمنطقِ السليمِ وأثبتَ لهُم أنَّهُم على ضلالٍ في عبادةِ الكواكبِ والأصنامِ سقطَ في أيديهِم ولمْ يملكُوا إلا أنْ يحذرُوهُ غضبَ آلهتِهِم ولعنتَها، لكنَّ إبراهيمَ أجابَ كما حكى سبحانَهُ:

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 80-81]

أنتم أولى أنْ تخشَوْا عذابَ اللهِ، ولنْ يصيبَني إلا ما شاءَ اللهُ لي؛ أأخشاكُم وآلهتَكُم ولا تخافونَ أنْ عبدتُمْ منْ دونِ اللهِ بلا أمرٍ ولا سلطانٍ منهُ؟!. باللهِ عليكُم أيُّنا أحقُّ بالأمنِ: مُوَحِّدُ فاطرِ السماواتِ والأرضِ، أمْ منْ يشركُ بهِ في أرضِهِ وتحتَ سمائِهِ؟!. هنا صَدَّقَ اللهُ إبراهيمَ مقرراً حقيقةً كونيةً إلى يومِ البعثِ والدينِ:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: 82-83]

فعزمَ على كسرِ هذهِ الأصنامِ حسيّاً بعدَ أنْ بيّنَ لهُم هزالتَها معنويّاً عسى أنْ تُفتَحَ بصائرُهُم للحقِّ المبينِ. ويعلمُ إبراهيمُ أنَّ بهذا الفعلِ سيتعرضُ لبطشٍ وعذابٍ شديدٍ منهُم، فأبوهُ هددَهُ بالرجمِ إنْ رغبَ عنْ آلهتِهِ ودينِهِ. لكنَّ إبراهيمَ همُّهُ إخراجُهُم منَ الشركِ ودركاتِهِ وحيداً بلا سندٍ، وأبوهُ كانَ عدوَّهُ الألدَّ ومنْ يصدُّ الناسَ عنهُ. قررَ أنْ يُريَهُم عياناً سَفَهَ أحلامِهِم، بعدَ أنْ خرجُوا في عيدٍ لهُم نفذَّ وعدَهُ:

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء: 58-61]

أرادُوا أنْ يجعلوهُ عِبْرةً في النكالِ والعذابِ، فقدْ وجدَ قومُ إبراهيمَ آلهتَهُم حُطاماً إلا كبيراً لهُم، قررَ إبراهيمُ تركَهُ ليبيّنَ لهُم يقيناً حقيقةً دعاوهُم لها مراراً وتكراراً:

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91]

فأُتِيَ بهِ قومُهُ وسألوهُ لعلهِم بذِكرِهِ لآلهتِهِم بحقائقَ لمْ تعجبْهُم، وأنَّ صانعَها أبوهُ وهيَ لا تضرُّ ولا تنفعُ كما وصفَها اللهُ فأبلغَ فيها -وكلُّ كلامِهِ سبحانَهُ بليغٌ معجزٌ- القولَ:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: 3]

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: 62]

سألوهُ عنْ حقيقةٍ بيّنةٍ، فردَّهُم لحقٍّ أبْيَنَ لا تخطئُهُ العيونُ:

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 63]

كبيرُ آلهتِكُم يحملُ الفأسَ، يبدو أنهُ قررَ أنْ يكونَ الإلهَ الأوحدَ، فاسألُوا هذهِ الآلهةَ التي تعبدونَها وتعظمُونَها إنْ كانتْ تنطقُ!

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنبياء: 64]

هنا سُقِطَ في أيديهِم، فهُم يعلمونَ في قرارِ نفوسِهِم أنَّ منطقَهُم ظالمٌ غيرُ مستوٍ، لا يثبتُ ضدَّ جدالِ إبراهيمَ الذي أخبرَهُم مراراً وتكراراً أنَّ هذهِ آلهةُ طينٍ وحديدٍ وهيَ حتى لا تنطقُ ولا تتكلمُ. وما يقولُهُ الكهنةُ إنها أمرتْ بهِ إنما هوَ خداعٌ وباطلٌ ليأكلُوا أموالَكُم ويتسيدُوا عليكُم؛ فكأنَّ إبراهيمَ يقولُ لهُم: خلُّوا هؤلاءِ الكهنةَ تستنطقُها الآنَ أوِ استنطقُوها أنتمْ.

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 65]

لمْ يتركْ لهُم إبراهيمُ سبيلاً إلا أنْ يُقرُّوا بهذهِ الحقيقةِ الناصعةِ:

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: 66-67]

هنا بيّنَ لهُم إبراهيمُ سَفَهَ عقولِهِم حينَ اتخذُوا منْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُهُم شيئاً ولا يضرُّهُم، وأتبعَ ببيانِ حالِ منْ فعلَ ذلكَ، ألا وهوَ الدنوُّ والوضاعةُ وعدمُ العقلِ.

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 68]

أظنُّهُم كانوا يتباهونَ أنَّهُم أهلُ علمٍ ومنطقٍ، فلما حاجَّهُم وعلمُوا أنَّ دافعَهُمُ الهوى والكِبْرُ عنِ اتباعِ الحقِّ، قررُوا أنْ يقتلُوا هذا الذي ينغصُّ عليهِم أوهامَهُمُ الباطلةَ حرقاً. وقررُوا أنْ يجمعُوا حطباً لأيامٍ ليحرقوهُ تباهياً ونصرةً لباطلِهِم، وعِبْرةً لغيرِهِ إنْ خالفَ طريقَهُم.

فأوقدُوا ناراً عظيمةً واجتمعَ القومُ وقذفوهُ بالمنجنيقِ آملينَ أنْ يروهُ جازعاً متفحماً فيها. لكنَّ إبراهيمَ الذي واجهَ باطلَهُم بكلِّ جراءةٍ وتحدٍّ، صامداً محتسباً صابراً لكنَّ اللهَ قضى ولا رادَّ لحكمِهِ وقضائِهِ فنجاهُ فصارتِ النارُ بَرْداً وَسَلَاماً.

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: 69]

ليعلمَ قومُ إبراهيمَ أنَّ الإلهَ الحقَّ لا سبيلَ للبشرِ أنْ يضرُّوهُ كما فعلَ إبراهيمُ بآلهتِهِمُ العاجزةِ، بلْ لا سلطانَ لهُم على أوليائِهِ وأتباعِهِ، ولوِ اجتمعَ أهلُ الأرضِ والسماواتِ على ضرِّهِ ما ضرُّوهُ إلا بشيءٍ قدْ كتبَهُ اللهُ. فنجى اللهُ إبراهيمَ منَ النارِ:

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: 70]

فخسرَ قومُ إبراهيمَ وخاصةً كهنتَهُم وسدنةَ أصنامِهِم، فهُم أشدُّ حنقاً على إبراهيمَ لإرادتِهِ تحريرَ الناسِ منْ شقاءِ خدمتِهِم وضيقِ العبوديةِ لأصنامِهِ ما يأكلونَ بها أموالَ الناسِ بالباطلِ ويتسيدونَ على رقابِهِم ظلماً وتجبراً. لكنْ لمْ يؤمنُوا واستمروا على نهجِهِم وضلالِهِم، فلا وسيلةَ تُجدي معَ رؤيةِ البراهينِ، فقررَ إبراهيمُ وأعلمَ قومَهُ:

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

[مريم: 48]

قصرَ همَّهُ على السعيِ لعبادةِ اللهِ حقَّ العبادةِ. ابتلاهُ اللهُ بأوامرَ فوفّاها، لذلكَ مدحَهُ اللهُ قائلاً: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: 37] أيْ في كلِّ ما أُمِرَ بهِ. وفي آيةٍ أخرى:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124]

اجتباهُ بسببِ أدائِهِ ما أُمِرَ بهِ حقَّ الأداءِ فجعلَهُ للناسِ إماماً، وقرنَ اسمَهُ بمَنْهَجِهِ في الأرضِ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: 123]. ومنْ خصالِ إبراهيمَ أيضاً أنهُ ذو طموحٍ وهمةٍ عاليةٍ، فحملَ همَّ فلاحِ وصلاحِ ذريتِهِ منْ بعدِهِ، فطلبَ منَ اللهِ أنْ يجعلهُم رسلاً وأئمةً يدعونَ لغاياتِ الرحمنِ وسبيلِهِ، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ فما نبيٌّ أتى بعدَهُ إلا وهوَ منْ ذريةِ إبراهيمَ. واستثنى ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ وهُمُ المشركونَ كما قالَ لقمانُ لابنِهِ: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

وفي العزلةِ وهبَ اللهُ لهُ إسحاقَ ويعقوبَ:

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: 49-50]

وأعلى ذكرَهُم في الآخرينَ؛ فاليهودُ والنصارى والمسلمونَ يوقرونَهُم ويعظمونَهُم، ولليومِ يُعلَمُ ذكرُهُم مليارات أتتْ بعدَ إبراهيمَ بقرونٍ عديدةٍ.

اعتزالُ الشرِّ حينَ لا يمكنُ التغييرُ بعدَ بذلِ أقصى ما في الوسعِ سُنةٌ اتبعَها أيضاً أهلُ الكهفِ: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾. ألهمَهُمُ اللهُ أنَّ اعتزالَ الشركِ والمشركينَ حينَ يستحيلُ الإصلاحُ يفتحُ آفاقاً جديدةً منْ رحمةِ اللهِ.

فصل: أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: 9]

سؤالٌ استنكاريٌّ معناهُ أنَّ أهلَ الكهفِ والرقيمِ ليسُوا بأعجبِ وأعظمِ آياتِهِ على الإطلاقِ وكلُّ آياتِهِ عظيمٌ وعجيبٌ. هُم ثلةٌ مؤمنةٌ لوْ شاءَ اللهُ لعجّلَ بهلاكِ مَلِكِهِمُ المشركِ أوْ جعلَهُم كقصةِ الغلامِ؛ منْ لمْ يستطعِ الملكُ أنْ يقتلَهُ حتى نفذَّ القتلَ وفقَ مَنْهَجِ ربِّ الغلامِ. وضعَ سَهْماً وقالَ: "باسمِ ربِّ الغلامِ"، وهوَ منْ كانَ يكفرُ بهِ؛ فكانَ موتُ الغلامِ حياةَ قلوبٍ وعقولِ كثيرينَ ظنُّوا أنَّ الملكَ هوَ الإلهُ وهوَ القادرُ لامتلاكِهِ الأسبابَ الماديةَ التي لمْ تعملْ حتى يأذنَ اللهُ بذلكَ، والتعلقُ بربِّ الأسبابِ يفتحُ أيَّ بابٍ.

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

[الكهف: 10]

لكنْ أيضاً فعلُوا كما فعلَ إبراهيمُ:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: 13-16]

آمنُوا بربِّهِم مَن كَرَّمَ الإنسانَ وأسجدَ لهُ ملائكتَهُ. لمْ يُجعَلهم عبيداً لوثنٍ لا يضرُّ ولا ينفعُ أوْ مَلِكٍ يعبدونَهُ ويسخرُهُم لخدمتِهِ وخدمةِ مصالحِهِ.

﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: 15]

قومٌ أضلَّهُمُ الشيطانُ واستمالَهُم للشركِ كما فعلَ بقومِ نوحٍ، عبدُوا تماثيلَ رجالٍ صالحينَ زيّنَ الشيطانُ لآبائِهِم أنَّ هؤلاءِ قومٌ صالحونَ فاجعلُوا لهُم تماثيلَ تذكرُكُم بهِم وبعبادتِهِم فتنشطُوا لعبادةِ اللهِ، ثمَّ أضلَّ بَنِيهِم منْ بعدِهِم بأنَّ هؤلاءِ هُم منْ كانَ يعبدُ آباؤُهُم . . الشيطانُ يفي بوعدِهِ فلا عجبَ:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: 62-65]

لكنَّ العجبَ كلَّ العجبِ منَ الإنسانِ منْ ينسى عدوَّهُ منْ رفضَ تكريمَهُ منذُ بدأَ الخليقةَ:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: 50]

ذَكَّرَ أَصْحَابُ الكَهْفِ قَوْمَهُمْ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ، وَطَالَبُوا بِالبُرْهَانِ وَالبَيِّنَةِ عَلَى شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَّتَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الخَوْفِ، فَخَالَفُوا قَوْمَهُمْ وَمَلِكَهُمْ، وَجَاهَرُوا بِالتَّوْحِيدِ وَإِنْكَارِ الشِّرْكِ.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: 14-15]

فلما أَبَوْا كما أبى قومُ إبراهيمَ وأبوهُ، وهددوهُم:

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: 20]

كما فعلَ آزرُ وقومُهُ، فاعتزلوهُم:

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: 10]

سألُوا النجاةَ منْ ضنكِ الحياةِ الدنيا ومشقتِها، منْ قومٍ اتبعُوا غاياتِ الشيطانِ، وخشُوا أنْ يفتنوهُم بالعذابِ والنكالِ عنْ دينِهُ الحقِّ.

فصل: إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ

◆

فأذنَ اللهُ للبشريةِ بأنْ ترى إحدى معجزاتِهِ وتسخيرَهُ لآياتِهِ وسننِهِ الكونيةِ لرعايةِ أوليائِهِ. فبعدَ أنْ كانتِ النارُ لإبراهيمَ بَرْداً وَسَلَاماً، كانَ الكهفُ للفتيةِ أمناً وراحةً وَسَلَاماً. نامُوا كما ينامُ الطريدُ في فلاةٍ لا ماءَ ولا كلاءَ لكنهُ كنفُ اللهِ ورعايتُهُ لكلِّ منْ جانبَ الشركَ وأهلَهُ، فاللهُ قضى ولا رادَّ لما قضى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82]

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: 11] ثلاثمئةٍ وستون سَنةً نومةً واحدةً، أطولُ نومةٍ عرفتْها البشريةُ، تولى اللهُ فيها رعايةَ أجسادِهِم.

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: 17]

هداهُمُ اللهُ لكهفٍ يميلُ عنْه ضوءِ الشمسِ صباحاً فلا يؤذيهِم، وعندما تجنحُ الشمسُ للغروبِ ﴿ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أيْ يصيبُ بِها منهُم ما يكفيهُم ، ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ ففتحةُ الكهفِ صغيرةٌ كنافذةٍ تضمنُ تجددَ الهواءِ واعتدالَ الجوِّ. ويالَ بلاغةِ القرآنِ! فكأنَّ الطبيعةَ كلَّها تآمرتْ لخدمتِهِم ورعايتِهِم. كانَ لأصحابِ الكهفِ الفتيةِ في

ضيقٍ وهمٍّ منْ تكذيبِ القومِ وسعيِهم لفتنتِهم وأذائِهم، وليسَ للمهمومِ العاجزِ منْ تكاثرتْ عليهِ النوائبُ مثلُ النومِ راحةً وسكينةً.

فقَّ فيهِم فخرُ المتنبي حينَ قالَ:

أنامُ ملءَ جفوني عنْ شواردِها ... ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصمُ

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ آيةٌ أخرى لأولي الألبابِ والعقولِ وليعلمُوا أنما ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ فيطلبونَ الهدايةَ منهُ سبحانَهُ كما فعلَ أصحابُ الكهفِ. أما قومُهُ فقدْ حقتْ عليهِمُ الضلالةُ، ضلُّوا فلمْ يستطيعُوا أنْ يؤذوهُم أوْ يفتنوهُم عنْ دينِهِمُ الحقِّ، وضلَّ ذكرُهُم فما تداولتْ إلا أخبارُ الفتيةِ منْ آمنُوا بالغاياتِ الرَّحْمانيةِ، وضلَّ مُلكُهُم وملكتُهُم التي اندثرتْ سريعاً وزالَ طغيانُهُم ودينُهُمُ الباطلُ. وكذلكَ داخلٌ في ضلالِهِم عنْ مَنْهَجِ اللهِ والحياةِ الطيبةِ في الدنيا والنعيمِ السرمديِّ في الأخرى، وهذا حالُ كلِّ منِ اتبعَ نهجَهُم فكفرَ باللهِ وسعى للبطشِ والفتنةِ بعبادِهِ. وهوَ وجهٌ آخرُ:

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: 123-124]

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ فأرشدَهُمُ اللهُ للنجاةِ ومسالكِها ورعاهُم في كهفِهِم وخلّدَ التاريخُ سيرتَهُم وأمرَهُم.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: 13]

فتيةٌ شبابٌ، ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾، فالإيمانُ باللهِ منْ أقوى أسبابِ الهدايةِ، ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ فزادَهُمُ اللهُ هدىً. اختلفَ في عددِهِم وليسَ بهامٍّ كما ذكرَ سبحانَهُ جلَّ وعلا:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 22]

أتاكَ علماً يقيناً منَ اللهِ عنْهُم، وإنْ جادلتَ فجادلْ في الحقائقِ المهمةِ عنْهُم والتي يُستفادُ منها، أما عددُهُم فيعلمُهُ اللهُ وعددٌ قليلٌ ممنْ عاصرَ الفتيةَ أوْ شهدَ قيامَهُم منْ رقدتِهِم أوْ منْ أتى بعدَهُم.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: 23-24]

منْ أهمِّ عِبَرِ أصحابِ الكهفِ ألا تتحدثَ عنْ فعلٍ مستقبليٍّ إلا بعدَ قولِ: إنْ شاءَ اللهُ. وإنْ قالَ المفسرونَ -وهوَ صحيحٌ وهوَ أيضاً منْ أسبابِ نزولِ الآيةِ- أنَّ اليهودَ سألُوا الرسولَ عنْهُم تعجيزياً

فقالَ: أجيبُكُم غداً ولَمْ يقلْ: إنْ شاءَ اللهُ، فأخّرَ اللهُ الإجابةَ والوحيَ. لكنْ منْ عجائبِ هذا القرآنِ أنَّ قولَ "إنْ شاءَ اللهُ" عِبْرةٌ أساسيةٌ تُؤخَذُ منْ قصةِ أصحابِ الكهفِ، وذلكَ لأنَّ أصحابَ الكهفِ كما قالَ اللهُ عنْهُم: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾، نوَوْا وقرروُا أنْ يمكثُوا فيهِ على الأكثرِ يوماً أوْ بَعضَ يومٍ، فكما حكى اللهُ عنْهُم بعدَ إفاقتِهم: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، ولكنَّ مشيئةَ اللهِ أنَّ ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾.

فلنْ يقعَ ما تنويهِ الآنَ إلا أنْ يشاءَ اللهُ، وكذا ما تخافُهُ وتحذرُهُ. والأهمُّ: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾، إنْ نسيتَ أنْ تقولَها فاذكرْها معَ الدعاءِ: ﴿ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾. فكلُّ ما تفعلهُ هوَ خطوةٌ أولى أوْ ثانيةٌ لغايةٍ ترجوهَا لتحقيقِ سعادةٍ أوْ نجاحٍ، أوْ نجاةٍ منْ عدوٍّ أوْ خوفِ فتنةٍ، كما فعلَ أصحابُ الكهفِ فقررُوا أنَّ الخطوةَ الأولى هيَ أنْ يختبئُوا في الكهفِ ثمَّ بعدَها يواصلُوا الهروبَ، لكنَّ مشيئةَ اللهِ أنْ يكونَ طريقُ نجاتِهم فقطْ أنْ ينامُوا في الكهفِ ويتولى هوَ رعايتَهُم وحفظَهُم منْ غيرِ تعبٍ منهُم ولا جهدٍ ولا جزعٍ، وخلالَ نومِهم يهلكُ الملكُ وقومُهُ الطغاةُ. فلعلَّ اللهَ يهديكَ لأقربِ الطرقِ وأيسرِها وأقلِّها مؤونةً وتعباً لتحقيقِ غاياتِكَ وأهدافِكَ. غيّرَ اللهُ سننَهُ الكونيةَ لهُم فأمدَّ في أعمارِهم وحفظَ أجسادَهُم:

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف: 18]

خلّدَ كلبَ أصحابِ الكهفِ في القرآنِ والتاريخِ، وهذهِ منْ بركاتِ صحبةِ الصالحينَ الذاكرينَ اللهَ ، فكما قالَ الرسولُ: « هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » [متفق عليه].

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾، شعورُهُم طويلٌ لمْ تُقَصَّ، وكذا شواربُهُم ولحاهُم وأظافرهُم، وثيابُهُم رثةٌ منْ طولِ المكثِ. شاءَ اللهُ لآياتِهِ أنْ تظهرَ ويعلمَ الناسُ يقيناً قدرتَهُ، تحدثَ الناسُ فترةً عنِ الفتيةِ وعنِ اختفاءِهِم بعدَ أنْ عمَّ الإيمانُ مملكتَهُم.

فصل: لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا * وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: 19-21]

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾، خشيَ فتيةُ الكهفِ القتلَ والعذابَ الشديدَ وهوَ سمةٌ غالبةٌ لأتباعِ غاياتِ الشيطانِ، لكنَّ ما أفزعَهُم أكثرَ هوَ الفتنةُ عنْ مَنْهَجِ اللهِ: ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾. فعلمُوا حقيقةً يسعى الشيطانُ دوماً لطمسِها أنْ لا فلاحَ أبداً بغيرِ مَنْهَجِ اللهِ وهداهُ في هذهِ الدنيا، ومنْ خُتِمَ لهُ بغيرِ دينِ الإسلامِ فلا فلاحَ لهُ أبداً. ويقتضي أيضاً تفسيرُ الآيةِ الكريمةِ لوْ قستَ أيَّ حياةٍ في هذهِ الدنيا وما حابا اللهُ للإنسانِ عندَ ولادتِهِ وفقَ أيِّ مقياسٍ، ستجدُ أنَّ المؤمنَ باللهِ وغاياتِهِ فاقَ نظيرَهُ -منْ أُوتِيَ نفسَ الإمكانياتِ عندَ الولادةِ- فلاحاً وهناءً في هذهِ الحياةِ الدنيا، وهيَ الحياةُ الطيبةُ التي أعلا نعيمِها نعيمُ الروحِ الذي يصيرُ بهِ كلُّ عذاباتِ الدنيا بَرْداً وَسَلَاماً ومنْ

دونِهِ كلُّ لذةٍ كبدٌ وجهدٌ. بلْ حتى منِ ابتلاهُ اللهُ بالفقرِ والعبوديةِ واتبعَ مَنْهَجَ اللهِ بلغَ أسمى الغاياتِ في هذهِ الدنيا، وبلالٌ وسلمانُ الفارسيُّ شاهدانِ على ذلكَ. وساداتُ قريشٍ منْ حاباهُمُ اللهُ منْ فضلِهِ مالاً وجاهاً وبنينَ ضاقَ عيشُهُم وصارتْ عليهِم عذاباً ووبالاً حينَ كفرُوا بمَنْهَجِ اللهِ وحاربُوا عبادَ الرحمنِ.

لمْ يعلمْ إلى الآنَ أصحابُ الكهفِ كمْ لبثُوا، فبعثُوا أحدَهُم بنقودٍ للمدينةِ وأوصى بالحذرِ منَ المشركينَ. دُهِشَ الناسُ في السوقِ منَ الكهلِ أوِ الفتى الذي يحملُ نقوداً اندثرَ مُلكُها ووقتُها، خافَهُم، لكنْ بعدَ أنْ علمُوا القصةَ وأنَّهُمُ الفتيةُ الموحدونَ احتفَوْا بهِم، وكانَ آيةً منْ آياتِ اللهِ يُستدَلُّ بها يقيناً على قدرتِهِ على بعثِ الأمواتِ؛ فمنْ حفظَ الأجسادَ ثلاثمئةِ سَنةٍ قادرٌ على بعثِها.

ثمَّ أماتَ اللهُ أصحابَ الكهفِ بعدَ أنْ رآهُمُ الناسُ وعلمُوا قصتَهُم فاختلفَ الناسُ فيهِم؛ ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾، ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾؛ أضرحةٌ صارتْ منْ أماكنِ العبادةِ وهوَ مما نهى اللهُ عنهُ، وهوَ أولى مقدماتِ الشركِ وهوَ منْ وسائلِ إغواءِ الشيطانِ للإنسانِ أنْ يشركَ باللهِ تعالى.

وعنْ عائشةَ بنتِ الصديقِ رضيَ اللهُ عنها وعنْ أبيها قالتْ: « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » [متفق عليه] قالتْ: ولولا ذلكَ أُبْرِزَ قبرُهُ، غيرَ أنهُ خُشِيَ أنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً.

فتركَ الرسولُ حتى إبرازَ قبرِهِ خشيةَ أنْ يُتَّخَذَ ذريعةً للشركِ، وهوَ الرأيُ الذي غلبَ: ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾، فقطْ لتذكيرِ الناسِ بقصتِهِم وعظمةِ قدرةِ اللهِ. فهذا كقولِهِ سبحانَهُ وعيداً:

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: 51-52]

آيةٌ، علامةٌ تدلُّ عليهم. وفي قولِهِ لهُم ﴿ رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ لأنَّ التكليفَ في الإسلامِ فرديٌّ وكلٌّ مكلفٌ وكلٌّ يعبدُ اللهَ لا شأنَ لهُ بالآخرينَ إلا منْ حيثُ أمرُهُم ودعوتُهُم للخيرِ. وزادَ نبيُّنا على ذلكَ فهو منْ أُرسِلَ ليخرجَ البشريةَ جمعاءَ منْ ظلماتِ الشركِ. منْ حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » [الألباني].

منْ أشدِّ وسائلِ الشيطانِ التزيينُ لعبادِ اللهِ أنْ يتقرّبُوا بالصالحينَ للهِ ثمَّ يعبدوهُم منْ دونِ اللهِ كما فعلَ معَ قومِ نوحٍ، ومنْ سُنةِ سُنتِهِم منْ مشركي العربِ منِ اتخذُوا الأوثانَ:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: 3]

فالأنبياءُ بعثُهُمُ اللهُ بالحنيفيةِ السمحةِ بتكريمِ الإنسانِ ليعبدَ الخالقَ وحدَهُ لا بشراً أوْ حجراً فيزلَّ ويشقى ، وكما قالَ سبحانَهُ:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 79-80]

فكلُّ نبيٍّ أتاهُ اللهُ الكتابَ والحكمةَ يأمرُ ويُعلّمُ بالغاياتِ الرَّحْمانيةِ بتكريمِ الإنسانِ لينعمَ في الدارينِ. ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾؛ كيفَ ذلكَ وهوَ منْ خلقَكُم وكرمَكُم وأسجدَ لكُم ملائكتَهُ وهوَ القائلُ:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70]

﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ بلْ أولُ ما حادتِ البشريةُ عنْ مَنْهَجِ التكريمِ كانَ بسببِ المغالاةِ وتزيينِ الشيطانِ لهُم تعظيمَ الصالحينَ:

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 23]

فصل: مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا

◆

«قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا كَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَأْخُذُونَ بَعْدَهُمْ بِأَخْذِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ، فَجَاءَهُمُ إِبْلِيسُ وَقَالَ لَهُمْ: لَوْ صَوَّرْتُمْ صُوَرَهُمْ كَانَ أَنْشَطَ لَكُمْ وَأَشْوَقَ إِلَى الْعِبَادَةِ، فَفَعَلُوا، ثُمَّ نَشَأَ قَوْمٌ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ إِبْلِيسُ: إِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فَعَبَدُوهُمْ، فَابْتِدَاءُ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ كَانَ مِنْ ذَلِكَ» [تفسير البغوي].

تزيَّنَ الشيطانُ، فكما أخرجَ آدمَ وحواءَ، سعى دهوراً طويلةً ليظفرَ بجيلٍ اندثرتْ فيه بالكليةِ معالمُ منهجِ اللهِ التي أنزلها مع آدمَ وزوجِهِ، نسيَ بنو آدمَ وعدَ إبليسَ عدوِّهِمْ، فأغراهم الشيطانُ بأنَّ قومَهُمْ كانوا يعبدونَ هذه التماثيلَ، وبها يستسقونَ المطرَ ويدفعونَ الضُّرَّ عَنْهُمْ، فأرسلَ اللهُ لَهُمْ نوحاً ليبيِّنَ لَهُمُ المَصيدَةَ التي أوقعَهُمُ الشيطانُ بِها وغيّبَ عُقولَهُمْ وتفكيرَهُمْ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: 23-25].

دعاهم للحنيفيةِ للتوحيدِ: "اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ"، لكنَّهم رفضوا رسالتَهُ تكبُّراً، فقالوا: رجلٌ يريدُ أن يدَّعيَ أنه الأفضلُ منكم, بعثَ اللهُ عليكم، قالوا استهزاءً: "ولو شاءَ اللهُ لأنزلَ ملائكةً"، ثم اتهموهُ في عقلِهِ أن مجنونٌ، وكذا دَأْبُ الأنبياءِ مع قَوْمِهِمْ:

﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: 52-53].

الملأُ الطغاةُ دوماً يسعونَ لاستعبادِ الناسِ، فعندما يعبدُ الناسُ الشجرَ والحجرَ يسهلُ استغلالُهُمْ، فمَنْ ظنَّ أنَّ الحجرَ والشجرَ إلهٌ وهو خيرٌ منهُ، زلَّ عَنِ المكانةِ والتكريمِ التي أرادها اللهُ، التي أمرَ حتى إبليسَ عدوَّهُ بالسجودِ لأبيهِ آدمَ تكريماً، ومن ذلك الوقتِ وإبليسُ يسعى بكلِّ الوسائلِ لتسفيهِ الإنسانِ وإضلالِهِ عَنِ المكانةِ التي أرادها اللهُ لَهُ، فلا يستعبدُهُ لا شيطانٌ أو ملكٌ أو بشرٌ ولا نبيٌّ:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 79-80].

أرسلَ اللهُ نوحاً إلى قَوْمِهِ:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: 1-4].

استحقوا العذابَ لأنهم حادوا عَنْ غايةِ خَالِقِهِم مَنْ أرادَ تكريمَهُمْ وأسجدَ لَهُمْ ملائكتَهُ، واتبعوا غاياتِ الشيطانِ مَنْ أرادَ أنْ يسفّهَ الإنسانَ وقدرَهُ فيجعلَهُ عابداً وساجداً لوثنٍ لا ينفعُ ولا يضرُّ. دعاهم نوحٌ وأخبرهُمْ بأنَّ اللهَ سيغيّرُ ما كانَ مِنْ كفرِهِمْ وشركِهِمْ ولا يهلكُهُمْ إنْ آمنوا واتبعوا الداعيَ لغاياتِ الرحمنِ، لَمْ يتركْ نوحٌ وسيلةً أو يألُ جهداً في دَعْوَتِهِمْ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 25-26].

حذَّرَ مِنَ العذابِ في الدنيا والآخرةِ، وجادلَهُمْ بالحُسنى:

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: 27].

أغلظوا في الردّ عليهِ: " مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا"، كما قالوا مَنْ يظنُّ نفسَهُ أفضلَ وأحسنَ منّا، "وما اتباعُكَ إلا هُمُ الضعفاءُ والفقراءُ" هُمْ أرذلُ الخلْقِ والْأَسْوَأُ عندنا، كفروا بتكريمِ الإنسانِ، أغراهم الشيطانُ بأنْ يتخذوا المعاييرَ التي تحطُّ مِنْ قدرِ الإنسانِ- كالمالِ والجاهِ والسلطانِ -كأساسٍ لخيريةِ وأفضليةِ البشرِ. لكنَّ نوحاً -عليه السلام- لَمْ يردَّ عليهِمْ إلا بالحُسنى والحكمةِ:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود: 28].

ردٌّ لطيفٌ جداً، فكّروا فقط وتدبّروا أمري وحالي وكلامي، عسى يتبيَّنُ لَكُمْ أنَّ اللهَ آتاني رحمةً مِنْهُ وفضلاً، ولكنْ حُجِبْتُمْ عَنْ رؤيتِها بسببِ الكِبْرِ والطغيانِ، أنا لَنْ ألزمَكُمْ أو أكرِهَكُمْ على الإيمانِ بربِّكُمْ وخالقِكُمْ، فقط أبيّنُ لَكُمْ وأوضّحُ فتدبَّروا قولي، وأضافَ:

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود: 29].

لا أسألُكُمْ مقابلَ ذلكَ مالاً، إنما أرجو الأجرَ والثوابَ مِنَ اللهِ.

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ۚ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: 29-30].

أما الضعفاءُ و"الأراذلُ" في رأيِكُمْ مِمَّنْ آمنوا باللهِ وكفروا بالشركِ والأصنامِ، لستُ بطاردِهِمْ مِنْ مجلسي وكلامي وحديثي ومِنْ صحبتي، إنَّهُمْ مكرَّمونَ عِنْدَ اللهِ وملاقوهُ يومَ القيامةِ، لكنْ أرى وأعلمُ أنكم جهلتم غايةَ اللهِ والمنهجَ الذي أرادَهُ للإنسانيةِ: "التكريم"، فلا يعبدُ الإنسانُ إلا ربَّهُ الذي كرَّمَهُ وأسجدَ لَهُ ملائكتَهُ ولا سيدَ لَهُ سواه، وهو خيرُ المخلوقاتِ عندهُ، لا تفاضلَ بينَهُمْ -أي البشر- إلا بالتقوى والعملِ الصالحِ ونفعِ البشريةِ.

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

[هود: 31].

لا أدَّعي أنَّ اللهَ جعلني وصياً أو ملاكاً لخزائنِه، ولا أدَّعي مِنَ الصفاتِ ما اختصَّ بها هو وحدَهُ كعلمِ الغيبِ، ولا أتصفُ بغيرِ صفتي فلستُ مَلَكاً مِنْ ملائكةِ الرحمنِ، ولا أخدعُ

الضعفاءَ مِمَّنْ تزدرونَ وتحتقرونَ بأنَّهُمْ لا قيمةَ لَهُمْ ولا ثوابَ عِنْدَ اللهِ، اللهُ أعلمُ بحالِهِمْ وقلوبِهِمْ وإيمانِهِمْ بِهِ سبحانَهُ، إنْ فعلتُ ذلكَ سأكونُ مِثْلَكُمْ ظالماً.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

[هود: 32].

دَعَاهُمْ وَرَدَّ عَلَى حُجَجِهِمْ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ زَادُوا فِي طُغْيَانِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَعْيَتْهُمُ الْحُجَّةُ وَالْمَنْطِقُ، فَقَالُوا: لَقَدْ أَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، وَلَنْ نُؤْمِنَ لَكَ، فَأَرْسِلْ عَلَيْنَا الْعَذَابَ الَّذِي تَتَوَعَّدُنَا بِهِ.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: 33-34].

أجابَهُمْ: هذا بيدِ خالقِكُمُ اللهِ إنْ شاءَ أتاكُمْ بالعذابِ ولَنْ تعجزوهُ أو تغلبوهُ، أنا نبيٌّ مرسلٌ سأنصحُكُمْ وأبيّنُ لَكُمْ، ولكنْ إنْ شاءَ اللهُ -بسببِ طغيانِكُمْ وظلمِكُمْ- أنْ يضلَّكُمْ ويهلكَكُمْ فَلَنْ تنتفعوا ولَنْ يغنيَ نُصحي عَنْكُمْ شيئاً.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: 35].

وَاتَّهَمُوهُ -أَيْضًا- بِأَنَّهُ افْتَرَى هَذَا الْكَلَامَ، وَأَنَّهُ اخْتَلَقَهُ كَذِبًا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: "إِنْ كَانَ كَلَامِي غَيْرَ صَحِيحٍ؛ فَسَيُحَاسِبُنِي رَبِّي عَلَى أَفْعَالِي، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ شِرْكِكُمْ بِهِ وَافْتِرَائِكُمْ عَلَى اللَّهِ .

استمرَّ نوحٌ في دعوةِ قَوْمِهِ رغمَ طغيانِهِمْ تسعمائةٍ وخمسينَ سنةً كاملةً كما قالَ سبحانَهُ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 14].

ألفُ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً يدعوهُمْ ويحتملُ أذاهُمْ وصَدَّهُمْ عَنْ سبيلِ اللهِ، كما حكى القرآنُ عَنْهُ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح: 5-6].

بالليلِ والنهارِ:

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: 7].

صَدُّوا عَنْهُ بكلِّ الوسائلِ، وأوصى بعضُهُمْ بعضاً، حتى إنَّهُمْ سدّوا آذانَهُمْ وغطوا وجوهَهُمْ بثيابِهِمْ حتى لا يسمعوا كلامَهُ أو يروا وجهَهُ.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: 8-9].

رغمَ ذلكَ ما تركَ وسيلةً لدعوتِهِمْ إلا سلكَها، دعاهم جهاراً في مجالسِهِمْ ومنتدياتِهِمْ، وسِراً حدَّثَهُمْ حديثاً خاصاً أفراداً.

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: 10-12].

حَبَّبَهُمْ وَرَغَّبَهُمْ فِي خَالِقِهِمُ الَّذِي كَرَّمَهُمْ، وَشَوَّقَهُمْ إِلَى عَطَايَاهُ وَفَضْلِهِ إِنْ هُمْ آمَنُوا، إِذْ يَتَجَلَّى هَذَا الْفَضْلُ فِي أَمْطَارٍ كَثِيرَةٍ تُنْبِتُ لَهُمُ الْجَنَّاتِ وَالْحَدَائِقَ، وَيَرْزُقُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ.. فَمَاذَا يُرِيدُونَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ وَمَا نَفَعَتْهُمْ هَذِهِ الْحِجَارَةُ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ! .

فصل: مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا

◆

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: 13-14].

عجباً لكم! لا تبجّلونَ خالقَكُمْ ومكرّمَكُمْ وهو مَنْ خلقَكُمْ في بطونِ أمهاتِكُمْ، ثُمَّ أنشأكُمْ شباباً، وإلى أنْ تصيروا شيوخاً. آياتٌ كثيرةٌ بثَّها اللهُ في كتابِهِ تبيّنُ عظمتَهُ وعِظَمَ خَلْقِهِ للإنسانِ، يدعو الإنسانَ للتدبُّرِ والتفكُّرِ ليهتديَ للخالقِ سبحانَهُ:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: 54].

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: 6].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

وصدقَ جلَّ مِنْ قائلٍ:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 21].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: 15-16].

ثُمَّ وَجَّهَ نوحٌ قومَهُ نحو ملكوتِ اللهِ الأعظمِ: الكَوْنِ، السَّماءِ، الفَلَكِ، الشَّمْسِ والقَمَرِ.

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح: 17-20].

أي مِنْ طينِها وتربتِها، ثُمَّ يعيدُكُمْ بالموتِ ويبعثُكُمْ، وهو اللهُ مَنْ جعلَ لَكُمْ هذه الأرضَ ممهدةً، خلقَها لَكُمْ لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أينَ شئتُمْ، مِنْ نواحيها وأرجائِها وأقطارِها. كلُّ ذلكَ داخلَ:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70].

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 21-23].

عَصَوْا نُوحًا المُرْسَلَ بِالغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ: التَّكْرِيمِ وَالهَنَاءِ لِبَنِي الإِنْسَانِ، وَاتَّبَعُوا مَنْ قَدَّمَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ لِعَدُوِّهِ الشَّيْطَانِ، لِيُحَقِّقَ غَايَتَهُ فِيهِ وَفِي بَنِي آدَمَ: الهَلَاكَ فِي الدُّنْيَا وَالعَذَابَ فِي الآخِرَةِ، فَصَدَقَ فِيهِ قَوْلُهُ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾، فَـ﴿لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا

خَسَارًا﴾.وَسَعَوْا بِكُلِّ السُّبُلِ لِلصَّدِّ عَنْ طَرِيقِ نُوحٍ، وَتَوَاصَوْا بِالكُفْرِ بِهِ وَتَكْذِيبِهِ وَأَذِيَّتِهِ؛ رُوِيَ عَنْهُمْ أَنَّهُ إِذَا بَلَغَ الصَّبِيُّ مِنْهُم أَخَذَ أَبُوهُ عَلَيْهِ العَهْدَ بِأَنْ يَكْفُرَ بِنُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَرِسَالَتِهِ، وَاضْطَهَدُوا المُؤْمِنِينَ؛ لِذَلِكَ حَكَى عَنْهُمْ نُوحٌ:

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: 24].

وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَزِيدَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَأَنْ يُهْلِكَهُمْ كَيْ لَا يَفْتِنُوا الفِئَةَ القَلِيلَةَ المُؤْمِنَةَ المُسْتَضْعَفَةَ:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 26-27].

سعوا ليفتنوا مَنْ آمنَ مع نوحٍ، وهُمْ قِلّةٌ مستضعفةٌ كما حكى سبحانَهُ في القرآنِ: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: 40].

﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: 27].

حتى أبناؤهُمْ ينشؤونَ ليصيروا أكثرَ طغياناً وكفراً مِنْ آبائِهِمْ.

﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح: 28].

دعا نوحٌ -رغمَ عظمةِ مكانتِهِ- بأنْ يغفرَ اللهُ لَهُ إنْ قصَّرَ، وهذا مِنْ كمالِ الأنبياءِ، فسيدُهُمْ محمدٌ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ- كانَ:

«يَسْتَغْفِرُ فِي الْمَجْلِسِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [البخاري].

ودعا لِمَنْ معَهُ مِنَ المؤمنينَ، ودعا على كفارِ قَوْمِهِمْ أنْ يزيدَهُمُ اللهُ هلاكاً.

أصبحَ حالُ الأرضِ لأولِ مرةٍ مِنْ عهدِ آدمَ -عليه السلام- بَعْدَ أنْ هبطَ وأمنا حواءُ مِنَ الجنةِ وكانوا قروناً على التوحيدِ وعبادتِهِ، نشأ قرنٌ استطاعَ الشيطانُ يُغويهِمْ غوايةً كاملةً كما وعدَ الخالقَ سبحانَهُ بَعْدَ أنْ أمْهَلَهُ إلى يومِ الدِّينِ:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 62].

لأخدعنَّهُمْ بكلِّ الوسائلِ لأزلَّهُمْ عَنِ المكانةِ التي حَبوتَهُمْ بِها.

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: 63].

قالَ لَهُ الرحمنُ: اذهبْ فَمَنْ تبعَكَ لأعذبنَّهُ، وصدقَ هذا في قومِ نوحٍ و كلِّ قومٍ اتبعوا غاياتِ الشيطانِ فخسروا الدنيا والآخرةَ، فَهُمْ كما حكى سبحانَهُ عَنْهُمْ:

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح: 25].

فصل: لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا

◆

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: 64].

المشاركةُ تعني التعاضدَ والاتفاقَ لتحقيقِ هدفٍ يفيدُ اثنينِ أو أكثرَ، فكلُّ مشارِكٍ قد يبذلُ مالَهُ وقتَهُ وخبرتَهُ وجهدَهُ لتحقيقِ الهدفِ المشتركِ الذي يفيدُ مجموعَ المشارِكينَ، والربحُ هدفٌ يسعى لَهُ شركاءُ يؤسسونَ شركةً أو عملاً تجارياً. هل يمكنُ للإنسانِ أنْ يشاركَ عدوَّهُ؟ في بعضِ الحالاتِ نعم؛ ربما لدفعِ عدوٍّ مشتركٍ بينَهما، فحتى في هذهِ الحالةِ الاثنانِ يعملانِ مِنْ أجلِ مصلحتِهما، لكنْ هل يعقلُ للإنسانِ أنْ يشاركَ عدوَّهُ مِنْ أجلِ تدميرِ نفسِهِ؟

لكنَّ الإنسانَ وبني آدمَ يفعلونَ، حذّرَهُمُ اللهُ ونبَّهَهُمْ لغاياتِ الشيطانِ وعداوتِهِ ورغبتِهِ في أنْ لا يذوقَ الإنسانُ نعيماً ولا تكريماً، إلا أنَّ الإنسانَ يشاركُ عدوَّهُ الشيطانَ. قالَ اللهُ، واللفظُ كما ذكرَهُ القرآنُ: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾. دَعْهُمْ يدفعونَ الأموالَ لَكَ مِنْ أجلِ تدميرِهِمْ وهلاكِهِمْ، دَعْهُ يبذلُ أولادَهُ وفلذاتِ أكبادِهِ في سبيلِ تحقيقِ غاياتِكَ لإشقائِهِمْ وتسفيهِهِمْ. ويعلمُ اللهُ أساليبَ الشيطانِ وحذَّرَ منها أبانا آدمَ، ولكنَّ إبليسَ هو نفسُهُ مَنْ وعدَ أبانا وأمنا:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 27].

وعدَهُمُ الشيطانُ، ولكنْ كما قالَ اللهُ: ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾؛ خداعٌ وباطلٌ، بل أورثا أبانا وأمنا دارَ الشقاءِ بدلَ دارِ النعيمِ، وبدَّلَهُمْ مِنْ وعدِ اللهِ الحقِّ:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: 116-119].

تكريمٌ وسجودُ الملائكةِ، ثُمَّ جنةٌ وعدَ اللهُ فيها بأن لا يمسَّهُ جوعٌ أو عُرْيٌ، ولا ظمأٌ ولا هجيرُ الشمسِ؛ قمةُ النعيمِ والدَّعةِ. وحذَّرَ مِنْ عدوِّهِ إبليسَ وغَايَتِهِ؛ يودُّ إبليسُ أنْ يشقى آدمُ وذريتُهُ. لكنِ انتصرَ إبليسُ في هذهِ الجولةِ الأولى مِنْ قصةِ البشريةِ معَهُ:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: 120-121].

وأُنزلَ سيدنا آدمُ لدارِ الشقاءِ والمكابدةِ، وإنْ أنزلَ اللهُ معَهُ سبيلَ النجاةِ والراحةِ:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 123].

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38].

منهجٌ وغَايَتُهُ وعدُهُ الحقُّ؛ منهجُ الرحمنِ سعادةُ الإنسانِ وتكريمُهُ في الدارينِ الأولى والآخرةِ. وحذَّرَ الناسَ مِنْ وعودِ الشيطانِ وغَايَتِهِ، وصدقَ جلَّ مِنْ قائلٍ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 5-6].

عاشَ البشرُ قروناً بَعْدَ آدمَ على منهجِ اللهِ، لَمْ يستطعْ فيها الشيطانُ أنْ يحققَ غَايَتَهُ العظمى، أنْ يشركَ الناسُ باللهِ، حتى أتى قومٌ واستحوذَ عليهِمُ الشيطانُ، وعاشوا وفقَ غَايَتِهِ، وأصبحتْ للمرةِ الأولى مِنْ نزولِ سيدنا آدمَ إليها الغالبيةُ العظمى فيها هُمْ مَنِ اتبعوا غاياتِ الشيطانِ عدوِّهِمُ الذي رفضَ تكريمَهُمْ مِنْ قِبَلِ خَالِقِهِمْ، وثُلّةٌ صغيرةٌ مؤمنةٌ.

لَمْ يكتفوا بذلكَ، بل آذوا مَنْ أرسلَهُ اللهُ رحمةً بِهِمْ ليهديَهُمْ لغاياتِ الرحمنِ، وسعوا لإضلالِ هذهِ الثلةِ وهدَّدوا نبيَّهُمْ نوحاً -عليه السلام- ولكنْ كيفَ يخافُ مَنْ وليُّهُ اللهُ؟ فردَّ عليهِمْ:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 71-72].

كيفَ يخافُ وهو يعلمُ أنَّ اللهَ هو مَنْ يحميه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: 10]، فأذِنَ اللهُ لأحدِ أعظمِ آياتِهِ في تاريخِ البشريةِ أنْ تحدثَ.

فصل: فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: 11-12].

انهمرَ الماءُ مِنَ السماءِ وانفجرَ مِنَ الأرضِ، فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. التقى ماءُ السماءِ والأرضِ على تنفيذِ قدرِ اللهِ واستجابةِ دعاءِ نبيِّهِ نوحٍ: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: 26]. هلاكُ جميعِ مَنِ اتبعوا غاياتِ الشيطانِ في أرضِ اللهِ، أما المؤمنونَ وهُمْ قِلّةٌ مع نوحٍ:

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 13-17].

نجاهم اللهُ على سفينةٍ كانَ أوحى لنبيِّهِ نوحٍ أنْ يصنعَها:

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: 37-41].

بدأَ بتجهيزِ الأخشابِ والمساميرِ وغيرها مِمّا يحتاجُهُ في السفينةِ كما وصفَها سبحانَهُ: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾. وكانَ قومُهُ يسخرونَ مِنْهُ قائلينَ: أصرتَ نجاراً بَعْدَما كنتَ نبياً؟ حتى إذا جاءَ أمرُ اللهِ وحملَ مِنْ كلِّ الكائناتِ اثنينِ، وأهلَهُ إلا مَنْ كفرَ فقضى اللهُ بهلاكِهِ، والمؤمنينَ، ثُمَّ حانَ أمرُ اللهِ بانهمارِ المطرِ وانفجارِ الأرضِ عيوناً.

فصل: عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

◆

فصارَ الماءُ كجبالٍ وسارتْ بِهِمُ السفينةُ فوقَهُ كما حكى سبحانَهُ:

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود: 42].

في ظلِّ هذا المشهدِ المهيبِ رأى نوحٌ ابنَهُ -وقيلَ حفيدَهُ- فلذةَ كبدِهِ وهو لَمْ يؤمنْ معَهُ، فأدركتْهُ رحمةُ الوالدِ بولدِهِ ودعاهُ ليركبَ السفينةَ فلا يهلكَ، لكنَّهُ كفرَ بنوحٍ مِنْ قبلُ، والآنَ قالَ:

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: 43].

سينجو مِنْ غيرِ مساعدةِ أبيهِ، ربما تكبُّراً وطغياناً، ولكنْ سريعاً ما حالَ الموجُ بينَهما وغمرَ ابنَهُ، فأصبحَ مِنَ المغرقينَ.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: 44].

ثُمَّ أمرَ اللهُ الأرضَ بأنْ تبلعَ مائَها، وأنْ تقلعَ السماءُ عَنِ المطرِ.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: 45].

رأى ابنَهُ يغرقُ أمامَهُ، فحنَّ قلبُهُ وغلبتْ عاطفةُ الوالدِ، والأنبياءُ هُمْ أرحمُ البشرِ بالخلْقِ، فكيفَ رحمتُهُمْ وحنانُهُمْ على ذريتِهِمْ وأبنائِهِمْ؟ قالَ نوحٌ: يا ربِّ ابني مِنْ أهلي مِمَّنْ وعدتني بنجاتِهِمْ مِنَ الطوفانِ، يطلبُ نوحٌ نجاةَ ابنِهِ علَّهُ يسلمُ بَعْدَ ذلكَ ولا يموتُ على الشركِ، وحالُهُ في ذلكَ حالُ نبيِّنا كانَ يطلبُ إسلامَ عمِّهِ وإبراهيمَ إسلامَ أبيهِ.

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: 46].

لكنَّ اللهَ لا يحابي أحداً مِنْ خَلْقِهِ فيما قرَّرَهُ وقضاهُ، نبَّهَهُ أنَّ ابنَهُ مشركٌ اتبعَ غاياتِ الشيطانِ، ونوحٌ يعلمُ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ، لكنْ أنستْهُ العاطفةُ أنَّ ابنَهُ المشركَ سيشملُهُ عذابُ قَوْمِهِ، وأنَّهُ بالكفرِ قد انقطعتْ صلتُهُ بنوحٍ والدِهِ، وأنَّهُ عِنْدَ اللهِ ليسَ مِنْ أهلِ نوحٍ، فنبَّهَهُ اللهُ: لا تدفعْكَ العاطفةُ فتكونَ مِنَ الجاهلينَ. وأيضاً النبيُّ محمدٌ -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ- عندما ماتَ عمُّهُ أبو طالب قالَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» [البخاري]، فأنزلَ اللهُ:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 113-114].

الأنبياءُ أشدُّ الناسِ علماً باللهِ، وعلماً بغاياتِ الشيطانِ وما يسعى إليهِ مِنْ إشقاءِ الإنسانِ في الدنيا والآخرةِ، فَمَنْ بُيِّنَ لَهُ ودُعيَ لطريقِ الإيمانِ باللهِ والسعادةِ والحياةِ الطيبةِ وكابرَ وأبى وماتَ على ذلكَ فهو عِنْدَ اللهِ مشركٌ استحقَّ العذابَ باتباعِ غاياتِ عدوِّهِ الشيطانِ، وربما جريرةُ أهلِ الأنبياءِ أعظمُ مِنْ غيرِهِمْ، فَهُمْ عاشروهُمْ وخبروا طيبَ مَخبَرِهِمْ وصدقَهُمْ ومحبتَهُمْ للخيرِ، وقد يعلمونَ يقيناً أنَّ اللهَ أرسلَهُمْ رحمةً للعالمينَ ومع ذلكَ اختاروا طريقَ الهلاكِ اتباعاً للشيطانِ وقَوْمِهِمْ، ربما حميةً فقط للقبيلةِ، كما قالَ أبو طالب:

لَقَد عَلِموا أَنَّ ابنَنا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَينا وَلا يُعنى بِقَولِ الأَباطِلِ

وَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ دينَ مُحَمَّدٍ ... مِن خَيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دينا

لَولا المَلامَةُ أَو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدتَني سَمحاً بِذاكَ مُبينا

والجميعُ خَلْقُ اللهِ بما فيهِمْ أبناءُ الأنبياءِ وأقاربُهُمْ، وقضى اللهُ ووعدُهُ الحقُّ فيمن اتبعَ غاياتِ الشيطانِ كائناً مَنْ كانَ مِنْ بني آدمَ: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾. جزاهمُ النارَ، عافانا اللهُ وإياكم منها، وأسكننا دارَ رحمتِهِ ومستقرَّ كرامتِهِ مع أنبيائِهِ ورسلِهِ.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: 47].

استدركَ نوحٌ سهوَهُ واستغفرَ ربَّهُ وطلبَ رحمتَهُ، وقبلَ اللهُ استغفارَهُ ودعاءَهُ فهو لا يخيبُ مَنْ رجاهُ، والخاسرونَ في الدنيا قَبْلَ الآخرةِ هُمُ الكفارُ أولياءُ الشيطانِ وأتباعُ منهجِهِ، تحقيرِ وشقاءِ الإنسانِ ومَنْ سارَ بنهجِهِمْ إلى يومِ الدِّينِ.

فصل: أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ

◆

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48].

أُمِرَ نوحٌ بأنْ يهبطَ بَعْدَ جفافِ الماءِ بأمانٍ وطمأنينةٍ مِنَ اللهِ ونِعَمٍ وبركاتٍ على سيدنا نوحٍ، وعلى أُمَمٍ ستولدُ مِنْ صلبِهِ بَعْدَ هَلَكِ جميعِ أهلِ الأرضِ الكافرينَ، فسيستمرُّ نسلُ نوحٍ إلى قيامِ الساعةِ كما حكى سبحانَهُ في آيةٍ أخرى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: 77]. أُمَمٌ تُمَتَّعُ وتُنَعَّمُ ثُمَّ يتبعوا غاياتِ الشيطانِ ويصدّوا عَنْ غاياتِ الرحمنِ فيصدقُ فيهِمْ وعدُ اللهِ ويحلُّ بِهِمْ عذابُهُ. وهي آيةٌ مِنْ آياتٍ وردتْ في قصةِ نوحٍ تأمَّلْ فقط جمالَ روعةِ بيانِها:

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الصافات: 75-82].

وصدقَ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17]. فتأمَّلِ التيسيرَ والجمالَ والروعةَ البيانيةَ التي أعجزتْ فحولَ اللغةِ العربيةِ وعباقرتَها في زمنِ الجاهليةِ:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ

قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 9-17].

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49].

قومُ أولِ جيلٍ أُهلِكَ بسببِ اتباعِ غاياتِ الشيطانِ، امتنَّ اللهُ على نبيِّنا بتعليمِ هذهِ القصةِ لعظمتِها وفائدتِها العظيمةِ، وهي مِنْ دلائلِ نبوتِه، فلا هو ولا قومُهُ كانوا يعلمونَ عَنْ نوحٍ وقومِهِ وقصتِهِمْ، ولا يعلمونَ عَنْ غاياتِ الشيطانِ وسعيِهِ الدائمِ ليزلَّ بالإنسانِ مِنْ مَراقي تكريمِ اللهِ إلى دركاتِ الجحيمِ والعذابِ في الدنيا والآخرةِ. ومِنْ عِبَرِ قصةِ نوحٍ كما أوحى اللهُ لنبيِّنا وهي لنا مِنْ بَعْدِهِ: ﴿ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

العاقبةُ والنصرُ والفلاحُ في هذهِ الدنيا وفي الآخرةِ أيضاً للمتقينَ مَنِ اتبعوا سبيلَ الرحمنِ وغَايَتَهُ، فلنصبرْ حتى لو طغى الباطلُ، كلُّ ما علينا بذلُ غايةِ الوُسعِ والسَّعةِ واستخدامُ كلِّ السبلِ المشروعةِ لدعوةِ الناسِ لطريقِ الرحمنِ واجتنابِ طريقِ الشيطانِ وإغوائِهِ، اقتداءً بنوحٍ ومَنْ تبعَهُ مِنَ الأنبياءِ والمرسلينَ، واللهُ منجزٌ وعدَهُ وناصرٌ حزبَهُ ومَنْ والاهُ، فلا نستعجلِ النتائجَ، ولهذا الطريقِ نعيمٌ في الدنيا وثوابٌ في الآخرةِ.

بسببِ قومِ نوحٍ حذَّرَ النبيُّ مِنْ اتخاذِ قبورِ الصالحينَ مساجدَ، لكنْ في قصةِ أصحابِ الكهفِ غلبَ مَنْ رأى خطأً: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: 21]. ختمَ اللهُ قصتَهُمْ بهذهِ الآياتِ:

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 25-26].

لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لا عبرةَ وفائدةَ مِنْ عددِ أصحابِ الكهفِ أو مدةِ مكوثِهِمْ في الكهفِ فاللهُ يعلمُها ولَمْ يقصَّها علينا، لكنَّ العبرةَ بمنهجِهِمْ وطريقِهِمْ واتباعِهِمْ لغاياتِ الرحمنِ ومخالفةِ قومِهِمْ وملكِهِمْ، نعم اللهُ يعلمُ كلَّ شيءٍ في الأرضِ وفي السماءِ, ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 25-26].

الباب الرابع

﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصلٌ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

◆

بِنورِهِ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُكَ، وَتَسْمَعُ وَتَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُ سِوَاكَ؛ فَهُوَ سُبْحانَهُ كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 35].

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾؛ هُوَ النُّورُ سُبْحانَهُ ، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حِجابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ. أَرْسَلَ النُّورَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: 15]. بِالنُّورِ القُرآنِ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 174] ؛ لِـ ﴿ يُخْرِجَهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [المائدة: 16] ، وَيُنِيرَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَقُلُوبًا غُلْفًا.

أَنارَ بِآيَتِهِ الكَوْنِيَّةِ سُبُلَ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: 5]. ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: 1]، كَيْلَا يَقَعوا فِي شِرْكِ آخِرِ الآيَةِ: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: 1].

وَمَنْ أَمانَتُه الظُّلْمَةُ فَاتَّبَعَ سَبيلَهُ أَحْياهُ بِنورِهِ سُبْحانَهُ:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 122].

فَمَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهِ فَهُوَ وَلِيُّهُ: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: 257]. وَمَنْ تَنَكَّبَ صِراطَهُ وَحادَ عَنْها وَكَّلَهُمْ لِأَوْلِيائِهِمْ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة: 257]. وَوَبَّخَهُمْ عَلَى اخْتِيارِهِمْ وَسَفَهِ أَحْلامِهِمْ (عُقولِهِمْ): ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد: 16]. سُبْحانَهُ! لَا تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ. وَمَنْ نافَقَ ظاهِرُهُ مَعَ أَوْلِيائِهِ وَباطِنُهُ مَعَ أَعْدائِهِ: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: 17].

وَدَعا النَّاسَ عامَّةً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 174]. وَأَهْلَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ خاصَّةً لِنورِهِ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: 15]. وَبَيَّنَ لَهُمْ ثَمَراتِ اتِّباعِهِمْ: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 16]. وَ ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157].

وَدَعا المُؤْمِنينَ لِلتَّمَسُّكِ بِحَقائِقِ الإِيمانِ اعْتِقادًا وَسُلوكًا، وَبَيَّنَ لَهُمُ الثَّمَرَ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: 28]. وَلَا مُطْفِئَ لِنورِهِ وَلَا رادَّ لِحُكْمِهِ: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 32]. تَبارَكَ وَتَقَدَّسَ جَلَّ مِنْ قائِلٍ!

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 35]

أَصْحابُ الكَهْفِ بِنورِ اللَّهِ اهْتَدَوْا، وَخَتَمَ اللَّهُ قِصَّتَهُمْ بِـ:

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 26].

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ ؛ اللَّهُ يَتَوَلَّى عِبادَهُ الصَّالِحينَ بِالرِّعايَةِ وَالحِفْظِ وَالتَّسْديدِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ هُناكَ مَنْ يَرْعاهُ وَيَحْفَظُهُ مِنْ دونِ اللَّهِ فَهُوَ حَقيقَةً كَمَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ؛ إِنْ شاءَ اللَّهُ رَعاهُ وَهَداهُ، وَإِنْ شاءَ وَكَلَهُ لِلْهَلاكِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

فصلٌ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

◆

لَا شَرِيكَ لَهُ فِي حُكْمِهِ القَدَرِيِّ الكَوْنِيِّ عَلَى الأَحْداثِ وَمآلاتِها. فَفِي قِصَّةِ أَصْحابِ الكَهْفِ، أَرادَ المَلِكُ وَقَوْمُهُ أَنْ يَصُدُّوا الفِتْيَةَ عَنْ دينِهِمْ وَأَنْ يُلْحِقوا بِهِمُ الأَذَى، وَأَرادَ اللَّهُ لَهُمُ الإيمانَ وَالنَّجاةَ وَالحِفْظَ وَالرِّعايَةَ فِي الدُّنْيا، فَنَفَذَ حُكْمُ اللَّهِ، وَبَطَلَ مَنْ ظَنَّ أَنْ يَحْكُمَ أَوْ يُشارِكَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ عَلَى عِبادِهِ. وَفِي قِصَّةِ إِبْراهيمَ، حَكَمَ وَقَضَى أَبوهُ وَقَوْمُهُ بِإِحْراقِهِ فِي النَّارِ العَظيمَةِ الَّتِي يَسْقُطُ الطَّائِرُ المارُّ فَوْقَها فَقَذَفوهُ فيها، وَأَرادَ اللَّهُ لَهُ الرِّعايَةَ وَالحِفْظَ وَالأَمانَ، فَنَفَذَ حُكْمُ اللَّهِ ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 118]. فَكانَتِ النَّارُ كَما حَكَمَ هُوَ لَها أَوَّلًا أَنْ تُحْرِقَ وَيَسْتَخْدِمَها البَشَرُ كَسَبَبٍ لِلْإِحْراقِ وَالإِتْلافِ، حَكَمَ هُوَ ثانِيًا أَنْ يُبْطِلَ أَثَرَها فَتَكونَ كَما قالَ:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: 69].

الحَرارَةُ تَصيرُ بَرْدًا قارِصًا لَوْلا قَوْلُهُ لَها سُبْحانَهُ: ﴿ بَرْدًا وَسَلَامًا ﴾، لَأَهْلَكَ إِبْراهيمَ بَرْدُها! يالَ العَجَبِ! ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾.

فَما شاءَ كَانَ، وَما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ لَوْ حَكَمَ بِهِ وَقَضَى وَسَعَى لِإِنْفاذِهِ مَنْ فِي الأَرَضينَ وَالسَّماواتِ. وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ أَوْضَحُ الآياتِ وَالبَيِّناتِ، فَقَضَى اللَّهُ لِيُوسُفَ فِي رُؤْيا مُسْتَقْبَلِيَّةٍ:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: 4].

فَأَوَّلَها يَعْقوبُ أَبوهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالحِكْمَةِ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: 6].

لَكِنْ حَذَّرَهُ مِنْ حَسَدِ إِخْوَتِهِ إِنْ عَلِموا أَنْ يُحاوِلوا تَغْيِيرَ مَا اللَّهُ بِهِ قَضَى وَحَكَمَ، فَقالَ:

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: 5].

غاياتُ الشَّيْطَانِ دَوْمًا يَرْفُضُ تَكْرِيمَ الإِنْسانِ وَالإِعْلاءَ مِنْ شَأْنِهِ وَيُرِيدُ لَهُ الشَّقاءَ وَالعَذابَ، فَزَيَّنَ لِإِخْوَةِ يُوسُفَ أَنْ يَكونَ لَهُمْ حُكْمٌ آخَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ يُوسُفَ وَمآلِهِ، فَاسْتَغَلَّ الشَّيْطَانُ شَهْوَةَ التَّمَلُّكِ وَالاسْتِحْواذِ عَلَى اهْتِمامِ أَبِيهِمْ وَإِبْعادِ يُوسُفَ:

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: 8].

فَقَرَّروا أَنْ يُنَفِّذوا فيهِ حُكْمًا نَقيضًا تَمامًا لِمَا أَرادَهُ اللَّهُ لِتَكونَ مَعْرَكَةً وَقِصَّةً جَديدَةً بَيْنَ غاياتِ الشَّيْطَانِ (شَقاءُ الإِنْسانِ وَإِهْلاكُهُ) وَغاياتِ الرَّحْمَنِ (تَكْرِيمُ الإِنْسانِ وَنَعيمُهُ). فَكانَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ كَمَا قالَ اللَّهُ عَنْها:

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: 7].

قَضَى وَحَكَمَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لِأَخِيهِمْ كَمَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِالشَّقَاءِ وَالهَلاكِ وَالإِبْعادِ عَنْ أَبِيهِ فَقَرَّروا فيهِ:

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

[يوسف: 9].

القَتْلُ، أَوْ أَلْقوا بِهِ فِي أَرْضٍ مَجْهولَةٍ بَعيدَةٍ عَنِ العُمْرانِ. وَكانَ أَرْأَفَهُمْ بِهِ حُكْمًا مَنْ قالَ:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ

فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: 10].

فَمِنْ ثَمَّ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ [يوسف: 11]. أُسْلوبٌ اسْتِغْلالِيٌّ مُهاجِمٌ، وَهَذا دَوْمًا شَأْنُ المُخادِعينَ، وَخَتَموا خِداعَهُمْ بِأَنْ قالوا: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾. وَمِنْ ثَمَّ:

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ

الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: 16-17].

جاؤوهُ يَتَباكونَ، فَفَزِعَ قالَ: "مَا لَكُمْ يَا بَنِيَّ؟! أَأَصابَكُمْ شَيْئًا؟! وَماذا فَعَلَ يُوسُفُ؟!"، فَقالوا: "اسْتَبَقْنا وَتَرَكْناهُ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَمَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ مَا قُلْناهُ لَوْ كُنَّا صادِقينَ"، يَقولونَ: "يَكادُ المُريبُ يَقُولُ خُذوني". حينَها:

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: 18].

أَخْرَجوا القَميصَ وَعَلَيْهِ لَحْمُ شاةٍ ذَبَحوها وَلَطَّخوا بِهَا القَميصَ، لَكِنَّ يَعْقوبَ قالَ لَهُمْ: "زَيَّنَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا سُوءًا فَعَلْتُموهُ بِيُوسُفَ، وَسَأَصْبِرُ صَبْرًا جَميلًا لَا جَزَعَ وَلَا سَخَطَ فيهِ عَلَى مُصيبَتي فيهِ، وَأَسْتَعينُ بِاللَّهِ عَلَى مَا افْتَرَيْتُموهُ".

فصلٌ: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾

جاؤوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ (إِخْوَةُ يُوسُفَ). وَامْرَأَةُ العَزِيزِ: ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾.

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: 26-28].

وَعَلِمَ يُوسُفُ بِتَأْثِيرِ قَمِيصٍ عَلَى مَرَضِ أَبِيهِ فَأَمَرَ:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: 93].

فَشَفَى بِإِذْنِ اللَّهِ عَيْنَيْ يَعْقُوبَ مِنَ الحُزْنِ وَالأَذَى الَّذِي لَحِقَهُ بِفَقْدِ يُوسُفَ ثُمَّ أَخِيهِ لاحِقًا:

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ ﴾ [يوسف: 96].

قَمِيصٌ اسْتَخْدَمَهُ إِخْوَتُهُ دَلِيلًا كَذَّابًا عَلَى صِدْقِ ادِّعاءِ أَنَّ يُوسُفَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ، وَهَذا القَمِيصُ لَمَّا أُتِيَ بِهِ لِيَعْقوبَ مَرَّغَ وَجْهَهُ بِهِ حَتَّى اخْتَضَبَ بِالدَّمِ لَوْعَةً وَحَسْرَةً. وَقَمِيصٌ آخَرُ الْتَصَقَ بِيُوسُفَ، شَمَّ يَعْقوبُ رِيحَهُ مِنْ عَلَى البُعْدِ، وَأُلْقِيَ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا.

لِلْقَمِيصِ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ ارْتِبَاطٌ بِجَمِيعِ مَرَاحِلِهِ، وَلِلْقَمِيصِ قِصَّةٌ يَرْوِيهَا؛ هِيَ قِصَّةُ الجَسَدِ وَالرُّوحِ، وَهِيَ مِنْ أَجْمَلِ القَصَصِ، وَهِيَ تَابِعَةٌ لِقِصَّةِ سُورَةِ يُوسُفَ الَّتِي ابْتَدَأَهَا اللَّهُ بِـ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾.

وَلِيُوسُفَ وَقَمِيصُهُ قِصَّةٌ؛ هِيَ قِصَّةُ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: 84].

فَقَدَ يَعْقوبُ -عَلَيْهِ السَّلامُ- بَهْجَةَ رُوحِهِ ابْنَهُ يُوسُفَ. لِيَعْقوبَ اثْنَا عَشَرَ ابْنًا، وَيَرَى حَوْلَهُ الكَثِيرَ مِنْ صُوَرِ الأَجْسادِ، لَكِنَّ أَلَمَهُ وَحُزْنَهُ فِي نَفْسِهِ حَزًّا شَدِيدًا فَقْدُهُ لِروحِ يُوسُفَ. حَتَّى قَوْمُهُ عَلِموا أَنَّمَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْتُلَ يَعْقوبَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- هُوَ أَلَمُ الرُّوحِ لَا الجَسَدِ، فَقالوا:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ [يوسف: 85].

أَلَمٌ فِي الرُّوحِ أَعْطَبَ الجَسَدَ، بَلْ أَعْطَبَ أَعْظَمَ آلاتِهِ: آلَةَ الإِبْصارِ لَدَى الإِنْسانِ. العَيْنُ يَرَى بِهَا الأَجْسادَ لَا الأَرْواحَ، وَكَأَنَّ يَعْقوبَ لَا يَوَدُّ أَنْ يَرَى مِنَ الأَجْسادِ إِلَّا الجَسَدَ الَّذِي يَحْمِلُ روحَ يُوسُفَ. لَمْ يَشْكُ يَعْقوبُ وَيَبُثَّ أَلَمَ فَقْدِ العَيْنِ لِلَّهِ، بَلْ بَثَّ أَلَمَ فَقْدِ الرُّوحِ:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 86].

الرُّوحُ هِيَ مَا جَعَلَتْ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- يَعْلَمُ أَنَّ قَمِيصَهُ سَيَرُدُّ بَصَرَ أَبِيهِ: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: 93]. وَالرُّوحُ، هِيَ مَا جَعَلَتْ جَسَدَ يَعْقوبَ تَتَجَاوَزُ إِمْكانِيَّتُهُ آلاتِ الأَجْسادِ الأُخْرَى:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: 94].

تُفَنِّدُونِ تَعْنِي تُنْكِرونَ. وَجَدَ يَعْقوبُ ريحَ قَميصِ يُوسُفَ مِنْ مَسيرَةِ ثَمَانِ لَيالٍ، فَأَجابَهُ قَوْمُهُ:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: 95].

فَقَوْلُ يَعْقُوبَ لَهُمْ: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ -أَيْ: تُكَذِّبُونَ وَتَلُومُونَ- دَلَّ عَلَى اسْتِمْرَارِ قَوْمِهِ فِي نَقْدِهِ، وَعَلَى تَوَاضُعٍ عَظِيمٍ، وَسَعَةِ صَدْرٍ، وَحِلْمٍ، وَصَبْرٍ عَلَى أَقْوَالِهِمْ؛ وَهُوَ النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

قَميصُ يُوسُفَ مَادَّةٌ تَحْوِي رائِحَةً. الرَّائِحَةُ هِيَ مَادَّةٌ قَلَّ جَسَدُها فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ وَقَطَعَتْ أَماكِنَ بَعيدَةً وَفاحَتْ وَشَمَّهَا الكَثيرونَ، وَكَأَنَّ التَّخَفُّفَ مِنَ الجَسَدِ وَالذَّاتِ يَسْمُو بِالإِنْسانِ وَيُعَظِّمُ أَثَرَهُ وَدَوْرَهُ، وَلَعَلَّهُ لَا يَكونُ إِلَّا بِالْمِحَنِ، فَالمَادَّةُ لَا تَتَبَخَّرُ وَتَرْتَفِعُ وَتُغَطِّي أَماكِنَ شاسِعَةً إِلَّا بِالحَرارَةِ. وَلَعَلَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ، وَيُوسُفُ ابْتُلِيَ وَيَعْقوبُ كَذَلِكَ.

قَميصُ يُوسُفَ مَادَّةٌ الْتَصَقَتْ بِجَسَدٍ يَحْمِلُ روحَ يُوسُفَ، فَحَمَلَتْ لِروحٍ أَضْناها وَأَعْطَبَ آلاتِ جَسَدِها فَقْدُ يُوسُفَ، فَكانَ:

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 96].

لَنْ يَنْدَمِلَ عُطْبُ جَسَدِ يَعْقوبَ إِلَّا أَنْ تَبْرَأَ جِراحُ رُوحِهِ، وَلَنْ يَبْرَأَ قَميصُ يُوسُفَ إِلَّا رُوحًا كَلَّمَها وَأَضْناها فَقْدُهُ. قَميصٌ مِنْ مَادَّةٍ، وَهُناكَ أَلَفُ مُؤَلَّفَةٍ مِنَ القُمصانِ، لَكِنْ لَمَّا لَبِسَهُ يُوسُفُ وَجاوَرَ جَسَدَهُ وَابْتَلَّ بِأَخَفِّ جُرْمٍ يَخْرُجُ مِنَ الجَسَدِ (عَرَقُ يُوسُفَ)، وَفاحَتْ مِنْهُ

رائِحَةً أَخَفُّ مِنَ العَرَقِ الجُرْمِ، شَفَى القَمِيصُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَيْنَيْ يَعْقوبَ، وَخُلِّدَ القَمِيصُ فِي القُرآنِ وَالتَّارِيخِ.

وَكَذا الأَجْسادُ، فَهِيَ بالِيَةٌ تَفْنَى، لَمْ تَكُنْ مَوْجودَةً حينَ كَانَتْ أَرْواحُنا فِي العالَمِ العُلْوِيِّ، حينَ أَخْرَجَها رَبُّها وَأَشْهَدَها:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: 172-173].

فَالأَرْواحُ لَا تَفْنَى أَبَدًا - كَذا قالَ العُلَماءُ- فَمُنْذُ أَنْ أَخْرَجَنا اللَّهُ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ فِي العالَمِ العُلْوِيِّ (عالَمِ الأَرْواحِ) وُجِدَتْ. فالطِّفْلُ يُولَدُ وَيَكْبَرُ وَيَضْعُفُ، يَتَغَيَّرُ الجَسَدُ، بَلْ تِلْكَ مَراحِلُ الجَسَدِ كَمَا قالَ سُبْحانَهُ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5].

الرُّوحُ هِيَ الرُّوحُ لَا تَتَغَيَّرُ، خُلِقَتْ وَوُجِدَتْ قَبْلَ الْإِنْسَانِ، وَتَبْقَى بَعْدَ أَنْ تُفَارِقَ الْجَسَدَ الْبَالِيَ لِيُدْفَنَ فِي الْأَرْضِ، وَتَسِيرَ هِيَ نَحْوَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى. فَمُذْ خَلَقَ اللهُ سَيِّدَنَا آدَمَ جَسَدًا مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وُجِدَتْ. وَكَمْ مِنْ تَمَاثِيلَ مَنْحُوتَةٍ، الْيَوْمَ مَنْصُوبَةٌ قَائِمَةٌ، لَكِنَّهَا لَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا ضَرًّا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا. أَمَّا صَلْصَالُ آدَمَ، فَقَدْ نَفَخَ اللهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، مُؤْذِنَةً بِبِدَايَةِ قِصَّةِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى سَطْحِ الْبَرِيَّةِ.

كَمْ أَبْدَعَتْ هَذِهِ البَشَرِيَّةُ مِنْ مَنْحوتاتٍ وَأَبْنِيَةٍ كُلُّها زائِلَةٌ، حَتَّى الكَنيسَةُ العَظيمَةُ الَّتِي بَناها مَلِكُ الأَحْباشِ وَزَيَّنَها وَأَرادَ أَنْ يَهْدِمَ الكَعْبَةَ لِأَجْلِها، فَجاءَ بِأَجْسادٍ ضَخْمَةٍ (أَفْيَالٍ وَبَشَرٍ)، وَدَحَرَهُ اللَّهُ بِأَجْسادٍ صَغيرةٍ (طُيورٍ تَحْمِلُ حَصًى): ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل: 1]؛ لِتَفْنَى هَذِهِ الكَنيسَةُ وَيَزولَ أَثَرُها، وَتَبْقَى كَعْبَةُ الرَّحْمَانِ الَّتِي بُنِيَتْ مُنْذُ قُرونٍ وَدُهورٍ مَضَتْ قَبْلَ ميلادِ سَيِّدِنا المَسيحِ. لَكِنَّ مَنْ بَنَى كَعْبَةَ الرَّحْمَنِ مِنَ الطِّينِ وَالحِجارَةِ رُوحٌ آمَنَتْ بِوَحْدانِيَّةِ الخالِقِ وَكانَ هَذا العَمَلُ لِلَّهِ، فَالرُّوحُ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ فَيُخَلَّدُ وَيَبْقَى إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ.

فصل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

◆

خُلِّدَ قَمِيصُ يُوسُفَ وَتَلاقَتْ أَرْواحُهُمْ وَأَجْسادُهُمْ. وَمَا يَجْعَلُ لِلّقاءِ مَعْنًى وَمُتْعَةً هِيَ الرُّوحُ لَا الجَسَدُ، فَكَمْ جَلَسْتَ عَلَى أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ لِتَلْقَى رُوحًا اشْتاقَتْ نَفْسُكَ إِلَيْها -وَلاحِظْ نَقولُ نَفْسُكَ لَا جَسَدُكَ- وَكَمْ تَمَنَّيْتَ أَنْ يُسارِعَ الزَّمَنُ لِتَفِرَّ مِنْ روجٍ بَغَضْتَها أَوْ بَغَضْتَ فِعالَها وَالجُلوسَ إِلَيْها! وَالعاشِقُ إِنَّمَا يَعْشَقُ الرُّوحَ لَا الجَسَدَ، فَأَجْسادُ النِّساءِ أَوِ الرِّجالِ لَا فَرْقَ بَيْنَها كَثيراً. فَكَأَنَّهُ كَمَا قالَ قَيْسُ لِلبُنَى: تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَها قَبْلَ خَلْقِنَا ... وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نِطَافًا وَفِي الْمَهْدِ

فَزَادَ كَمَا زِدْنَا فَأَصْبَحَ نَامِيًا ... فَلَيْسَ وَإِنْ مُتْنَا بِمُنْفَصِمِ الْعَهْدِ

وَحَتَّى لَذَّةُ اللِّقاءِ الجَسَدِيِّ إِنَّمَا يُعْطِيها قُوَّتَها وَعُنْفُوانَها الرُّوحُ لَا الجَسَدُ، فَالمُغْتَصَبَةُ تُعانِي ساعاتِ اللِّقاءِ أَلَمَ الالْتِقاءِ وَانْتِهاكَ جَسَدِها، مَعَ أَنَّ آلِيَّةَ الجَسَدِ هِيَ هِيَ (الْتِقاءُ جَسَدِ الرَّجُلِ وَآلاتِهِ بِجَسَدِ المَرْأَةِ وَآلاتِها)، لَكِنَّ مَنْ يُعَذِّبُ المُغْتَصَبَةَ هُوَ روحُها، وَعَذابُها لَيْسَ مَعَهُ مُتْعَةٌ لِلْجَسَدِ كامِلَةً. عَذابُ أَنَّ رُوحًا تَبْغَضُها أَوْ لَا تُرِيدُ أَنْ تَلْتَقِيَ بِها أَجْبَرَتْها عَلَى ذَلِكَ، وَأَلَمُ الرُّوحِ مِنَ الإِحْساسِ بِالْمَهانَةِ وَالضَّعْفِ وَفِقْدانِ الإِرادَةِ، مَعَ أَنَّ اللِّقاءَ الجَسَدِيَّ هُوَ هُوَ.

وَعَذابُ المُغْتَصَبَةِ وَأَلَمُهَا الرُّوحِيُّ يَسْتَمِرُّ بَعْدَ اللِّقاءِ الجَسَدِيِّ أَيَّامًا وَشُهورًا وَرُبَّمَا سَنَواتٍ، مَعَ أَنَّ آثارَ العُدْوانِ وَلِقاءِ الجَسَدِ قَدْ زالَتْ وَلَا أَثَرَ لَها، وَقَدْ غَسَلَتْ نَفْسَها بِالمَاءِ مِئاتِ المَرَّاتِ، لَكِنَّ جِراحَ الرُّوحِ هِيَ مَا يُؤْلِمُها وَيُنَغِّصُ مَضْجَعَها، وَمَا أَشَدَّ أَلَمَ الرُّوحِ! وَآثارُ العُدْوانِ عَلَى الرُّوحِ لَمْ تَزُلْ أَوْ تُغْسَلْ، لِأَنَّها لَا تُغْسَلُ بِشَيْءٍ مادِّيٍّ، فَهِيَ رُوحٌ وَلَا بُدَّ لَها مِنْ طَهارَةٍ رُوحِيَّةٍ. وَأَلَمُ الرُّوحِ شَدِيدٌ، إِنْ لَمْ يُعالَجْ وَيَبْرَأْ قَدْ يَقودُ صاحِبَهُ لِأَنْ يَخْرُجَ جَسَدَهُ بَحْثًا عَنْ خَلاصِ رُوحِهِ.

فَالرُّوحانِ لَوْ تَحابَّا وَارْتَقَيَا كَانَ لِلقاءِ الأَجْسادِ اللَّذَّةُ الكامِلَةُ، وَلِأَثَرِهِ عَلَى الرُّوحِ الأَثَرُ المَحْمودُ الَّذِي يَبْقَى. لِذَلِكَ دَعا الإِسْلامُ أَنْ يَكونَ لِباسُ الزَّوْجِ كَما أَرادَ اللَّهُ: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: 21]. فَدَعا الرَّسولُ الرِّجالَ لِإِشْباعِ رُوحِ المَرْأَةِ، إِنْ كَانَ غَزَلًا أَوْ رَحْمَةً وَحُسْنَ عِشْرَةٍ، فَهَذا أَكْمَلُ لِلَذَّةِ الرَّجُلِ الجَسَدِيَّةِ. فَدَوافِعُ الرَّجُلِ تَطْغَى عَلَيْها النَّزْعَةُ الحَيَوانِيَّةُ، وَالمَرْأَةُ تُحِبُّ أَنْ تُلَذِّذَ رُوحَها أَوَّلًا ثُمَّ فِي المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ يَأْتِي جَسَدُها، وَتَلْتَذُّ رُوحُها بِكَلِماتِ الغَزَلِ وَالحُبِّ، فَمَنْ أَشْبَعَ رُوحَ زَوْجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ قَلَّتْ مُطالَباتُها المادِّيَّةُ وَسَعَتِ المَرْأَةُ لِإِرْضائِهِ جَسَدِيًّا.

وَعَلَى المَرْأَةِ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ رُوحَ الرَّجُلِ تَتَلَذَّذُ بِشُعورِهِ أَنَّهُ مَصْدَرُ الحِمايَةِ وَالقُوَّةِ فِي عالَمِها، وَهِيَ إِذْ تَمْنَحُهُ هَذا الشُّعورَ بِـ لِينِها وَرِقَّتِها، فَإِنَّها لَا تَضْعُفُ أَمامَهُ بَلْ تَمْلِكُهُ. فَلِينُ المَرْأَةِ هُوَ قِمَّةُ ذَكائِها الوِجْدانِيِّ، وَكَما وَصَّتِ الأَعْرابِيَّةُ ابْنَتَها قَدِيمًا: "كوني لَهُ أَرْضًا يَكُنْ لَكِ سَماءً، وَكوني لَهُ مُمَهِّدًا يَكُنْ لَكِ عِمادًا". فَمَيْدانُ المُغالَبَةِ بِالقُوَّةِ الجَسَدِيَّةِ أَوِ الخُشونَةِ اللَّفْظِيَّةِ لَيْسَ مِضْمارًا لِلنِّساءِ فِيه أَفْضَلِيَّةٌ -إِلَّا نادِرًا- بِالعَكْسِ مِنَ الرِّجالِ، فَالمِساحَةُ الطَّبيعِيَّةُ لِقُوَّتِهِمْ هِيَ مَجالُ القُوَّةِ العَضَلِيَّةِ وَالجَسَدِيَّةِ.

وَمِثالُ المُغْتَصَبَةِ يُعَزِّزُ ذَلِكَ، فَالِاغْتِصابُ يَقَعُ فِي حَقِّ النِّساءِ لِأَنَّها أَضْعَفُ جَسَدِيًّا، وَلَنْ تَسْمَعَ بِامْرَأَةٍ أَوْ نِساءٍ فِي الغالِبِ اغْتَصَبْنَ رَجُلًا، وَإِنْ حَدَثَ وَلَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ مِنْ وازِعٍ أَوْ خُلُقٍ فَهَذا الِاغْتِصابُ مَا يُهِيجُ الرِّجالَ عَكْسَ النِّساءِ، لِأَنَّهُ يُحَقِّقُ نَزْعَتَهُ وَشَهْوَتَهُ الجِنْسِيَّةَ. فَجَرائِمُ التَّحَرُّشِ وَالمُعاكَسَةِ كُلُّها جَرائِمُ بِحَقِّ النِّساءِ.

وَمِنْ شَقاءِ المَرْأَةِ المُعاصِرَةِ وَعَذابِها الرُّوحِيِّ الشَّدِيدِ تَعْرِيَةُ جَسَدِها وَمُحاوَلَتُها التَّفَنُّنَ فِي جَمالِ الجَسَدِ لِيُعْجِبَ الرِّجالَ، رَغْمَ أَنَّها تَدَّعِي بُؤْسَ نَظْرَةِ الرَّجُلِ لَها كَجَسَدٍ لَا رُوحَ وَفِكْرَ لَهُ، فَأَشْقَتْها المَوضَةُ وَالتَّجْمِيلُ. وَلَوْ أَنَّ الفَتاةَ وَالمَرْأَةَ المُسْلِمَةَ اليَوْمِيَّةَ صانَتْ نَفْسَها بِالحِجابِ السَّاتِرِ وَسَعَتْ لِأَنْ

يَكونَ لَها زَوْجٌ يَخْشَى اللَّهَ فيها وَتَخْشَى اللَّهَ فيهِ، وَزَواجٌ وَأُسْرَةٌ تَقومُ عَلَى المَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، وَرَكَّزَتْ عَلَى إِصْلاحِها نَفْسَها وَبَعُدَتْ مِمَّا ابْتُلِيَتْ بِهِ مُجْتَمَعاتُنا مِنْ مُباهاةٍ مادِّيَّةٍ وَتَكَبُّرٍ وَغُرورٍ وَحَسَدٍ وَغيبَةٍ وَنَميمَةٍ، وَسَعَتْ لِأَنْ تَكونَ صَالِحَةً فِي نَفْسِها مُصْلِحَةً لِأُسْرَتِها وَمُجْتَمَعِها، لَعاشَتْ نَعيمًا وَسَعادَةً لَوْ عَلِمَتْ بِهِ بَناتُ المُلوكِ وَالأُمَراءِ لَحَسَدْنَها عَلَيْهِ.

وَسَأَلَ مَرَّةً الأَميرُ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ -حَفيدُ الخَليفَةِ مَرْوانَ- جُلَساءَهُ: "مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ؟"، قيلَ لَهُ: "أَنْتَ!"، فَقالَ: "وَأَيْنَ مَا أَلْقَى فِي الثُّغورِ؟!"، فَقالوا: "أَميرُ المُؤْمِنينَ!"، فَقالَ: "وَأَيْنَ مَايلْقَى مِنْ أَعْدائِه؟!"، فَقالوا: "مَنْ أَيُّها الأَميرُ؟"، فَقالَ: "رَجُلٌ لَهُ زَوْجَةٌ يُحِبُّها وَتُحِبُّهُ، قَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ كَفافًا، لَا نَعْرِفُهُ وَلَا يَعْرِفُنا".

فصلٌ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 42].

الوَفاةُ هُنا لِلْأَرْواحِ، فَمَنْ نَامَ فَاللَّهُ يَتَوَفَّى روحَهُ. وَالعَجيبُ أَنَّ النَّوْمَ راحَةٌ، فَلَا يَرْتاحُ الجَسَدُ إِلَّا بِمآبِ الرُّوحِ لِبارِئِها. وَلَنْ يَهْنَأَ الإِنْسانُ وَيَنْعَمَ فِي الحَياةِ إِلَّا بِأَوْبَتِهِ جَسَدًا وَروحًا لِخالِقِهِ وَفْقَ مَنْهَجِهِ، فَالرُّوحُ مُنْذُ الأَزَلِ تَعْرِفُ بارِئَها. فَيَا مَنْ يَبْحَثُ عَنِ السَّعادَةِ.. هُنا السَّعادَةُ.

كَمَا قالَ الإِمامُ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

"إِنَّ فِي القَلْبِ شَعَثًا: لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَيْهِ وَحْشَةً: لَا يُزِيلُها إِلَّا الأُنْسُ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ، وَفِيهِ حُزْنًا: لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرورُ بِمَعْرِفَتِهِ وَصِدْقِ مُعامَلَتِهِ، وَفِيهِ قَلَقًا: لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا الاجْتِماعُ عَلَيْهِ وَالفِرارُ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَفِيهِ نيرانَ حَسَراتٍ: لَا يُطْفِئُها إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَقَضائِهِ وَمُعانَقَةِ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقائِهِ، وَفِيهِ طَلَبًا شَديدًا: لَا يَقِفُ دونَ أَنْ يَكونَ هُوَ وَحْدَهُ المَطْلوبَ، وَفِيهِ فاقَةً: لَا يَسُدُّها إِلَّا مَحَبَّتُهُ وَدَوامُ ذِكْرِهِ وَالإِخْلاصُ لَهُ، وَلَوْ أَعْطَى الدُّنْيا وَمَا فيها لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الفاقَةَ أَبَدًا!!".

وَقالَ: "فَإِنَّ ذَوْقَ مَثاقيلِ الذَّرِّ مِنْ حَلاوَةِ الإِيمانِ لَا تُعادِلُ لَذَّاتِ الدُّنْيا بِأَسْرِها". فَالنَّعيمُ الحَقيقِيُّ هُوَ نَعيمُ الأَرْواحِ الَّذِي لَا مُنَغِّصَ لَهُ، وَالعَذابُ الحَقيقِيُّ هُوَ عَذابُ الأَرْواحِ الَّذِي لَا هَناءَ مَعَهُ.

فصلٌ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾

◆

وَرَمَضانُ شَهْرُ القُرآنِ، قوتُ الرُّوح وَشِفاؤُها، وَفيهِ يَتَخَفَّفُ المُسْلِمُ مِنْ مُؤْنَةِ الجَسَدِ لِيُقْبِلَ عَلَى مائِدَةِ الرُّوحِ. فَرَضَهُ اللَّهُ سُبْحانَهُ- فَـ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2]-.

وَأَعْلَمَ الرَّحْمَانُ خَلْقَهُ قائِلًا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: 57-58].

لِشِفاءِ الرُّوحِ وَنَعيمِها، وَإِنْ صَحَّتْ صَحَّتِ الأَبْدانُ وَقَلَّ سَقَمُها وَنَعِمَتْ، وَالعَكْسُ صَحيحٌ؛ إِنْ شَقِيَتْ شَقِيَتِ الأَبْدانُ وَكَثُرَ سَقَمُها.

فَالجَسَدُ مُرْتَبِطٌ بِالشَّهَواتِ كَالطَّعامِ وَالشَّرابِ وَالنِّكاحِ، وَمُنْذُ بِدايَةِ الخَليقَةِ عَلِمَ إِبْليسُ أَنَّ هَذا مَدْخَلُهُ لِإِغْواءِ البَشَرِيَّةِ وَجَعْلِها تَحيدُ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ الَّذي أَرادَ لَهُ التَّكْريمَ وَالنَّعيمَ المُقيمَ. فَأَغْوَى سَيِّدَنا آدَمَ بِالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَوَعَدَ بِإِغْواءِ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ لَكِنْ:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28].

« لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِيَدِهِ، مَكَثَ جَسَدًا مِنْ طِينٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَجَعَلَتِ الْمَلَائِكَةُ تَمُرُّ بِهِ فَتَفْزَعُ مِنْهُ لَمَّا رَأَوْهُ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ مِنْهُ فَزَعًا إِبْلِيسُ، فَكَانَ يَمُرُّ بِهِ فَيَضْرِبُهُ، فَيُصَوِّتُ الْجَسَدُ كَمَا يُصَوِّتُ الْفَخَّارُ يَكُونُ لَهُ صَلْصَلَةٌ، وَيَقُولُ: لِأَمْرٍ مَا خُلِقْتَ! ثُمَّ دَخَلَ مِنْ فِيهِ وَخَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ، وَقَالَ

لِلْمَلَائِكَةِ: لَا تَرْهَبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّ رَبَّكُمْ صَمَدٌ وَهَذَا أَجْوَفُ، لَئِنْ سُلِّطْتُ عَلَيْهِ لَأُهْلِكَنَّهُ » [تفسير ابن كثير].

فَعَلِمَ إِبْلِيسُ مِنَ البِدايَةِ ضَعْفَ آدَمَ فَهو خُلِقَ أَجْوَفَ، وَالجَوْفُ مُسْتَقَرُّ الطَّعامِ وَالشَّرابِ. فَحاجَةُ آدَمَ لِلطَّعامِ وَالشَّرابِ هِيَ صِفَةُ كَمالٍ فِي حَقِّهِ إِنْ وُظِّفَتْ لِلْإِعْمارِ وَالسَّعْيِ، فَلَوْلا الحَاجَةُ لِلطَّعامِ وَالشَّرابِ وَالشَّهَواتِ بِصورَةٍ عامَّةٍ لَمَا انْتَشَروا وَسَعَوْا فِي الأَرْضِ بَحْثًا عَنِ الرِّزْقِ.

وَلَكِنَّها نُقْطَةُ ضَعْفٍ عَظيمَةٌ قَدْ تَسْتَعْبِدُ الإِنْسانَ وَتُشْقيهِ. وَانْظُرْ لِحالِ مَلايينَ أَوْ رُبَّما مِلياراتٍ اسْتَعْبَدَتْهُمْ وَأَضْناها الحُصولُ عَلَى فُتاتِ المَوائِدِّ فِي سَبيلِ سَدِّ رَمَقِهِمْ ، يَخْدِمونَ آخَرينَ لَيْلًا نَهارًا فَمَا عَرَفوا لِلْحَياةِ طَعْمًا غَيْرَ طَعْمِ الكَدِّ وَالشَّقاءِ. وَحَتَّى مَنْ كَانَتْ غايَتُهُ فِي الحَياةِ فَقَطْ لَذيذَ الطَّعامِ وَالشَّرابِ فَهِيَ حَياةٌ بائِسَةٌ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعاشَ، وَهِيَ مَا ذَمَّها القُرآنُ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: 12].

وَلَوْ نَظَرْتَ لِحالِ كَثيرٍ مِنْ حالِ الكِلابِ وَالقِطَطِ فِي الغَرْبِ لَوَجَدْتَها تَنْعَمُ بِمُسْتَوَياتٍ مَعيشِيَّةٍ وَنَعيمٍ وَتَرَفٍ وَتَرْفيهٍ قَدْ لَا نَحْلُمُ بِهِ نَحْنُ فِي كَثيرٍ مِنْ بِلادِ العالَمِ الثَّالِثِ. لَكِنْ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ هَلْ جَعَلَ لَها قيمَةً أَوْ وَزْنًا فِي الحَياةِ؟! وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَصيرَ بَشَرًا لَها أَحاسيسُ وَمَشاعِرُ؟! وَقَبْلَ ذَلِكَ أَلَها حُرِّيَّةٌ تَفْعَلُ مَا تَشاءُ وَتَحْيا كَيْفَ شاءَتْ؟! الإِجابَةُ قَطْعًا: لَا.

فَلَذيذُ الطَّعامِ وَالشَّرابِ بِحَدِّ ذاتِهِ لَوْ صَارَ الغايَةَ القُصْوَى لِلنَّاسِ لَنْ يَجْعَلَ لِحَياتِهِ قيمَةً وَمَعْنًى، وَلَنْ يَسْتَمْتِعَ بِهِ. فَحاجَةُ الطَّعامِ وَالشَّرابِ قَدْ تَسْتَعْبِدُ الإِنْسانَ وَتُحَوِّلُ حَياتَهُ لِجَحيمٍ، وَالحَلُّ يَكونُ دَوْمًا بِتَحَمُّلِ شِدَّةٍ فَتْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ لِيَتَجاوَزَ ضَعْفَهُ وَيُطَوِّرَ قُدُراتِهِ، بِها سَيَحْصُلُ عَلَى حَياةٍ أَفْضَلَ مِنْ ناحِيَةِ المَلَذَّاتِ وَالغاياتِ وَالتَّطَلُّعاتِ.أَمَّا مَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ وَهَمُّهُ سَدُّ رَمَقِهِ فَغالِبًا لَنْ يَحْلُمَ يَوْمًا أَنْ يَصيرَ "كَلْبًا أُوروبِيًّا" يُغْدَقُ عَلَيْهِ مَا طابَ وَلَذَّ.

فَعَلِمَ إِبْلِيسُ جانِبَ ضَعْفِ آدَمَ، فَكانَ أَنْ أُخْرِجهُ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ وَمِنَ المَلَذَّاتِ إِلَى الشَّقاءِ، فَقالَ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: 120].

رَبُّ آدَمَ مَنْ خَلَقَهُ وَكَرَّمَهُ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، وَقالَ لَهُ: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 35].

ثُمَّ ضَمِنَ لَهُ النَّعِيمَ المُقِيمَ: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: 118-119].

حَتَّى جَوْفُ آدَمَ ضَمِنَ امْتِلاءَهُ دَوْمًا بِلا تَعَبٍ وَلَا كَدٍّ. وَحَذَّرَهُ مِنْ إِبْلِيسَ: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه: 117].

وَلَكِنْ ضَعُفَ أَبونا آدَمُ -عَلَيْهِ السَّلامُ-، فَخاطَبَ إِبْلِيسُ فِي آدَمَ غَرائِزَ وَشَهَواتِ الجَوْفِ، وَحَرَّكَ الهَوَى والطَّمَعَ فِيهِ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: 120-121].

"شَجَرَةُ الخُلْدِ" ضَمانُ أَنْ تَصيرَ خالِدًا، وَ"مُلْكٌ لَا يَبْلَى"، وَمَا طَلَبُ المُلْكِ إِلَّا لِأَنَّهُ يَسُدُّ جَمِيعَ الشَّهَواتِ وَيُحَرِّكُ وَيُشْبِعُ كَوامِنَ ضَعْفٍ أُخْرَى. مَا أَخْرَجَ أَبانا آدَمَ مِنَ الجَنَّةِ إِلَّا ضَعْفُهُ. فَالسَّوْأَةُ رَمْزُ الهَوَى وَمَا يَسْتُرُها مادِّيًّا (الثِّيَابُ) وَمَعْنَوِيًّا (التَّقْوَى). بَيَّنَ اللَّهُ ذَلِكَ لِآدَمَ وَبَنِيهِ: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 26].

ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ فِي الآيَةِ الَّتِي بَعْدَها: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 27].

فَجَوْفُ آدَمَ وَحاجَتُهُ لِلِامْتِلاءِ هِيَ مَا أَخْرَجَهُ مِنَ النَّعِيمِ. وَكَمَا قالَ الرَّسولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » [متفق عليه].

فصلٌ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

◆

فَشُعورُ الإِنْسانِ بِالحاجَةِ دَوْمًا هُوَ مَا يَدْفَعُ لِلرَّكْضِ، وَأَنْ يَخْدِمَ هَذا وَيَدوسَ عَلَيْهِ هَذا، خَوْفًا مِنْ حاجَةٍ لَا تُسَدُّ، وَأَنْ يَخْدَعَ وَيَغُشَّ وَيَسْرِقَ. وَلَوْ رَكَنَ لِمُسَبِّبِ الأَسْبابِ لَكَفاهُ المُؤْنَةَ وَالرِّزْقَ. فَمَا خُلِقَ الإِنْسانُ لِيَكونَ عَبْدًا لِإِنْسانٍ آخَرَ يُعْطيهِ مِنَ الفُتاتِ مَا يَسُدُّ بِهِ رَمَقَهُ وَيَجْعَلُهُ فِي حاجَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، وَيُعْطي هَذا الفُتاتَ حَتَّى لَا يَموتَ فَيَفْقِدَ مَنْ يَخْدِمُهُ.

فَهُوَ كَالقِبْطِ حينَ قالوا لِفِرْعَوْنَ: "لَا تَقْتُلْ بَني إِسْرائيلَ كُلَّ عامٍ فَيَفْنَوْا وَلَا نَجِدَ مَنْ يَخْدِمُنا"، لِيَسْتَمِرَّ حالُ بَني إِسْرائيلَ كَمَا قالَ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

لِيَكونَ بَعْثُ موسَى لِيَتَّبِعَهُ بَنُو إِسْرائيلَ إِيذانًا بِنَعيمٍ دُنْيَوِيٍّ لِبَني إِسْرائيلَ؛ فَكَما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5].

لِيَصيرَ حالُ بَني إِسْرائيلَ بَعْدَ أَنْ صَبَروا وَاتَّبَعوا مَنْهَجَ اللَّهِ وَتَغَلَّبوا عَلَى ضَعْفِهِمْ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [طه: 80].

وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ لُحومِ الطُّيورِ وَشَرابٌ مِنْ عَسَلٍ وَلَبَنٍ مُصَفًّى، يَأْتيهِمْ صَباحَ مَساءٍ لِيَعيشَ بَنُو إِسْرائيلَ "جَنَّةً أَرْضِيَّةً" بِاتِّباعِهِمْ مَنْهَجَ اللَّهِ وَتَغَلُّبِهِمْ عَلَى ضَعْفِهِمْ.

أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ لِلْأَرْضِ دارِ شَقاءٍ وَجُهْدٍ، لَكِنْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَعَ آدَمَ مَنْهَجَ السَّعادَةِ وَالحَياةِ الطَّيِّبَةِ: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: 123-124].

وَمَعَ التَّحْذيرِ الرَّبَّانِيِّ: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 27]. لِيُحْجِمَ الإِنْسانُ عَنِ الطَّمَعِ المُهْلِكِ.

وَانْظُرْ كَيْفَ دُوَلٌ أُبيدَتْ وَشُعوبٌ اسْتُعْمِرَتْ وَسُخِّرَتْ لِخِدْمَةِ أَطْماعِ أَشْخاصٍ وَأَفْرادٍ وَدُوَلٍ أُخْرَى. وَإِلَى الآنَ صِراعُ الإِنْسانِ الأَعْظَمِ هُوَ "صِراعُ المَوارِدِ"؛ فَمَنْ لَمْ يَعْصِمِ اللَّهُ كَحالِنا يَتَقاتَلُ لِمِئاتِ السِّنينَ بِسَبَبِ المَوارِدِ، وَدُوَلٌ فَشِلَتْ وَانْهارَتْ بِسَبَبِ طَمَعِ أَشْخاصٍ وَمَجْموعاتٍ فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى مَوارِدِ البِلادِ وَأَرْزاقِ العِبادِ فِي الأَرْضِ. وَلَوْ اتَّبَعوا مَنْهَجَ اللَّهِ لَسَعِدوا جَميعًا وَلَاكْتَفوا وَسَعِدوا:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96].

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ

أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: 15-17].

غَلَبَهُمْ ضَعْفُهُمْ وَحاجَةُ جَوْفِهِمُ الَّتِي لَا تُسَدُّ، فَهُمْ فِي احْتِياجٍ مُسْتَمِرٍّ.

وَلِتَعْرِفَ غَباءَ الإِنْسانِ وَضَعْفَهُ وَكَيْفَ يُخْدَعُ وَيُسَخَّرُ وَيُسْتَعْبَدُ، انْظُرْ لِلْمُتَجَبِّرِينَ مِنَ الطُّغاةِ كَيْفَ حالُهُمْ؟ إِنَّهُمْ بَشَرٌ أَمْثالُنا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبونَ، رُبَّما لَا يَصْبِرُ عَلَى الطَّعامِ يَوْمًا واحِدًا، وَلَوْ مُنِعوا مِنَ الطَّعامِ لَأَذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ بَحْثًا عَنْهُ، أَمَّا الماءُ فَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِ. كَيْفَ هؤلاءِ اسْتَعْبَدوا وَسَخَّروا مَلايينَ البَشَرِ لِخِدْمَةِ مَصالِحِهِمْ وَامْتِلاءِ جَوْفِهِمُ الَّذِي لَا يَسُدُّهُ جَبَلانِ مِنَ الذَّهَبِ؟! فَضَعْفُهُمْ وَشَهْوَتُهُمْ لِلْمُلْكِ الَّذِي "لَا يَبْلَى" -وَسَيَبْلَى شاؤوا أَمْ أَبَوْا- بِالإِضافَةِ لِرُكونِ وَضَعْفِ المُسْتَضْعَفينَ فَعَلَ بِهِمْ هَذا، وَهَذا هُوَ العامِلُ الأَساسِيُّ.

هوى المُلْكِ وَالجَاهِ هِيَ مَا يَسْتَعْبِدُ مُجْتَمَعًا كامِلًا، فَخَلَقوا نِظامًا تَراتُبِيًّا، كُلُّ "سَيِّدٍ" عَلَى مَا دونَهُ وَ"عَبْدٍ" لِمَا فَوْقَهُ. وَيُصْبِحُ التَّنافُسُ لَا تَنافُسَ عِبادَةٍ وَإِعْمارٍ كَمَا أَرادَهُ اللَّهُ، بَلْ تَنافُسَ اسْتِعْلاءٍ وَتَكَبُّرٍ وَهَوانٍ، فَكُلٌّ يَسْعَى لِسَدِّ ضَعْفِهِ بِاسْتِعْبادِ مَا يَلِيهِ، وَسَعْيُهُمُ الأَكْبَرُ لِقَبِ "خادِمٍ" أَوْ "عَبْدِ المَلِكِ"، لَا المَلِكِ اللَّهِ سُبْحانَهُ. بَلِ المَلِكِ الضَّعيفِ الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَى الطَّعامِ وَالشَّرابِ كَمَا حكى اللَّهُ عَنْ سَفَهِ عُقولِ النَّصارَى حينَ قالَ سُبْحانَهُ: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: 75].

وَلَعَلَّ إِبْلِيسَ مَنْ أَضَلَّهُمْ كَانَ أَفْقَهَ مِنْهُمْ حينَ قالَ: "إِنَّ رَبَّكُمْ صَمَدٌ" أَيْ (لَا جَوْفَ لَهُ)، وَلَا حاجَةَ لَهُ لِلطَّعامِ وَالشَّرابِ وَلَا الصَّاحِبَةِ، "وَهَذا أَجْوَفُ لَئِنْ سُلِّطْتُ عَلَيْهِ لَأُهْلِكَنَّهُ".

مَنْهَجُ اللَّهِ هُوَ سَبيلُ العَيْشِ المُنَعَّمِ وَالهَنِئِ فِي هَذِهِ الأَرْضِ، وَلَكِنَّ مَا اخْتَلَفَتْ بِهِ الأَرْضُ عَنِ الجَنَّةِ أَنَّ نَعيمَها لَا يَأْتي إِلَّا بِتَعَبٍ، وَالنَّعيمَ فيها لَا يُدْرَكُ بِالنَّعيمِ؛ كَحَالِ بَني إِسْرائيلَ حينَ اشْتَدَّ بَطْشُ فِرْعَوْنَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ بَعْثَةِ مُوسَى: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْهَجَ اللَّهِ وَسَبيلَهُ: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 129].

فَتَحَقَّقَ مَوْعِدُ اللَّهِ بِمَا صَبَروا: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 137].

وَقالَ سُبْحانَهُ فيهِمْ أَيْضًا: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: 57-59].

وَالمَنْهَجُ هُوَ المَنْهَجُ، وَمَنْ اتَّبَعَ فَالنَّتيجَةُ هِيَ هِيَ. فَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ: "مَنْ عَدُوّي؟ وَمَا حَجْمُ التَّحَدّياتِ الَّتي تُواجِهُني؟"، بَلِ اسْأَلْ نَفْسَكَ: "هَلْ أَتَّبِعُ مَنْهَجَ اللَّهِ كَمَا هُوَ، أَمْ أَتَّبِعُ مَا أَهْوَى وَأُريدُ؟". فِي هَذِهِ الحالَةِ أَنْتَ تَبَعٌ لِهَواكَ وَسَيَكونُ حالُكَ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: 50].

فَمَنْهَجَ اللهِ اتَّبَعَهُ الصَّحابَةُ، فَصارُوا بِهِ مِنْ عَبيدٍ إِلَى سادَةٍ، وَمِنْ أَعْرابٍ إِلَى حُكّامٍ لِبِلادِ فارِسَ وَالرُّومِ، رَغْمَ تَعْذيبِ السّادَةِ وَتَجْويعِهِمْ وَكَيْدِ الأَحْزابِ وَاليَهُودِ وَالنَّصارَى؛ وَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: 5].

فَلِمَنْهَجِ اللَّهِ صِياغَةٌ كُلِّيَّةٌ لِلْإِنْسانِ (غاياتٌ وَسُبُلٌ وَوَسائِلُ) يَتَخَلَّصُ بِهَا الإِنْسانُ مِنْ ضَعْفِهِ وَيَصيرُ بِها كَيْدُ عَدُوِّهِ -كَمَا قالَ سُبْحانَهُ- ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 76]. مِنْها الصِّيامُ، يُدَرِّبُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ عَلَى الانْضِباطِ وَالالْتِزامِ وَتَحَمُّلِ المَشاقِّ فِي سَبيلِ غايَةٍ عُظْمَى.

وَحَوَّلَ بِهِ الصَّحابَةَ، فَهَذَا مُصْعَبٌ الَّذِي اسْتَحالَ مِنْ فَتًى مُنَعَّمٍ، رُبَّمَا كَانَ جُلُّ هَمِّهِ الطِّيبُ وَالْمَلَابِسُ، إِلَى سَفِيرٍ لِلْإِسْلَامِ يُسْلِمُ سَادَاتُ يَثْرِبَ عَلَى يَدَيْهِ، وَيَسْمَعُ بِذِكْرِهِ الْيَوْمَ مِلْيَارُ بَشَرٍ أَوْ يَزِيدُونَ. وَحَوَّلَ غَيْرَهُ مِمَّنْ كَانَ يَقْضِي يَوْمَهُ كَدًّا وَبَحْثًا وَرَاءَ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، كَحَالِ أَبِي هُرَيْرَةَ حِينَ قَالَ: "كُنْتُ أَجِيرًا لِبُسْرَةَ بِنْتِ غَزْوَانَ بِطَعَامِ بَطْنِي وَعُقْبَةِ رِجْلِي، فَكُنْتُ أَخْدُمُ إِذَا نَزَلُوا، وَأَحْدُو إِذَا رَكِبُوا"، فَأَصْبَحُوا سَادَةً إِنْ شَاءُوا تَلَذَّذُوا بِمَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ طَيِّبَاتٍ جُلِبَتْ مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ فَتْحًا أَوْ جِزْيَةً. وَكَانَ مِنْ حَالِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ خَتَمَ حَدِيثَهُ بِقَوْلِهِ: "فَزَوَّجَنِيهَا اللهُ" -يَقْصِدُ بُسْرَةَ بِنْتَ غَزْوَانَ الَّتِي كَانَ خَادِمًا لَهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِ-؛ "فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الدِّينَ قِوَامًا، وَجَعَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ إِمَامًا".

حَوَّلَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ نَفْسَهُ لَا تَصْبِرُ عَلَى فِقْدَانِ وَجْبَةِ طَعَامٍ إِلَى قَوْمٍ يَصُومُونَ أَيَّامَ الْحَرِّ، وَيَلْقَوْنَ عَدُوَّهُمْ مُسَافِرِينَ وَهُمْ صَائِمُونَ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَنْهَاهُمْ عَنِ الصَّوْمِ، آخِذًا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى رُخْصَةِ السَّفَرِ حَتَّى لَا يَضْعُفُوا، حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: "إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ، فَأَفْطِرُوا". وَقَالَ أَيْضًا: "ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ"[رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ] ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِفْطَارِهِمْ مِنْ مَهَامَّ بَذَلُوهَا زِيَادَةً عَجَزَ الصَّائِمُونَ عَنْهَا. وَكُلُّ مَا شَرَعَ اللهُ، إِفْطَارًا كَانَ أَوْ صِيَامًا، فَلِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ

أَمَّا نَحْنُ الَّذِينَ نَبْحَثُ عَنِ الرُّخْصَةِ لِلْإِفْطَارِ، وَقَدْ يُفْطِرُ بَعْضُنَا بِلَا عُذْرٍ، وَإِنْ صُمْنَا يَتَوَقَّفُ الْعَالَمُ مِنْ حَوْلِنَا، وَنَأْوِي إِلَى رُكْنٍ بَارِدٍ حَتَّى لَا نَذُوقَ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ الْقَلِيلَةَ، وَمَا عَلِمْنَا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24]، فَاسْتَعْبَدَتْنَا

شَهَوَاتُنَا، فَأَذَلَّتْنَا، وَأَشْقَانَا فُتَاتُ الْخُبْزِ وَلَمْ نَسُدَّ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ، وَكَأَنَّنَا رَضِينَا بِشَجَرَةِ إِبْلِيسَ الَّتِي نَهَانَا اللهُ عَنْهَا وَتَرَكْنَا جَنَّةً وَارِفَةَ الظِّلَالِ وَالثِّمَارِ، كَانَ يُمْكِنُ أَنْ نَحْيَاهَا بِاتِّبَاعِ أَوَامِرِ اللهِ.

رَمَضَانُ يَأْتِي وَيَمُرُّ، لَكِنْ هَلْ تَبْدَأُ خَطَوَاتِ التَّخَلُّصِ مِنْ ضَعْفِكَ وَشَقَائِكَ لِتَعِيشَ آفَاقًا وَاسِعَةً، أَمْ تَرْكَنُ لِضَعْفِكَ وَضِيقِكَ؟! اسْتَعِنْ بِاللهِ وَالْجَأْ إِلَيْهِ وَابْدَأْ، وَاتْرُكِ الْخَوْفَ، فَلَمْ يَمُتْ إِنْسَانٌ مِنَ الْجُوعِ بِسَبَبِ إِضْرَابٍ عَنِ الطَّعَامِ شُهُورًا، أَيَقْتُلُكَ تَرْكُ وَجْبَتَيْنِ؟! هَلْ سَمِعْتَ بِإِنْسَانٍ لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ وَخَرَجَ فَأَصَابَتْهُ الشَّمْسُ، فَفَقَدَ السَّوَائِلَ ثُمَّ مَاتَ؟! أَلَمْ تَسْمَعْ بِمَنْ نَزَفَ دَمًا وَحَيِيَ؟!

إِنَّهَا تَصَوُّرَاتٌ خَاطِئَةٌ، وَحَيَاةٌ هَزِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ رُبَّمَا رَسَّخَهَا فِينَا إِعْلَامٌ لَا هَمَّ لَهُ سِوَى مُخَاطَبَةِ غَرَائِزِكَ لَا عَقْلِكَ، كَمَا يَفْعَلُ إِبْلِيسُ؛ فَقَاطِعْ مُعْظَمَ الْقَنَوَاتِ فِي رَمَضَانَ. وَعِنْدَكَ مَنْهَجُ السَّعَادَةِ (الْقُرْآنُ) اتْلُهُ وَتَعَلَّمْهُ وَاسْتَمِعْ لِقَنَوَاتٍ تُدَارِسُهُ وَتَتْلُوهُ. إِنَّ السَّعَادَةَ الَّتِي لَا تَجِدُهَا الْآنَ مَكْمَنُهَا فِي مَنْهَجٍ لَمْ تَتَّبِعْهُ الِاتِّبَاعَ الْقَوِيمَ. فَهَلُمَّ إِلَى وَحْيِهِ، وَقُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي أَسْمَى مَقَامَاتِ الدُّنْيَا، ذَلِكَ الَّذِي خُوطِبَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:- ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1].

بِعَبْدِهِ (مَقَامُ العُبودِيَّةِ) جَسَدًا وَروحًا. وَمَنْ قَالَ إِنَّ الإِسْراءَ بِالرُّوحِ -رَأْيٌ غَيْرُ راجِحٍ لَدَى العُلَماءِ- يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ الفَرِيقانِ أَنَّ الرُّوحَ تَقْطَعُ وَتَصِلُ مَسافاتٍ لَا يَصِلُها الجَسَدُ. فَإِنْ سَمَتْ روحُكَ فِي جَمالِ وَعَظَمَةِ مَلَكوتِ الخالِقِ لَتَحَرَّرَتْ وَتَحَرَّرَتْ قُدُراتُكَ، وَالرُّوحُ تَسْمو بِمَنْهَجِ اللهِ. فَالحالُ كَما قالَ الصَّحابَةُ: "نَكونُ مَعَكَ -غِذاءُ الرُّوحِ- فِي أَسْمَى دَرَجاتِ الإِيمانِ وَاليَقينِ ثُمَّ نُخالِطُ النِّساءَ وَالأَوْلادَ فَنَقْسو". فَأَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ قائِلًا وَمُخْبِرًا عَنْ دَرَجاتِ سُمُوٍّ لَمْ نُؤْمَرْ بِها: "فَوَاللَّهِ لَوْ تَدومونَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مَعي لَصافَحَتْكُمُ المَلائِكَةُ فِي الطُّرُقاتِ" [مسلم]. فَالسُّمُوُّ مُمْكِنٌ فَارْتَقِ وَرَتِّلْ، وَافْعَلْ كَمَا قالَ الشَّاعِرُ:

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

حَكَى القَميصُ قِصَّةَ الرُّوح وَالجَسَدِ، وَحَكَى أَيْضًا قِصَّةَ خِيانَةِ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ حينَ ﴿ جَاؤُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾. فَقالَ لَهُمْ: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: 18].

نَعَمْ سَوَّلَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلْقاءَ أَخيهِمْ فِي البِئْرِ، فَاخْتاروا لَهُ أَنْ يَكونَ عَبْدًا لِمَنِ الْتَقَطَهُ مِنَ المُسافِرينَ. هَذا حُكْمُهُمْ فيهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﴿ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾، فَكانَ مَا فَعَلوهُ إِنَّمَا هُوَ مُقَدّماتٌ ضَرورِيَّةٌ أَرادَها اللَّهُ لِيَصِلَ يُوسُفُ بِها لِلتَّكْريمِ الَّذي أَرادَهُ اللَّهُ. فَلَوْلا حَسَدُ إِخْوَتِهِ لَمَا تُرِكَ يُوسُفُ فِي البِئْرِ، وَلَا البِئْرُ لَمَا بيعَ كَعَبْدٍ عِنْدَ عَزيزِ مِصْرَ، وَلَوْلا كَيْدُ النِّسْوَةِ لِيُوسُفَ لَمَا أُودِعَ فِي السِّجْنِ، وَلَوْلا السِّجْنُ لَمَا الْتَقَى يُوسُفُ بِنادِلِ المَلِكِ لِيَكونَ سَبَبًا فِي أَنْ يُصْبِحَ يُوسُفُ عَزيزَ مِصْرَ وَخازِنَ أَمْوالِها.

الباب الخامس

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

◆

وَيَأْتِي إِخْوَةُ يُوسُفَ، وَقَدْ أَصابَهُمُ القَحْطُ وَالجُوعُ، لِيُوسُفَ:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: 58].

فَأَحْسَنَ اسْتِقْبالَهُمْ وَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ، فَأَخْبَروهُ بِأَنَّ لَهُمْ أَخًا أَصْغَرَ لَا يُطِيقُ أَباهُمْ فِراقَهُ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِأَخِيهِمْ فِي المَرَّةِ القادِمَةِ، فالسِّياسَةُ أَنْ يُعْطَى الكِلَاءُ عَلَى عَدَدِ الأَبْناءِ:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59].

وَهَدَّدَهُمْ:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: 60-61].

أَخْبَروهُ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ يَسِيرًا عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ سَيَتَحَدَّثُونَ إِلَى أَبِيهِمْ فِي هَذا الشَّأْنِ، فَأَمَرَ يُوسُفُ:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: 62].

وَأَظُنُّ بَعْدَ أَنْ كالَ لَهُمْ يُوسُف: ﴿أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، أَمَرَ بِأَنْ تُرَدَّ بَضائِعُهُمْ وَلَا تُؤْخَذَ نَظيرَ القَمْحِ لِيُسْرِعوا فِي العَوْدَةِ. فَلَمَّا رَجَعوا إِلَى أَهْلِيهِمْ أَخْبَروا أَباهُمُ الخَبَرَ:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 63].

مُنِعَ مِنَّا فِي المُسْتَقْبَلِ إِنْ لَمْ نَأْتِ بِأَخانا الصَّغيرِ. فَكانَ رَدُّ أَباهُمُ الرَّفْضَ القاطِعَ:

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 64].

فَكَيْفَ يأْمَنُهُم يَعْقوبُ الآنَ عَلَى قُرَّةِ عَيْنِهِ الآخَرِ أَصْغَرِ أَبْنائِهِ؟!رَفَضَ يَعْقوبُ الأَمْرَ أَوَّلًا. أَمَّا إِخْوَةُ يُوسُفَ فَتَفَقَّدوا رِحالَهُمْ وَحالَهُمْ ثُمَّ راوَدوا يَعْقوبَ ثانِيًا عَنِ ابْنِهِ:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65].

رَدَّ عَلَيْهِمْ يُوسُفُ ثَمَنَ البِضاعَةِ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا. ناشَدوا يَعْقوبَ مَصْلَحَةَ الأَهْلِ وَالعَشيرَةِ: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾. وَالأَنْبِياءُ يَسْعَوْنَ لِسَعادَةِ القَوْمِ فِي الدَّارَيْنِ؛ فَكَمْ مَرَّةً ناشَدَتْ قُرَيْشٌ مُحَمَّدًا الأَهْلَ وَالرَّحِمَ مَعَ تَنْكيلٍ بِهِ وَبِالمُسْلِمينَ أَنْ يَأْتِيَهُم بِخَيْرٍ مَنَعَهُ أَحَدُ مَنْ أَسْلَمَ عَنْ قُرَيْشٍ؟ كَمَا فِي قِصَّةِ وَعْدِ ثُمامَةَ لِقُرَيْشٍ: « وَاللَّهِ لَا تَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » [متفق عليه]. « فَكَتَبُوا (قُرَيْشٌ) إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْشُدُونَهُ بِاللَّهِ

وَبِالرَّحِمِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يُخَلِّي إِلَيْهِمْ حَمْلَ الطَّعَامِ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » [تفسير ابن كثير].

وَلَكِنَّ يَعْقوبَ لَنْ يُضَيِّعَ ابْنَهُ مِنْ أَجْلِ قَوْمِهِ، فَأَضافَ إِخْوَةُ يُوسُفَ: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾. لَكِنْ مِنْ قَبْلُ أَخْبَروهُ أَنَّهُمْ لَنْ يُضَيِّعوا يُوسُفَ وَلَمْ يوفوا، فَزادَ يَعْقوبُ هَذِهِ المَرَّةَ: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66].

آتَوْهُ المَواثيقَ عَلَى عَدَمِ التَّضْييعِ إِلَّا أَنْ تَهْلَكوا جَميعًا عَنْ بَكْرَةِ أَبِيكُمْ أَوْ تُغْلَبوا غَلَبَةً لَا تَسْتَطيعونَ مَعَها دَفْعَ الشَّرِّ عَنْكُمْ. أَشْهَدَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

أَرْشَدَهُمْ لِلتَّفَرُّقِ وَالدُّخولِ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ خَوْفَ الحَسَدِ وَالعَيْنِ. أُريدُ أَنَا أَنْ أَحْفَظَكُمْ لَكِنْ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. هُوَ مَنْ يُقَدِّرُ وَيَقْضي فِي مَخْلوقاتِهِ بِمَا شاءَ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

مَلْمَحٌ آخَرُ، وَوَجْهٌ آخَرُ لِقاعِدَةِ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾، فَمَا أَرادَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يُرِدْ لَمْ يَكُنْ، وَلَوْ قَضَى بِهِ وَسَعَى لِتَحْقيقِهِ الثَّقَلانِ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، فَهُوَ سُبْحانَهُ:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18].

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، قالَها يَعْقوبُ لِبَنيه، وَقالَها يُوسُفُ نَفْسُهُ لِصاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ؛ فِي سِياقٍ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ يَعْلَمُ حَقيقَةَ أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ تَحْتَ أَيِّ سُلْطانٍ وَفِي كُلِّ مَكانٍ، وَلَيْسَ لِلْبَشَرِ —عُلُوًّا أَوْ سُفولًا— إِلَّا أَنْ يَحْكُموا فِي خَلْقِهِ بِما أَرادَهُ. هُوَ قَدَرٌ:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 39-40].

فَدَخَلَ السِّجْنَ مَعَ يُوسُفَ فَتَيانِ:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36].

دَخَلَ مَعَ يُوسُفَ سَاقِي المَلِكِ، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، الَّذِي شاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُ سَبَبًا فِي مَا بَعْدُ لِإِخْراجِ يُوسُفَ وَتَمْليكِهِ. وَآخَرُ، ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾. حَتَّى الآنَ لَا يَعْلَمُ آمِرُ السِّجْنِ أَوِ المَلِكُ بِمَا سَيُحْكَمُ عَلَيْهِما، فَأَلْهَمَهُمَا اللَّهُ رُؤْيَا تُفَسِّرُ المَصِيرَ المُسْتَقْبَلِيَّ الَّذِي قَضَى اللَّهُ لَهُما بِهِ،طَلَبَا تَأْوِيلَهَا مِنْ يُوسُفَ :

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: 37].

قَبْلَ الغَداءِ تَعْلَمونَ الخبَرَ، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾. التَّوْحِيدُ وَمُجانَبَةُ الشِّرْكِ تَفْتَحُ أَبْوابَ العِلْمِ الإِلهِيِّ، فَكُلُّ عِلْمٍ صَحِيحٍ فَهُوَ يُقْتَبَسُ مِنْ مِشْكَاةِ اللَّهِ وَنورِهِ:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38].

يُوسُفُ يَتَّبِعُ الحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ مِلَّةَ إِبْراهيمَ وَمِلَّةَ آبائِهِ، فَهُوَ الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ. ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. مَا يَنْبَغِي لِمَنِ اصْطَفاهُ اللَّهُ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ عَظَمَتَهُ وَفَضْلَهُ، أَنْ يُشْرِكَ بِهِ حاشاهُمْ.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾، التَّوْحِيدُ مَنْهَجُ اللَّهِ، مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، بِهِ تُسْتَجْلَبُ النِّعَمُ، وَتُدْفَعُ النِّقَمُ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10-12].

﴿وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أَضافَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ لِلْخَيْرِ وَالتَّوْحيدِ، وَإِخْراجِ النَّاسِ مِنْ عِبادَةِ العِبادِ لِعِبادَةِ رَبِّ العِبادِ، وَمِنْ ضيقِ الدُّنْيا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، يَكْشِفُ اللَّهُ بِالْمُوَحِّدينَ الغُمَمَ الكُبْرَى وَالبَلاوِيَ العُظْمَى.

فَكَمَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَاحِقًا، كَشَفَ اللّٰهُ بِتَأْوِيلِ يُوسُفَ لِلرُّؤْيَا، وَحُسْنِ إِدَارَتِهِ لِخَزَائِنِ مِصْرَ، القَحْطَ العَظِيمَ عَنْ مِصْرَ كُلِّهَا. فَكُلُّ الأَنْبِياءِ يَبْعَثونَ بِمَنْهَجِ أَبِيهِمْ آدَمَ لِلْبَشَرِيَّةِ:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 123].

وَبِهِمْ أَيْضًا تُكْشَفُ غُمَمٌ كُبْرَى عَنِ البَشَرِيَّةِ، كُفَّارِها وَمُؤْمِنِها.

وَأَرْدَفَ يُوسُفُ قائِلًا:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 39-40].

يُوسُفُ فِي السِّجْنِ لَمْ يَتْرُكْ دَوْرَهُ فِي هِدايَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَإِخْراجِهَا مِنْ ظُلُماتِ الشِّرْكِ. ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾؟ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، هِيَ افْتِرَاءَاتٌ نَسَبْتُمْ لَهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ قُدُرَاتٍ وَقُوًى —كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً كَـ "رَع" الَّذِي سَمَّوْهُ مَلِكَ الْآلِهَةِ، وَإِلَهًا لِلْخُصُوبَةِ، وَآخَرَ لِلْقَحْطِ وَغَيْرِهَا— هَذِهِ الْآلِهَةُ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَهَا مِنْ شَرَاكَةٍ أَوْ تَحَكُّمٍ فِي أَرْضِهِ أَوْ تَحْتَ سَمَائِهِ.

بَلْ ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فِي كُلِّ الْأُمُورِ الَّتِي تَدَّعُونَ أَنَّ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ —كَإِلَهِ الْخُصُوبَةِ— يَحْكُمُ فِيهَا وَحْدَهُ وَيَقْضِي. هَذَا هُوَ إِلَهُ الْحَقِّ، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، قَيِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ عِبَادَةِ الْمُتَحَكِّمِ الْوَحِيدِ فِي قُوَى الطَّبِيعَةِ، وَقَيِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ مَنْهَجِهِ فِي سَعَادَتِهِمْ وَهَنَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فِي زَمَنِنَا الَّذِي نَعِيشُهُ الْحَقِيقَةَ، وَقَدْ بُعِثْتُ لِأَدْعُوَهُمْ إِلَى هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَسَأُبَيِّنُ لَكُمْ يَقِينًا حَقِيقَةَ قَوْلِي هَذَا، بِأَنَّ اللَّهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ قَضَى:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فَاللَّهُ هُوَ مَنْ قَضَى قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ آمِرُ السِّجْنِ أَوِ الْمَلِكُ:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41].

يَخْرُجُ السَّاقِي وَيَعُودُ لِمِهْنَتِهِ وَتَبْرَأُ سَاحَتُهُ مِنْ جَمِيعِ التُّهَمِ، وَيُصْلَبُ الآخَرُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ جُثَّتِهِ. ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، حَكَمَ اللهُ ۚ فِيهِ وَانْتَهَى، وَمَا عَلَى الْبَشَرِ إِلَّا أَنْ يُنَفِّذُوا مَشِيئَتَهُ وَقَضَاءَهُ. مَرَّةً أُخْرَى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لِذَلِكَ لَا تَخْشَ وَلَا تَخَفْ إِلَّا اللهَ، وَلَا تَعْبُدْ سِواهُ، فَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ حَقِيقَةً فيكَ وَفِي كُلِّ الْمَلَكوتِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يَظُنُّونَ أَنَّ الْمُلُوكَ وَالرُّؤَسَاءَ وَحَتَّى أَرْبَابَ الْعَمَلِ وَكِبَارَ الْعَائِلَةِ وَالزُّعَمَاءَ وَحَتَّى الشُّيُوخَ هُمُ الْمُتَصَرِّفُونَ، وَهُمْ مَنْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ، لَكِنَّ حَقِيقَةً لَا ضارَّ وَلَا نافِعَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحانَهُ.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42].

أَخْبَرَ يُوسُفُ السَّاقِيَ أَنْ يَذْكُرَ مَظْلَمَتَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ، أَمَلًا فِي رَفْعِ الظُّلْمِ عَنْ كَاهِلِهِ، فَيَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ سَرِيعًا. فَإِلَى الْآنِ لَا يَعْلَمُ يُوسُفُ مَا قَدَّرَ اللهُ وَحَكَمَ فِي أَمْرِهِ. وَهُنَا حِكْمَتَانِ:

أُولَاهُمَا: أَنَّ التَّوَكُّلَ هُوَ اطْمِئْنَانُ الْقَلْبِ مَعَ سَعْيِ الْجَوَارِحِ بِالْأَسْبَابِ تَحَرِّيًا لِلْخَيْرِ فِي أَقْدَارِ اللهِ وَقْتَ مَا شَاءَ، فَهُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ بِالْأُمُورِ وَمَآلَاتِهَا؛ لِأَنَّهَا كُلُّهَا تَحْتَ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ.

ثَانِيهُمَا: أَنَّ الصَّبْرَ يَجْلُو غِشَاوَةَ الِاضْطِرَابِ عَنِ الْعَقْلِ، فَيُعِينُ الْمَرْءَ عَلَى تَلَمُّسِ مَخَارِجِ الْفَرَجِ وَتَدَبُّرِ سُبُلِ الْخَلَاصِ، وَبِذَلِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُ مِنَ الْآفَاقِ مَا كَانَ مَحْجُوبًا عَنْهُ، أَمَّا الْجَزَعُ وَالسُّخْطُ فَلَا يُورِثَانِ إِلَّا عَمَى الْبَصِيرَةِ وَتَبْدِيدَ الْأَجْرِ، دُونَ أَنْ يُغَيِّرَا مِنْ مَقَادِيرِ اللهِ شَيْئًا.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾؛ تَمَنَّى يُوسُفُ أَنْ يَخْرُجَ سَرِيعًا، لَكِنَّ اللَّهَ قَدَّرَهُ وَقَضَى أَنْ يَخْرُجَ عَزِيزًا حَاكِمًا عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ وَأَمْوَالِهَا:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: 43-44].

رَأَى الْمَلِكُ رُؤْيَا أَهَمَّتْهُ وَطَلَبَ تَفْسِيرَهَا، وَهُوَ مُسَدَّدٌ بِالْحِكْمَةِ لَمْ يَمْنَعْ عِظَمُ مَنْصِبِهِ مِنْ إِشْهَارِ جَهْلِهِ طَلَبًا لِلْعِلْمِ. فَقَالَ جُلَسَاؤُهُ وَمُسْتَشَارُوهُ: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ

بِعَالِمِينَ﴾، جُلَساءُ المَلِكِ وَحُكَمَاؤُهُ وَعُلَمَاؤُهُ قالوا: أَحْلامٌ، لَوْ كَانَتْ رُؤًى فَنَحْنُ لَا عِلْمَ لَنا بِتَأْوِيلِ الرُّؤَى. هُنا شاءَ اللَّهُ لِسَاقِي المَلِكِ أَنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- مِنْ أَوَّلِ رُؤْيَاهُ وَتَحَقَّقَتْ ,فَخَرَجَ وَسَقَى المَلِكَ خَمْرًا:

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: 45].

فصل: وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ

◆

ذَهَبَ لِيُوسُفَ فِي السِّجْنِ:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 46].

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾، مَشْهَدٌ يَسْتَحِقُّ التَّأَمُّلَ، فَفِي السِّجْنِ قَالَا لَهُ: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. إِنَّ مَعْدِنَ مَنْ يَصْطَفِيهِمُ اللهُ لَا يَصْدَأُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِخَيْرِ الْعَالَمِينَ، بِمَنْهَجٍ كُلُّهُ فَلَاحٌ وَسَعَادَةٌ لِلْبَشَرِيَّةِ. ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

عَجَبٌ عُجَابٌ! رَجُلٌ دَخَلَ السِّجْنَ ظُلْمًا، تَآمَرَ عَلَيْهِ عَزِيزُ المَلِكِ، لَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ. أَوَّلُ رُؤْيَا سَاقِي المَلِكِ فَخَرَجَ وَعَادَ لِعَمَلِهِ، وَأَوْصَاهُ أَنْ يَذْكُرَ قِصَّتَهُ عِنْدَ المَلِكِ لِيَرْفَعَ الظُّلْمَ عَنْ كَاهِلِهِ فَنَسِيَ السَّاقِي الأَمْرَ، وَالآنَ أَتَاهُ بِرُؤْيَا لِلْمَلِكِ رَاجِيًا: ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. لَمْ يُعَاتِبْهُ عَلَى نِسْيَانِهِ وَتَرْكِهِ سِنِينَ فِي السِّجْنِ، أَوْ يَقُولُ لَهُ: "ارْجِعْ لِلْمَلِكِ فَلْيَنْظُرْ فِي قَضِيَّتِي وَيَرْفَعِ الظُّلْمَ عَنْ كَاهِلِي"، أَوْ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ مُقَابِلًا تَأْوِيلَهُ لِلرُّؤْيَا. أَيُّ فَعَالِيَّةٍ هَذِهِ

وَإيجابِيَّةٍ؟! ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. رُؤْيَا تَأْويلُها يَكْشِفُ غُمَّةً وَخَطَرًا وَبَلاءً يَنْتَظِرُ مِصْرَ وَأَهْلَها وَلَا يَسْتَطيعُ غَيْرُهُ تَأْويلَها.

فَسَّرَ يُوسُفُ رُؤْيَا المَلِكِ حينَها:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 47-49].

لَمْ يُخْبِرْهُ تَأْويلَها فقط الَّذي هُوَ سِنينُ جَدْبٍ وَشِدَّةٍ وَمَجاعَةٍ سَتَجْتاحُ مِصْرَ، لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَيْضًا كَيْفَ النَّجاةُ مِنْها، فَيُوسُفُ يَعْلَمُ مَنْهَجَ اللهِ الَّذي فيهِ نَجاةُ البَشَرِيَّةِ وَسَعَتُها فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50].

أَرْسَلَ المَلِكُ طالِبًا يُوسُفَ سَريعًا، لَكِنِ انْظُرْ لِمَعْدِنِ يُوسُفَ وَتَأَمَّلِ المَوْقِفَ الَّذي عَجِبَ مِنْهُ خَيْرُ البَشَرِ مُحَمَّدٌ -ﷺ-، قالَ:

« يَرْحَمُ اللَّهُ يُوسُفَ، لَوْ كُنْتُ أَنَا لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ حِينَ جَاءَنِي، وَلَقَدْ كَانَ حَلِيمًا ذَا أَنَاةٍ » [البخاري].

وَهُوَ تَواضُعٌ مِنْهُ -ﷺ-، فَلَقَدْ رَدَّ يُوسُفُ رَسولَ المَلِكِ وَقالَ: "اسْأَلْهُ عَنْ سَبَبِ سِجْنِي وَمَا كادَتْهُ لِي امْرَأَةُ العَزيزِ وَصاحِباتُها وَالعَزيزُ نَفْسُهُ".

بَدَأَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ مَعَ امْرَأَةِ العَزيزِ، فَبَعْدَ أَنْ أَلْقاهُ إِخْوَتُهُ فِي البِئْرِ:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 19-20].

أَلْقَى إِخْوَةُ يُوسُفَ يُوسُفَ فِي البِئْرِ، وَجاءَتْ سَيَّارَةُ مُسافِرِينَ فَأَرْسَلوا مَنْ يَطْلُبُ الماءَ لَهُمْ، تَعَلَّقَ يُوسُفُ فِي الدَّلْوِ وَخَرَجَ فَقالَ: ﴿يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾. نَوَوْا أَنْ يَبيعوهُ كَرَقيقٍ وَعَبْدٍ، وَلَكِنَّ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وَأَعَدَّ اللَّهُ لِيُوسُفَ أَمْرًا آخَرَ. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، فَباعوهُ بِدَراهِمَ مَعْدودَةٍ. وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِيُوسُفَ:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

فَمَنِ اشْتَراهُ هُوَ عَزيزُ مِصْرَ وَخازِنُ أَمْوالِها، وَعَهِدَ بِهِ لِامْرَأَةٍ لِتَرْبِيَتِهِ وَتَنْشِئَتِهِ عَسَى أَنْ يَتَّخِذَهُ العَزيزُ وَامْرَأَتُهُ وَلَدًا (فَهُوَ قيلَ عَنْهُ إِنَّهُ لَا يَأْتِي النِّساءَ، وَأَظُنُّهُ عَقيمًا لَا وَلَدَ لَهُ فَتَبَنَّى يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلامُ-)، أَوْ يَنْفَعَهُمْ بِاتِّخاذِهِ خادِمًا وَمُساعِدًا مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ. فِي بَيْتِ العَزيزِ بَدَأَتْ أُولَى خَطَواتِ وَمَراحِلِ التَّمْكينِ وَالسِّيادَةِ لِيُوسُفَ بِالعِلْمِ، فَعَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمَ تَأْويلِ الأَحاديثِ (الرُّؤَى وَالأَحْلامِ)، وَهُوَ يَدْخُلُ فِي عِلْمِ المُسْتَقْبَلِيَّاتِ وَمآلاتِ الأُمورِ.

حَكَمَ اللهُ لِيُوسُفَ بِالْمُلْكِ وَالْعِزَّةِ وَالرِّفْعَةِ، حِينَ أَرَادَ إِخْوَتُهُ إِذْلَالَهُ وَقَتْلَهُ، وَأَرَادَ الْمُسَافِرُونَ أَنْ يُصْبِحَ عَبْدًا يَخْدُمُ رُبَّمَا حَتَّى سَفَلَةَ الْقَوْمِ وَأَرْذَالَهُمْ، فَبَاعُوهُ ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

لَكِنَّ اللهَ أَرَادَ لِيُوسُفَ الْعُلُوَّ وَالرِّفْعَةَ، فَهَيَّأَ لَهُ أَسْبَابَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ كَيْدَ مَنْ أَرَادَ خِلَافَ ذَلِكَ مُقَدِّمَاتٍ لِوُصُولِ يُوسُفَ لِمَا أَرَادَهُ اللهُ لَهُ، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

نَشَأَ يُوسُفُ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ، وَتَرَعْرَعَ تَحْتَ رِعَايَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ الَّتِي قِيلَ إِنَّهَا تُدْعَى زَلِيخَةَ. وَآتَى اللهُ يُوسُفَ جَمَالًا بَاهِرًا، قَالَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« أُعْطِيَ يُوسُفُ شَطْرَ الْحُسْنِ » [مسلم].

فَلَمْ تَصْبِرِ امْرَأَةُ العَزِيزِ فِي بَيْتِهَا وَهُوَ عَبْدُها، رَجُلٌ كَانَ أَجْمَلَ أَهْلِ مِصْرَ، بَلْ أَجْمَلَ رَجُلٍ عَلَى الأَرْضِ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ، وَجَمَعَ لِسَيِّدِنا يُوسُفَ جَمَالَ الصُّورَةِ وَالأَخْلاقِ:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: 23].

أَغْلَقَتِ الأَبْوابَ وَتَطَيَّبَتْ وَتَزَيَّنَتْ وَدَعَتْهُ لِيَزْنِيَ بِها، يُوسُفُ عَبْدًا وَهِيَ سَيِّدَتُهُ لَكِنْ هُوَ مِنْ عِبادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. قالَ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، سَيِّدُ يُوسُفَ العَزِيزُ أَكْرَمَهُ فَلَنْ يَخونَهُ وَيُلَطِّخَ عِرْضَهُ وَيَفْعَلَ شَيْئًا يَسْتَنْكِرُهُ كُلُّ ذَوي فِطْرَةٍ سَوِيَّةٍ.

فَتًى فِي الغَرْبِ اليَوْمَ مَنْ يُبِيحُ الزِّنا وَالعَلاقاتِ خارِجَ إِطارِ الزَّواجِ الشَّرْعِيِّ يَسْتَنْكِرُ وَيُقَبِّحُ تَقْبيحًا شَديدًا "الخِيانَةَ الزَّوْجِيَّةَ"، وَيُعاقِبُ مَنْ ارْتَكَبَها بِمَنْحِ الشَّريكِ الآخَرِ حَقَّ طَلَبِ الطَّلاقِ وَالانْفِصالِ، وَهُوَ حَقٌّ فِي النَّصْرانِيَّةِ لَا يُمْنَحُ أَبَدًا إِلَّا فِي هَذِهِ الحَالَةِ. بَلْ حَتَّى مَنْ ارْتَبَطوا عاطِفِيًّا لِمُدَّةٍ وَلَوْ قَصيرةً يَعْتَبِرونَ الخِيانَةَ هَدَّامَةً لِهَذا الرِّباطِ العاطِفِيِّ. أَمَّا إِنْ كَانَ المُشارِكُ فِي الخِيانَةِ قَريبًا أَوْ صَديقًا لِلْمَخونِ فَالجَريرَةُ أَكْبَرُ عِنْدَهُمْ، وَرُبَّما قَطَعَ عَلاقَتَهُ مَعَ قَريبِهِ أَوْ صَديقِهِ مَنْ خانَهُ مَعَ شَريكِهِ، وَهَذا مَشْهورٌ وَمُتَعارَفٌ عِنْدَهُمْ وَيُعْتَبَرُ مِنْ أَقْبَحِ القَبيحِ وَمِنْ خَوارِمِ المُرُوءَةِ

وَسُوءِ الأَخْلاقِ (مِثالُ ذَلِكَ حينَ يَخونُ الشَّابُّ حَبيبَتَهُ مَعَ أُخْتِها أَوْ العَكْسِ، الحَبيبةُ مَعَ أَخيهِ، وَالصَّديقُ المُقَرَّبُ مَعَ حَبيبَةِ صَديقِهِ...).

فَكَيْفَ يُلَوِّثُ فِراشَ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَرَعاهُ؟! مَعَ أَنَّ يُوسُفَ وَفَّى أَيْضًا لِرَبِّهِ:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

هِيَ هَمَّتْ بِهِ هَمًّا شَديدًا وَحاوَلَتْ إِغْراءَهُ بِكُلِّ السُّبُلِ وَشَرَعَتْ فِي لَمْسِهِ، وَرُبَّما فِي شِدَّةِ إِلْحاحِها وَإِغْرائِها خَطَرَ بِبالِهِ مَا يَشْتَهِيهِ الرَّجُلُ مِنَ المَرْأَةِ، فَالشَّهْوَةُ غَريزَةٌ قَوِيَّةٌ فِي الشَّبابِ وَحَتَّى المُؤْمِنينَ تَلُوحُ لَهُمْ. فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ يُقَبِّلُ وَهُوَ صائِمٌ لَكِنْ نَصَحَ غَيْرَهُ مِنَ الأَصْحابِ بِأَنْ لَا يُقَبِّلَ فَهُوَ يَمْلِكُ إِرْبَهُ وَزِمامَ شَهْوَتِهِ، فَرُبَّما تَدْفَعُ المُؤْمِنَ الشَّهْوَةُ بَعْدَ القُبْلَةِ فَيُواقِعُ امْرَأَتَهُ. وَقَدْ أَوْصَى أَيْضًا مَنْ رَأَى امْرَأَةً فَحَرَّكَتِ الشَّهْوَةَ فيهِ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ لِيَذْهَبَ مَا بِهِ مِنْ تَوَقٍ. وَنَبَّهَ اللَّهُ النِّساءَ بِأَنْ لَا يَضْرِبْنَ بِالخَلْخالِ فَيُحَرِّكَ صَوْتُهُ لَواعِجَ الشَّهْوَةِ لَدَى الرِّجالِ. لَكِنَّ حَتَّى هَذا الخاطِرَ (الاشْتِهاءَ) دَفَعَهُ اللَّهُ عَنْ يُوسُفَ، وَتَخَلَّصَ مِنْها بِالقُوَّةِ وَفَرَّ هارِبًا:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ۖ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25].

وَلاحَقَتْه هِيَ مُمْسِكَةً بِقَميصِهِ حَتَّى مَزَّقَتْهُ، وَوَجَدا العَزيزَ داخِلًا لِلْبَيْتِ عِنْدَ البابِ. فَتَذَكَّرَتْ كَلامَ يُوسُفَ أَنَّ سَيِّدَهُ لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ، فَأَسْرَعَتْ بِالكَلامِ خَشْيَةَ أَنْ يَتَحَدَّثَ يُوسُفُ، فَاسْتَخْدَمَتْ مَكْرَ النِّساءِ وَكَيْدَهُنَّ وَتَمَسْكَنَتْ وَرُبَّما بَكَتْ قائِلَةً مُسْتَعْجِبَةً: "أَرادَ أَنْ يَغْتَصِبَنِي

وَأَرَدْتُ الهُروبَ مِنْهُ، فَلا تَتْرُكْهُ حَتَّى تُذيقَهُ أَشَدَّ العَذابِ وَتَسْجُنَهُ!". هُنا دافَعَ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 26-27].

قالَ: "بَلْ هِيَ مَنْ دَعَتْنِي لِلْفاحِشَةِ وَحاوَلَتْ إِجْبارِي عَلَيْها وَأَنَا هَرَبْتُ مِنْها بَعْدَ أَنْ أَخْبَرْتُها بِبَشَاعَةِ ذَلِكَ وَحَذَّرْتُها غَضَبَكَ، وَمَزَّقَتْ قَمِيصِي وَأَنَا هارِبٌ مِنْها". لَا بُدَّ أَنَّها اتَّهَمَتْ يُوسُفَ بِالكَذِبِ أَيْضًا فِي كَلامِهِ هَذا، لَكِنْ تَدَخَّلَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِها فَقالَ: "إِنْ كَانَ القَمِيصُ مُزَّقَ مِنَ الأَمامِ فَهِيَ صادِقَةٌ فَقَدْ تَمَزَّقَ القَمِيصُ أَثْناءَ مُحاوَلَتِهِ هُوَ إِتْيانَها وَاغْتِصابَها، أَمَّا إِنْ مُزِّقَ مِنَ الخَلْفِ فَهِيَ كاذِبَةٌ فَقَدْ مَزَّقَتْ هِيَ القَمِيصَ أَثْناءَ مُحاوَلَةِ هُروبِ يُوسُفَ مِنْها".

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 28-29].

رَأَى الدَّليلَ القاطِعَ عَلَى صِدْقِ يُوسُفَ وَخِيانَةِ امْرَأَتِهِ، فَوَبَّخَها وَاسْتَعْجَبَ مِنْ كَيْدِها وَكَيْفَ سارَعَتْ وَبَكَتْ وَهِيَ الظَّالِمَةُ. وَأَمَرَ يُوسُفَ أَلَّا يَذْكُرَ مَا حَدَثَ لِأَحَدٍ، وَقالَ لِامْرَأَتِهِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ وَتَتوبَ فَهِيَ آثِمَةٌ. لَكِنْ لَعَلَّ الشَّاهِدَ مَنْ شَهِدَ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ الحاشِيَةِ، وَغالِبًا امْرَأَةً، نَشَرَتِ القِصَّةَ فِي مُجْتَمَعِ نِسْوَةِ المَدينَةِ:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 30].

أَامْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ؟! يَا لَهَا مِنْ سَاقِطَةٍ! أَبَلَغَ بِهَا حُبُّهَا وَكَلَفُهَا بِهَذَا الْعَبْدِ هَذِهِ الدَّرَجَةَ؟! ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، خَطَأٌ مُبِينٌ وَحَيْدَةٌ عَنِ الصَّوَابِ. فَخَدِيثُهُنَّ غِيبَةٌ لَهَا، وَنَمِيمَةٌ، وَحَطٌّ مِنْ شَأْنِهَا، لَا رَغْبَةَ فِي نُصْحِهَا أَوْ إِصْلَاحِ شَأْنِهَا

سَمِعَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ بِحَدِيثِهِنَّ، لَمْ تُكَذِّبِ الخَبَرَ أَوْ تَنْفِي التُّهَمَ عَنْ نَفْسِها، لَكِنْ أَرادَتْ أَنْ يَعْلَمَ النِّسْوَةُ مَا دَفَعَها لِذَلِكَ، أَنْ تَسْعَى لِلْخَطِيئَةِ وَالزِّنا مَعَ عَبْدٍ لَها:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31].

دَعَتْهُنَّ لِمَجْلِسٍ وَقَدَّمَتْ لَهُنَّ السِّكِّينَ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ لِتَقْطِيعِ الْفَاكِهَةِ أَوِ اللَّحْمِ، ثُمَّ قَالَتْ: "اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ". وَلَعَلَّهَا عَجَزَتْ أَنْ تَصِفَ لَهُنَّ جَمَالَ يُوسُفَ وَفِتْنَتَهُ وَسِحْرَهُ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ شَاهَدْنَ الْقَمَرَ، بَلْ أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ! أَعْظَمْنَ يُوسُفَ، وَسَحَرَهُنَّ جَمَالُهُ حَتَّى ذَهَلْنَ عَنْ أَنْفُسِهِنَّ، فَقَطَّعْنَ بِالسِّكِّينِ أَيْدِيَهُنَّ وَلَمْ يَشْعُرْنَ بِالْأَلَمِ.

أَيُّ جَمَالٍ هَذَا؟! وَلَمْ يَكْتَفِينَ بِذَلِكَ، بَلْ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، إِنَّهُ مَلَكٌ كَرِيمٌ مِنْ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَنِ، فَهَذَا لَيْسَ بِجَمَالٍ أَوْ فِتْنَةٍ أَوْ سِحْرٍ بَشَرِيٍّ!

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32].

يَا لَهُ مِنْ جَمَالٍ وَفِتْنَةٍ وَسِحْرٍ خَلَّابٍ! ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، هَذَا "الْمَلَكُ" الْجَمِيلُ هُوَ مَنِ اسْتَلَبَ لُبِّي، وَقَدْ أَقَرَّتْ بِلِسَانٍ ذَلِقٍ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾، أَيْ رَفَضَ وَأَبَى وَامْتَنَعَ بِتَقْوَاهُ. وَلَكِنَّ غُرُورَهَا لَمْ يَنْكَسِرْ، فَتَوَعَّدَتْهُ قَائِلَةً: وَلَئِنْ لَمْ يُطَاوِعْنِي عَلَى مَا أَدْعُوهُ إِلَيْهِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ —أَيْ لَيُحْبَسَنَّ بَيْنَ الْجُدْرَانِ— ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾، أَيْ لِيُصِيبَهُ الصَّغَارُ وَالذِّلَّةُ فِي مَحْبَسِهِ، حَيْثُ يُحْشَرُ —فِي نَظَرِ كِبْرِيَائِهَا— بَيْنَ أَرْذَالِ النَّاسِ، لِتَكْسِرَ بِذَلِكَ أَنَفَتَهُ وَتُهِينَ كَرَامَتَهُ.

وَهُنَا تَتَجَلَّى عِفَّةُ يُوسُفَ وَأَخْلَاقُهُ وَفَضْلُهُ؛ إِذْ آثَرَ ضِيقَ السِّجْنِ عَلَى الْهَوَى، مُلْتَجِئًا إِلَى حِمَى خَالِقِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

أَيْ أَنْ أُسْجَنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ آتِيَ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ مَعَهُنَّ. ثُمَّ رَكَنَ بِيَقِينٍ إِلَى مَوْلَاهُ مُعْتَرِفًا بِضَعْفِهِ: «رُبَّمَا أَمِيلُ وَأَضْعُفُ فَأَهْوِي فِي هَذِهِ الْفَعْلَةِ الشَّنِيعَةِ، فَأَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ قُبْحَهَا وَسُوءَ مُنْقَلَبِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: 34-35].

اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، مَنَعَهُ وَقَوَّاهُ وَحَصَّنَهُ. كُلُّ الآيَاتِ (القَمِيصُ وَالنِّسْوَةُ الَّذِينَ دَعَتْهُم امْرَأَةُ العَزِيزِ)، وَقَدْ يَكونُ العَزِيزُ سَمِعَ بِهَذا المَجْلِسِ أَوْ لَا، وَلَكِنْ مُؤَكَّدٌ كَأَيِّ رَجُلٍ وَخاصَّةً فِي

مَكانَتِهِ سَاءَهُ مَا يُشاعُ مِنْ حَديثٍ فِي مُجْتَمَعِ النِّسْوَةِ. وَرَغْمَ أَنَّ الدَّلائِلَ جَميعَها تَدُلُّ عَلَى بَراءَةِ يُوسُفَ لَكِنْ رَأَى العَزيزُ أَنْ يَسْجُنَهُ لِحينِ صِيانَةٍ لِسُمْعَتِهِ وَمَكانَتِهِ الاِجْتِماعِيَّةِ بَعْدَ أَنْ كَثُرَ القِيلُ، وَرَأَتْ هِيَ أَنْ يُسْجَنَ انْتِقامًا وَنَكالًا بِهِ.

بَعْدَ أَنْ رَدَّ يُوسُفُ الرَّسولَ وَاسْتَقْصَى المَلِكُ وَعَلِمَ الأَمْرَ، جَمَعَ النِّسْوَةَ:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

عَلِمَ المَلِكُ أَنَّ هَذا الرَّجُلَ ذو أَخْلاقٍ عالِيَةٍ لَنْ تَصْدُرَ مِنْهُ الفاحِشَةُ، فَسَأَلَ النِّسْوَةَ: "مَا قِصَّةُ مُراوَدَتِكُنَّ يُوسُفَ وَطَلَبِكُنَّ فِعْلَ الفاحِشَةِ مَعَهُ؟". أَجَبْنَ جَميعًا: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾، لَمْ نَسْمَعْ أَوْ نَرَ مِنْهُ شَيْئًا فَهُوَ عَفيفٌ وَهِيَ مَنْ رَاوَدَتْهُ. هُنا أَجابَتِ امْرَأَةُ العَزيزِ: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، اعْتَرَفَتْ وَأَقَرَّتْ بِعِفَّةِ يُوسُفَ وَأَنَّها هِيَ مَنْ دَعَتْ لِلْفاحِشَةِ وَسَجَنَتْهُ لِأَنَّهُ رَفَضَ ذَلِكَ.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: 52-53].

فَلْيَعْلَمِ العَزيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ وَلَمْ أَسْعَ لِتَلْويثِ فِراشِهِ. وَمَنْ سَعَتْ لِخِيانَتِهِ هِيَ امْرَأَتُهُ لَكِنَّ اللَّهَ أَبْطَلَ كَيْدَها، لَا يُحَقِّقُ مُرادَ مَنْ يَخونُ, هَذا قَوْلُ يُوسُفَ. ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ هُنا اعْتَرَفَ العَزيزُ أَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ امْرَأَتَهُ مَنْ سَعَتْ لِإِغْواءِ يُوسُفَ، فَمُنْذُ الحادِثَةِ الأُولَى الَّتي شَهِدَ لَهُ فيها بِالبَراءَةِ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِ المَرْأَةِ، أَمَرَ العَزيزُ يُوسُفَ أَلَّا يَتَحَدَّثَ بِالْمَوْضوعِ خَوْفًا عَلَى سُمْعَتِهِ وَمَكانَتِهِ الاِجْتِماعِيَّةِ. لَكِنْ لَمَّا انْتَشَرَ الحَديثُ فِي وَسَطِ

النِّسْوَةِ وَتَناقَلْنَهُ، وَرُبَّما عَلِمَ أَيْضًا قِصَّةَ امْرَأَتِهِ حينَ دَعَتِ النِّسْوَةَ، لَكِنْ حِفاظًا عَلَى سُمْعَتِهِ وَمَكانَتِهِ الاِجْتِماعِيَّةِ قَرَّرَ أَنْ يَسْجُنَ يُوسُفَ ظُلْمًا وَعُدْوانًا. امْرَته نَفْسُها أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ بِأَنْ يُسْجَنَ يُوسُفُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ بَرِيءٌ، بَلْ شَهِدَ لِيُوسُفَ بِالعِصْمَةِ مِنَ الخَطَأِ فَهُوَ دُفِعَ وَهُدِّدَ لِأَجْبَرَهُ عَلَى فِعْلِ الفاحِشَةِ وَاخْتارَ السِّجْنَ. وَسَأَلَ العَزيزُ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الظُّلْمَ وَالزِّنا مُحَرَّمانِ وَفْقَ القَوانينِ وَالدِّياناتِ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ، وَلَعَلَّهُ اسْتِعْطافًا خَوْفًا مِنْ عُقوبَةِ المَلِكِ، أَوْ إِراحَةً لِلضَّميرِ بِاعْتِرافٍ بِذَنْبٍ ثَقيلٍ فِي حَقِّ مَنْ رَفَضَ تَلْويثَ فِراشِهِ وَاللَّذَّةَ وَالمُتْعَةَ الجَسَدِيَّةَ وَاخْتارَ السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 54-55].

أَرْسَلَ المَلِكُ فِي طَلَبِ يُوسُفَ، وَلَمَّا حَدَّثَهُ وَاطَّلَعَ عَلَى عِلْمِهِ الغَزيرِ وَأَدَبِهِ الجَمِّ، أَعْتَقَهُ مِنَ العَزيزِ وَقالَ: "إِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ خاصَّتِي وَمُسْتَشارِيَّ وَأُمَنائِي". عَلِمَ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ الأَمانَةَ وَعِلْمَ الاِقْتِصادِ، وَيَعْلَمُ المَجاعَةَ وَالشِّدَّةَ الَّتِي سَتَنْزِلُ بِمِصْرَ، وَأَنَّهُ هُوَ الوَحيدُ مَنْ يَسْتَطيعُ كَشْفَ الغُمَّةِ عَنْ مِصْرَ وَأَهْلِها، فَاخْتارَ أَنْ يَكونَ مَسْؤولًا عَنْ خَزائِنِ الدَّوْلَةِ وَمالِيَّتِها.

رَماهُ إِخْوَتُهُ فِي البِئْرِ، بيعَ عَبْدًا، اشْتَراهُ العَزيزُ، أُدْخِلَ السِّجْنَ، مَكَثَ فيهِ سِنينَ، لَكِنَّ كُلَّ ذَلِكَ كَانَ بِداياتٍ لِيُمَكِّنَ اللَّهُ يُوسُفَ وَيَجْعَلَهُ عَزيزَ مِصْرَ وَخازِنَ أَمْوالِها، فَكُلُّ مِصْرَ تَحْتَ سُلْطانِهِ، يَحْكُمُ فيها أَمْوالَها كَما يَشاءُ. فَاخْتارَ اللَّهُ يُوسُفَ وَأَصابَهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَيُوسُفُ مِنَ المُحْسِنينَ، وَمَنْ أَحْسَنَ لِعِبادِ اللَّهِ جَزاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا نَعيمًا قَبْلَ الآخِرَةِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 56-57].

وَلَكِنْ كَذَلِكَ النَّعِيمُ وَالْمُلْكُ لَيْسَ بِشَيْءٍ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبادِهِ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ مِنْ ثَوابٍ وَنَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ لَا يَفْنَى.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 58-64].

لَا أَأْتَمِنُكُمْ عَلَى بِنْيَامِينَ أَخِي يُوسُفَ، فَقَدْ ضَيَّعْتُمْ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ. لَكِنَّ يَعْقُوبَ يَعْلَمُ —وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ لِلْآنِ كَيْفَ حَفِظَ اللَّهُ يُوسُفَ وَأَنَّهُ صَارَ عَزِيزَ مِصْرَ وَخَازِنَ أَمْوَالِهَا— يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. أَرَادَ إِخْوَةُ يُوسُفَ لَهُ الْعُبُودِيَّةَ وَالْإِبْعَادَ عَنْ أَبِيهِ، فَأَلْقَوْهُ فِي الْبِئْرِ، وَهَا هُمُ الْيَوْمَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ فَيَعْرِفُهُمْ وَيَمْنَحُهُمُ الْمِيرَةَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65].

الْبِضَاعَةُ الَّتِي سَاقُوهَا لِيَشْتَرُوا بِهَا الْمِيرَةَ لِأَهْلِهِمْ رَدَّهَا يُوسُفُ إِلَيْهِمْ، وَأَوْفَى لَهُمُ الْكَيْلَ حَتَّى يَعُودُوا سَرِيعًا. أَعَادُوا الْكَرَّةَ مَعَ أَبِيهِمْ مُتَحَمِّسِينَ: "ثَمَنُ الْبِضَاعَةِ رُدَّ إِلَيْنَا، فَنَشْتَرِي بِهِ مِيرَةً نُوَسِّعُ بِهَا عَلَى أَهْلِنَا"، نَاشَدُوهُ بِحَاجَةِ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ، وَبِأَنَّهُمْ سَيَزْدَادُونَ "كَيْلَ بَعِيرٍ" إِضَافِيٍّ بِحِسَابِ أَخِيهِمْ لِلْأُسْرَةِ، وَأَكَّدُوا عَلَى شِدَّةِ الْحِفْظِ.

لَكِنَّ هَذِهِ المَرَّةَ:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66].

لَكِنَّ يَعْقُوبَ —الَّذِي ذَاقَ مَرَارَةَ حِرْمَانِ يُوسُفَ وَغَدْرِ إِخْوَتِهِ بِهِ— لَمْ يَلِنْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَعَهْدًا غَلِيظًا أَنْ لَا يَعُودُوا إِلَّا وَمَعَهُمْ أَخُوهُمْ، إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِهِمْ بِقَدَرٍ غَالِبٍ يُهْلِكُهُمْ جَمِيعًا، فَلَا عُذْرَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِهْمَالٍ كَمَا تَعَذَّرُوا كَذِبًا قَبْلَ سِنِينَ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾.

أَوْكَلَ اللَّهَ وَأَشْهَدَهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَوْصَاهُمْ وَصِيَّةَ الْمُشْفِقِ :

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

كَأَنَّ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ شُعُورًا خَفِيًّا بِأَنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ سَتُصِيبُهُمْ مُصِيبَةٌ لَا يَعْلَمُ كُنْهَهَا، فَقَالَ: «تَفَرَّقُوا لِكَيْلَا يَحْسُدَكُمُ النَّاسُ» —كَمَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ—، وَلَكِنْ هُنَا أَيْضًا يَعْلَمُ

يَعْقُوبُ أَنَّ الْحَذَرَ لَا يَمْنَعُ الْقَدَرَ، فَنَطَقَ بِيَقِينِهِ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

فصل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

أَرَادَ إِخْوَةُ يُوسُفَ شَقَاءَ يُوسُفَ، وَأَرَادَ اللَّهُ الْعِزَّ وَالتَّمْكِينَ فِي الْأَرْضِ. أَرَادَ النِّسْوَةُ وَالْعَزِيزُ سِجْنَهُ، وَأَرَادَ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحُكْمَ. أَرَادَ يَعْقُوبُ أَنْ يَعُودَ بَنُوهُ جَمِيعًا مِنْ هَذِهِ السَّفْرَةِ، وَأَرَادَ اللَّهُ شَيْئًا آخَرَ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا أَرَادَ. لَكِنَّ يَعْقُوبَ تَوَكَّلَ وَأَخَذَ بِالْأَسْبَابِ؛ أَوْصَاهُمْ، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ بِحِفْظِ أَخِيهِمْ. هَذِهِ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ: عَمَلٌ وَأَخْذٌ بِالْأَسْبَابِ، وَاتِّكَالُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ. وَلَا تَأْتِي عَاقِبَةُ التَّوَكُّلِ إِلَّا بِخَيْرٍ وَعَافِيَةٍ، وَإِنْ كَانَ أَوَّلُ النَّتَائِجِ يَبْدُو سُوءًا وَوَبَالًا. فَلِذَلِكَ قَالَ يَعْقُوبُ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

هَذَا هُوَ طَرِيقُ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ وَالْعِزِّ وَالتَّمْكِينِ، وَإِنْ كَانَتْ بِدَايَاتُهُ تَبْدُو صَعْبَةً مَلْأَى بِالِابْتِلَاءَاتِ وَالْمِحَنِ؛ لَكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ لِعِبَادِهِ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالدُّنْيَا لَا تَطِيبُ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68].

أَحَسَّ يَعْقُوبُ بِشَيْءٍ يَحُلُّ بِهِمْ، فَأَوْصَاهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، يَتَمَنَّى لِبَنِيهِ الْخَيْرَ وَدَفْعَ الْمَشَقَّةِ. ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فَيَعْقُوبُ نَبِيٌّ، عِلْمُهُ أَنَّهُ يُلْهَمُ وَيُوحَى إِلَيْهِ وَيُحَسُّ بِالْمُصِيبَةِ وَالْخَيْرِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ لِلْأُمُورِ سُنَنًا وَعَوَاقِبَ مُخْتَلِفَةً.

لِذَلِكَ كَانَ دَائِمَ الذِّكْرِ لِيُوسُفَ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، ذَلِكَ أَنَّ قَوْمَهُ ظَنُّوا أَنَّ يُوسُفَ مَاتَ وَهَلَكَ كَمَا زَعَمَ إِخْوَتُهُ: "أَكَلَهُ الذِّئْبُ"، لَكِنَّ يَعْقُوبَ —الَّذِي فَسَّرَ رُؤْيَا يُوسُفَ— يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ سَعِيدًا عَزِيزًا، وَيَشْعُرُ بِيَقِينٍ أَنَّهُ حَيٌّ، لَكِنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ يَصُوغُ اللَّهُ أَقْدَارَهُ .

عَلِمَ يَعْقُوبُ أَنَّ عَاقِبَةَ يُوسُفَ خَيْرٌ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ هَذَا مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَحِفْظِهِ قَدْرَ مَا اسْتَطَاعَ وَأَطَاقَ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِمُصِيبَةٍ تَرْصُدُ بَنِيهِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ أَوْصَاهُمْ، وَأَخَذَ بِأَسْبَابِ الْحِفْظِ مَا اسْتَطَاعَ، لَكِنَّهُ ظَلَّ مُرَدِّدًا: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[يوسف: 69].

ضَمَّ إِلَيْهِ أَخَاهُ وَأَخْبَرَهُ، وَأَعْلَمَ أَنَّ هَذا نِهايَةُ بَطْشِ إِخْوَتِهِ الكِبارِ بِهِ. يُرِيدُ يُوسُفُ أَنْ يَضُمَّ أَخاهُ إِلَيْهِ، وَلَا يَدَعَهُ يَرْجِعُ مَعَ إِخْوَتِهِ فَيُؤْذوهُ وَيَكيدوا لَهُ. وَانْظُرْ هُنا لَمْحَةً مِنْ خُلُقِ الأَنْبِياءِ وَتَأْكيدًا لِثَناءِ صَاحِبَيِ يُوسُفَ فِي السِّجْنِ: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. كَانَ يُمْكِنُ لِيُوسُفَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخْبِرَ أَخاهُ الصَّغيرَ، لَكِنَّهُ سَيَطْلَعُ وَيَخافُ أَخاهُ الصَّغيرُ حينَ يَتَهَمُ وَهُوَ بَرِيءٌ.لَكِنَّ حَتَّى هَذَا الخَوْفَ لِسَاعَاتٍ مَعْدُودَةٍ دَفَعَهُ عَنْهُ يُوسُفُ، لِيُصْبِحَ بَهْجَةً وَسُرُورًا حِينَ ضَمَّهُ وَآوَاهُ إِلَيْهِ، بَلْ بَشَّرَهُ: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .لكنَّ هناكَ معضلةً أخرى، ففي قانونِ الملكِ وحكمِهِ في السارقِ لا يمكنُ ليوسفَ أن يأخذَ أخاهُ،فأرادَ اللهُ وألهمَهُ أنْ يَجعلَ إخوتَهُ هُمُ السَّبيلَ لِضَمِّ أخيهِ إلى كنفِهِ ورعايتِهِ. وسبحانَ مقدرِ الأقدارِ! فمْن قبلُ كانوا سبباً في أن يكونَ يوسفُ في كنفِ العزيزِ، سيكونونَ سبباً في أن يكونَ بنيامينُ في كنفِ يوسفَ.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 70-72].

جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ، أَعْطاهُمُ المِيرَةَ وَالطَّعامَ، وَمَعَها دَسَّ السِّقَايَةَ (وَهِيَ كَيْلُ المَلِكِ الَّذِي يَكِيلُ بِهِ، وَهُوَ مِنْ ذَهَبٍ). ثُمَّ نَادَى المُنادِي: أَيُّهَا النَّاسُ سَرَقْتُمْ مِنَّا شَيْئًا! رَجَعُوا مُسْتَغْرِبِينَ: مَاذا سُرِقَ مِنْكُمْ؟! قالوا: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾. صُواعُ المَلِكِ، وَهُناكَ جائِزَةٌ لِمَنْ يَأْتِي بِهِ. كُلُّ ذَلِكَ كَيْدٌ مِنْ يُوسُفَ عَلَّمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ لِيَنْفِيَ عَنْهُ أَيَّ شُبْهَةٍ فِي المَوْضوعِ. هُنا أَقْسَمَ إِخْوَةُ يُوسُفَ صادِقِينَ:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: 73]. لَسْنا نَبْغِي الفَسادَ وَالسَّرِقَةَ. هُنا واجَهَهُمْ يُوسُفُ لِيُقِرُّوا هُمْ مَا يُرِيدُهُ:

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: 74]. مَا العُقوبَةُ أَنْ تَبَيَّنَ غَيْرَ ذَلِكَ؟!

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: 75].قَالُوا: الْعُقُوبَةُ فِي شِرْعَتِنَا وَمِلَّتِنَا أَنَّ السَّارِقَ يُسْتَرَقُّ —أَيْ يُصَيَّرُ رَقِيقًا يَخْدُمُ بِقَدْرِ مَا سَرَقَ بِلَا أَجْرٍ—، فَإِنْ وَجَدْتُمْ مَا تَطْلُبُونَ فِي مَتَاعِ أَحَدِنَا دَفَعْنَاهُ لَكُمْ عَبْدًا رَقِيقًا. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، هَذِهِ عُقُوبَةُ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَسَرَقَ وَاعْتَدَى عَلَى مَالِ غَيْرِهِ..

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

يَعْلَمُ يُوسُفُ أَنَّهُ وَضَعَهَا فِي رَحْلِ أَخِيهِ، لَكِنْ إِمْعَانًا فِي التَّدْبِيرِ وَالسِّتْرِ بَدَأَ الْبَحْثَ بِرِحَالِهِمْ جَمِيعًا، ثُمَّ آخِرَ شَيْءٍ بَحَثَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ وَاسْتَخْرَجَ الصُّوَاعَ مِنْهُ. هُنَا: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، يُرِيدُ يُوسُفُ أَنْ يَأْوِيَ إِلَيْهِ أَخَاهُ، لَكِنَّ السَّارِقَ فِي "دِينِ الْمَلِكِ" لَا يُسْتَرَقُّ.

بَدَأَ يُوسُفُ —كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ— بِأَنْ جَعَلَهُمْ هُمْ مَنْ يُقِرُّونَ الْعُقُوبَةَ؛ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَانُونَ الْمَلِكِ، وَيُوسُفُ يَعْلَمُ شَرِيعَتَهُمْ وَشَرِيعَةَ الْمَلِكِ مَعًا، فَلَمَّا أَقَرُّوا الْعُقُوبَةَ حَسَبَ شَرْعَتِهِمْ، حَكَمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَهُ بِأَخْذِ أَخِيهِمْ. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ رَفَعَ اللَّهُ يُوسُفَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَصْلٌ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

«مِنْ أَسْبَابِ الرِّفْعَةِ وَالْعِزِّ وَالْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ: الْعِلْمُ النَّافِعُ. وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالتَّزَوُّدِ مِنَ الْعِلْمِ وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ مِنْهُ لِتَعْلُوَ الرِّفْعَةُ وَتَسْمُوَ الْمَكَانَةُ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

كُلَّمَا حَازَ الْمَرْءُ عِلْمًا ارْتَفَعَ بِهِ دَرَجَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَالْعُلَمَاءُ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ. وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ أَنَّ سَبَبَ تَكْرِيمِ آدَمَ وَرَفْعِ مَنْزِلَتِهِ عَلَيْهِمْ هُوَ "الْعِلْمُ"؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 31-34]

وَمُنْتَهَى ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ عِلْمُ اللَّهِ الَّذِي أَحَاطَ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ :

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

وَعِلْمُ اللَّهِ وَصَفَهُ الخَضِرُ لِموسَى—عَلَيْهِمَا السَّلَامُ— لَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ، إِذْ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، فَقَالَ الخَضِرُ:

« يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ » [متفق عليه].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛

رُوِيَ أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ: "أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟" فَقَالَ: "أَنَا!"، وَلَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ. ظَنَّ مُوسَى أَنَّهُ أَعْلَمُ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي سَائِرِ الشُّؤُونِ، فَاللَّهُ يُكَلِّمُهُ كِفَاحًا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَهُوَ يَتَلَقَّى عِلْمَهُ مِمَّنْ لَهُ مُنْتَهَى الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَحُدُّهُ شَيْءٌ.

فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: "بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ" —وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ اخْتَصَّهُ بِأُمُورٍ لَا يَعْلَمُهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ— وَكَمَا قَالَ الْخَضِرُ لَاحِقًا: «يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ» [البخاري]

مُوسَى رَسُولٌ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، أُرْسِلَ لِمُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ وَتَحْرِيرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ. وَمَعَ عِظَمِ قَدْرِهِ، سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ بِلَهْفَةِ الْمُتَعَلِّمِ: "يَا رَبِّ، فَكَيْفَ لِي بِهِ؟!".

يَدُلُّنَا ذَلِكَ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْعِلْمِ وَالسَّعْيِ فِي طَلَبِهِ؛ فَمُوسَى نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَدَيْهِ مَهَامُّ جِسامٌ، لَكِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ مَا يَنْفَعُ فِي الدَّارَيْنِ وَيُعِينُ عَلَى أَعْبَائِهِمَا. فَأُجِيبَ: «تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ» [البخاري]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60].

الْفَتَى يُوشَعُ بْنُ نُونٍ كَانَ يَخْدُمُ مُوسَى —عَلَيْهِ السَّلَامُ—، وَهَذِهِ مِنْ بَرَكَةِ صُحْبَةِ وَخِدْمَةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَيُوشَعُ خُلِّدَ فِي التَّارِيخِ وَالْقُرْآنِ وَأَصْبَحَ نَبِيًّا. وَهَذَا فَضْلٌ نَالَ جُزْءًا مِنْهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ —رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ— حِينَ وَهَبَتْهُ أُمُّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِيَخْدُمَهُ، فَتَعَلَّمَ وَرَوَى وَخُلِّدَ فِي السِّيَرِ، وَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَالْعُمْرِ الْمَدِيدِ، فَحَازَ ذَلِكَ كُلَّهُ.

فَأَخَذَ يُوشَعُ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، وَقَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ بِيَقِينٍ: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾، أَيْ سَأُوَاصِلُ السَّيْرَ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ سِنِينَ عَدَدًا. يَا لَهَا مِنْ هِمَّةٍ عَالِيَةٍ مِنْ مُوسَى فِي طَلَبِ الْعِلْمِ!

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: 61].

حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ –عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ– أَوَيَا إِلَيْهَا، فَغَفَا مُوسَى أَوَّلًا، ثُمَّ رَأَى يُوشَعُ الْحُوتَ يَضْطَرِبُ فِي الْمِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾. وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ مَسَارُهُ عَلَيْهِ مِثْلَ "الطَّاقِ" –أَيْ كَالنَّفَقِ– حَيْثُ لَمْ يَلْتَئِمِ الْمَاءُ بَعْدَ عُبُورِ الْحُوتِ كَمَا جَرَتِ الْعَادَةُ، بَلْ بَقِيَ مَفْتُوحًا كَأَنَّهُ مَسْلَكٌ مَحْفُورٌ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: 62].

ثُمَّ ذَهَبَا بَعْدَ ذَلِكَ مُوَاصِلَيْنِ السَّيْرَ، ثُمَّ قَالَ لِيُوشَعَ: "دَعْنَا نَتَغَدَّى وَنَرْتَاحَ؛ فَقَدْ بَلَغَ الْجُهْدُ مِنَّا وَالنَّصَبُ مَبْلَغًا".

فصل: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63].

عِنْدَ صَخْرَةٍ فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ حَيْثُ ارْتَاحَا فِيهَا، حَكَى يُوشَعُ لِمُوسَى مَا حَدَثَ مِنْ أَمْرِ الْحُوتِ. ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ ؛ ذَكَرَ يُوشَعُ مِمَّا عَلِمَ مِنْ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ، فَالشَّيْطَانُ يُرِيدُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْقَى، لَمْ يَنْسَ أَبَدًا الْعَدَاوَةَ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ. وَلِلشَّيْطَانِ خُطُوَاتٌ فِي ذَلِكَ وَخُطَطٌ، فَهُوَ نَذَرَ نَفْسَهُ لِهَذَا الْعَمَلِ مُنْذُ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ.

وَأَيْضًا الشَّيْطَانُ لَهُ عِلْمٌ، فَقَدْ عَاشَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ رَدْحًا مِنَ الزَّمَانِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى أَمْرِ خَالِقِهِ بِالسُّجُودِ تَكْرِيمًا لِآدَمَ، فَيُسَخِّرُ مَا حَبَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ لِشَقَائِهِمْ وَالتَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ، فَلَعَنَهُ اللَّهُ وَطَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهِيَ خَصْلَةٌ شَارَكَهُ فِيهِ جَمْعٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَصْبَحُوا مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ. فَقَدْ آتَاهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَخَصَّهُمْ بِمَزِيدِ رِعَايَةٍ وَاصْطِفَاءٍ، وَمَا مُوسَى —عَلَيْهِ السَّلَامُ— إِلَّا الْحَلْقَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ رِعَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ، فَأَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ يَعْقُوبُ، ثُمَّ يُوسُفُ مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ شُؤُونَ الْإِدَارَةِ وَالِاقْتِصَادِ، وَهِيَ مِيزَةٌ مُلَاحَظَةٌ وَشَائِعَةٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَمُوسَى يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيُخَلِّصُهُمْ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ —الَّتِي غَالِبًا مَا تَكُونُ حَصَلَتْ لَهُمْ بِسَبَبِ نُبُوغِهِمْ فِي الِاقْتِصَادِ وَتَحَكُّمِهِمْ فِي أَكْثَرِيَّةٍ مِنَ الْقِبْطِ أَيَّامَ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى فِرْعَوْنُ—. وَهَذَا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ قَالَ لِأَبِينَا آدَمَ: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: 24]. فَالْجَنَّةُ دَارُ نَعِيمٍ سَرْمَدِيٍّ لَا مُنَغِّصَ لَهُ، لَكِنَّ الْأَرْضَ دَارُ شَقَاءٍ لَا تَطِيبُ وَيَسْهُلُ تَحَمُّلُ مَشَاقِّهَا إِلَّا بِمَنْهَجِ اللَّهِ. وَهَذَا لَا اسْتِثْنَاءَ فِيهِ، فَحَتَّى مَنِ اصْطُفُوا فَكَانُوا أَنْبِيَاءَ كَمُوسَى، أَفْضَلَهُمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ، لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ أَذًى كَثِيرًا مِنْ بَشَرٍ عَادِيِّينَ —بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اسْتَعْبَدَهُمُ الْقِبْطُ وَفِرْعَوْنُ—.

وَالشَّيْطَانُ بِخُطُوَاتِهِ يَزِيدُ الْبَلَاءَ، وَهَدَفُهُ الْأَعْظَمُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ سَعَةِ الدُّنْيَا الَّتِي تَكُونُ بِالْعَيْشِ بِمَنْهَجِ اللَّهِ إِلَى ضِيقِهَا بِالنُّكُوصِ عَنْهُ ، وَأَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ جَنَّةِ اللَّهِ لِيُشَارِكُوهُ الْعَذَابَ السَّرْمَدِيَّ. وَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ سَعَى لِأَقَلَّ مِنْهُ. لِذَلِكَ فَعِنْدَما يَئِسَ، كَمَا قَالَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » [رواه مسلم].

خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ هِيَ أَنْ يَنْسَوْا مَنْهَجَ اللَّهِ كُلِّيَّةً أَوْ جُزْئِيًّا، فَيُصِيبُهُمْ بِذَلِكَ الضَّنْكُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْمَشَقَّةُ، وَأَمَلُهُ أَنْ يُعَذَّبُوا وَلَوْ لِمُدَّةٍ مَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ. لِذَلِكَ حَذَّرَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ قَائِلًا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 21].

فَأَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ لَا يُكْمِلَ مُوسَى وَيَزْدَادَ عِلْمًا، فَأَنْسَى يُوشَعَ ذَهَابَ الْحُوتِ عِنْدَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ لِيَطُولَ شَقَاؤُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ. لَكِنْ مَا تَغْنِي إِرَادَةُ الشَّيْطَانِ مَعَ إِرَادَةِ الرَّحْمَنِ؟! أَرَادَ الرَّحْمَنُ

لِمُوسَى أَنْ يَجِدَ ضَالَّتَهُ وَيَرْتَاحَ، فَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ سَبِيلٌ سِوَى أَنْ تَمْضِيَ عَلَيْهِ إِرَادَتُهُ وَمَشِيئَتُهُ، فَكَانَ فِعْلُ الشَّيْطَانِ أَنْ حَقَّقَ لِمُوسَى بِفَضْلِهِ وَعَوْنِهِ وَتَعْلِيمِهِ مَا أَرَادَ.

وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ، أَرَادَ الشَّيْطَانُ لَهُ الشَّقَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فَأَغْرَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَتِهِ، وَتَنَبَّهَ يَعْقُوبُ حِينَ قَالَ لِيُوسُفَ

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5].

لَكِنَّ إِرَادَةَ يَعْقُوبَ فِي بَنِيهِ لَمْ تَمْضِ، وَبَدَا أَنَّ الشَّيْطَانَ نَجَحَ فِي مُهِمَّتِهِ، لَكِنَّ اللَّهَ لَطَفَ بِيُوسُفَ حِينَ أَلْهَمَ أَخَاهُ:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: 10].

فَكَانَ مَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ هُوَ خَطْوَةٌ أُولَى لِتَحْقِيقِ مُرَادِ اللَّهِ لِيُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَلِلْمِصْرِيِّينَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ يُوسُفُ جَمِيعًا بِمَنْهَجِ اللَّهِ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا.

لَكِنَّ الشَّيْطَانَ وَاصَلَ مُهِمَّتَهُ بِكَيْدِ النِّسْوَةِ لِيُوسُفَ، وَبَدَا أَيْضًا مَرَّةً أُخْرَى أَنَّ إِرَادَتَهُ تَحَقَّقَتْ فَسُجِنَ يُوسُفُ، فَصَارَ هَذَا مُقَدِّمَةً لِمَا تَحَقَّقَ حَيْثُ الْتَقَى سَاقِيَ الْمَلِكِ وَفَسَّرَ رُؤْيَاهُ. وَعَلِمَ يُوسُفُ يَقِينًا بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سَيَعْمَلُ سَاقِيًا لِلْمَلِكِ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]. هُنَا عَادَ الشَّيْطَانُ الَّذِي يَتَمَنَّى أَنْ لَوْ مَاتَ يُوسُفُ فِي السِّجْنِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ يُوسُفَ، بِمَا اصْطَفَاهُ اللَّهُ، يُرِيدُ أَنْ

يُحَقِّقَ مُرَادَ اللَّهِ حِينَ خَلَقَ آدَمَ، مُرَادَهُ بِالتَّكْرِيمِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ طَوَالَ حَيَاتِهِ. فَشَغَلَ السَّاقِيَ كَمَا يَشْغَلُ الْمُصَلِّيَ، فَأَنْسَاهُ بِمَشَاغِلِ الدُّنْيَا مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فِي السِّجْنِ وَعَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ بَرِيءٌ، ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

فَيُوسُفُ أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ وَقَالَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ، لَكِنَّ ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ ، أَنْسَى السَّاقِيَ أَنْ يَذْكُرَ مَظْلَمَةَ يُوسُفَ عِنْدَ الْمَلِكِ (رَبِّهِ). وَ"رَبُّهُ" هُنَا قَدْ تَعْنِي يُوسُفَ، فَهُوَ مُحْسِنٌ عَلَيْهِ وَمُنْعِمٌ لِلسَّاقِي طَوَالَ فَتْرَةِ السِّجْنِ، وَقَدْ تَعْنِي أَيْضًا مَعَ كَلِمَةِ "ذِكْرِ" أَنَّهُ نَسِيَ ذِكْرَ مَظْلَمَةِ يُوسُفَ عِنْدَ الْمَلِكِ (رَبِّهِ). أَمَّا الْقَوْلُ الْآخَرُ فِي الْآيَةِ أَنَّ يُوسُفَ نَسِيَ ذِكْرَ اللَّهِ فَعَاقَبَهُ اللَّهُ بِالسِّجْنِ، فَهُوَ قَوْلٌ مَرْجُوحٌ رَجَّحَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ قَدِيمًا، وَأَغْلَبُهُمْ حَدِيثًا. وَقَدْ ذُكِرَ عِدَّةُ أَوْجُهٍ لِذَلِكَ، مِنْهَا أَنَّ النِّسْيَانَ لَا يُعَاقِبُ اللَّهُ بِهِ.

وَأَظُنُّ أَنَّ النسيان هنا بعيد جداً ,خاصَّةً فِي حالِ حَديثِ يُوسُفَ مَعَ السَّاقِيَيْنِ وَالذي بَدَأَهُ بـ:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 37-40].

فُيُوسُفُ —عَلَيْهِ السَّلَامُ— وَجَدَ فِي رُؤْيَتِهِمَا فُرْصَةً لِيَدْعُوَهُمَا لِالتَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ، وَسَاقَ لَهُمُ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ وَآخِرُهَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاهُمَا لِيَعْلَمُوا عَيْنَ الْيَقِينِ صِدْقَهُ وَصِدْقَ دَعْوَتِهِ. فَلَيْسَ الْمَقَامُ هُنَا حَتَّى مَقَامَ انْشِغَالٍ بِالطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَحَلَّهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

وَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ فِي الْمَصَائِبِ حَتَّى الْمُشْرِكِينَ يَلْجَؤُونَ لِلَّهِ مُوَحِّدِينَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65]. فَكَيْفَ حَالُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ الْمُوَحِّدِينَ؟! حَالُهُمْ كَحَالِ ذَا النُّونِ:: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، قَالَ ذِكْرًا مِنْ أَعْظَمِ الْأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ صَارَ شِعَارًا لِأُمَّةٍ تَعْدَادُهَا الْحَالِيُّ مِلْيَارَانِ وَنِيِّفٌ، وَلَعَلَّهُ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَذْكَارِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا الْأُمَمَ مِنْ بَعْدِهِ.

أَمَّا السِّجْنُ، وَهُوَ مُصِيبَةٌ وَبَلَاءٌ يَمْتَدُّ لِلسِّنِينَ غَالِبًا كَمَا فِي حَالِ يُوسُفَ، وَيَتَفَرَّغُ الْإِنْسَانُ فِيهِ حَتَّى مِنَ السَّعْيِ لِلدُّنْيَا، فَهُوَ مَقَامٌ أَقْرَبُ لِلتَّعَبُّدِ لِلَّهِ. وَحَدِيثُ قِصَصِ إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسْجُونِينَ شَاهِدٌ، وَقِصَصُ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُجْرِمِينَ لِلَّهِ حَتَّى عَبْرَ أَدْيَانِهِمُ الَّتِي وَجَدُوا آبَاءَهُمْ وَقَوْمَهُمْ عَلَيْهَا. فَيُوسُفُ مَنْ لَمْ تُنْسِهِ النِّسْوَةُ الدُّعَاءَ وَالِالْتِجَاءَ لِلَّهِ، لَا أَظُنُّهُ نَسِيَ —فِي هَذَا الْمَقَامِ— أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ، فَيَقُولُ مَثَلًا: "اذْكُرْ مَظْلَمَتِي عِنْدَ سَيِّدِكَ الْمَلِكِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مَخْرَجًا وَفَرَجًا كَمَا جَعَلَ لَكَ مَخْرَجًا وَفَرَجًا"، وَهُوَ مَنْ دَعَا السَّاقِيَ لِلْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ. لَكِنَّهَا خُطُوَاتُ وَعَمَلُ الشَّيْطَانِ، أَرَادَ أَنْ يُشْقِيَ يُوسُفَ بَعْدَ تَحَقُّقِ مُرَادِ اللَّهِ فِيهِ وَفَشَلِ سَعْيِهِ الْأَوَّلِ —التَّزْيِينُ لِإِخْوَتِهِ قَتْلَهُ—، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا فَاللَّهُ أَرَادَ وَقَضَى لِيُوسُفَ بِالْمُلْكِ، فَكَمَا قَالَ يُوسُفُ لِصَاحِبَيْهِ:﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

حُكْمُ اللَّهِ أَنْ يُزَادَ مُوسَى عِلْمًا بِبُلُوغِ لُقْيَا الْخَضِرِ، فَ:﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: 64].

هَذِهِ عَلامَةُ المَكانِ، كَما أَخْبَرَهُ سُبْحانَهُ، سَيَلْتَقِيانِ فيهِ بِالخَضِرِ:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أَيْ عِلْمَ الغَيْبِ.«قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: كَانَ عِلْمُ الْخَضِرِ عِلْمَ مَعْرِفَةِ بَوَاطِنَ قَدْ أُوحِيَتْ إِلَيْهِ، لَا تُعْطِي ظَوَاهِرُ الْأَحْكَامِ أَفْعَالَهُ بِحَسَبِهَا، وَكَانَ عِلْمُ مُوسَى عِلْمَ الْأَحْكَامِ وَالْفُتْيَا بِظَاهِرِ أَقْوَالِ النَّاسِ وَأَفْعَالِهِمْ...»[تفسير القرطبي].

. فَعِلْمُ الخَضِرِ فِي مَسائِلَ خاصَّةٍ لِأَفْرادٍ مُعَيَّنِينَ، وَعِلْمُ مُوسَى يُعالِجُ جَميعَ المَشاكِلِ العَامَّةِ وَيَقْضِي عَلَيْها مِنْ جُذورِها.

فصل: ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10].

◆

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66].

أَدَبٌ وَخُلُقٌ وَحُسْنُ سُؤالٍ.

رَشَدَ الإِنْسانُ أَيْ بَلَغَ سِنَّ البُلوغِ وَالتَّكْليفِ وَالتَّمْيِّزِ، وَهِيَ سِنٌّ يُمَيِّزُ بِها بَيْنَ الصَّوابِ وَالخَطَأِ غالِبًا. وَ"الرُّشْدُ": أَرْشَدَ الإِنْسانَ دَلَّهُ عَلَى طَريقِ مَا يَطْلُبُ؛ فَغايَةُ الإِنْسانِ أَنْ يَعْلَمَ طَريقَ النَّجاةِ وَالسَّعادَةِ وَالفَلاحِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَهَذا مِنْ غاياتِ الرَّحْمَنِ. فَلَمَّا عَلِمَتِ الجِنُّ أَنَّ أَخْبارَ السَّماءِ وَعُلومَها أُوصِدَتْ فِي وُجوهِهِمْ بِميلادِ المُصْطَفَى مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَيْرِ البَشَرِ أَجْمَعينَ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8].

فَقَبْلَ بَعْثِهِ كَانَ حالُهُمْ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9]. حُرَّاسٌ مَلاكٌ كُلُّ مَنْ يَقْتَرِبُ وَيُحاوِلُ أَنْ يَسْمَعَ خَبَرَ السَّماءِ وَمَا أَوْحَى بِهِ اللَّهُ لِمَلائِكَتِهِ مِنَ الجِنِّ يُرْسَلُ عَلَيْهِ شِهابٌ. حينَ قالَ الجِنُّ، وَمَا أَعْلَمَهُمْ وَأَحْكَمَهُمْ:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10].

هَلْ حُجِبَتْ أَخْبارُ السَّماءِ عَنِ الأَرْضِ شَرًّا؟! أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (هِدايَةً وَدَلالَةً وَخَيْرًا)؟! كانَتِ الإِجابَةُ بَعْثَةَ مُحَمَّدٍ لِيُجَدِّدَ مَعالِمَ مَنْهَجِ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، لِيُبْعَثَ بِالْغاياتِ الرَّحْمانِيَّةِ، حَتَّى لَا

يُسَيْطِرَ عَلَى البَشَرِ كَهَنَةٌ وَمُنَجِّمونَ يَسْمَعونَ جُزْءًا مِنْ وَحْيِ السَّماءِ وَخَبَرِها وَيُلَفِّقونَ أَلْفَ كِذْبَةٍ مَعَهُ. ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، عَلِمَ مُوسَى أَنَّ كُلَّ تَعالِيمِ اللَّهِ تُؤَدِّي لِلرُّشْدِ وَالسَّعادَةِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَيَعْلَمُ ذَلِكَ مِمَّا أَعْطاهُ اللَّهُ وَأَوْحَى إِلَيْهِ، وَأَرادَ أَنْ يَزْدادَ رُشْدًا وَهِدايَةً.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 67-68].

الخَضِرُ لِمُوسَى: «لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصْبِرَ». عِلْمُ الخَضِرِ مُتَعَلِّقٌ بِالْمُسْتَقْبَلِيَّاتِ فِي أُمُورٍ خَاصَّةٍ أَعْلَمَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَهُوَ يَعْلَمُ مَآلَاتِ الْأُمُورِ، وَهُوَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ سِوَى نَفَرٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، فَقَالَ عَالِمُ الْغَيْبِ:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 26-27].

فَالخَضِرُ رَسولٌ اخْتَصَّهُ اللَّهُ بِعِلْمٍ غَيْبِيَّاتٍ (مُسْتَقْبَلِيَّاتٍ وَعَواقِبَ) لِحالاتٍ وَمَسائِلَ خاصَّةٍ بِأَفْرادٍ مُعَيَّنينَ. وَلِذَلِكَ حَثَّ اللَّهُ عِبادَهُ لِلصَّبْرِ عَلَى الِابْتِلاءاتِ وَالمِحَنِ لِأَنَّهُ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ عاقِبَتَها وَمآلَها كَما فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ. وَقالَ الخَضِرُ لِمُوسَى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، لَنْ تَصْبِرَ لِأَنَّكَ تَرَى مَا لَا عِلْمَ لَكَ بِمآلِهِ وَبِغايَتِي مِنْ فِعْلِهِ. لَكِنَّ مُوسَى قالَ:

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69]، سَأَصْبِرُ وَلَا أَعْصيكَ فِي هَذا أَوْ غَيْرِهِ.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 70]. اشْتَرَطَ الخَضِرُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ مُوسَى عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَفْعَلُ حَتَّى يَذْكُرَهُ الخَضِرُ بِنَفْسِهِ. قَبِلَ مُوسَى الشَّرْطَ ثُمَّ:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: 71].

دَعَاهُمْ قَوْمٌ لَهُمْ سَفِينَةٌ يَعْرِفُونَ الْخَضِرَ لِيُوصِلَاهُمَا. بَعْدَ أَنْ رَكِبَا قَامَ الْخَضِرُ بِخَرْقِ السَّفِينَةِ. اسْتَغْرَبَ مُوسَى: أَتَخْرِقُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟! بَلْ وَأَهْلُهَا قَوْمٌ قَدَّمُوا مَعْرُوفًا لَنَا، كَيْفَ يَسْتَقِيمُ ذَلِكَ؟! أَصْحَابُهَا هُم مَنْ تَكَرَّمُوا وَحَمَلُونَا عَلَيْهَا بِالْمَجَّانِ. كَانَتْ إِجَابَةُ الْخَضِرِ حِينَ أَوَّلَ الْأَمْرَ بَعْدَمَا اتَّفَقَا عَلَى الْفِرَاقِ: "قَوْمٌ مَسَاكِينُ يَعِيشُونَ عَلَيْهَا، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَعِيبَهَا لِأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ فِي طَرِيقِهِمْ مَلِكٌ ظَالِمٌ يَأْخُذُ السُّفُنَ الْجَيِّدَةَ وَيَغْتَصِبُهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَعَيْبُهَا سَيُنَجِّيهَا وَيُنَجِّيهِمْ مِنْهُ". وَهُنَا مَلْمَحٌ لِلْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

لَا يَتَصَوَّرُ مُوسَى أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ مِنْ شَخْصٍ عَادِيٍّ، فَكَيْفَ مِنَ الْخَضِرِ وَهُوَ مَعَهُ وَالْقَوْمُ أَكْرَمُوهُمْ وَعَظَّمُوهُمْ؟ حَمِيَّةً وَغَيْرَةً مَحْمُودَةً وَإِنْكَارًا وَفَعَالِيَّةً مِنْ مُوسَى لَكِنَّهُ نَسِيَ شَيْئًا فَذَكَّرَهُ الْخَضِرُ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. أَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَلَى أَفْعَالِي وَسَوْفَ

تَسْتَغْرِبُ وَتُنْكِرُ، وَاشْتَرَطْتُ عَلَيْكَ أَلَّا تَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَكَ أَنَا مِنْ نَفْسِي. حِينَئِذٍ تَذَكَّرَ مُوسَى وَاعْتَذَرَ قَائِلًا:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: 73]؛ نَعَمْ نَسِيتُ وَخالَفْتُ الشَّرْطَ وَالِاتِّفاقَ بَيْنَنا، لَكِنْ لَا تَجْعَلْ مَا بَذَلْتُ مِنْ جُهْدٍ وَتَعَبٍ وَتَحَمُّلٍ لِالْتِقاءِ بِكَ يَضيعُ بِلا فائِدَةٍ جَزَاءَ نِسْيانٍ لِمَا اشْتَرَطْتَهُ لِمُصاحَبَتِي. ثُمَّ:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 74].

غُلامٌ لَمْ يَرَهُ مُوسَى يَقْتُلُ أَحَدًا كَما قالَ مُوسَى، أَنَّى لِمُوسَى لِيَصْبِرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يُنْكِرَ وَهُوَ كَما أَخْبَرَهُ الخَضِرُ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟! فَما فَعَلَهُ الخَضِرُ هُوَ عِنْدَهُ مُنْكَرٌ عَظِيمٌ شَنِيعٌ، لَكِنَّ الخَضِرَ لَمْ يَزِدْ أَنْ قالَ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 75]. حِينَها عَلِمَ مُوسَى أَنَّهُ نَسِيَ العَهْدَ وَالشَّرْطَ الَّذِي قَبِلَ بِهِ لِمُصاحَبَةِ الخَضِرِ وَأَنَّ هَذِهِ هِيَ السَّهْوَةُ الثَّانِيَةُ، فَلا يَسَعُ سِوَى أَنْ يَقولَ:

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: 76]؛ هَذِهِ سَتَكونُ آخِرَ مَرَّةٍ إِنْ خالَفْتُ، وَبَعْدَها نَفْتَرِقُ كُلٌّ يَسيرُ لِسَبيلِهِ. ثُمَّ:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77].

جاعوا، طَلَبوا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ أَنْ يُضَيِّفوهُما فَرَفَضوا. وَجَدَ الخَضِرُ جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَسْقُطَ فَبَناهُ وَأَصْلَحَهُ.قالَ مُوسَى مُسْتَعْجِبًا بِلِسَانِ حَالِهِ: "كَانَ الأَوْلَى أَنْ تَطْلُبَ مِنْ هَؤُلاءِ البُخَلاءِ أَجْرًا عَلَى ذَلِكَ!". وَنَسِيَ مُوسَى العَهْدَ وَالميثاقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَضِرِ: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. وَهَذِهِ المَرَّةُ الثَّالِثَةُ:

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78].

سَيَسيرُ كُلٌّ لِسَبيلِهِ، وَقَبْلَها سَأُخْبِرُ تَأْويلَ مَا حَدَثَ. وَبَدَأَ الخَضِرُ السَّرْدَ:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

[الكهف: 79-80].

أَبَواهُ مُؤْمِنينَ. وَفِي تَفْسيرِهِ الآيَةَ: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾، قيلَ لَها قِراءَتانِ: الأُولَى، وَهِيَ الرَّاجِحَةُ عِنْدِي قَرَأَ بِذَلِكَ عامَّةُ قُرَّاءِ أَهْلِ الكُوفَةِ: ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾. بِمَعْنَى: التَّائِبَةُ المَغْفورُ لَها ذُنوبُها. وَهِيَ تُعَضِّدُ قَوْلَ أَنَّ مَعْنَى "الغُلامُ" هُنا هُوَ الشَّابُّ. وَقَدِ احْتَجَّ أَهْلُ القَوْلِ الأَوَّلِ بِأَنَّ العَرَبَ تُبْقِي عَلَى الشَّابِّ اسْمَ الغُلامِ، وَمِنْهُ قَوْلُ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةِ:

شَفَاها مِنَ الدَّاءِ العُضالِ الَّذِي بِها ... غُلامٌ إِذَا هَزَّ القَناةَ سَقاها -تفسير الطبري-

فَالغُلامُ هُنا بَالِغٌ ارْتَكَبَ مَا يوجِبُ عُقوبَةَ القَتْلِ وَإِنْ كَانَ مُوسَى وَالخَضِرُ لَمْ يَشْهَدا ذَلِكَ. فَاللَّهُ قَضَى أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا بِغَيْرِ ذَنْبٍ، بَلْ حَتَّى تَقومَ الحُجَّةُ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا فَعَلَهُ يَسْتَحِقُّ العُقوبَةَ. وَلَا شاهِدَ عَلَى ذَلِكَ مِثْلُ إِبْلِيسَ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ بِنِيَّتِهِ أَنْ يُغْوِيَ عِبادَهُ وَيُدْخِلَهُمُ النَّارَ بَلْ

تَحَدَّى خالِقَهُ قائلًا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82]. وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يُعاقِبْهُ اللَّهُ عَلَى نِيَّتِهِ. فَالغُلامُ كَانَ مُفْسِدًا فِي الأَرْضِ، مُؤَكَّدٌ أَنْ كَانَ هُناكَ غَيْرُهُ مِنَ المُفْسِدِينَ -وَفِرْعَوْنُ شاهِدٌ عَلَى هَذا- لَكِنْ مَا قالَ اللَّهُ عَلَى لِسانِ الخَضِرِ: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

كَرَامَةً لِوَالِدَيْهِ الْمُؤْمِنَيْنِ، يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ سَيُذِيقُهُمَا الْوَبَالَ وَالْعَذَابَ فِي فَتْرَةٍ يَحْتَاجَانِ فِيهَا مِنْهُ الْعِنَايَةَ وَالرِّعَايَةَ، لِضَعْفِهِمَا وَكِبَرِ سِنِّهِمَا، وَرُبَّمَا سَعَى لِإِجْبَارِهِمَا عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَنَكَّلَ بِهِمَا حَتَّى يُشْرِكَا كَمَا فَعَلَ وَيَفْعَلُ الطُّغَاةُ الظَّالِمُونَ دَوْمًا بِتَزْيِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ.

وَذَلِكَ رَاجِعٌ أَوَّلًا لِطُغْيَانِهِ، وَثَانِيًا لَعَلَّهُمَا كَانَا يَنْصَحَانِهِ —بَلْ مُؤَكَّدٌ عِنْدِي ذَلِكَ، فَاللَّهُ وَصَفَهُمَا وَصْفًا وُصِفَ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ— وَيَنْهَيَانِهِ عَنْ ظُلْمِهِ وَفَسَادِهِ، وَيُذَكِّرَانِهِ بِاللَّهِ وَعَذَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالْحُجَّةُ الْأُخْرَى لِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ حَتَّى الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَتَحَقَّقَ شُرُوطٌ: أَوَّلُهَا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَثَانِيهَا إِفْسَادُ الْأُمَّةِ الْمُسْتَأْصَلَةِ إِفْسَادًا شَدِيدًا فِي الْأَرْضِ.

﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: 81].

وَسَيُبْدِلُها اللَّهُ غُلامًا آخَرَ خَيْرًا مِنْهُ، أَخْلاقُهُ زَكِيَّةٌ وَفاضِلَةٌ، وَبِرُّهُما، وَلَعَلَّ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ سَخَّرَ الخَضِرَ لَهُما، فَهُمَا سَيَصِيرانِ ضَعِيفانِ وَقَدْ لَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَوِ الحاكِمُ مَا يَفْعَلُ وَلَدُهُما بِهِما فِي المَنْزِلِ فَيَشْقَيانِ وَيُعَذَّبانِ أَشَدَّ العَذابِ.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82].

الحائِطُ فِي أَرْضٍ لِيَتِيمَيْنِ وَتَحْتَهُ كَنْزًا لَهُما دَفَنَهُ أَبوهُمَا الصَّالِحُ قَبْلَ أَنْ يَتَوَفَّاهُمُ اللَّهُ حَتَّى لَا يَنْتَزِعَهُ مِنْهُما أَحَدٌ. فَأَرادَ اللَّهُ أَنْ يَحْفَظَ لَهُما وَلَا يَنْهَدَّ الحائِطُ فَيَعْلَمَ بِهِ أَهْلُ القَرْيَةِ اللَّئامُ وَالبُخَلاءُ وَيَغْتَصِبونَ حَقَّهُما، وَواضِحٌ مِنْ طَبْعِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ شائِعٌ عِنْدَهُمْ. هَذا تَأْوِيلُ الأُمورِ الَّتِي لَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أَكونَ أَنَا مَنْ يُخْبِرُكَ بِها.

وَفِي قِصَّةِ الْغُلَامَيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ أَغْلَبُ أَهْلِهَا مِنَ اللِّئَامِ، تَجَلَّتْ قِصَّةُ "الْخَاصِّ مَعَ الْعَامِّ"، فَلَا يُؤْخَذُ الْفَرْدُ بِجَرِيرَةِ الْعَامَّةِ. وَمُوسَى وَالْخَضِرُ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- هِيَ أَيْضًا قِصَّةُ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، فَمُوسَى أُرْسِلَ بِمَنْهَجٍ يُعَالِجُ الْمُشْكِلَاتِ الْعَامَّةَ لِمُجْتَمَعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَيْنَمَا أُوحِيَ لِلْخَضِرِ لِيُعَالِجَ مُشْكِلَاتٍ خَاصَّةً تُواجِهُ أَفْرَادًا بِعَيْنِهِمْ؛ لِذَا لَا يَحْتَاجُ لِنَشْرِ عِلْمِهِ.

أَمَّا مُوسَى فَأُرْسِلَ بِالتَّوْرَاةِ لِحَلِّ قَضَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عَامَّةً، وَتَشْمَلُ أَيْضًا مُوَجِّهَاتٍ لِلْحُكْمِ فِي قَضَايَا بِعَيْنِهَا (الْحُكْمُ الظَّاهِرِيُّ). وَالْخَضِرُ رَسُولُ الْغَايَاتِ الرَّحْمَنِيَّةِ لِلْخَاصَّةِ فِي وَجْهِ طُغْيَانِ الْعَامَّةِ، فَنَجَّى اللَّهُ بِالْخَضِرِ الْمَسَاكِينَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ مَلِكٍ غَشُومٍ وَجُنْدِهِ.

فَأَصْحَابُ السَّفِينَةِ، وَأَبَوَا الْغُلَامِ الْمُؤْمِنَانِ الْهَرِمَانِ -اللَّذَانِ خُشِيَ عَلَيْهِمَا مِنْ إِرْهَاقِ ابْنِهِمَا وَعُصْبَتِهِ لَهُمَا بِالطُّغْيَانِ وَالْكُفْرِ، حَيْثُ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّهُ كَانَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ- وَالْغُلَامَانِ الْيَتِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الْبُخَلَاءِ الَّذِينَ كَادُوا يَأْكُلُونَ كَنْزَهُمَا بِالْبَاطِلِ لِحَالِ ضَعْفِهِمَا وَصِغَرِهِمَا، كُلُّ هَؤُلَاءِ شَمِلَتْهُمْ عِنَايَةُ الْخُصُوصِ.

وَمُوسَى رَسُولُ الْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ لِلْعَامَّةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضِدَّ طُغْيَانِ اسْتِعْبَادِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ. وَكُلُّ الرُّسُلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أُرْسِلُوا لِغَايَةِ إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى رَحَابَةِ وَرَغَدِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

لَمْ يَسْتَطِعْ مُوسَى أَنْ يَحْفَظَ عَهْدَ الخَضِرِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ إِخْوَةُ يُوسُفَ أَنْ يَحْفَظُوا مِيثَاقَهُمْ لِأَبِيهِمْ: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾. لَكِنَّ جَرِيمَةَ السَّرِقَةِ أُثْبِتَتْ عَلَيْهِ وَحَكَمُوا هُمْ أَنَّ فِي شَرْعِهِمُ السَّارِقُ يُسْتَرَقُّ. لِغِلْظَتِهِمْ أَوَّلًا قالوا:

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77].

هُمْ مَنْ وَضَعوا يُوسُفَ فِي البِئْرِ وَأَرادوا قَتْلَهُ، الآنَ يَتَّهِمونَهُ زُورًا بِالسَّرِقَةِ! لَا غَرابَةَ فَهُمْ كَما قالَ يُوسُفُ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، أَنْتُمْ أَرَدْتُمْ قَتْلِي، وَقُمْتُمْ بِنَفْيِي مِنْ والِدِي وَأَنَا صَغِيرٌ ثُمَّ كَذَبْتُمْ عَلَيْهِمْ؛ أَوْصافٌ وَأَخْلاقٌ أَسْوَأُ مِنَ السَّرِقَةِ. وَيُوسُفُ طاهِرٌ أَمِينٌ عَفِيفٌ نَزِيهٌ، لَكِنَّ الحَسَدَ وَالغِلَّ فِي النُّفوسِ المَرِيضَةِ. لَكِنَّ هَذِهِ المَرَّةَ تَذَكَّروا مِيثاقَهُمُ الغَلِيظَ الَّذِي واثَقوا بِهِ أَباهُمْ وَحاوَلوا أَنْ يَفوا بِعَهْدِهِمْ:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78].

لَكِنَّ يُوسُفَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَسْتَرِقَّ بَلْ أَنْ يُكَرِّمَهُ وَيَحْفَظَهُ مِنْ إِخْوَتِهِ:

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79].

وَمَا أَحْسَنَها مِنْ حُجَّةٍ! فَلا يَلِيقُ بِمَنْ كَانَ الإِحْسانُ صِفَتَهُ أَنْ يَأْخُذَ أَحَدًا بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ، وَإِنَّما هِيَ صِفَةُ الظَّالِمِينَ أَمْثالِهِمْ كَما فَعَلوا بِيُوسُفَ وَأَخيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالنَّكالِ. وَاعْتَذَرَ بِعُذْرٍ جَميلٍ وَحَقيقَةٍ؛ لَا يُرِيدُ يُوسُفُ ظُلْمًا أَخيهِ بِتَرْكِهِ مَعَهُمْ لِيُنَكِّلوا بِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِحالِ إِخْوَتِهِ وَأَفْعالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَالبَاطِشَةِ. وَهُنا لَمْحَةٌ قُرآنِيَّةٌ تُنْبِئُكَ عَنْ يُوسُفَ وَأَخْلاقِ الأَنْبِياءِ؛ فَأَوَّلًا آوَى إِلَيْهِ أَخاهُ، أَخْبَرَهُ بِمَا يَنْوِي فِعْلَهُ حَتَّى لَا يَجْزَعَ أَوْ يَخافَ حَتَّى لَوْ لِفَتْرَةٍ قَصيرةٍ. ثانيًا لَمْ يَكْذِبْ -حَاشا أَنْبِياءِ اللَّهِ الكَذِبَ قَبْلَ الرِّسالَةِ وَبَعْدَها- فَلَمْ يَقُلْ: "مَنْ سَرَقَ مَتاعَنا"، بَلْ قالَ: ﴿مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُۥ﴾.

فصل: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

◆

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: 80].

قالَ كَبيرُهُمْ، وَهُوَ أَعْقَلُهُمْ، بَعْدَ أَنْ يَئِسوا مِنْ أَنْ يَرُدَّ العَزيزُ أَخاهُمْ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ: "أَعْطَيْتُمْ أَبَاكُمُ العُهودَ وَالمَواثيقَ عَلَى حِفْظِهِ، فَكَيْفَ يُصَدِّقُكُمُ الآنَ وَقَبْلَها ضَيَّعْتُمْ يُوسُفَ كَذِبًا وَخِيانَةً؟! أَمَّا أَنَا فَلا وَجْهَ لِي أُقابِلُ بِهِ أَبِي، سَأَمْكُثُ هُنا إِلَى أَنْ يَسْتَدْعِيَنِي أَبِي ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، أَوْ يَشاءَ اللَّهُ أَنْ يُقَدِّرَ لِي شَيْئًا آخَرَ، هُوَ خَيْرُ مَنْ يَقْضِي فِي الأُمورِ".

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: 81-82].

أَمَّا أَنْتُمْ فَارْجِعوا لِأَبيكُمْ وَأَخْبِروهُ القِصَّةَ، أَنَّ بِنْيامينَ سَرَقَ وَاسْتُرِقَّ لِذَلِكَ، وَعِنْدَما أَعْطَيْناك المَواثيقَ لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ أَنَّ هَذا سَيَحْدُثُ وَأَنَّهُ سَيَسْرِقُ، وَهَذِهِ هِيَ الحَقيقَةُ. وَإِنْ لَمْ تُصَدِّقْنا: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، اسْأَلْ أَهْلَ مِصْرَ عَنْ مَا

حَدَثَ مَعَ قافِلَتِنا، وَاسْأَلْ أَهْلَ القافِلَةِ أَيْضًا. لَكِنْ هَيْهاتَ لِيَعْقوبَ أَنْ يُصَدِّقَ دَعْواهُمْ هَذِهِ المَرَّةَ وَإِنْ كانُوا صادِقينَ، بَعْدَ تَضْييعِهِمْ لِيُوسُفَ وَكَذِبِهِمْ فِي مَا ادَّعَوْهُ:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83].

مَكْرٌ جَديدٌ سَوَّلَتْ لَكُمْ بِهِ أَنْفُسُكُمْ، حَسَدًا عَلَى أَخيكُمْ كَما قالَ لِيُوسُفَ مِنْ قَبْلُ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. فَما عَسَى سِوَى الصَّبْرِ الجَميلِ مِنْ غَيْرِ تَسَخُّطٍ، لَعَلَّ اللَّهَ شاءَ ذَلِكَ لِيَجْمَعَنِي بِيُوسُفَ وَأَخيهِ جَميعًا، وَهُوَ عَليمٌ بِحالِي وَحالِهِمْ، وَحَكيمٌ فِي مَا يَقْضِي وَيُقَدِّرُ.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84].

فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَبَكَى يَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى عَمِيَ، امْتَلَأَ حُزْنًا وَأَسًى، بَكَى حَتَّى جَفَّ مَاءُ عَيْنَيْهِ، فَقَدْ طالَ الغِيابُ وَالفَقْدُ، وَفَقَدَ السَّلْوَى ابْنَهُ الأَصْغَرَ. وَصَارَ حالُ يَعْقوبَ كَما قالَ الشَّاعِرُ:

فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوَى فَالدَّكادِكِ

فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا ... فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

لَمَّا لَامَهُ قَوْمُهُ وَعاتَبوهُ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: 85]. أَقْسَموا أَنَّ اسْتِرْجاعَ ذِكْرَى يُوسُفَ وَفَقْدِهِ وَتَحِنُّ إِلَيْهِ، حَتَّى تُجَنَّ أَوْ تَموتَ. أَجابَهُمْ:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86].

فصل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

◆

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86]

إِنَّمَا أَشْكو لِرَبِّي وَمَوْلايَ وَأَبُثُّ لَهُ حُزْنِي وَشَكْوايَ لَا أَشْكو لَكُمْ، وَأَعْلَمُ مَا أَوْحَى لِي رَبِّي وَمِنْ تَأْوِيلِ الأَحاديثِ وَمِمَّا فَسَّرْتُ بِهِ الرُّؤْيَةَ أَنَّ يُوسُفَ بِخَيْرٍ وَأَنَّ رُؤْياهُ سَتَتَحَقَّقُ وَيُعْطيهِ اللَّهُ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ وَالحِكْمَةَ. ثُمَّ أَرْدَفَ مُوصِيًا بَنيهِ:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

تَسَمَّعوا وَاسْتَقْصوا أَخْبارَ يُوسُفَ وَأَخيهِ، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْنَطُ مِنْ فَرَجِهِ وَرَحْمَتِهِ وَيَقْطَعُ رَجاءَهُ مِنْهُ إِلَّا كافِرٌ بِهِ لَا يُؤْمِنُ بِقُدْرَتِهِ. فَحَمَلوا بِضاعَةً وَرَجَعوا لِمِصْرَ:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88].

مَسَّنا ضَنْكُ العَيْشِ، وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ قَليلَةِ الثَّمَنِ وَالقيمَةِ؛ فَأَحْسِنْ فِي كَيْلِنا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا طَمَعًا فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. هُنا تَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ يُوسُفُ بِمَا لَا يَتَصَوَّرونَهُ:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: 89]. كَمَا أَوْحَى اللَّهُ لَهُ إِلْهامًا وَهُوَ فِي البِئْرِ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15].

أَخْبَرَهُمْ يُوسُفُ بِفَعْلَتِهِمْ وَهُمْ مَنْ أَتَوْهُ مِرارًا وَتَكْرارًا وَلَا يَشْعُرونَ أَنَّهُ يُوسُفُ، لَكِنِ الآنَ انْكَشَفَ المَسْتورُ وَعَلِموا: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

نَعَمْ، وَهَذا عاقِبَةُ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْحُكْمِ وَخَزَانَةِ أَمْوالِ مِصْرَ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ أَحْسَنَ لِلنَّاسِ وَأَحْسَنَ فِي عِبادَتِهِ.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91].

اخْتارَكَ اللَّهُ لِلْمَكانَةِ العالِيَةِ وَحَكَمَ لَكَ بِذَلِكَ، وَنَحْنُ أَخْطَأْنا حِينَ حَسَدْناكَ وَظَنَنَّا أَنَّهُ يُمْكِنُنا بِمَكْرِنا أَنْ نَحُطَّ مِنْ قَدْرِكَ وَمَكانَتِكَ الَّتِي اخْتارَكَ اللَّهُ لَها. يَتَبَيَّنُ هُنا خُلُقُ يُوسُفَ وَطيبُ مَعْدِنِهِ:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

لَا لَوْمَ وَلَا عِتابَ، أَساءُوا مُعامَلَتَهُ، أَلْقَوْهُ فِي البِئْرِ، وَصارَ عَبْدًا بِسَبَبِ فَعْلَتِهِمْ. الآنَ هُوَ الحاكِمُ لَوْ أَرادَ لَأَدْخَلَهُمُ السِّجْنَ، لَكِنْ قالَ: "عَفَوْتُ عَنْكُمْ"، وَلَمْ يُعاتِبْهُمْ كَلامًا حَتَّى، أَنَّهُ الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنُ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقوبَ بْنِ إِسْحاقَ بْنِ إِبْراهِيمَ. ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَجاوَزَ عَنْ سَيِّئاتِكُمْ وَجُرْمِكُمْ.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93].

القَميصُ جُرْمٌ مادّيٌّ لِاصَاقَ روحَ يُوسُفَ، اذْهَبوا بِهِ لِأَبيهِ يَشْفَى بِإِذْنِ اللَّهِ روحُهُ مِنَ الحُزْنِ وَيَبْرأُ عَيْنُهُ وَيُعيدُ بَصَرَهُ، وَاصْحَبوا جَميعَ أَهْلِكُمْ مَعَكُمْ.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: 94].

تَحَرَّكَ الرِّياحُ صَوْبَ قَرْيَةِ يَعْقوبَ، فَحَمَلَتِ الرِّيحُ روحَ يُوسُفَ فَشَمَّهُ يَعْقوبُ بِروحِهِ الشَّفَّافَةِ مِنْ مَسافَةٍ قيلَ أَنَّها مَسيرَةُ ثَمانِيَةِ أَيَّامٍ. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، تُضَحِّضونَ زَعْمي وَتَلومونَ وَتَقولونَ أَنَّ يُوسُفَ مَاتَ وَهَذِهِ أَوْهامٌ مِنْكَ. فَصَدَقَ، فَكانَ حالُهُمْ:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95]؛ ذِكْرُ يُوسُفَ وَزَعْمُ أَنَّهُ حَيٌّ سَيَعودُ.

لَكِنَّ هَذِهِ المَرَّةَ:

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 96].

مَعَ الدَّليلِ المادّيِّ القَميصِ، أَلْقاهُ البَشيرُ عَلَى وَجْهِهِ فَرَجَعَ بَصَرُهُ وَقالَ مُخاطِبًا: "أَلَمْ أُخْبِرْكُمْ مِرارًا وَتَكْرارًا بِأَنَّ يُوسُفَ حَيٌّ لَكِنْ لَمْ تُصَدِّقوا وَتَسْخَرونَ مِنِّي؟!". وَأَرْدَفَ قائِلًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: 97-98].

"نَعَمْ، كُنَّا خاطِئينَ فِي هَذِهِ فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّا تَرَكْناهُ فِي البِئْرِ حَيًّا، وَكُنَّا خاطِئينَ فِي فِعْلِنا وَحَسَدِنا وَمُعامَلَتِنا لِيُوسُفَ وَأَخيهِ وَلَكَ، فَادْعُ اللَّهَ لِيَغْفِرَ لَنا جُرْمَنا". قالَ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ لَيْسَ الآنَ، إِنَّ رَبِّي غَفورٌ رَحيمٌ. لَعَلَّ يَعْقوبَ يَودُّ أَنْ يُسْرِعَ لِلِقاءِ يُوسُفَ؛ فَقَدَهُ صَغيرًا وَيُوسُفُ الآنَ بَلَغَ وَكَبُرَ عَشَراتِ السِّنينَ. يَكْوِي الحَنينُ وَالشَّوْقُ يَعْقوبَ، وَهَذا الرَّاجِحُ عِنْدِي؛ فَرائِحَةُ القَميصِ فَقَطْ شَفَتْ فَقْدَ بَصَرِهِ الَّذِي دامَ سِنينَ، فَكَيْفَ بِالْتِقاءِ الأَجْسادِ وَالأَرْواحِ؟! إِنَّهُ لَشَوْقٌ عَظيمٌ يُؤَجِّلُ مِنْ أَجْلِهِ يَعْقوبُ اسْتِغْفارَهُ لِبَنيهِ وَهُمْ مَنْ أَجْرَموا فِي حَقِّهِ وَحَقِّ ابْنِهِ. نَعَمْ يَعْقوبُ رَحيمٌ ذو خُلُقٍ لَا يوجَدُ إِلَّا فِي مَنْ بَعَثَهُمُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ، لَكِنَّ الرُّوحَ فِي شُغْلٍ وَالقَلْبَ فِي شَوْقٍ عَظيمٍ جِدًّا.

فصل: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: 99].

ضَمَّ أَبَوَيْهِ، وَقالَ لِإِخْوَتِهِ وَقَوْمِهِ: بِإِذْنِ اللَّهِ سَتَكونُ مِصْرُ دارَ أَمانٍ وَقَرارٍ لَكُمْ.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100].

رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى عَرْشٍ مَعَهُ، وَخَرَّ إِخْوَتُهُ تَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا لَهُ (كَانَ ذَلِكَ جائزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ -وَإِنْ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ-). تَحَقَّقَ الآنَ مَا رَأَى يُوسُفُ صَغِيرًا وَتَأْوِيلُ أَبِيهِ لَها بِالنُّبُوَّةِ وَالحِكْمَةِ وَالسُّؤْدُدِ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

أَحْسَنَ اللَّهُ لِي أَيَّما إِحْسانٍ بَعْدَ أَنْ أَغْوَى الشَّيْطَانُ إِخْوَتِي وَجَعَلوني فِي البِئْرِ، ثُمَّ اشْتَرَانِي العَزِيزُ وَأَحْسَنَ كِفالَتِي، وَدَخَلْتُ السِّجْنَ بِسَبَبِ كَيْدِ النِّسْوَةِ، وَالْتَقَيْتُ السَّاقِيَ، وَكُلُّ ذَلِكَ سَاقَهُ اللَّهُ لِأَصِلَ لِهَذِهِ المَكانَةِ وَالرِّفْعَةِ. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، يُقَدِّرُ وَيَسوقُ الأُمورَ بِرِفْقٍ وَعِنايَةٍ. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، يَعْلَمُ مآلاتِ الأُمورِ وَنِهاياتِها، حَكيمٌ يَجْعَلُ لِكُلِّ مآلٍ مَا يُناسِبُهُ، وَحَكيمٌ فِي جَعْلِ المآلاتِ الحَسَنَةِ لِلْمُحْسِنينَ وَالسَّيِّئَةِ لِلْمُسيئينَ.

مَا يَطْلُبُ يُوسُفُ بَعْدَ ذَلِكَ؟! نُبُوَّةٌ، مُلْكٌ، أُسْرَةٌ، مَالٌ، مَفاتِيحُ خَزائِنِ مِصْرَ بِيَدِهِ، تَمْكِينٌ فِي الأَرْضِ. مَا يَطْلُبُ؟! يَطْلُبُ الغايَةَ السَّامِيَةَ وَالنَّعِيمَ المُقِيمَ الَّذِي لَا مُنَغِّصَ لَهُ:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

ثَبِّتْنِي عَلَى دِينِ الإِسْلامِ، الأَنْبِياءُ يَسْأَلونَها. فَمُحَمَّدٌ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ مِنْ أَنْ يَدْعُوَ:

« يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » [الترمذي].

الباب السادس

﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

عَلِمَ يُوسُفُ عَيْنَ الْيَقِينِ أَنَّ الْمُلْكَ بِيَدِهِ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، أَعْطَاهُ اللهُ يُوسُفَ الْمُلْكَ فَمِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِمَلِكِ خَزَائِنِ مِصْرَ، وَنَزَعَ اللهُ الْمُلْكَ مِنَ الْعَزِيزِ فَمِنَ السِّيَادَةِ إِلَى الْحَضِيضِ، عِلَّهَا الْمَكَائِدُ وَالْمَكْرُ السَّيِّئُ وَاسْتِغْلَالُ السُّلْطَةِ. وَعَلَّمَ اللهُ نَبِيَّنَا فِي الْقُرْآنِ:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

لَكِنَّ كَثِيراً ضَلُّوا عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ، وَمِنْ أَعْظَمِهِمْ ضَلَالاً وَطُغْيَاناً فِرْعَوْنُ حِينَ قَالَ: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، فَكَانَ مَآلُهُ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَشَاءُ﴾ [النازعات: 25-26]. جَعَلَ اللهُ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ آيَةً وَعِظَةً وَعِبْرَةً لِمَكْرِهِ وَجَبَرُوتِهِ.

فَفِرْعَوْنُ عَلِمَ مِنَ الْكَهَنَةِ أَنَّ هَلَاكَ مُلْكِهِ عَلَى يَدِ فَتًى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْبِدَايَةُ رُؤْيَا كَمَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ، وَيَا لَهُ مِنْ تَشَابُهٍ وَاتِّحَادِ الْقُرْآنِ! فَكُلُّهُ وَالْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ تَصْدُرُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ.

وَلَيْسَ فَقَطْ عَدَمُ تَضَادٍّ وَاخْتِلَافِ آيَاتِهِ هُوَ الْمُعْجِزَةُ وَالآيَةُ لِلْبَشَرِيَّةِ لِتُؤْمِنَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].وَفِي الْكَوْنِ أَيْضاً تَشَاكُلٌ وَتَجَانُسُ وَحْدَةٍ، فَهُوَ كُلُّهُ خَلْقُ اللهِ وَيَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ. لَكِنَّ هُنَاكَ وَحْدَةً وَتَجَانُساً أَعْظَمَ يَدُلُّ عَلَى اللهِ وَآيَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، تَجَانُسٌ وَوَحْدَةٌ فِي تَقْدِيرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَكَيْفَ يَسُوقُ اللهُ الأَقْدَارَ وَاحِداً تِلْوَ الآخَرِ. وَيَا لَلْعَجَبِ! الشَّرُّ يَقُودُ لِلْخَيْرِ الْعَظِيمِ، فَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ يَقُولُ: « وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ »[مسلم]. فَحَتَّى أَقْدَارُ اللهِ الَّتِي تَبْدُو لِلنَّاسِ شَرّاً وَبَلَاءً إِنَّمَا هِيَ مُقَدِّمَاتٌ لِخَيْرٍ عَظِيمٍ وَرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ، لَوْلَا هَذِهِ الأَقْدَارُ وَالابْتِلَاءَاتُ لَمَا حَصَلَ لِلْعَبْدِ هَذَا الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ. وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ الْحِكَمُ وَالْعِبَرُ مِمَّا يُؤَكِّدُ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

لَوْلَا حَسَدُ إِخْوَتِهِ لَمَا تُرِكَ يُوسُفُ فِي الْبِئْرِ، وَلَا الْبِئْرُ لَمَا بِيعَ كَعَبْدٍ عِنْدَ عَزِيزِ مِصْرَ، وَلَوْلَا كَيْدُ النِّسْوَةِ لِيُوسُفَ لَمَا أُودِعَ فِي السِّجْنِ، وَلَوْلَا السِّجْنُ لَمَا الْتَقَى يُوسُفُ بِنَادِلِ الْمَلِكِ لِيَكُونَ سَبَباً فِي أَنْ يُصْبِحَ يُوسُفُ عَزِيزَ مِصْرَ وَخَازِنَ أَمْوَالِهَا. حَسَدُ إِخْوَتِهِ وَبِدَايَةُ سَوْقِ الْخَيْرِ لِيُوسُفَ كَانَ بِسَبَبِ رُؤًى صَالِحَةٍ رَآهَا هُوَ، وَهُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ، جَلَبَتِ الرُّؤْيَةُ لِيُوسُفَ الْخَيْرَ الْعَمِيمَ، وَرُؤْيَاهُ وَرُؤْيَا الْمَلِكِ الصَّالِحِ كَشَفَ اللهُ بِيُوسُفَ الْقَحْطَ وَالْجَفَافَ عَنْ مِصْرَ وَبَوَادِيهَا. وَحَتَّى إِخْوَةُ يُوسُفَ الْحَاسِدِينَ وَالْمُؤْذِينَ لَهُ نَالُوا الْخَيْرَ بِسَبَبِ رُؤْيَا أَخَاهُمُ الصَّالِحِ.

فَالْبِدَايَةُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ رُؤًى، وَكَذَلِكَ الْبِدَايَةُ فِي قِصَّةِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- رُؤًى، فَانْظُرْ لِهَذَا التَّجَانُسِ وَالْوَحْدَةِ فِي أَقْدَارِ اللهِ. وَلَعَلَّ مِنْ حِكَمِهَا أَيْضاً أَنْ لَا بُدَّ مِنْ رُؤًى وَأَهْدَافٍ لِتَحْقِيقِ

الْخَيْرِ الْعَمِيمِ فِي حَيَاةِ وَمُسْتَقْبَلِ الْبَشَرِيَّةِ. وَلَا تَظُنَّ أَنَّ التَّشَاكُلَ فَقَطْ فِي الرُّؤَى، بَلْ تَأَمَّلْ لِتَرَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ؛ فَكَهَنَةُ فِرْعَوْنَ مِنْ أَعْوَانِهِ وَأَتْبَاعِهِ مَنْ يُزَيِّنُونَ لَهُ وَيُسَاعِدُونَهُ فِي الضَّلَالِ وَالإِضْلَالِ، وَيُوسُفُ نَبِيٌّ صَالِحٌ. فَلِهَوَانِ فِرْعَوْنَ عِنْدَ اللهِ وَسُوءِ وَضَلَالِ أَعْوَانِهِ، اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَرَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ وَيُذِلَّ الإِنْسَانَ وَيُهِينَهُ، أَنْ يَرَى رُؤًى تُشْقِيهِ وَتُذِلُّهُ وَتُبَشِّرُ بِهَلَاكِهِ فِي حَيَاتِهِ، فَلَا يَنْعَمُ أَبَداً نَعِيماً تَامّاً وَهُوَ يُرِيدُ ضِدَّ مَنْ قَضَى وَحَكَمَ اللهُ بِهِ لِلإِنْسَانِ.

فَرَأَى فِرْعَوْنُ مَنْ يُذِلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيُعَذِّبُهُمْ رُؤْيَا فَسَّرَهَا كَهَنَتُهُ وَأَعْوَانُهُ بِفَتًى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، تَتَحَقَّقُ عَلَى يَدَيْهِ غَايَاتُ اللهِ بِإِخْرَاجِ الْعِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ -وَهُنَا فِرْعَوْنُ طَبْعاً- لِعِبَادَةِ رَبِّ فِرْعَوْنَ وَالْعِبَادِ، وَمِنْ ضِيقِ السُّخْرَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِفِرْعَوْنَ لِلْهَنَاءِ وَالتَّنَعُّمِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِ اللهِ، وَمِنْ جَوْرِ تَعَالِيمِ الْكَهَنَةِ وَإِغْوَاءِ النَّاسِ وَاسْتِعْبَادِهِمْ لِرَحَابَةِ دِينِ الإِسْلَامِ وَتَوْحِيدِ اللهِ. فِرْعَوْنُ طَاغِيَةٌ ظَالِمٌ كَافِرٌ بِأَنْعُمِ اللهِ أَرَاهُ اللهُ رُؤْيَا هَلَاكِهِ قَبْلَ حُدُوثِهِ، وَلَعَلَّ هِيَ مَا كَانَ يَتَنَاقَلُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- حِينَ بَشَّرَ إِسْرَائِيلَ (إِسْحَاقَ) أَنَّهُ سَيُولَدُ مِنْ صُلْبِهِ وَذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَكُونُ هَلَاكُ مَلِكِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ. أَمَّا يُوسُفُ الصَّالِحُ، أَرَاهُ اللهُ رُؤَى نَعِيمِهِ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ حُدُوثِهِ، فَيُوسُفُ لَا يُبَالِي فَالْعَاقِبَةُ الْخَيْرُ، أَمَّا فِرْعَوْنُ فَيَخْشَى الرُّؤْيَةَ.

مَلْحَمَةٌ جَدِيدَةٌ أَرَاهُ اللهُ إِيَّاهَا لِتُكْتَبَ فِي سُطُورِ الْبَشَرِيَّةِ، قِصَّةٌ أُخْرَى، مَلْحَمَةٌ مِنْ مَلَاحِمِ سَعْيِ الإِنْسَانِ لِلْغَايَةِ الَّتِي أَرَادَهُ اللهُ إِيَّاهَا، التَّكْرِيمُ وَالنَّعِيمُ. قِصَّةٌ تُجِيبُ عَنْ سُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا يُفَجِّرُهُ الإِيمَانُ بِهِ مِنْ طَاقَاتٍ وَإِمْكَانِيَّاتٍ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ لِتَسْعَى لِلْغَايَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ: التَّكْرِيمُ وَالْحَيَاةُ السَّعِيدَةُ، وَإِنْ أَرَادَ الشَّيْطَانُ وَأَعْوَانُهُ عَكْسَ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ؛ إِشْقَاءَ الإِنْسَانِ وَهَلَاكَهُ وَالْحَطَّ مِنْ قَدْرِهِ وَاسْتِعْبَادَهُ. فَهَذِهِ كَمَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

رَأَى فِرْعَوْنُ الرُّؤْيَةَ؛ رَأَى نَاراً عَظِيمَةً قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَوَصَلَتْ إِلَى بُيُوتِ مِصْرَ فَأَحْرَقَتْهَا وَأَحْرَقَتِ الْمِصْرِيِّينَ، وَتَرَكَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ تُحْرِقْهُمْ. فَدَعَا فِرْعَوْنُ الْكَهَنَةَ وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَفْسِيرٍ لِتِلْكَ الرُّؤْيَا، فَقَالُوا: يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ غُلَامٌ يَسْلُبُكَ مُلْكَكَ وَيَغْلِبُكَ عَلَى سُلْطَانِكَ وَيُخْرِجُكَ وَقَوْمَكَ مِنْ أَرْضِكَ، وَقَدْ جَاءَ زَمَانُهُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ. الرُّؤَى وَتَفْسِيرُهَا أَقَضَّتْ مَضَاجِعَ فِرْعَوْنَ وَسَلَبَتْهُ الْهَنَاءَ وَالسَّعَادَةَ.

وَمِنْ ثَمَّ إِنَّ فِرْعَوْنَ أَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ غُلَامٍ يُولَدُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَجَعَلَ هُنَاكَ قَوَابِلَ وَرِجَالاً، يَدُورُونَ عَلَى نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَعْلَمُونَ مِيقَاتَ وَضْعِ الْحَوَامِلِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَراً قُتِلَ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ. يَا لَغَبَاءِ الطُّغَاةِ! لَكِنْ لِضَعْفِ الْبَشَرِيَّةِ يَسْتَعْبِدُونَهُمْ. وَلِغَبَائِهِ آمَنَ وَصَدَّقَ بِالرُّؤْيَا، فَهُوَ يَعْلَمُ يَقِيناً أَنَّهُ لَيْسَ إِلَهًا، بَلْ فَقَطْ كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُ: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54]. فَلَوْ صَدَّقَ الرُّؤْيَا لَعَلِمَ أَنَّ هَلَاكَهُ لَا مَحَالَةَ مَهْمَا فَعَلَ، وَإِنْ لَمْ يُصَدِّقْهَا فَلَيْسَ بِحَاجَةٍ لِيَمْنَعَهَا، لَكِنْ ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ مَنْ سَيَتَحَكَّمُ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَمَصِيرِهَا.

اسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الذُّكُورِ حَتَّى جَأَرَ الْقِبْطُ بِالشَّكْوَى لِفِرْعَوْنَ بِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَخْدِمُهُمْ، فَخَفَّفَ الْقَتْلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَجَعَلَ عاماً لِلْقَتْلِ وَعاماً لِلتَّرْكِ. وَشَاءَ اللهُ أَنْ يُولَدَ هَارُونُ فِي عَامِ التَّرْكِ، أَمَّا مُوسَى -إِمْعَاناً فِي إِذْلَالِ اللهِ لِفِرْعَوْنَ- سَيُولَدُ فِي عَامِ الذَّبْحِ. حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهِ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّهَا تَحْمِلُ فِي بَطْنِهَا خَلَاصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِهِ. اهْتَمَّتْ هَمّاً شَدِيداً، لَكِنَّ اللهَ بِقُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ أَخْفَى عَلَامَاتِ الْحَمْلِ عَنْ قَابِلَاتِ فِرْعَوْنَ. وَلَكِنْ لَا مَنَاصَ، فَيَوْمُ الْوِلَادَةِ لَا بُدَّ قَادِمٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ جَوَاسِيسُ وَقَابِلَاتُ فِرْعَوْنَ بِالْجَنِينِ وَيَذْبَحُونَهُ. لَكِنَّ للهِ أَقْدَاراً وَآيَاتٍ شَاءَ أَنْ يَكْشِفَ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ عَظَمَتِهَا الْيُسْرَ.

فصل: ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: 1-6].

يُرِيدُ اللهُ لآيَاتِهِ وَغَايَاتِهِ أَنْ تَتَحَقَّقَ وَتَنْدَحِرَ غَايَاتُ الشَّيْطَانِ، مَنْ يُرِيدُ أَفْعَالَ فِرْعَوْنَ: قَتْلاً وَإِذْلَالاً وَاسْتِعْبَاداً لِبَشَرٍ كَرَّمَهُمُ اللهُ وَأَسْجَدَ لَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، فَكَانَ الشَّيْطَانُ زَعِيماً وَدَاعِيَ مَنْ يَرْفُضُ هَذَا التَّكْرِيمَ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الْجَنِينُ مَنْ سَيَحْمِلُ رَايَةَ التَّوْحِيدِ وَتَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ يُحَقِّقُ اللهُ مَا أَرَادَهُ لِلْبَشَرِيَّةِ، هَذَا الْجَنِينُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُوسَى. اغْتَمَّتْ وَخَافَتْ عَلَيْهِ كَمَا فَعَلَتِ الصِّدِّيقَةُ مَرْيَمُ بِعِيسَى وَلِذَلِكَ قِصَّةٌ أُخْرَى حِينَ قَالَتْ: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23]. لَكِنَّ اللهَ أَلْهَمَ أُمَّ مُوسَى بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْهُ:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

كَيْفَ نَجَاةُ الْجَنِينِ؟! أَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ! أُمٌّ تُلْقِي بِجَنِينِهَا فِي الْبَحْرِ؟! انْظُرْ كَيْفَ رَبَطَ اللهُ عَلَى قَلْبِهَا. وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10]؛ مَا أَقْوَه مِنْ إِلْهَامٍ وَوَحْيٍ (وَقِيلَ إِنَّهُ عَنْ طَرِيقِ مَلَكٍ) وَحَقّاً أَنَّهُ مِنَ اللهِ. فَيَكْفِي أَنَّ أُمّاً تُلْقِي طِفْلَهَا الرَّضِيعَ فِي الْبَحْرِ تَرْجُو لَهُ النَّجَاةَ، وَأَيْنَ نَجَاة؟! نَجَاةٌ لَا يَتَصَوَّرُهَا بَشَرٌ، وَلَا حَتَّى فِرْعَوْنُ مَنْ يُرِيدُ الْفَتْكَ بِكُلِّ أَطْفَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْجَنِينِ. لَكِنَّ قَبُولَ قَلْبِ أُمِّ مُوسَى الإِلْهَامَ وَحْدَهُ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِه.

فصل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

◆

وَالتَّشَاكُلُ الآخَرُ، أَلْقَى إِخْوَةُ يُوسُفَ أَخَاهُمْ فِي الْبِئْرِ وَكَانَ بِدَايَةَ الطَّرِيقِ لِنَجَاتِهِ وَسُؤْدُدِهِ وَوُصُولِهِ لِلْمُلْكِ، وَأَلْقَتْ أُمُّ مُوسَى ابْنَهَا فِي الْبَحْرِ طَلَباً لِنَجَاتِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَلَا تَدْرِي أَنَّ اللهَ كَتَبَ وَقَضَى أَنَّ فِرْعَوْنَ -عَدُوَّهُ- سَيَرْعَاهُ وَيَتَكَفَّلُ بِرِعَايَتِهِ:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 38-39].

كُلٌّ أَرَادَ شَيْئاً، أَرَادَ إِخْوَةُ يُوسُفَ إِبْعَادَهُ وَنَفْيَهُ مِنْ أَبِيهِ وَمِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحُكْمِ بِإِلْقَائِهِ فِي الْبِئْرِ، فَكَانَ الْبِئْرُ بِدَايَةَ الطَّرِيقِ لِيُوسُفَ. وَكَانَ الْبَحْرُ بِدَايَةَ النَّجَاةِ لِمُوسَى، وَحَصَلَ عَكْسُ مَا تُرِيدُ أُمُّ مُوسَى بِوُصُولِ الْجَنِينِ لِلْفِرْعَوْنِ، لَكِنَّ اللهَ قَدَّرَ أَنَّ هَذَا طَرِيقُ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ. لَكِنَّ قَلْبَ الأُمِّ طَارَ خَوْفاً مُجَدَّداً، وَأَصْبَحَ شُغْلُهَا الشَّاغِلُ نَجَاةَ مُوسَى وَأَيْنَ مَحَلُّهُ.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10]، حَتَّى أَوْشَكَتْ أَنْ تَصْرُخَ هَلَعاً: "أَلْقَيْتُ ابْنِي فِي الْبَحْرِ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ! يَا وَيْلِي أَيْنَ صَارَ الآنَ؟!". لَكِنَّ اللهَ ثَبَّتَ وَرَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا لِتَيْقَنَ مِنْ مَوْعُودِ اللهِ لَهَا، فَقَطْ تَسْعَى لِمَعْرِفَةِ كَيْفَ سَيَتَحَقَّقُ، تَأْخُذُ بِالأَسْبَابِ كَمَا وَصَّى يَعْقُوبُ بَنِيهِ:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

أَمَرَ يَعْقُوبُ إِخْوَةَ يُوسُفَ، وَأَمَرَتْ أُمُّ مُوسَى أُخْتَهُ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 11]؛ اقْفِي أَثَرَهُ وَانْظُرِي أَيْنَ صَارَ الآنَ. رَأَتْ مَا أَذْهَلَهَا؛ فَجَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ يَحْمِلْنَ مُوسَى وَيَبْحَثْنَ عَنْ مَنْ يُرْضِعُهُ. فَمُوسَى الرَّضِيعُ حَمَلَتْهُ جَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَأَحْبَبْنَهُ، فَكَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 39]. فَمَنْ رَآهُ أَحَبَّهُ وَأَحَبَّ الْخَيْرَ لَهُ. أَخَذْنَهُ لِامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، أَحَبَّتْهُ هِيَ أَيْضاً، وَذَهَبَتْ لِتَسْتَأْذِنَ فِرْعَوْنَ أَنْ تَرْعَاهُ وَتَتَبَنَّاهُ. لَكِنَّ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ مَا دَامَ هَذَا عَامَ الْقَتْلِ، لَكِنَّ امْرَأَتَهُ مَنَعَتْهُ قَائِلَةً:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 9].

تَتَّخِذَهُ وَلَداً وَلَا يَعْلَمُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَالنُّبُوَّةُ تَقُولُ فَتًى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِيَعْلَمَ فِرْعَوْنُ أَنَّهُ هَذَا هُوَ الْفَتَى، لَكِنْ أَقْدَارُ وَحِكْمَةُ اللهِ. وَقِيلَ إِنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ: "قُرَّةُ عَيْنٍ لَكِ وَلَيْسَ لِي"، وَصَدَقَ لَوْ يَعْلَمُ!

وَهُنَا تَشَاكُلٌ آخَرُ وَوَحْدَةٌ كَمَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

هُنَا مَنْ أَمَرَ الْعَزِيزَ امْرَأَتَهُ بِأَنْ تُحْسِنَ مُعَامَلَتَهُ، أَلْقَى يُوسُفَ رِجَالٌ وَبَاعَهُ رِجَالٌ، أَمَرَ رَجُلٌ بِرِعَايَتِهِ حَتَّى مَنْ بَحَثَ عَنْه رِجَالٍ. أَلْقَى مُوسَى امْرَأَةٌ بَحَثَتْ عَنْهُ امْرَأَةٌ وَرَعَتْهُ امْرَأَةٌ. مُوسَى يُعَدُّ لِتَحَمُّلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقِيَادَتِهِ قِيَادَةً عَسْكَرِيَّةً لِمَا أَرَادَ اللهُ لَهُمُ الأَرْضَ الْمَوْعُودَةَ وَالْمُلْكَ، وَأَيْضاً لِيُقَارِعَ فِرْعَوْنَ وَبَطْشَهُ وَمَكْرَهُ، وَكَأَنَّ مَا يَحْتَاجُهُ نَفْسِيّاً حَنَانٌ وَعَاطِفَةٌ لِهَذِهِ الْمَهَامِّ الْقَاسِيَةِ.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 11]؛ أَبْصَرَتْ أُخْتُهُ عَنْ بُعْدٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهَا أُخْتُهُ. رَأَتْهُمْ يَحْمِلُونَهُ يَبْحَثُونَ عَنْ مُرْضِعٍ لَهُ. وَيَا لَأَقْدَارِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتِيَارِهِ لِلأَسْبَابِ الأَرْضِيَّةِ، فَقَدْ أَلْهَمَ أُمَّ مُوسَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾. هَذِهِ الرَّضْعَةُ جَعَلَهَا اللهُ سَبَباً لِرَفْضِ الرَّضِيعِ كُلَّ ثَدْيٍ مُرْضِعَةٍ لَهُ:

﴿* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: 12].

جَوَارِي فِرْعَوْنَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ لَمْ يَجِدُوا مُرْضِعَةً لِلطِّفْلِ كَمَا أَمَرَتْ سَيِّدَتُهُمْ. أَتَتْهُمْ أُخْتُ مُوسَى تَسْعَى: "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يُرْضِعُونَهُ لَكُمْ؟". قَالُوا لَهَا: "كَيْفَ تَعْرِفِينَ؟ هَلْ تَعْلَمِينَ مَنْ أَهْلُ هَذَا الصَّبِيِّ؟". أَحْسَبُهَا قَالَتْ: "نَعَمْ، أَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ فِرْعَوْنَ؟ وَمَنْ لَا يَرْغَبُ بِهَذَا

الشَّرَفِ وَالْمَكَانَةِ لِيُرْضِعَ طِفْلاً لِامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ؟!". نُصْحُهُمْ لَهُ هُوَ مَحَبَّتُهُمْ لِلْخَيْرِ لِأَهْلِ فِرْعَوْنَ. ذَهَبُوا مَعَهَا لِيَتَحَقَّقَ مَوْعُودُ اللهِ:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 13].

الْتَقَمَ ثَدْيَ أُمِّهِ، حَقَّقَ اللهُ لَهَا وَعْداً وَآمَنَتْ عَيْنَ الْيَقِينِ بِمَوْعُودِ اللهِ. قَرَّتْ عَيْنُهَا وَفَرِحَتْ الآنَ سَتَرْعَى ابْنَهَا بِأَمْرٍ مِنْ فِرْعَوْنَ عَدُوِّهِ، وَسَيُنْفَقُ عَلَيْهَا وَتُجْبَى لَهَا الْهَدَايَا. بَلْ حَتَّى رَفَضَتْ أَنْ تَسْكُنَ مَعَ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ: "لَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَتْرُكَ عِيَالِي"، فَكَانَ مُوسَى مَعَهَا حَتَّى بَلَغَ الْفِطَامَ، وَكَانَتْ آسِيَةُ أَوْ جَوَارِيهَا يَزُرْنَهُمَا وَيَحْمِلْنَ لَهَا الْهَدَايَا. إِنَّهُ مَوْعُودُ اللهِ، لَا طَاغِيَةَ لَا جَبَّارَ لَا جَوَاسِيسَ وَأَعْوَانَ يَسْتَطِيعُونَ حِيَالَهُ شَيْئاً سِوَى تَنْفِيذِهِ وَبِأَحْسَنِ السُّبُلِ وَأَفْضَلِهَا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 14]. وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 22]. نَفْسُ الآيَةِ فَقَطْ مَعَ فَارِقٍ بَسِيطٍ وَهُوَ فِي يُوسُفَ لَمْ تَرِدْ كَلِمَةُ ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ غَيْرِ فَائِدَةٍ، سُبْحَانَ مَنْ قَالَ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]. فَيُوسُفُ نَشَأَ فِي بِيئَةٍ عِلْمِيَّةٍ فَقَطْ، وَهَذَا مَا يَحْتَاجُهُ لِيُنَفِّذَ مُهِمَّتَهُ الَّتِي اخْتَارَ اللهُ لَهُ، أَمَّا مُوسَى فَنَشَأَ فِي بِيئَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، وَهَذَا مَا يَحْتَاجُهُ لِمُهِمَّتِهِ الَّتِي اخْتَارَهُ اللهُ لَهُ. تَشَاكُلٌ وَوَحْدَةٌ فِي الآيَاتِ وَالأَقْدَارِ وَالْحِكَمِ، سُبْحَانَهُ الْوَاحِدُ الأَحَدُ.

بَلَغَ مُوسَى أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى جُسْمَانِيّاً فَكَانَ قَوِيَّ الْبِنْيَةِ، حَابَاهُ اللهُ بِقُوَّةٍ حَتَّى هُوَ لَا يَعْلَمُهَا، وَآتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ وَالْحُكْمَ، تَصَوَّرَ الأُمُورَ عَلَى وَضْعِهَا الصَّحِيحِ. فَلَمْ يَكُنْ مِثْلَ بَقِيَّةِ الْقِبْطِ وَجُنْدِ فِرْعَوْنَ يَبْطِشُ وَيُذِلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يُدَافِعُ عَنِ الْمَظْلُومِ. وَحَتَّى رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَخْلُصُ رَجُلٌ مِنَ الْقِبْطِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِشَرٍّ، فَاسْتَغَلَّ عِلْمَهُ وَمَكَانَتَهُ لِنُصْرَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْهُمْ. وَكَمَا وَصَفَ اللهُ فَهُوَ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، فَلَمْ يُرْسِلِ اللهُ بَشَراً أَوْ رَسُولاً حَتَّى قَبْلَ بَعْثَتِهِ يَعْلَمُ النَّاسُ أَخْلَاقَهُ وَحُسْنَ تَعَامُلِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ مَنْ يَخْتَارُهُمُ اللهُ لِقِيَادَةِ وَإِخْرَاجِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ لِعِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ.

اسْتَوَى مُوسَى وَبَلَغَ قُوَّةً حَتَّى هُوَ لَا يَعْلَمُ مَدَاهَا إِلَى أَنْ سَاقَتْ أَقْدَارُ اللهِ لِمُوسَى حَدَثاً:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 15].

دَخَلَ الْمَدِينَةَ فِي وَقْتِ قَيْلُولَةٍ وَرَاحَةٍ لِلنَّاسِ فَوَجَدَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآخَرُ مِنَ الْقِبْطِ يَقْتَتِلَانِ. اسْتَغَاثَهُ الإِسْرَائِيلِيُّ، وَلِعِلْمِ مُوسَى أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الأَقْبَاطَ مَنْ يَضْطَهِدُونَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، ضَرَبَ مُوسَى الْقِبْطِيَّ ضَرْبَةً لِيُبْعِدَهُ عَنِ الإِسْرَائِيلِيِّ. لَكِنْ جَاءَ الْوَقْتُ لِيَعْلَمَ مُوسَى مِقْدَارَ قُوَّتِهِ، الضَّرْبَةُ قَتَلَتِ الْقِبْطِيَّ. كَانَ هَدَفُ مُوسَى إِبْعَادَ الإِسْرَائِيلِيِّ، لَكِنَّ الضَّرْبَةَ قَضَتْ عَلَى الْقِبْطِيِّ. قَالَ مُوسَى: "هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ"، يَعْلَمُ مُوسَى قَبْلَ النُّبُوَّةِ أَنَّ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ هِيَ إِذْلَالُ الإِنْسَانِ وَإِشْقَاؤُهُ فَيَقْتُلُ أَخَاهُ كَمَا فَعَلَ قَابِيلُ مَعَ هَابِيلَ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: 16]؛ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِقْدَارَ قُوَّتِهِ وَلَمْ يَكُنْ يُرِيدُ قَتْلَ الْقِبْطِيِّ، لَكِنْ غَضَباً لِلْمُسْتَضْعَفِينَ جَاءَتِ الضَّرْبَةُ قَوِيَّةً فَقَتَلَتِ الْقِبْطِيَّ. وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ: "رَبِّي اغْفِرْ لِي"؛ إِحْسَاسٌ عَالٍ بِالْمَسْؤولِيَّةِ، وَالْقُوَّةُ تُعْطَى عَلَى قَدْرِ الْخُلُقِ وَالْمَسْؤولِيَّةِ؛ فَالْقُوَّةُ أَخْلَاقٌ.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 17]؛ قُوَّةٌ حَبَاهُ اللهُ وَنِعَمٌ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا، فَتَأْكِيدٌ لِلْمَسْؤولِيَّةِ وَشُكْرٌ لِنِعْمَةِ اللهِ. عَاهَدَ رَبَّهُ أَنَّهُ لَنْ يُسَخِّرَهَا فِي خِدْمَةِ الْمُجْرِمِينَ وَالظَّالِمِينَ سَوَاءً فِرْعَوْنَ أَوْ غَيْرَهُ.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: 18].

الْحَادِثَةُ انْتَهَتْ بِوُجُودِ قِبْطِيٍّ مَيِّتٍ، وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ (الْقِبْطُ) سَيَبْحَثُونَ مَنْ قَتَلَ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى لَوْ قَتَلَهُ خَطَأً. أَصْبَحَ مُتَوَجِّساً يُفَكِّرُ فِي مَا قَدْ يَفْعَلُ الْقَوْمُ بِهِ، وَإِذْ هُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُشَاهِدُ الإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يُقَاتِلُ قِبْطِيّاً آخَرَ، عَنَّفَهُ مُوسَى قَائِلاً: "إِنَّكَ وَاضِحُ الْخَطَأِ وَالضَّلَالِ"؛ فَتَأَكَّدَ لِمُوسَى أَنَّ الإِسْرَائِيلِيَّ غَيْرُ بَرِيءٍ وَأَنَّهُ ظَالِمٌ.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: 19].

الْآيَةُ تَحْمِلُ وَجْهَيْنِ، الْأَوَّلُ -وَهُوَ الرَّاجِحُ وَالْوَاضِحُ عِنْدِي- أَنَّ ﴿عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ الْمَقْصُودُ بِهَا الْإِسْرَائِيلِيُّ، فَهَذَا الْإِسْرَائِيلِيُّ كَانَ سَبَبًا فِي أَنْ يَقْتُلَ مُوسَى قِبْطِيًّا خَطَأً، وَهُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ صَارَ مُوسَى خَائِفًا يَتَرَقَّبُ.

وَأَيْضًا، فَمُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَا يُعَادِي عَلَى أَسَاسِ الْعُصْبَةِ أَوِ الْقَبِيلَةِ، وَإِلَّا لَكَانَ قَدْ عَادَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ نَشَأَ وَتَرَبَّى وَسَطَ الْأَقْبَاطِ. وَإِلَى الْآنَ -كَمَا أَظُنُّ وَأُرَجِّحُ- فَمُوسَى لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا، بَلِ اتَّبَعَ مِلَّتَهُمْ لِأَنَّهَا الْحَقُّ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِكُفْرِ قَوْمِهِ (الْأَقْبَاطِ).

لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾، ﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أَيْ مَنْ شَايَعَهُ عَلَى دِيَانَتِهِ، أَمَّا الْقِبْطِيُّ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ دِيَانَةِ مُوسَى، وَأَيْضًا هُوَ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ لِأُمِّ مُوسَى سَابِقًا: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾.

فَاللَّهُ مُنْذُ الْأَزَلِ يَعْلَمُ عَدَاوَةَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَلَكِنَّ أُمَّ مُوسَى لَا تَعْلَمُ سِوَى بِعَدَاوَةِ فِرْعَوْنَ الْعَامَّةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَاسْتِعْبَادِهِمْ. وَمُوسَى الرَّضِيعُ وَقْتَهَا لَا يَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَعَدَاوَتِهِ وَمَا سَيَصِيرُ مُسْتَقْبَلًا، بَلْ نَشَأَ فِي بَيْتِهِ وَعَلَى يَدِ امْرَأَتِهِ، فَالْآيَةُ الْأُولَى مَعْنَى الْعَدُوِّ فِيهَا هُوَ مَا عَلِمَهُ اللَّهُ مِنْ أَنَّ فِرْعَوْنَ سَيَصِيرُ عَدُوًّا لِمُوسَى.

أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، فَالْإِسْرَائِيلِيُّ أَصْبَحَ عَدُوَّ مُوسَى بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ مِنَ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ عَاهَدَ رَبَّهُ أَنْ لَا يُنَاصِرَهُمْ، لِذَا قَرَّرَ مُوسَى أَنْ يَقِفَ ضِدَّهُ وَيُبْطِشَ بِهِ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ. لَكِنْ ذُعْرًا وَخَوْفًا -وَرُبَّمَا حِيلَةً- قَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾.

وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ هَذَا الرَّأْيَ، فَقَدْ رَأَى الْإِسْرَائِيلِيُّ كَيْفَ قَتَلَ مُوسَى الْقِبْطِيَّ بِضَرْبَةٍ بَعْدَ أَنْ ظَنَّهُ ظَالِمًا، وَأَيْضًا مُكَابَرَةً وَجَدَلًا قَالَ: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.يَعْلَمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ أَنَّ مُوسَى مُنْذُ مُدَّةٍ نَذَرَ نَفْسَهُ ذَبًّا وَدِفَاعًا عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَكَانَ لَا يَدَعُ الْأَقْبَاطَ -قَوْمَهُ الَّذِينَ تَرَعْرَعَ بَيْنَهُمْ- يَنَالُونَ مِنْهُمْ بِمَكْرُوهٍ، وَلِذَلِكَ اسْتَصْرَخَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَثَانِيَ مَرَّةٍ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ مُوسَى سَيَقِفُ لِجَانِبِهِ بِحُكْمِ "الشِّيعَةِ"، لَكِنَّ مُوسَى كَانَ يَقِفُ فَقَطْ لِجَانِبِ الْحَقِّ، وَكُلُّ ظَالِمٍ مُتَعَدٍّ هُوَ عَدُوُّهُ الَّذِي عَاهَدَ رَبَّهُ أَنْ لَا يُنَاصِرَهُ بِقُوَّتِهِ: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. فَتَبَيَّنَ لِمُوسَى أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي كَانَ يَظُنُّهُ مَظْلُومًا بِالْأَمْسِ، هُوَ "غَوِيٌّ مُبِينٌ" وَظَالِمٌ لَا يَسْتَحِقُّ النُّصْرَةَ.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: 20].

انْتَهَى الشِّجَارُ، لَكِنَّ الْقِبْطِيَّ الآنَ يَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى هُوَ مَنْ قَتَلَ الرَّجُلَ أَمْسِ. أَخْبَرَ قَوْمَهُ، وَالأَقْبَاطُ عُصْبَةٌ وَهُمْ ظَلَمَةٌ، وَلَعَلَّهُمْ لَهُمْ مُدَّةٌ أَقَضَّ مُوسَى مَضَاجِعَهُمْ بِدِفَاعِهِ عَنِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمُؤَكَّدٌ أَنَّهُم كَثِيراً مَا حَاوَلُوا إِثْنَاءَهُ عَنْ ذَلِكَ. الآنَ يَقْتُلُ مُوسَى وَاحِداً مِنْهُمْ غَضَباً لِإِسْرَائِيلِيٍّ حَقِيرٍ فِي نَظَرِهِمْ! لَكِنَّ رَجُلاً -رُبَّمَا قِبْطِيّاً مُحِبّاً لِمُوسَى- عَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ الآنَ ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾، لَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ "يَتَشَاوَرُونَ"، فَالْمُؤَامَرَةُ شَيْءٌ يُحَاكُ فِي الْخَفَاءِ أَرَادَ التَّخَلُّصَ مِنْ مُوسَى دُونَ تَقْدِيمٍ لِمُحَاكَمَةٍ أَوْ سُؤَالِهِ عَمَّا حَدَثَ. النِّيَّةُ أَصْلاً مُبَيَّتَةٌ لَهُ، وَالآنَ وَجَدُوا ضَالَّتَهُمْ

وَالسَّبَبَ الَّذِي حَتَّى رَاعِيَةُ مُوسَى (امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ) لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَفْعَلَ لَهُ شَيْئاً بَعْدَهَا. سَيَقْتُلُونَهُ وَيَقُولُونَ: "قَتَلَ أَخَانَا". نَصَحَ السَّاعِي بِالْخُرُوجِ فَوْراً مِنَ الْمَدِينَةِ نَجَاةً بِحَيَاتِهِ.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 21].

خَرَجَ مُوسَى خَائِفاً، يَخْشَى أَنْ يَرْصُدَهُ الْقَوْمُ أَوْ أَنْ يُلَاحِقُوهُ؛ فَأَظُنُّهُ خَرَجَ رَاجِلاً مُسْرِعاً مِنْ غَيْرِ زَادٍ وَلَا مَالٍ، وَهُمْ مُؤَكَّدٌ كَانُوا قَدْ أَعَدُّوا السِّلَاحَ وَالْعَتَادَ.

فصل: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدِينَةٍ تُدْعَى مَدْيَنَ، سَائِلاً رَبَّهُ أَنَّهُ يَهْدِيهِ لِمَدِينَةٍ خَارِجَ سُلْطَانِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَعُيُونِهِمْ وَجَوَاسِيسِهِمْ.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23].

ذَهَبَ لِمَكَانِ الْمَاءِ لِيَشْرَبَ، فَوَجَدَ قَوْماً كَثِيراً، وَلَاحَظَ دُونَ تِلْكَ الْجَمَاعَةِ امْرَأَتَيْنِ مُنْفَرِدَتَيْنِ عَنِ النَّاسِ، تَحْبِسَانِ غَنَمَهُمَا عَنِ الْمَاءِ؛ لِعَجْزِهِمَا وَضَعْفِهِمَا عَنْ مُزَاحَمَةِ الرِّجَالِ، وَتَنْتَظِرَانِ حَتَّى يَصْدُرَ عَنْهُ مَوَاشِي النَّاسِ، ثُمَّ تَسْقِيَانِ مَاشِيَتَهُمَا. فَلَمَّا رَآهُمَا مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- رَقَّ لَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: "مَا شَأْنُكُمَا؟". قَالَتَا: "لَا نَسْتَطِيعُ مُزَاحَمَةَ الرِّجَالِ، وَلَا نَسْقِي حَتَّى يَسْقِيَ النَّاسُ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْقِيَ مَاشِيَتَهُ لِضَعْفِهِ وَكِبَرِهِ". امْرَأَتَانِ تَذُودَانِ كُلَّمَا أَتَى رَجُلٌ يُزَاحِمَانِ عَلَى الْمَاءِ. سَأَلَهُمَا مُوسَى لِمَا لَهُ مِنْ شَهَامَةٍ وَمُرُوءَةٍ لَيْسَتْ لِلْقَوْمِ، فَهُمْ لَمْ يُبَالُوا إِلَّا بِشَرَابِهِمْ وَبَهَائِمِهِمْ. أَمَّا هُوَ فَمَطْرُودٌ وَشَرِيدٌ وَجَائِعٌ، حَنَّ وَرَقَّ لِحَالِهِمْ؛ إِنَّهُمْ أَنْبِيَاءُ اللهِ مَنْ بَعَثَهُمُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَنُصْرَةً وَمَنَعَةً لِلْمُسْتَضْعَفِينَ. أَجَابَتَاهُ: "لَا نَسْقِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُصْدِرَ جَمِيعُ الرِّعَاءِ وَيَسْقُوا حَتَّى لَوْ انْتَظَرْنَا لآخِرِ الْيَوْمِ، أَوْ أَتَيْنَا فِي يَوْمٍ آخَرَ وَانْتَظَرْنَا أَيْضاً" -أَظُنُّ لِسَانَ حَالِهِمَا هَكَذَا-، فَنَحْنُ لَا

نَسْتَطِيعُ مُزَاحَمَةَ الرِّجَالِ وَمُدَافَعَتَهُمْ، وَلَا رَجُلَ لَنَا لِيَحْمِينَا فَأَبُونَا سِنُّهُ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْقُدُومَ وَالسَّقْيَ لَنَا. فَقَامَ بِالسَّقْيِ لَهُمَا فِي الْحَالِ، وَاسْتَطَاعَ مُدَافَعَةَ الْقَوْمِ وَمَاشِيَتِهِمْ سَرِيعاً.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

يُسَافِرُ هَرَباً مِنْ أَيَّامٍ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ لَيَالٍ عَدِيدَةٍ وَأَنْهَكَهُ الْجُوعُ وَالتَّعَبُ، وَلَكِنْ رَغْمَ ذَلِكَ شَكَرَ اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمٍ سَابِقَةٍ وَحَالِيَّةٍ مِنْ صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَطَلَبَهُ الْمَزِيدَ.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25].

سَخَّرَ اللهُ لَهُ أَسْبَابَهُ الأَرْضِيَّةَ سَرِيعاً، وَصَدَقَ مَنْ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. أَتَتْهُ إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ تَمْشِي، وَمَدَحَ اللهُ مِشْيَتَهَا وَوَصَفَهَا بِالأَدَبِ وَالْحَيَاءِ، وَقَالَتْ لَهُ: "إِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ لَكَ جَمِيلَ مَا صَنَعْتَهُ مَعَنَا الْيَوْمَ". ذَهَبَ لَهُ مُوسَى، تَوَسَّمَ فِيهِ الصَّلَاحَ وَالْخَيْرَ، أَخْبَرَ قِصَّتَهُ، أَكْرَمَهُ الشَّيْخُ، وَطَمْأَنَهُ أَنَّ لَا سَبِيلَ لِفِرْعَوْنَ وَالْقِبْطِ هُنَا وَلَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَى هَذِهِ الْبَلْدَةِ؛ فَيُمْكِنُكَ أَنْ تَعِيشَ فِيهَا هَانِئاً مُرْتَاحاً.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

عَلِمَتْ إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ أَوْ كِلَاهُمَا مِنْ مُوسَى أَخْلَاقاً عَالِيَةً وَشَهَامَةً وَمُرُوءَةً وَقُوَّةً، فَأَشَارَتْ عَلَى أَبِيهَا أَنْ يَسْتَخْدِمَهُ. وَالْمَرْأَةُ الْفَطِنَةُ تَعْلَمُ الرَّجُلَ الْقَوِيَّ الْمَسْؤولَ، كَذَا فَعَلَتْ خَدِيجَةُ حِينَ كَانَتْ تُرْسِلُ مُحَمَّداً ﷺ فِي تِجَارَتِهَا، وَكَذَلِكَ حِينَ بَادَرَتْ هِيَ بِخِطْبَتِهِ لِنَفْسِهَا رَغْمَ أَنَّهُ تَقَدَّمَ لَهَا مِنَ الرِّجَالِ ذَوُو الْحَسَبِ وَالْمَالِ وَالْمَكَانَةِ، وَهِيَ خَدِيجَةُ الثَّرِيَّةُ الْحَسِيبَةُ الْكَرِيمَةُ فِي قُرَيْشٍ خَطَبَتْ

مُحَمَّداً ﷺ. وَكَذَلِكَ أَبُو الْمَرْأَتَيْنِ حِينَمَا رَأَى مِنْ مُوسَى خُلُقاً وَقُوَّةً وَأَمَانَةً. وَالْعَجِيبُ فِي قِصَّةِ حَيَاةِ مُوسَى -مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ- كَانَ لِلنِّسَاءِ دَوْرٌ وَتَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِيهَا؛ فَبَدَأَ مِنْ أُمِّهِ، ثُمَّ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، ثُمَّ أُخْتِهِ، ثُمَّ الآنَ بِنْتِ الشَّيْخِ أَوِ الْبِنْتَيْنِ كِلَيْهِمَا.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27].

فَعَرَضَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى بَنَاتِهِ وَيُقِيمَ مُوسَى مَعَهُ مُقَابِلَ أَنْ يَرْعَى الْغَنَمَ لِمُدَّةِ ثَمَانِي سِنِينَ، وَإِنْ أَتَمَّ مُوسَى عَشْراً فَفَضْلاً مِنْهُ وَكَرَماً، وَأَنَّ الشَّيْخَ لَنْ يَشُقَّ عَلَيْهِ وَسَيَجِدُ عِنْدَهُ حُسْنَ الْمَعْشَرِ وَالْمُعَامَلَةِ.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

[القصص: 28].

وَافَقَ مُوسَى عَلَى عَرْضِ الشَّيْخِ؛ تَزَوَّجَ إِحْدَى بَنَاتِ الشَّيْخِ وَيَعْمَلُ لَدَيْهِ إِمَّا ثَمَانِيَ أَوْ عَشْرَ سِنِينَ حَسَبَ مَا يُقَرِّرُ مُوسَى، وَأَكَّدَ ذَلِكَ مُجَدَّداً بِأَنَّهُ لَا إِسَاءَةَ أَوْ تَعَدِّيَ عَلَيْهِ إِنِ اخْتَارَ أَقْصَرَهُمَا، وَأَشْهَدَ اللهَ عَلَى الِاتِّفَاقِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْخِ. تَمَّ الِاتِّفَاقُ بَيْنَنَا، أَيُّ الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا تَثْرِيبَ أَوْ عُقُوبَةَ، وَاللهُ يَشْهَدُ وَيَعْلَمُ مَا قُلْنَاهُ وَاتَّفَقْنَا عَلَيْهِ. دَعَا مُوسَى اللهَ بِزَادٍ يَسُدُّ رَمَقَهُ فَأَعْطَاهُ اللهُ زَوْجَةً وَمِهْنَةً يَتَكَسَّبُ مِنْهَا وَيُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ. لَكِنَّ مَا يَنْتَظِرُ مُوسَى مِنْ فَضْلِهِ وَعَطَائِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَتَصَوَّرَهُ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَوْ أَيُّ بَشَرٍ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: 29].

أَكْمَلَ مُوسَى أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ (عَشْرَ سِنِينَ)، ثُمَّ سَارَ بِأَهْلِهِ. أَحَسَّ بِقُرْبِ جَبَلِ الطُّورِ نَاراً، فَطَلَبَ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَنْتَظِرُوا فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى يَذْهَبَ وَيَعْلَمَ خَبَرَهَا أَوْ يَأْتِيَهُمْ مِنْهَا بِشُعْلَةٍ تُدْفِئُهُمْ، فَقَدْ كَانُوا فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ.

فصل: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: 30].

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَانِ النَّارِ، نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ، تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الَّتِي بَارَكَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا مُسْتَهَلَّ إِرْسَالِ مُوسَى وَتَكْلِيمِهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ كِفَاحًا بِلَا وَاسِطَةٍ. كَلَّمَهُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- قَائِلًا: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أَعْظَمُ مُخَاطِبٍ لَا نِدَّ لَهُ وَلَا شَرِيكَ.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: 31].

أَمَرَهُ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَأَصْبَحَتْ حَيَّةً تَسْعَى، فَهَرَبَ مُوسَى وَلَمْ يَنْظُرْ خَلْفَهُ خَوْفًا مِنْهَا، فَنَادَاهُ رَبُّهُ أَنْ أَقْبِلْ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. مِنْ أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي مَنْ أُحِيطُهُمْ بِرِعَايَتِي وَحِفْظِي لَا يَمَسُّهُ سُوءٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ قِبَلِي مُبَاشَرَةً. وَفِي آيَةٍ أُخْرَى:

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: 9-11].

لَا أُوذِي أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي بَلْ أَحْفَظُهُمْ وَأَرْعَاهُمْ، وَقَدْ يَشَاءُ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُؤْذِيَهُمْ كَمَا سَيُهَدِّدُ فِرْعَوْنُ مُوسَى لاحِقاً، فَإِنْ أَشَاءُ أُهْلِكُ قَوْمَهُ فِي حَيَاتِهِمْ وَأَحْفَظُ رُسُلِي مِنْ كَيْدِهِمْ، أَوْ أَنْ أَشَاءُ أُمْضِي مَا يَنْوُونَ فِعْلَهُ بِهِمْ وَأُهْلِكُهُمْ بَعْدَهُ رِفْعَةً لأَنْبِيَائِهِ وَلِيَقْتَدِيَ النَّاسُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ فِي تَبْلِيغِ الْحَقِّ وَدَعْوَةِ النَّاسِ لِلْخَيْرِ وَإِنْ هُدِّدُوا بِالسَّيْفِ وَالأَذَى. وَلِتَعْلَمَ دِقَّةَ الْقُرْآنِ وَصِحَّتَهُ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ كَمَا قَالَ سُبْحانَهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

انْظُرْ وَتَدَبَّرِ الاِسْتِثْنَاءَ الَّذِي بَعْدَهَا: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ فَهُنَاكَ نَبِيٌّ وَحِيداً أَخَافَهُ اللهُ وَلَمْ يَأْتِ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ، وَهُوَ سَيِّدُنَا يُونُس. وَهَذِهِ قِصَّةٌ أُخْرَى مِنْ قِصَصِ الْقُرْآنِ.

فصل: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

◆

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: 48]. فَسَيِّدُنَا يُونُسُ أُرْسِلَ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ تُسَمَّى نِينَوَى وَمَكَثَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ لِتَرْكِ الشِّرْكِ بِاللهِ وَأَنْ يَعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحاً. وَبَقِيَ يُونُسُ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- بَيْنَهُمْ صَابِراً عَلَى الأَذَى يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ وَيُذَكِّرُهُمْ وَيَعِظُهُمْ، وَلَكِنَّهُ مَعَ طُولِ مَكْثِهِ مَعَهُمْ لَمْ يَلْقَ مِنْهُمْ إِلَّا عِناداً وَإِصْرَاراً عَلَى كُفْرِهِمْ وَوَجَدَ فِيهِمْ آذَاناً صُمّاً وَقُلُوباً غُلْفاً. وَلَمْ يُؤْمِنْ لَهُ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ قِيلَ اثْنَانِ، وَلَعَلَّهُمْ أَكْثَرُوا عَلَيْهِ الأَذَى وَالسُّخْرِيَّةَ فَخَرَجَ غَاضِباً مِنْهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَظِرَ أَمْرَ اللهِ لَهُ بِالْخُرُوجِ وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ، وَظَنَّ أَنَّ اللهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ أَوْ يُحَاسِبَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَحَكَى اللهُ عَنْهُ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: 139-141].

خَرَجَ وَرَكِبَ سَفِينَةً، وَكَانَ الْجَوُّ صَحْواً وَفَجْأَةً تَقَلَّبَ وَأَصْبَحَتِ السَّفِينَةُ تُصَارِعُ الْبَحْرَ. وَأَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَادَةِ الْبَحْرِ أَنْ يَهِيجَ فِي هَذَا الْوَقْتِ، لِذَلِكَ قَالَ الْقُبْطَانُ وَأَحَدُ الْعَارِفِينَ: "لَا بُدَّ أَنَّ أَحَدَكُمْ فَعَلَ فِعْلاً يُغْضِبُ اللهَ وَهُوَ مَعَنَا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ، فَاسْتَهِمُوا وَاقْرَعُوا وَمَنْ يَخْرُجْ سَهْمُهُ

نُلْقِيهِ فِي الْبَحْرِ". خَرَجَ سَهْمُ سَيِّدِنَا يُونُسَ مَرَّةً وَاثْنَتَيْنِ وَثَلَاثًا، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقُولُونَ: "هَذَا رَجُلٌ صَالِحٌ!"، وَفِي الأَخِيرَةِ قَبِلَ هُوَ وَأَصَرَّ بِأَنْ يُلْقُوا بِهِ لِيَنْجُوا بِحَيَاتِهِمْ. أُلْقِيَ بِهِ وَهُوَ الْمُذْنِبُ الْمَقْصُودُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَهَاجَ اللهُ الْبَحْرَ.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 142]

لَكِنَّ سَيِّدَنَا يُونُسَ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: 143]قَائِلاً: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وَفِي آيَةٍ أُخْرَى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87-88].

وَهِيَ لَهُ وَلِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. لَكِنَّ بَطْنَ الْحُوتِ لَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ قَبْرَهُ وَمُسْتَقَرَّهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: 143-144].

وَهُنَا إِعْجَازٌ آخَرُ، فَاللهُ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَأَنَّ بَطْنَ الْحُوتِ مُسْتَقَرُّ جَسَدِ نَبِيِّ اللهِ يُونُسَ، لَمْ يُحَلِّلْهُ أَوْ يَهْضِمْهُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: 145-148].

لَكِنَّ الْحُوتَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ لِيَقْذِفَ يُونُسَ فِي الْبَرِّيَّةِ عَلَى السَّاحِلِ، وَجِسْمُهُ مُتَفَسِّخٌ مِنْ حَرَّارَةِ بَطْنِ الْحُوتِ. أَوْحَى اللهُ لِشَجَرِ يَقْطِينٍ أَنْ تَنْبُتَ، وَهِيَ لَا يَقْرَبُهَا الذُّبَابُ وَثِمَارُهَا حُلْوَةٌ تُؤْكَلُ نَيِّةً وَفِيهَا فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ لِجَسَدِ الإِنْسَانِ. عَادَ يُونُسُ لِقَوْمِهِ، وَكَانُوا أَوَّلَ مَا خَرَجَ خَرَجُوا يَجْأَرُونَ للهِ فِي الطُّرُقَاتِ، وَجَلَبُوا الأَطْفَالَ الرُّضَّعَ وَالْبَهَائِمَ دَاعِينَ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ؛ فَآمَنَ قَوْمُهُ جَمِيعاً.

﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: 10-11]. "يَا مُوسَى لَا تَخَفْ" إِنِّي أَنَا اللهُ. ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾، إِلَّا اسْتِثْنَاءً وَحِيدٌ، يُونُسُ خَرَجَ وَتَرَكَ قَوْمَهُ مِنْ دُونِ أَمْرِي وَأُخِيفَ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ غَفَرْتُ لَهُ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً فَلَمْ يَنْزِعِ الرِّسَالَةَ أَوِ النُّبُوَّةَ مِنْهُ: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: 50].

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: 22-23].

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: 32]. أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَصِير بَيْضَاءَ نَاصِعَةً. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، كَفُّهُ تَحْتَ عَضُدِهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلامُ- كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا، تَخْرُجُ تَتَلأْلأُ كَأَنَّهَا فِلْقَةُ قَمَرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَيْ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَذىً وَلَا شَيْنٍ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ. [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: 33-34]. خَاطَبَ مُوسَى رَبَّهُ: "إِنِّي قَتَلْتُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ رَجُلاً فَأَخَافُ أَنْ يَأْخُذُونِي بِهِ، وَهَارُونُ أَخِي فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ خَيْرٌ مِنِّي، فَأَرْسِلْهُ مَعِي يُصَدِّقُ وَيُؤَكِّدُ رِسَالَتِي وَيُسَاعِدُنِي فِي الْبَيَانِ"، وَرُبَّمَا قَصَدَ أَيْضاً أَنْ يَخْلُفَهُ فِي إِتْمَامِ الْمُهِمَّةِ إِنْ قَتَلَهُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ بِالرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَهُ مُوسَى وَهُوَ لَا يَعْلَمُ حِينَهَا مِقْدَارَ مَا حَبَاهُ اللهُ مِنْ قُوَّةٍ.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35].

اسْتَجَابَ رَبُّهُ دُعَاءَهُ وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ يَشُدُّ مِنْ أَزْرِهِ، وَطَمْأَنَهُ: سَأَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً (قُوَّةً وَهَيْبَةً مِنْ عِنْدِنَا)، فَلَنْ يَصِلَ أَوْ يَسْتَطِيعَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ قَتْلَكَ أَوْ أَخِيكَ، وَبَشَّرَهُ: أَنْتَ وَمَنْ اتَّبَعَكَ، سَأُسَخِّرُ آيَاتِي لِنَصْرِكُمْ، وَلَا يُغْلَبُ أَبَداً مَنْ كَانَ اللهُ نَاصِرَهُ.

الباب السابع

﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

◆

موسى الرضيعُ مَنْ أَرادَ فرعونُ قتلَهُ فألهمَ اللهُ أُمَّهُ:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: 7-9].

فرمتْ بابنِها الرضيعِ الَّذي عمرُهُ لَمْ يتجاوزْ أياماً في البحرِ، لكنْ مَنِ الَّذي التقطَهُ؟ للهِ في تدبيرِ أقدارِهِ شؤونٌ. ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: 8]. فرعونُ يخطُطُ السنينَ لوأدِ هَذا الطفلِ، لكنَّ جواريَ امرأتِهِ التقطوا موسى -عليهِ السلامُ- وذهبوا بهِ لامرأةِ فرعونِ، الَّتي أحبتْهُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 39]. وطلبتْ منْ فرعونِ السماحَ لَها بتبنّيهِ، فاللهُ وهبَ موسى:

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: 39].

نعمْ، أرادَ اللهُ أنْ ينشأَ موسى في بيتِ فرعونِ معَ أهلِهِ ووسطَ جنودِهِ، وأشدُّهم عتُوّاً هامانُ، فهُم خاطئونَ حتَّى في الشيءِ الصحيحِ الَّذي فعلوهُ وهوَ رعايةُ موسى؛ فجميعُ خطاياهمُ السابقةِ كانَ الهدفُ منْها ألَّا يُولَدَ مَنْ بُشِّرَ بهِ مُخلِّصاً لبني إسرائيلَ منْ فرعونِ ومدمراً لمُلْكِهِ. الآنَ، عدوُّ موسى المستقبليُّ والحاليُّ يرعاهُ ويحوطُهُ بعنايةٍ ورعايةٍ؛ هَذِهِ هيَ النَّشْأَةُ الَّتي أرادَ اللهُ لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

ثمَّ حرَّمَ اللهُ على موسى المراضعَ، فلمْ يقبلْ ثديَ أيِّ امرأةٍ أُتيَ بِها، وحتَّى حينَ أُخذَ للسوقِ؛ ليلهمَ اللهُ أُمَّ موسى أنْ ترسلَ في أثرِ ابنِها وتقصَّ خبرَهُ، فتدلَّ هيَ جواريَ فرعونِ لمرضعةٍ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: 12]. كلُّ ذَلكَ ليصدّقَ اللهُ أُمَّ موسى وعدَهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾. وفي آيةٍ أخرى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: 40].

صدقَ اللهُ أُمَّ موسى وعدَهُ الأولَ، لكنْ هُناكَ وعدٌ ثانٍ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]. ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، واللهُ لا يُخلفُ الميعادَ. في جبلِ الطورِ كلفَ اللهُ موسى بالرسالةِ، وكلفَ معهُ أخاهُ هارونَ، ليكونَ لأُمِّ موسى ليسَ رسولاً واحداً بلْ اثنانِ منَ الرسلِ، أحدُهما موسى منْ أُولي العزمِ منَ الرسلِ. ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 13].

أكثرُهم، ومنْهم بنو إسرائيلَ وفرعونُ، لا يعلمونَ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ، أوْ لا يوقنونَ منْ وعدِ اللهِ حقَّ اليقينِ كأنَّهم يرونَهُ بأعينِهم، وهيَ سمةٌ استغلَّها الشيطانُ كثيراً ليصرفَ الناسَ عنِ الغاياتِ الرَّحْمانيَّةِ.

فصل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]. فمَنِ اتبعَ مَنْهَجَ اللهِ ونصرَ مَنْهَجَهُ على غاياتِ نفسهِ الأمَّارةِ بالسوءِ، وعدَهُ اللهُ بالنصرِ والفوزِ والفلاحِ في هَذهِ الدُّنيا:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

كما وعدَ اللهُ منْ آمنَ بهِ واتبعَ هُداهُ بالاستخلافِ والتمكينِ في الأرضِ والأمنِ والأمانِ، وهَذا الوعدُ قائمٌ ماداموا لَمْ يتبعوا غاياتِ الشيطانِ فيشركونَ باللهِ الَّذي كرَّمَ بني آدمَ وسخرَ لهمُ البرَّ والبحرَ.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 97-100].

وعدَ بني آدمَ، ذكرَهم وأُنثاهم، منْ عملَ منهم صالحاً معَ إيمانٍ باللهِ الَّذي كرَّمَ الإنسانَ ورفعَ منْ قدرِه، وعدَهُ اللهُ بالحياةِ الطيبةِ في هَذهِ الحياةِ الدُّنيا، وليسَ هَذا فقطْ، ثمَّ الجزاءُ الوفيرُ والنَّعيمُ المقيمُ في دارِ كرامتهِ ومستقرِّ رحمتهِ، ما أرادَ اللهُ لأبينا آدمَ ولبنيهِ منْ بعدهِ. لكنَّ إبليسَ حسدَ آدمَ وذرِّيتَهُ على التَّكريمِ والنَّعيمِ، وأرادَ لَهمُ الشقاءَ والتَّحقيرَ، لِذَلكَ أمرَ اللهُ نبيهُ والأمرُ لنا منْ بعدهِ إذا قرأَ القرآنَ أنْ يطلبَ منَ اللهِ العونَ على عدوهِ إبليسَ. فالقرآنُ مجملُهُ وعودُ الرَّحْمنِ وكيفيَّةُ اتِّباعِها ليحيا الإنسانُ في دارِ الشقاءِ (الدُّنيا) سعيداً مكرَّماً إلى أنْ يعودَ إلى دارِ أبيهِ آدمَ -عليهِ السلامُ- الجنةِ الَّتي وعدَ اللهُ آدمَ فيها:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ * أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: 116-128].

وصدقَ اللهُ آدمَ وعدَهُ، لكنَّ إبليسَ أرادَ الشقاءَ لآدمَ وبنيهِ منْ بعدِهِ. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 120-121]. أغراهُ الشيطانُ بوعودٍ شيطانيَّةٍ ونسيَ مَا حذَّرَهُ اللهُ بِهِ أنْ لا يتبعَ سبيلَهُ وطرقَهُ، فخالفَ وعدَ اللهِ وسبيلَهُ، فأهبطَهُ اللهُ لدارٍ كما قالَ اللهُ فيها: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، تنافسٌ وحسدٌ على الموارِدِ والأرزاقِ بَعْدَ أنْ كانَ كلُّ ذَلكَ في متناولِ الإنسانِ.

فإخوةُ يوسفَ أعداءٌ لهُ حسداً، وفرعونُ والقبطُ -خاصَّةً كبارُهم- أعداءٌ لبني إسرائيلَ بسببِ الاختلافِ العِرقيِّ وبسببِ بشارةِ جدِّهم يعقوبَ، وأظنُّ أيضاً بسببِ مَا نالوهُ منْ حظوةٍ ومكانةٍ أيامَ يوسفَ -عليهِ السلامُ- قبلَ حُكْمِ فرعونِ ومِلئِهِ. لكنَّ اللهَ تابَ على أبينا آدمَ وأنزلَ معَهُ مَنْهَجَهُ: الغاياتِ الرَّحْمانيَّةِ وسبلَ اتِّباعِها.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: 122-123].

في مَنْهَجِ الرَّحْمنِ الوعودُ الرَّحْمانيَّةُ، وأساسُها أنَّ منِ اتبعَها لا يضلُّ، فتحقَّقُ جميعُ غاياتِهِ الإنسانيَّةِ، ولا يشقى أيْ لا يتعبُ في تحقيقِ هَذهِ الغاياتِ. ولكنْ أيضاً فيها وعيدٌ لمنْ نسيَ عداوةَ الشيطانِ وسبلَهُ ومَا فعلَهُ ببني الإنسانِ منْ إخراجِ أبيهم منَ النَّعيمِ، ثمَّ يريدُ لَهُمُ الشقاءَ في هَذهِ الحياةِ الدُّنيا ويُحشروا معَهُ في العذابِ المقيمِ أبدَ الآبدينَ.

لكنَّ يوسفَ اصطفاهُ اللهُ فعاشَ بِمَنْهَجِهِ فنعمَ وسعدَ في الدُّنيا قبلَ الآخِرَةِ، وقومُ يوسفَ وعشيرتُهُ -بنو إسرائيلَ- جدَّدَ لَهم موسى معالمَ مَنْهَجِ الاصطفاءِ والخيريَّةِ، غاياتِ اللهِ لَهم، فمتى اتبعوا حقَّقَ اللهُ لَهم موعودَهُ بالتَّكريمِ وأنْ لا يضلُّون ولا يشقَوْن.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: 124-126].

ضنكٌ وتعبٌ في هَذهِ الحياةِ الدُّنيا، فلا سعادةَ ولا يسيرُ في تحقيقِ غايتِهِ الإنسانيَّةِ، ثمَّ العذابُ وهوَ أعمى، فقدْ أخذَ اللهُ بصرَهُ الَّذي مَا نفعَهُ في الدُّنيا لِيتبعَ سبيلَ الرَّحْمنِ وغايَتَهُ منْ أرادَ لَهُ الرِّفعةَ والكرامةَ والنَّعيمَ في الدَّارَيْنِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ * أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: 127-128].

هَذا جزاءُ مَنْ لَمْ يتبعِ الغاياتِ الرَّحْمانيَّةِ في الدُّنيا، أمَّا الآخِرَةُ فعذابُها أشدُّ منْ هَذا إضافةً لأنَّهُ أطولُ مدةً. كيفَ لَمْ يتبيَّنْ لبني آدمَ أنَّ مَنْ اتبعَ غاياتِ الشيطانِ وخالفَ سبيلَ الرَّحْمنِ أهلكَهُ اللهُ، بدءاً منْ قومِ نوحٍ ومنْ أتى بعدَهم؟ هَذهِ ديارُهم وآثارُهم شواهدُ تمشونَ عليها، فمْ أعملَ عقلَهُ وتدبَّرَ آياتِ اللهِ الكونيَّةَ والشَّرعيَّةَ علمَ ذَلكَ. وسبحانَ اللهِ، كلُّ هَذهِ الآياتِ السابقةِ وردتْ في سورةِ (طه) الَّتي ابتدأَها اللهُ:

﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: 1-2]

فصل: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾

﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: 1-2]، مخاطباً نبياً ومنْ بعدَهُ، فالقرآنُ دليلُ الغاياتِ والوعودِ الرَّحْمانيَّةِ بالتَّكريمِ والسَّعادةِ والفوزِ والفلاحِ والرَّاحةِ في الدَّارَيْنِ لبني آدمَ. أرسلَ نبيَّنا بالقرآنِ، وبعثَ موسى بالتَّوراةِ لبني إسرائيلَ. كلَّفَ اللهُ موسى وهارونَ بأنْ يذهبا لِهَذا الطَّاغيةِ:

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: 43-59].

ذهبَ موسى ومعَهُ هارونُ إلى فرعونِ، استأذنا ودخلا، دارتْ بينَهما حواراتٌ، بينَ موسى وهارونَ وفرعونِ وملئِهِ. أُمِرَ فيها موسى أنْ يُحسنَ ويُلينَ القولَ لفرعونِ طمعاً في هدايتِهِ للإيمانِ والغاياتِ الرَّحْمانيَّةِ، فاللهُ رحيمٌ حتَّى معَ طاغيةٍ كفرعونِ، قتلَ منْ قتلَ وعذبَّ منْ عذَّبَ واستعبدَ منِ استعبدَ، يريدُ اللهُ أنْ يهديهُ للإيمانِ والغاياتِ الرَّحْمانيَّةِ (السَّعادةُ والهناءُ لعبادِه)، ويبعدَهُ عنْ سبيلِ عدوِهِ الشيطانِ مَنْ زيَّنَ لفرعونِ استعبادَ وعذابَ بني إسرائيلَ.

فَصْلٌ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾

حادَ فِرْعَوْنُ وجاوَزَ صِراطَ الرَّحْمَنِ واتَّبَعَ سَبيلَ الشَّيْطَانِ. وأَمَّنَ اللهُ مُوسى وهارُونَ، فَهوَ في مَعيَّتِهِما يَسْمَعُ ويَرى، ولَنْ يَخْلُصَ فِرْعَوْنُ أَوْ كائِنٌ مَنْ كانَ لِمَنْ كانَ في حِفْظِ اللهِ ورِعايَتِهِ. ذَهَبا كَما أَمَرَهُما اللهُ:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: 47].

لا تُعَذِّبْهُمْ؛ لا يُريدُ اللهُ أَنْ يَتَّبِعَ فِرْعَوْنُ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ بِإِذْلالِ الإِنْسانِ واسْتِعْبادِهِ وشَقائِهِ. حَذَّرا فِرْعَوْنَ مِنَ الإِعْراضِ عَنِ الـ غَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ واتِّباعِ الـ غَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: 48].

سَيَذوقُ مَنْ فَعَلَ هَذا عَذاباً شَديداً في الدُّنْيا والآخِرَةِ. لكِنَّ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةَ قالَ مُجادِلاً ومُكَذِّباً وربَّما مُتَكَبِّراً، فَهو يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ إِلهاً:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 49-50].

أَلا تَرى كُلَّ هَذِهِ الكائِناتِ والمَخْلوقاتِ حَوْلَكَ؟ كُلُّها مِنْ صُنْعِ اللهِ، خَلَقَها ثُمَّ دَلَّها على مَهَمَّتِها ووَظيفَتِها في هَذِهِ الحَياةِ الدُّنْيا. هَدى جَميعَ خَلْقِهِ سَبيلَ الـ غَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، لِما فيهِ خَيْرُهُمْ وصَلاحُهُمْ. وهَذِهِ الهِدايَةُ هيَ ما يَجِدُها المُؤْمِنونَ بِـ نَّعيمٍ رُوحِيٍّ لا تُشْقيهِمُ العَذابُ البَدَنِيُّ والنَّفْسِيُّ لِلشَّيْطَانِ وأَتْباعِهِ، هِدايَةٌ وَجَدَها أَصْحابُ مُحَمَّدٍ فَلَمْ يَصُدَّهُمُ العَذابُ أَنْ يَتَّبِعوا الـ غَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

وهِيَ نَفْسُ الهِدايَةِ الَّتي يَجِدُها المُعْرِضُ والمُتَوَلِّي عَنِ الـ غَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ؛ فَلَوْ تَنَعَّمَ بِكُلِّ نَّعيمٍ مُمْكِنٍ في الدُّنْيا لا يَجِدُ الطُّمَأْنِينَةَ والسَّكينَةَ وحتَّى اللَّذَّةَ والمُتْعَةَ الدَّائِمَةَ، فَهو دائماً ما يُحِسُّ بِقَلَقٍ واضْطِرابٍ ونَقْصٍ لِشَيْءٍ يَسُدُّ جَوْعَتَهُ الرُّوحِيَّةَ، فَيُغْويهِ الشَّيْطَانُ بِالانْغماسِ أَكْثَرَ وتَجْريبِ مُتَعٍ مادِّيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، أَوْ حتَّى يَلْجَأُ لِلْخُمورِ والمُسْكِراتِ والمُخَدِّراتِ، فَيَتَحَوَّلُ نَّعيمُهُ لِتَعاسَةٍ وضَنْكٍ شَديدٍ ويُسَرِّعُ بِهَلاكِهِ جَسَداً. وكُلُّ ذَلِكَ وهوَ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ، عِلْماً يَقِيناً في قَلْبِهِ بِما هَداهُ اللهُ فيهِ، أَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُ. وهَذا الشَّيْءُ الَّذي يَبْحَثُ عَنْهُ هوَ ما ذَكَرَ ابْنُ القَيِّمِ في كِتَابِهِ القَيِّمِ (مَدَارِجُ السَّالِكِينَ بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) حينَ قالَ:

"فَفِي القَلْبِ شَعَثٌ، لا يَلُمُّهُ إِلَّا الإِقْبَالُ عَلَى اللهِ. وفِيهِ وَحْشَةٌ، لا يُزِيلُها إِلَّا الأُنْسُ بِهِ في خَلْوَتِهِ. وفِيهِ حُزْنٌ لا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ وصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ. وفِيهِ قَلَقٌ لا يُسْكِنُهُ إِلَّا الاِجْتِمَاعُ

عَلَيْهِ، والفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ. وفِيهِ نِيرَانُ حَسَرَاتٍ: لا يُطْفِئُها إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ ونَهْيِهِ وقَضَائِهِ، ومُعَانَقَةُ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقَائِهِ. وفِيهِ طَلَبٌ شَدِيدٌ: لا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ مَطْلُوبُهُ. وفِيهِ فَاقَةٌ: لا يَسُدُّها إِلَّا مَحَبَّتُهُ، والإِنَابَةُ إِلَيْهِ، ودَوَامُ ذِكْرِهِ، وصِدْقُ الإِخْلَاصِ لَهُ. ولَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيا وما فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الفَاقَةَ مِنْهُ أَبَداً".

وهَذا حالُ مَنْ فُتِحَ لَهُ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيا وأَعْطاهُ اللهُ الأَمْوالَ الكَثيرَةَ كالمُلوكِ، أَوِ المَشاهيرِ في زَمانِنا هَذا. أَمَّا الضُّعَفاءُ والفُقَراءُ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فَهُمْ وإِنْ صَرَفَ اللهُ عَنْهُمُ الكَدَرَ الَّذي يُصيبُ المُؤَثِّرِينَ كَالخَوْفِ مِنْ أَنْ يَسْطُوَ أَحَدٌ على أَمْوالِهِمْ أَوْ مُلْكِهِمْ، وكَالضَّنْكِ الَّذي يَجِدونَهُ بِسَبَبِ حَسَدِ النَّاسِ بَلْ حتَّى الأَقْرَبينَ لَهُمْ، وأَيْضاً الإِحْساسِ السَّيِّئِ حِينَ يَرَوْنَ كَثيراً يَتَزَلَّفونَ لَهُمْ طَمَعاً في ما لَدَيْهِمْ، والصِّراعاتِ الَّتي تُوَلِّدُها هَذِهِ الأَمْوالُ والشُّهْرَةُ بَيْنَ أَوْلادِهِمْ؛ فَقَدْ قَضى سُبْحانَهُ ولا رادَّ لِما قَضى بِهِ أَنَّ الدُّنْيا مَتاعُها مُنَغَّصٌ، ولا تَطيبُ الحَياةُ أَبَداً لِأَحَدٍ بِالمَتاعِ المادِّيِّ فَقَطْ.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: 51].

فِرْعَوْنُ لا يُريدُ أَبَداً مِنْ جِدالِ مُوسى أَنْ يَعْلَمَ حَقيقَةَ دَعْوَتِهِ، فَإِنْ كانَ صادِقاً اتَّبَعَهُ؛ لِأَنَّهُ كَطاغِيَةٍ ابْتُلِيَ بِما ابْتُلِيَ بِهِ إِبْليسُ؛ يَظُنُّ أَنَّ لَهُ حُكْماً مَعَ اللهِ في خَلْقِهِ، ويَرْفُضُ تَكْريمَ بَني آدَمَ لِمَرَضٍ نَفْسِيٍّ جَعَلَهُ يَظُنُّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ بَقِيَّةِ الخَلْقِ بَلِ المُتَحَكِّمُ في مَصائِرِهِمْ. فَقَدْ يَكونُ أَنَّ اللهَ في الفَتْرَةِ بَيْنَ يُوسُفَ ومُوسى لَمْ يَبْعَثْ رَسولاً إِلى مِصْرَ، لكِنَّ الهَدَفَ الحَقيقِيَّ لِفِرْعَوْنَ هوَ صَرْفُ الأَنْظارِ عَنِ الحُجَّةِ النَّاصِعَةِ لِمُوسى؛ فاللهُ القادِرُ الخالِقُ مَلِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ، الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ، هوَ المُسْتَحِقُّ الفِعْلِيُّ لِلْعِبادَةِ.

أَمَّا ظَنُّ فِرْعَوْنَ وتَزْيينُهُ أَنَّهُ هوَ الإِلهُ، ففي كَلامِهِ هَذا إِبْطالٌ حتَّى بِحُجَّتِهِ هَذِهِ، فَما وُجِدَ فِرْعَوْنُ قَبْلَ القَرْنِ الَّذي عاشَ فيهِ مُوسى، وحِينَ كانَ فِرْعَوْنُ صَغيراً ضَعيفاً هَلْ كانَ هُناكَ إِلهٌ غَيْرُهُ يَتَحَكَّمُ في مِصْرَ؟! وهَذا الإِلهُ (فِرْعَوْنُ) الَّذي يُولَدُ ضَعيفاً ثُمَّ يَكْبُرُ ويَشِيخُ، ما قالَ بِهَذا أَحَدٌ مِنَ العالَمينَ -حَسَبَ عِلْمي- إِلَّا فِئَامٌ مِنَ النَّصارى حِينَ ادَّعَوْا أَنَّ عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ هوَ اللهُ، لِذَلِكَ رَدَّ اللهُ حُجَّتَهُمُ الضَّعيفَةَ بِقَوْلِهِ:

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: 75-76].

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52].

لكِنْ صَرَفَ مُوسى فِرْعَوْنَ ومَلأَهُ لِلْحُجَّةِ البالِغَةِ، فقالَ: "أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ما عاصَرْتُ هَؤُلاءِ القَوْمَ، ولَسْتُ مُكَلَّفاً بِحِسابِهِمْ ومَصيرِهِمْ، لكِنَّ عِلْمَ هَؤُلاءِ القَوْمِ وحالَهُمْ عِنْدَ مَنْ سَأَلْتُموني عَنْ صِفاتِهِ حِينَ قُلْتُمْ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾، فَرَبِّي كَتَبَ حالَهُمْ وأَعْمالَهُمْ في كِتابٍ لَدَيْهِ. ولَيْسَ هَذا لِأَنَّهُ كَحالِكُمْ وأُمَرائِكُمْ حِينَ تُقَيِّدونَ أَحْوالَ وأَمْوالَ مَواليكُمْ خَشْيَةَ أَنْ تَنْسَوْا، فَرَبِّي اللهُ لا يَنْسى، وأَيْضاً لا يَضِلُّ ويُفارِقُ سُنَنَهُ بِهِدايَتِهِ خَلْقَهُ جَميعاً، فَهو إِمَّا حَفِظَ تَعاليمَ ودَعْوَةَ يُوسُفَ لَهُمْ في مُتَقَدِّميكَ الأَقْرَبينَ، أَوْ بَعَثَ لَهُمْ رَسولاً يَدْعوهُمْ لِسَبيلِهِ و غَايَتِهِ الرَّحْمَانِيَّةِ".

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 53-55].

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ في سَرْدِ صِفاتِ وأَفْعالِ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى والصِّفَاتُ العُلَى، فَهو سُبْحانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15]. ورِزْقُهُ هَذا سَبَبٌ لَهُ أَنْ ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، فَكانَتِ النَّتِيجَةُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، وإِنْ حَصَلَ هَذا بِجُهْدٍ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ كَرِاثَةِ الأَرْضِ مِنَ الآفاتِ والحَشائِشِ الضَّارَّةِ، أَوْ جَنْيِ المَحْصولِ وتَخْزِينِهِ، أَوِ الهِجْرَةِ بِالماشِيَةِ نَحْوَ المَراعِي الخَصْبَةِ وحِمايَتِها مِنَ السِّباعِ والضِّباعِ، فإِنَّ هَذا الجُهْدَ اللَّازِمَ لِتَجْنِيَ هَذِهِ الثِّمارَ والفَوائِدَ دَلائِلُ لِأَصْحابِ العُقولِ أَنَّ أَيَّ نِظامٍ أَرْضِيٍّ لا بُدَّ لَهُ مِنْ راعٍ حتَّى يُؤْتِيَ ثَمَرَهُ، وهَذِهِ الثَّمَرَةُ عِظَمُها يَعْتَمِدُ اعْتِماداً لا فِكاكَ مِنْهُ بِصِفاتِ ومَقْدِراتِ الرَّاعِي.

والحَضارَةُ الفِرْعَوْنِيَّةُ شاهِدَةٌ وتَعْلَمُ ذَلِكَ، فَهُمْ مَكَّنَهُمْ تَنْظِيمُ أَعْمالِهِمْ مِنْ إِنْتاجِ مَحاصِيلَ وفيرَةٍ ومُنْتَجاتٍ. وفي عَهْدِ يُوسُفَ أَلْهَمَ اللهُ خُطَّةً جَنَّبَتْهُم مَجاعَةً كانَتْ سَتَحْدُثُ بِسَبَبِ جَفافٍ كَبِيرٍ لِلنِّيلِ، لَكِنْ بِالخُطَّةِ والنِّظامِ المُحْكَمِ الَّذي يُشْرِفُ عليهِ قائِدٌ مُقْتَدِرٌ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ومَعَهُ عَشَراتٌ أَوْ رُبَّما الآلافُ مِنَ المُعاوِنِينَ، تَمَكَّنوا مِنْ تَجَنُّبِ المَجاعَةِ. واليَوْمَ، أَكْبَرُ شَرِكَةٍ عالَمِيَّةٍ فِي إِنْتاجِ الغِذاءِ بَلَغَتْ إِيرادَاتُهَا فِي عَامِ 2023م حَوالَيْ مِئَةٍ وَسَبْعَةٍ وَسَبْعِينَ مِلْيَارَ دُولَارٍ، تَعْمَلُ فِيمَا يَقْرُبُ مِنْ

نِصْفِ دُوَلِ العَالَمِ، هَذِهِ الشَّرِكَةُ مَا وَصَلَتْ لِهَذِهِ المَكَانَةِ إِلَّا بِعُقُولٍ جَبَّارَةٍ تُدِيرُهَا، وَأَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَسِتِّينَ أَلْفَ مُوَظَّفٍ، وَأَجْهِزَةِ تَخْطِيطٍ وَاسْتِرَاتِيجِيَّاتٍ قَالَ عَنْهَا (رُوبِرْت بِيرْجِلَانْد) وَزِيرُ الزِّرَاعَةِ الأَمْرِيكِيُّ الأَسْبَقُ: "إِنَّ (كَارْجِيل) تَمْلِكُ أَكْبَرَ وَأَفْضَلَ مَنْظُومَةِ اسْتِخْبَارَاتٍ تَسْوِيقِيَّةٍ فِي العَالَمِ"، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ جِهَازَ الِاسْتِخْبَارَاتِ الأَمْرِيكِيَّةِ.

السِّيَاقُ هُنا لَيْسَ سِيَاقَ التَّحَدُّثِ عَنْ مُخَلَّفَاتٍ واتِّهاماتٍ لِلشَّرِكَةِ بِمُمارَساتٍ بَشِعَةٍ واحْتِكارِيَّةٍ وتَجْوِيعِ المَلايِينِ تُتَّهَمُ بِها الشَّرِكَةُ، وحتَّى هَذِهِ تَحْتاجُ لِعُقولٍ وأَيْدٍ لِتَنْفِيذِها. السِّيَاقُ هُنا هوَ السِّيَاقُ الَّذي أَرادَ اللهُ لِفِرْعَوْنَ ومَلأِهِ أَنْ يَتَأَمَّلوهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، هَذِهِ العَمَلِيَّةُ الَّتِي تَحْصِدونَ ثِمارَها، مَنْ سَخَّرَ هَذِهِ الأَرْضَ الخَصْبَةَ؟ وخَلَقَ البُذورَ؟ وأَنْزَلَ الأَمْطارَ؟ فَلَوْلا المِياهُ لَما قامَتْ لِلْحَياةِ قائِمَةٌ في كَوْكَبِ الأَرْضِ، وسُبْحانَهُ حِينَ قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30]. وذَلِكَ في سِياقٍ كامِلٍ يُنَبِّهُ أُولِي الحِجَى والنُّهَى لِآياتِهِ الكَوْنِيَّةِ البَيِّناتِ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا

بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: 82-89].

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: 56]، فِرْعَوْنُ والطُّغاةُ مِنَ الكافِرِينَ دَوْماً يَظُنُّونَ أَنَّ لَهُمْ حُكْماً في مَلَكوتِ اللهِ وأَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْ عِبادِ اللهِ وفْقَ مَعاييرَ مَعْلولَةٍ ومَغْلوطَةٍ كَما بَيَّنَا في الخَيْرِيَّةِ (مَنْ أَفْضَلُ بَيْنَ النَّاسِ؟).

اللهُ الَّذي كَرَّمَ بَنِي آدَمَ وهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، لكِنْ كَما قالَ اللهُ: فِرْعَوْنُ وأَمْثالُهُ مِنَ الطُّغاةِ إِلى يَوْمِ البَعْثِ والدِّينِ مُصابونَ بِمَرَضٍ نَفْسِيٍّ يُعَذِّبُهُمْ في هَذِهِ الحَياةِ الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ، ويُعَذِّبُ كُلَّ مَنْ رَكَنَ إِلَيْهِمْ وارْتَضى مَعاييرَهُمُ الباطِلَةَ كَأَساسٍ لِلْخَيْرِيَّةِ والتَّفاضُلِ بَيْنَ البَشَرِ. وهَذا المَرَضُ العُضالُ قالَ اللهُ فيهِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

فَعِنْدَما هَزَّ مُوسى هَذِهِ الصُّورَةَ المَغْلوطَةَ والَّتي لا يُمْكِنُ أَنْ يُصَدِّقَها عاقِلٌ، فَعَلَ فِرْعَوْنُ كَما يَفْعَلُ الطُّغاةُ على مَرِّ العُصورِ مِمَّنْ يَبْنوا لِلنَّاسِ هَذا الكِبْرَ ما هُمْ بِبالِغيهِ؛ هَذِهِ الصُّورَةُ الَّتي يَرْسِمونَها عَنْ أَنْفُسِهِمْ وهِيَ مَوْجودَةٌ فَقَطْ في خَيالِهِمُ المَريضِ، ويُسَخِّرونَ الأَمْوالَ والعَبيدَ لِمُحاوَلَةِ إِجْبارِ النَّاسِ على تَصْديقِها والعَيْشِ الضَّنْكِ وفْقاً لَها، لِيُشارِكوا الشَّيْطانَ في هَدَفِهِ: إِشْقاءِ العِبادِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

فِرْعَوْنُ مَلِكٌ ذو جُنودٍ وحاشِيَةٍ ضَخْمَةٍ، يَمْتَدُّ مُلْكُهُ دُوَلاً ومَمالِكَ، بَنى الأَبْنِيَةَ الضَّخْمَةَ لِيُبْهِرَ بِها العَامَّةَ بَعْدَ أَنْ سَخَّرَهُمْ لِبِنائِها. أَفْحَمَهُ نَبِيَّا اللهِ مُوسى وهارونُ أَشَدَّ الإِفْحامِ، فَلَمْ يَجِدْ سَبيلاً سِوى التَّهْديدِ والوَعيدِ. وفِي آياتٍ أُخْرَى:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 10-29].

وَلَقَدْ شَخَّصَ هَذا الحِوارُ عَقْلِيَّةَ الطُّغاةِ عَلَى مَرِّ العُصورِ، فَبَدَأَ فِرْعَوْنُ مُهاجِماً مُوسَى لَفْظِيّاً ومُقَلِّلاً مِنْ شَأْنِهِ: "الآنَ تَأْتينا وتَزْعُمُ أَنَّكَ تَدْعونا ونَحْنُ مَنْ رَبَّاكَ وأَنْشَأَكَ وكُنْتَ رَضيعاً وقَضَيْتَ مَعَنا سِنينَ، ثُمَّ قَتَلْتَ القِبْطِيَّ مِنَّا وهَرَبْتَ!". رَدَّ مُوسَى قائِلاً: "كانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَنِي رَبِّي

رَسولاً"، فَقَتْلُ الرَّجُلِ كانَ خَطَأً، ولَيْسَ هَذا ما أَرادَهُ مُوسَى، فَقَطْ لَمْ يَعْلَمْ بِمِقْدارِ قُوَّتِهِ، لكِنَّ مُوسَى تَحَمَّلَ المَسْؤُولِيَّةَ وقالَ: "فَعَلْتُها ولَمْ أَكُنْ في كامِلِ رُشْدي".

أَمَّا الثَّانِيَةُ، فَهِيَ ما يَفْعَلُ الطُّغاةُ دَوْماً، أَوَّلاً يُقَرِّرونَ أَنَّ لَهُمْ حُكْماً مَعَ اللهِ في خَلْقِهِ كَما فِرْعَوْنُ:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

قَرَّرَ فِرْعَوْنُ ظُلْماً وعُدْواناً، ولا يَجوزُ ذَلِكَ لِأَيِّ أَحَدٍ، أَنْ يَسْتَضْعِفَ ويَضْطَهِدَ مَنْ كَرَّمَهُ اللهُ ورَفَعَ قَدْرَهُ (في هَذِهِ الحالَةِ بَنِي إِسْرائيلَ)، ثُمَّ يَمُنَّ على بَعْضٍ مِنْهُمْ كَمُوسَى مَنْ رَعَتْهُ زَوْجَتُهُ فَنَشَأَ مُعَزَّزاً مُكَرَّماً دونَ قَوْمِهِ وشيعَتِهِ. لكِنَّ مُوسَى أَتاهُ الجَوابُ الحَقُّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. أَيُّ نِعْمَةٍ هَذِهِ الَّتي تَمُنُّ عَلَيَّ بِها؟! بَلْ أَنَا وقَوْمي مَنْ يَجِبُ أَنْ نُسائِلَكَ: بِأَيِّ حَقٍّ عَذَّبْتَهُمْ وقَتَلْتَ أَبْناءَهُمْ وجَعَلْتَ نِساءَهُمْ خَدَماً لَكَ ولِقَوْمِكَ؟! لَوْلا فِعْلُكَ ذَلِكَ بِدافِعِ الفَسادِ والإِفْسادِ في الأَرْضِ، كَما قالَ اللهُ، لَما احْتَجْتُ أَنَا أَصْلاً ولا قَوْمي لِنَعِمَكَ ومَلَذَّاتِكَ، فاللهُ خَلَقَ لَنا كُلَّ الأَرْضِ لِنَنْعَمَ ونَتَمَتَّعَ مِنْ خَيْراتِها، وأَنْتَ وجُنودُكَ قَرَّرْتُمْ أَنَّ لَكَ حُكْماً ضِدَّ حُكْمِ اللهِ فَاسْتَعْبَدْتُمونا وأَشْقَيْتُمونا، والآنَ تُريدونَ مِنَّا أَنْ نَشْكُرَكُمْ على ذَلِكَ! واللهِ هَذا يُلَخِّصُ حالَ كُلِّ طُغاةِ الأَرْضِ قَدِيماً وحَدِيثاً.

ثُمَّ قالَ فِرْعَوْنُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، أَجابَ مُوسَى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. مَنْ خَلَقَ هَذِهِ السَّماواتِ والأَرَضينَ وكُلَّ ما يوجَدُ عَلَيْها وما بَيْنَهُما؟! فَتَأَمَّلوا ذَلِكَ فَستوقِنونَ وتُؤْمِنونَ بِاللهِ الفاطِرِ الخالِقِ. هُنا رَدَّ فِرْعَوْنُ مُسْتَعْجِباً وصارِفاً قَوْمَهُ عَنْ حُجَّةِ مُوسَى القَوِيَّةِ والواضِحَةِ: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾. يَقْصِدُ فِرْعَوْنُ الاِسْتِهْزاءَ بِكَلامِ مُوسَى وصَرْفَهُ، قاصِداً: "يا لَهُ مِنْ كَلامٍ غَريبٍ!". لكِنَّ مُوسَى واصَلَ حُجَّتَهُ أَمَلاً في

إِيمانِهِمْ: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. أَلا تَنْظُرونَ لِلشَّمْسِ أَنْ تُشْرِقَ وتَغْرُبَ؟! كُلُّ ذَلِكَ مِنْ صُنْعِ اللهِ الخالِقِ الفاطِرِ.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. واصَلَ مُوسَى مُحاجِجاً قَوِيّاً: اللهُ هُوَ رَبُّكُمْ ورَبُّ أَجْدادِكُمْ حِينَ لَمْ يُولَدْ فِرْعَوْنُ الَّذي اعْتَبَرَ نَفْسَهُ إِلهاً. ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ كَيْفَ يَرُدُّ فِرْعَوْنُ على هَذِهِ الحُجَّةِ البَلِيغَةِ؟! فَاتَّهَمَ مُوسَى بِالجُنُونِ.

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، هُنا لَمْ يَمْلِكْ أَمامَ هَذا التَّحَدّي الباهِرِ لِأَكاذيبِهِ إِلَّا أَنْ يَفْعَلَ فِعْلَ الطُّغاةِ على مَرِّ العُصورِ: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾. التَّهْديدُ بِالسِّجْنِ! كَيْفَ تَجْرُؤُ أَنْ تَتَّخِذَ إِلهاً غَيْري؟! وهو دَليلُ عَجْزِ الطُّغاةِ وخَوْفِهِمُ الدّائِمِ، وما اسْتَعْبَدوا النَّاسَ إِلَّا لِضَعْفٍ فيهِمْ. لكِنَّ مُوسَى أَرادَ تَعْزيزَ حُجَّتِهِ، أَرادَ أَنْ يَرى مَلأُ فِرْعَوْنَ المُعْجِزاتِ الَّتي بَعَثَهُ اللهُ بِها، وأَرادَ أَنْ يَجُرَّ فِرْعَوْنَ لِمَعْرَكَةٍ يَتَبَيَّنُ فيها هَزالُ فِرْعَوْنَ وقُوَّتُهُ المادِّيَّةُ أَمامَ آياتِ اللهِ ومُعْجِزَتِهِ، فقالَ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾.

فَصْلٌ: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾

رَدَّ فِرْعَوْنُ سَريعاً ومُتَحَدِّياً:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: 31-33].

أَلْقَى عَصاهُ فَانْقَلَبَتْ ثُعْباناً ضَخْماً. أَخْرَجَ يَدَهُ فَكانَتْ كَالبَدْرِ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ ولا سُوءٍ كَما قالَ سُبْحانَهُ:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: 12].

لكِنَّ فِرْعَوْنَ رَدَّ سَريعاً مُكَذِّباً مُوسَى:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: 34-35].

أَرْدَفَ قائِلاً مُثيراً فيهِمُ الحَمِيَّةَ، مُحَرِّفاً مَقاصِدَ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى. وأُسْلوبُهُ يَدُلُّ على ذَكاءٍ وحِنْكَةٍ وسِياسَةٍ، أَشْرَكَهُمْ في المُشْكِلَةِ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ تَكْذيبُ مُوسَى، ولِيَسْتَفيدَ مِنْ آراءِهِمْ.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 36-37].

كانَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ أَهْلَ دِرايَةٍ بِالسِّحْرِ وعُلومِهِ، قالوا: أَخِّرِ الرَّدَّ عَلَيْهِ قَليلاً حتَّى تَجْمَعَ السَّحَرَةَ، بَلْ أَوْصَوْهُ: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، كِبارُ السَّحَرَةِ وعُلَماؤُهُمْ. فَنَفَّذَ فِرْعَوْنُ مَشورَتَهُمْ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: 79]. وقالَ مُواجِهاً مُوسَى:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: 57-58].

لَمْ يَتَرَدَّدْ مُوسَى واخْتارَ مَكانَ المَعْرَكَةِ وزَمانَ المُناسَبَةِ لَهُ: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: 59]. مِنْ أَعْيادِهِمْ يَتَجَمَّعُ النَّاسُ فيها لِلاحْتِفالِ، فُرْصَةٌ كَبيرَةٌ لِمُوسَى لِيُظْهِرَ صِدْقَهُ وإِعْجازَ آياتِ اللهِ أَمامَ حَشْدٍ كَبيرٍ جِدّاً مِنَ النَّاسِ. لكِنَّ فِرْعَوْنَ بَدَأَ الإِعْدادَ مُبَكِّراً لَعَلَّهُ يَنْتَصِرُ على مُوسَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: 60]. ودَعا النَّاسَ لِهَذِهِ المُنازَلَةِ الكُبْرَى، ورُبَّما كُلُّهُمْ يَقينٌ أَنَّ سِحْرَ فِرْعَوْنَ سَيَنْتَصِرُ على مُوسَى:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: 38-40].

مَعْنى ﴿لَعَلَّنَا﴾ هُنا، كَما قالَ المُفَسِّرونَ: كَيْ. لِثِقَتِهِمُ الشَّديدَةِ بِسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ قالوا ذَلِكَ، أَوْ رُبَّما لِإِضْرامِ كُبَرائِهِمُ النِّيَّةَ لِتَكْذيبِ مُوسَى مَهْما حَصَلَ.

جاءَ يَوْمُ الزِّينَةِ، أَتَى النَّاسُ واحْتَشَدوا لِيَرَوْا المُنازَلَةَ الكَبيرَةَ بَيْنَ مَنْ يَتَّبِعُ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ (فِرْعَوْنُ) ومُوسَى مَنْ يَتَّبِعُ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ؛ إِخْراجِ النَّاسِ مِنْ عِبادَةِ العِبادِ إِلى عِبادَةِ رَبِّ العِبادِ، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيانِ إِلى عَدْلِ الإِسْلامِ، ومِنْ ضيقِ الدُّنْيا إِلى سَعَةِ الدُّنْيا والآخِرَةِ. اجْتَمَعَ السَّحَرَةُ واحْتَشَدوا وذَهَبوا لِفِرْعَوْنَ واثِقينَ مِنَ الغَلَبَةِ والفَوْزِ:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: 41-42].

"كَمْ تَجْعَلُ لَنا مِنَ الأَجْرِ والثَّوابِ اليَوْمَ جَزاءَ هَزيمَةِ مُوسَى؟!". فِرْعَوْنُ مَنْ رَأى -رَغْمَ جَبَروتِهِ وجُنودِهِ- مُوسَى مُهَدِّداً مُلْكَهُ وهازِماً أَكاذيبَهُ، أَحْسَبُهُ قالَ: "ما تَتَمَنَّوْنَ وفَوْقَ ذَلِكَ أَجْعَلُكُمْ مِنْ

خاصَّتِي والمُقَرَّبِينَ إِلَيَّ". لَعَلَّ السَّحَرَةَ انْتَشَوْا وذَهَبوا لِمُوسَى، لكِنَّ مُوسَى نَصَحَهُمْ وأَرادَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: 61].

تَعْلَمونَ أَنَّ ما تَفْعَلونَ كَذِبٌ وخِداعٌ وتَضْليلٌ لِلْعامَّةِ. حَذَّرَهُمْ عَذابَ اللهِ. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: 62]؛ أَثَّرَ فيهِمْ كَلامُهُ فَعَلِموا أَنَّهُ لَيْسَ ساحِراً، وربَّما قَرَّرَ بَعْضُهُمُ النُّكوصَ وعَدَمَ الإيفاءِ بِوَعْدِهِمْ لِفِرْعَوْنَ، فَهُمْ يَعْلَمونَ يَقيناً أَنَّهُمْ يُضَلِّلونَ العامَّةَ ويَخْدَعونَهُمْ.

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: 63-64].

لَكِنْ غَلَبَ الطَّرَفُ الَّذِي قَالَ: "هَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ فَلَا يَخْدَعُونَكُمْ بِالْكَلَامِ، إِنَّهُمْ سَحَرَةٌ مِثْلُنَا، يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى أَرْضِكُمْ وَيُخْرِجُوكُمْ مِنْهَا، وَيَصْرِفُوا النَّاسَ عَنْ دِينِكُمْ وَنِظَامِكُمُ الِاجْتِمَاعِيِّ –بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى– كَوْنَكُمْ زُعَمَاءَ وَكَهَنَةً تُعَبِّدُونَ النَّاسَ لِفِرْعَوْنَ، فَاتَّحِدُوا وَاجْمَعُوا حِيَلَكُمْ وَقُوَّتَكُمْ وَكُونُوا صَفًّا وَاحِدًا، فَالْيَوْمَ مَنْ غَلَبَ وَعَلَا سَيُفْلِحُ وَيَفُوزُ". وتَوَجَّهوا لِمُوسَى مُتَحَدِّينَ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: 65]. أَجابَ مُوسَى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: 66]. حِبالُ السِّحْرِ بَدَتْ كَالأَفْعى الَّتي تَسْعى، فَقَدْ حَكى اللهُ عَنْ ما فَعَلَهُ السَّحَرَةُ: ﴿قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116]. هو ما يُسَمَّى

"سِحْرَ التَّخَيُّلِ". حتَّى مُوسَى، مَنْ هو مِنْ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: 67].

يَخْشى أَنْ لا يَسْتَطيعَ أَنْ يَنْتَصِرَ على هَذِهِ القُوَّةِ السِّحْرِيَّةِ المُجْتَمِعَةِ وما أَتَتْ بِهِ، لكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ طَمْأَنَهُ قائلاً: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: 68]. مُوسَى هو الأَعْلَى؛ فَهو يَحْمِلُ مَنْهَجَ اللهِ وغَايَاتِهِ الَّتي لا تُغْلَبُ. أَمَّا الشَّيْطَانُ وكَيْدُهُ وغَايَاتُهُ فَهِيَ كَما حَكى اللهُ عَنْها:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76].

ولا يَنْتَصِرُ الشَّيْطَانُ وغَايَاتُهُ إِلَّا عِنْدَما يَكونُ الإِنْسانُ بِضَعْفِهِ يُواجِهُ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مَنْهَجِ اللهِ وغَايَاتِهِ الَّتي بَيَّنَ اللهُ لِبَنِي آدَمَ فيها طَريقَ السَّعادَةِ والفَوْزِ والنَّعيمِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ. لِذَلِكَ نَبَّهَ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ مَنْهَجَهُ و غَايَتَهُ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

اسْتَجْمَعَ مُوسَى كَامِلَ رَبَاطَةِ جَأْشِهِ، وَقَالَ مُوَاجِهاً لَهُمْ بِالقَوْلِ أَوَّلاً قَبْلَ أَنْ يُنَفِّذَ أَمْرَ اللهِ:

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 81-82].

نَعَمْ، يُحِقُّ اللهُ مَنْهَجَ الحَقِّ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ أَوْ رَضُوا؛ فَاللهُ أَرَادَ لِبَنِي آدَمَ السَّعَادَةَ وَالتَّكْرِيمَ وَالنَّعِيمَ، وَأَرَادَ الشَّيْطَانُ وَأَتْبَاعُهُ ضِدَّ ذَلِكَ، لَكِنْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِمَّا يَنْتَصِرُ الحَقُّ وَأَتْبَاعُهُ وَيَحْيَوْا وَفْقَ

مَنْهَجِ اللهِ الَّذِي أَرَادَهُ اللهُ لَهُمْ، أَوْ غَلَبَ أَتْبَاعُ الشَّيْطَانِ وَانْصَاعَ فِئَامٌ كَبِيرَةٌ لِاتِّبَاعِ غَايَاتِ الشَّيْطَانِ وَارْتَضُوا الشَّقَاءَ وَالضَّنْكَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَإِذْلَالَ بَنِي آدَمَ وَمُحَارَبَةَ المُؤْمِنِينَ.

أَرْسَلَ اللهُ رُسُلَهُ لَهُمْ لِيُذَكِّرَ مَنْ يَتَذَكَّرُ مِنْهُم بِعَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ وَعَاقِبَةِ سَبِيلِهِ، فَإِنْ أَبَوْا لِلْحَقِّ كَمَا فَعَلَ أَهْلُ نِينَوَى مَنْ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ سَيِّدَنَا يُونُسَ:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 98-106].

أَمَّا مَنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَأَغْوَاهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيُدَمِّرُ اللهُ الكَافِرِينَ وَيُنَجِّي المُؤْمِنِينَ لِيَنْعَمُوا بِالعَيْشِ الهَنِيءِ وَفْقَ مَنْهَجِ اللهِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. إِهْلَاكُ القُرَى وَدَمَارُهَا —بِالِاسْتِئْصَالِ الكُلِّيِّ—

قَدْ نُسِخَ رَحْمَةً بِالْبَشَرِيَّةِ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ النَّبِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي أُرْسِلَ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعِهِمْ (إِنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ). فَلَمْ يَعُدِ الْعَذَابُ يَعُمُّ الْأُمَمَ بِالْمَحْقِ الشَّامِلِ كَمَا حَدَثَ مَعَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، بَلْ صَارَ الْبَابُ مَفْتُوحًا لِلْمُرَاجَعَةِ وَالتَّوْبَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، إِكْرَامًا لِلرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ.

فَبِاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ سَادَتْ أُمَّتُهُ وَنَعِمَتْ وَحَكَمَتْ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَكَتَبَ اللهُ الذُّلَّ وَالصَّغَارَ عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَ مَنْهَجَ الرِّسَالَةِ المُحَمَّدِيَّةِ الشَّامِلِ.

وَإِنْ أَغْوَى الشَّيْطَانُ فِئَاماً كَثِيرَةً مِنْهَا فَجَهِلَتْ وَتَرَكَتْ مَنْهَجَ السَّعَادَةِ وَالعُلُوِّ وَالـ نَّعِيمِ وَالعِزِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَهِيَ مَوْعُودَةٌ بِالعَوْدِ مِنْ جَدِيدٍ لِيَصْدُقَ وَعْدُ اللهِ وَرُسُلِهِ الثَّانِي بَعْدَ أَنْ صَدَقَ وَعْدُهُ الأَوَّلُ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ، عِنْدَمَا أَحَاطَ الكُفَّارُ بِالمُسْلِمِينَ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالمِعْصَمِ، وَظَنَّ الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ نِهَايَةُ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ عَلَى الأَرْضِ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

[الأحزاب: 9-12].

وَحَتَّى بَعْدَ حَفْرِ الخَنْدَقِ الَّذِي مَنَعَ الكُفَّارَ مِنْ دُخُولِ المَدِينَةِ، خَانَ اليَهُودُ العُهُودَ وَقَرَّرُوا السَّمَاحَ لِجُنُودِ الكُفَّارِ بِدُخُولِ المَدِينَةِ مِنْ قِبَلِهِمْ. وَفِي هَذِهِ الأَجْوَاءِ المَشْحُونَةِ، حَكَى البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ عَنْ ثِقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَوْعُودِ اللهِ وَنَصْرِهِ فَقَالَ:

« لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، عَرَضَتْ لَنَا فِي بَعْضِ الْخَنْدَقِ صَخْرَةٌ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَشَكَوْنَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَلْقَى ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: "بِاسْمِ اللَّهِ"، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَهَا، فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ". ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: "بِاسْمِ اللَّهِ"، فَكَسَرَ ثُلُثَهَا الْآخَرَ، فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضَ". ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: "بِاسْمِ اللَّهِ"، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الصَّخْرَةِ، فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا" » [الألباني].

وَحَكَى عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، وَقَدْ أَتَى رَسُولَ اللهِ وَالرَّسُولُ يَعْلَمُ تَرَدُّدَهُ وَشُكُوكَهُ فِي حَالِ الإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ عَدِيٌّ:

« بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: "يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟" قُلْتُ: "لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا"، قَالَ: "فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ" -قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟!- "وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى"، قُلْتُ: "كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟" قَالَ: "كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ...,قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا " » [البخاري].

وَبَلَغَ مُلْكُ المُسْلِمِينَ مَبْلَغاً كَانَ الخَلِيفَةُ يَقُولُ لِلسَّحَابَةِ: "أَمْطِرِي حَيْثُ شِئْتِ فَسَيَأْتِينِي خَرَاجُكِ". فَلِلْأُمَّةِ عَوْدَةٌ، إِمَّا بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِ الرَّحْمَنِ وَ غَايَاتِهِ وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ الإِسْلَامِ السَّمْحَةِ، وَحَتَّى فِي فَتْرَةِ الضَّعْفِ فَمَنْ تَبِعَ مَنْهَجَ اللهِ مَوْعُودٌ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

الحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ رَضِيَ الشَّيْطَانُ وَأَتْبَاعُهُ مِنَ البَشَرِ بِذَلِكَ أَمْ كَرِهُوا. وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- العِبَرُ الكَثِيرَةُ، فَإِخْوَتُهُ وَالعَزِيزُ وَامْرَأَتُهُ أَرَادُوا لَهُ الشَّقَاءَ وَالضَّنْكَ، وَأَرَادَ اللهُ لَهُ الرِّفْعَةَ وَالمُلْكَ وَالحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، فَمَنْهَجُ اللهِ وَ غَايَتُهُ نَقَلَتْهُ مِنْ ضِيقِ الزِّنْزَانَةِ إِلَى رَحَابَةِ مَنْصِبِ عَزِيزِ مِصْرَ وَخَزَانَةِ أَمْوَالِ مِصْرَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56].

سَيَنْقُلُ مَنْهَجُ اللهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الضَّعْفِ وَالاِسْتِعْبَادِ وَالمَهَانَةِ إِلَى العِزَّةِ وَالتَّكْرِيمِ وَالسَّعَادَةِ وَالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ كَمَا نَرَى. وَلَا غِنَى عَنِ القَوْلِ أَنَّ التَّكْلِيفَ فَرْدِيٌّ، لِذَلِكَ وَرَدَ:

« أَنَّ الْأَرْضَ زُلْزِلَتْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: مَا لَكِ؟ مَا لَكِ؟ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا كَانَتْ هَذِهِ الزَّلْزَلَةُ إِلَّا عَنْ شَيْءٍ أَحْدَثْتُمُوهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا أَبَدًا ».

فَأَسَاسُ مَنْهَجِ اللهِ أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَهُ لَوْ خَالَفَهُ البَشَرُ جَمِيعُهُمْ. جَمَعَ السَّحَرَةُ كَيْدَهُمْ، أَلْقَوْا حِبَالَهُمْ، أَمَرَ اللهُ مُوسَى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: 117].

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: 69].

تَحَوَّلَتْ عَصَا مُوسَى لِحَيَّةٍ ضَخْمَةٍ حَتَّى قِيلَ أَنَّ النَّاسَ وَالسَّحَرَةَ انْحَازُوا وَتَرَاجَعُوا فَرَقاً وَخَوْفاً مِنْهَا، ثُمَّ ابْتَلَعَتْ كُلَّ حِبَالِ السِّحْرِ وَعِصِيِّهِمْ، وَهُنَا أَيْقَنَ السَّحَرَةُ أَنَّ هَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ اللهِ وَآيَاتِهِ. فَكَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ:

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 118-119].

هَزِيمَةٌ نَكْرَاءُ لَا يَنْفَعُ مَعَهَا أَيُّ جِدَالٍ.

فصل: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: 120-122].

أذهلتْهُم قوةُ الحقِّ وسطوتُهُ، فأُلْقوا -كأنما رُميَ بِهِمْ مِنْ عَلٍ- ساجدينَ موحدينَ اللهَ ربَّ موسى وهارونَ. رجعوا للفطرةِ لِاتِّباعِ غاياتِ الرحمنِ، وهنا ما سيأتي مشهدٌ آخرُ يجيبُ على سؤالِ الملائكةِ:

مَا سألتْ عنهُ الملائكةُ:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

كانَ ذَلكَ أولَ استفسارٍ سُئِلَ عنْ آدَمَ أبو البشريةِ، فأجابَ اللهُ العليُّ العظيمُ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يعلمُ سبحانَهُ مَا يفجرُهُ الإيمانُ بِهِ منْ طاقاتٍ وإمكانياتٍ في حياةِ البشريةِ تسعى للغايةِ التي أرادَها اللهُ لعبادِهِ: التَّكْرِيمُ والحياةُ السعيدةُ، وإنْ أرادَ الشيطانُ وأعوانُهُ عكسَ غاياتِ الرحمنِ: إِشْقَاءَ الإنسانِ وهلاكَه والحطَّ منْ قدرِهِ واستعبادَهُ.

هنا إجابةٌ حيةٌ على هَذا السؤالِ، فقبلَ هَذا المشهدِ كانَ السَّحَرَةُ يخشونَ فرعونَ، يأتمرونَ بأمرِهِ، يخشونَ بطشَهُ وعقابَهُ، استعبدَهُمْ فرعونُ كما استعبدَ بني إسرائيلَ وشعبَهُ، لكنْ لنرَى بأنفسِنا مَا أحدثَهُ الإيمانُ في حياةِ هؤلاءِ السَّحَرَةِ. حوارٌ دارَ بينَ فرعونَ والسَّحَرَةِ يكشفُ حقيقةَ التحولِ الكبيرِ في حياتِهِم.

هُزِمَ فرعونُ شرَّ هزيمةٍ أمامَ قومِهِ، فهؤلاءِ سحرتُهُ ربَّاهُمْ منذُ الصغرِ، ويعلمُ الجميعُ مهارتَهُمْ وقدراتِهِمْ، فما عساهُ أنْ يقولَ إلا أنْ يوحيَ أنَّ هناكَ تآمرًا بينَ موسى والسَّحَرَةِ فقالَ:

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: 71].

كلامٌ بعيدٌ كلَّ البعدِ عنِ الحقيقةِ، فهو يعرفُ موسى منْ صغرِهِ ويعرفُ سحرتَهُ أيضًا وكبراءَهُمْ، لكنْ عنادًا واستكبارًا قالَ -مبررًا هزيمتَهُ- إنَّ موسى هوَ زعيمُ السِّحْرِ الَّذي علَّمَهُمُ السِّحْرَ، وأردفَ قائلًا:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123].

تريدونَ مَعَ زعيمِكُمْ أنْ تخرجوا بني إسرائيلَ منَ الأرضِ وتزعمونَ عليهم -ربما يفهمُ ذَلكَ منَ السياقِ- وطبعًا لمْ ينسَ الوعيدَ والتهديدَ لَهُمْ ليرجعوا عنِ الإيمانِ باللهِ الواحدِ الأحدِ:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124].

لكنْ هيهاتَ هيهاتَ أنْ يجديَ وعيدُ فرعونَ مَعَ نفسٍ ذاقتْ حلاوةَ الإيمانِ! فكما قالَ هرقلُ لأبي سفيانَ -مستفسرًا عنْ صحابةِ الرسولِ ﷺ-: "هل يرتدُّ أحدٌ مِنْهُمْ سُخطةً لدينِهِ؟" فأجابَ أبو سفيانَ: "لا". فقالَ: "كذلكَ الإيمانُ حينَ تخالطُ حلاوتُهُ بشاشةَ القلوبِ"متفق عليه.

وتلكَ القوةُ التي يبعثُها الإيمانُ في أتباعِهِ، والتحولُ الكبيرُ الَّذي خَبَرَهُ السَّحَرَةُ، هيَ مَا أخبرَ الرسولُ ﷺ أصحابَهُ بَعْدَ مَا صبَّتْ عليهِمْ قريشٌ أنواعَ الأذى والعذابِ، فما ردَّهُمْ ذَلكَ عنْ دينِهِمْ، ولكنِ استعجلوا النصرَ فطلبوا منَ الرسولِ أنْ يستنصرَ لَهُمُ اللهَ، لكنَّ الرسولَ أرادَ تعليمَهُمْ كيفَ يأخذُ الإيمانُ النفسَ البشريةَ لغاياتٍ بعيدةٍ ودرجاتٍ عاليةٍ جدًّا منَ التحملِ والطاقةِ، مَا كانَ أهلُها يظنونَ أنهم يومًا سيصلونَ إليها أوْ يطيقونَها، فأخبرَهُمْ عنْ قومٍ قبلَهُمْ خَبَرُها قائلًا:

« كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » [البخاري].

وفي أصحابِ الأخدودِ العِبَرُ الكبيرةُ، حيثُ أُوقِدَ لَهُمُ النيرانُ العظيمةُ وخُيِّروا بينَ الكفرِ باللهِ والموتِ، فاختاروا الحريقَ والموتَ، مَا تخلَّفَ عنْ ذَلكَ رجلٌ أوِ امرأةٌ. وجاءَ الآنَ دورُ السَّحَرَةِ الَّذينَ خَبَروا الإيمانَ لحظاتٍ معدودةً، لكنْ أحدثَ فيهِمُ العجبَ العجابَ. قالَ فرعونُ لَهُمْ:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124].

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 50-51].

تأملْ هَذا التحدي: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، لا يضرُّنا ذَلكَ أوْ يسوءُنا، سنعودُ ونرجعُ لربّنا ويكرمُنا ويحبونا أعظمَ تكريمٍ ونعيمٍ. لعلَّ مَا فعلتَ بنا يكونُ تكفيرًا للخطايا التي ارتكبْنا والشرورِ والآثامِ منْ سحرٍ وخداعٍ للعامةِ، فقدْ قالوا:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 73].

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، جزاؤُهُ ونعيمُهُ لا يضاهَى أوْ يوصفُ، لا يستطيعُ بشرٌ أنْ يتخيلَهُ أوْ يتصورَهُ، ولا يَفْنَى فهو باقٍ، أما أنتَ يا فرعونُ فمخلوقٌ منْ مخلوقاتِهِ، تَفْنَى وتموتُ. ثمَّ أضافوا مستهزئينَ بفرعونَ:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: 126].

هلْ نقمتُكَ وعذابُكَ إلا بسببِ أنْ آمنَّا باللهِ الحقِّ وتركنا أكاذيبَكَ وظنَّكَ أنكَ الإلهُ الأعظمُ؟ وهو مَا ينقمُهُ الطغاةُ دومًا على المؤمنينَ، فأصحابُ الأخدودِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8].

وانظُرْ للتحولِ، لمْ يستجدوا فرعونَ أوْ يطلبوا منْهُ رحمةً أوْ شفقةً، ناهيكَ أنْ تردعَهُمْ تهديداتُهُ. بلْ أحدثَ الإيمانُ أثرًا لمْ يتخيلْ حتى السَّحَرَةُ وفرعونُ حدوثَهُ، فتوجهَ السَّحَرَةُ لفرعونَ ناصحينَ ولأنفسِهِمْ والمَلَأِ مذكّرِينَ:

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 74-76].

فلا تحسبْ أنَّ عذابَكَ وعذابَ الدنيا شيءٌ مقارنةً مَعَ عذابِ اللهِ وعقابِهِ في الآخرةِ للمجرمينَ مَن ارتضوا مَنْهَجَ الشيطانِ وغاياتِهِ: إذلالُ الإِنْسَانِ وأشقاؤُهُ في الدنيا والآخرةِ. فكما أنَّ اللهَ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ فعذابُ جهنمَ لا يموتُ المعذَّبُ فيها فيرتاحُ، إنما عذابٌ سرمديٌّ يشعرُ الإنسانُ بوطأتِهِ وشدتِهِ كلَّ ثانيةٍ بجميعِ جوارحِ الشعورِ والإحساسِ لديهِ.

أما العذابُ الدنيويُّ فأشدُّهُ هوَ عذابُ الرُّوحِ الَّذي لا يجدي الكفارَ والمجرمينَ معَهُ أيُّ لذةٍ منْ لذاتِ الحياةِ الدنيا، لِذَلكَ قالَ اللهُ عنْهُمْ:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55].

وأما المؤمنونَ إنِ ابتلُوا بالعذابِ الدنيويِّ فتخالطُهُ حلاوةُ الإيمانِ فَتَفُوقُهُ، فلا يؤثرُ فيهِمُ التأثيرَ الكبيرَ. وأباحَ اللهُ للمؤمنينَ ورفعَ الحرجَ عنْهُمْ في حالاتِ الخوفِ الشديدِ والعذابِ المهولِ أنْ يكتموا إيمانَهُمْ كما فعلَ مؤمنُ آلِ فرعونَ؛ ولعلَّهُ آمنَ يومَ الزينةِ لكنْ كتمَ إيمانَهُ. لكنْ لنرَى أثرَ الإيمانِ فيهِ عندما أرادَ فرعونُ قتلَ موسى، فالمؤمنُ لا يقرُّ الباطلَ ويدافعُ عنِ الحقِّ وإنْ كانَ الثمنُ حياتَهُ أوْ عذابَهُ.

أما نعيمُ المتقينَ فلا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على بالِ بشرٍ، فهُمْ كما قالَ السَّحَرَةُ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. وشوقُ الإنسانِ للنعيمِ والأنهارِ التي تجري هيَ فِطْرَةٌ جعلَها اللهُ فيهِ، فتجدُ الآنَ الأثرياءَ يشترونَ الفِلَلَ والشققَ على مَجارِي الأنهارِ، وحتَّى إنَّ الدولَ أنشأتِ البحيراتِ الصناعيةَ لتنشيطِ السياحةِ والإسكانِ، وأغلى المجمعاتِ السكنيةِ مَا أحاطتْ بِهِ الأنهارُ والجنانُ. ثمَّ استقبلوا العذابَ والموتَ بنفسٍ راضيةٍ مطمئنةٍ:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126].

طلبَها يوسفُ في النعيمِ بَعْدَ مَا ذاقَ العذابَ والشقاءَ وسألَ ربَّهُ الثباتَ على الدِّينِ في النعيمِ، وسألها السَّحَرَةُ بَعْدَ مَا تنعَّموا بالملذاتِ والآنَ يصبُّ العذابُ عليهِمْ صبًّا، خشيةَ أنْ يردَّهُمُ العذابُ الشديدُ.

انتهى يومُ الزينةِ بنصرٍ مبينٍ لموسى وآمنَ السَّحَرَةُ، وربما مؤمنُ آلِ فرعونَ وقلةٌ منَ القبطِ منْ ذريةِ فرعونَ، فكما حكى اللهُ:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: 83-86].

فصل: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

بَعْدَ يومِ الزينةِ اشتهرَ أمرُ موسى واشتدَّ خوفُ فرعونَ على مُلْكِهِ.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۖ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 126-129].

خاصةً فرعونُ وكبارُ القبطِ أيضًا خَشوا على السلطانِ الَّذي نالوهُ بسببِ فرعونَ وبطشِهِ ببني إسرائيلَ، فحرَّضوا على موسى وبني إسرائيلَ: كيفَ تركَهُمْ طُلَقاءَ حتَّى يفتنوا الناسَ بعبادةِ اللهِ ويتركوا عبادتَكَ وخوفَكَ؟! أجابَ الطاغيةُ فرعونُ: سنشدِّدُ العذابَ عليهِمْ ونزيدُ في قتلِ أبنائِهِمْ واسترقاقِ نسائِهِمْ حتَّى تُكسرَ شوكتُهُمْ ويرضخوا ويرجعوا لعبادتي.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]. اشتدَّ العذابُ على بني إسرائيلَ فشَكَوا لموسى، لكنْ كالأنبياءِ قبلَهُ وبعدَهُ، يعلمُ أنَّ للهِ سُنناً وأنَّ للإيمانِ بهِ طاقاتٍ تفجرُ إمكانياتِ تحمُّلٍ ومدافعةٍ ليسَ لغيرِ الإيمانِ مَا يفجرُها، فأوصاهم بالاستعانةِ باللهِ والصبرِ، مَعَ أنْ يكونوا واثقينَ أنَّ الأرضَ ومَا فوقَها يملكُها اللهُ، ويخلِفُ عليها منْ أرادَ وشاءَ. وكلمةُ ﴿يُورِثُهَا﴾ أشدُّ دقةً وتعبيرًا، فالوراثةُ تكونُ بَعْدَ موتِ المالكِ والمتحكِّمِ، لِذَلكَ أوردَهَا القرآنُ.

فموسى واثقٌ تمامَ الثقةِ أنَّ استمرارَ فرعونَ في تكذيبِهِ وعذابِهِ لبني إسرائيلَ سيهلكُهُ اللهُ، وأعلمُ بسنةٍ منْ سُننِ اللهِ في الأرضِ أنَّ الغلبةَ والفوزَ والفلاحَ للمتقينَ منِ اتبعوا منهاجَ اللهِ وغايتَهُ. لكنَّ بني إسرائيلَ حديثو عهدٍ بإيمانٍ، فلمْ يبلغِ الإيمانُ في قلوبِهِمْ درجةً أنْ يروُا النصرَ والغلبةَ وهلاكَ عدوِّ اللهِ فرعونَ، فقالوا على سبيلِ الشكوى:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]؛ لمْ يتغيرْ حالُنا، آذانا فرعونُ قبلَ بعثتِكَ والآنَ بَعْدَها اشتدَّ عذابُهُ وبطشُهُ. لكنَّ موسى الموقنَ بوعدِ اللهِ أجابَ:

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

مَعَ أنَّ المؤمنينَ مطالبونَ بالثباتِ على الحقِّ إلى الموتِ كما فعلَ السَّحَرَةُ، أخبرَهُمْ أنَّ لعلَّ عاقبةَ صبرِهِمْ وإيمانِهِمْ تكونُ أنْ يهلكَ اللهُ فرعونَ ويجعلَ بني إسرائيلَ خلفاءَ ومتحكّمينَ. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ،يَرَى اللَّهُ أَعْمَالَكُمْ، وَأَيَّ مَنْهَجٍ تَتَّبِعُونَ فِيمَا خَوَّلَكُمْ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ الِاتِّبَاعُ لِمَنْهَجِ اللَّهِ وَغَايَاتِهِ، كُتِبَ لَكُمُ الِاسْتِمْرَارُ وَالتَّمْكِينُ. أَمَّا إِنْ حِدْتُمْ وَطَغَيْتُمْ بِسَبَبِ هَوَى الْمُلْكِ وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، وَاتَّبَعْتُمْ مَنْهَجَ إِبْلِيسَ؛ جَزَاكُمُ اللَّهُ بِالْعَدْلِ الَّذِي لَا يُحَابِي أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، كَجَزَاءِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: شَقَاءٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ.

لعلَّ فرعونَ علمَ مَا وصَّى موسى قومَهُ وتحديَهُ لقرارِهِ الظالمِ بمضاعفةِ العذابِ على بني إسرائيلَ، وأمرَ موسى بني إسرائيلَ بالصبرِ وبشارتِهِ لَهُمْ بهلاكِ فرعونَ وقومِهِ إنْ أقاموا على طغيانِهِمْ، فقررَ أنْ يقتلَ موسى لِعِظَمِ خطرِهِ.

الباب الثامن

﴿ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾

◆

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26].

"ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى"؛ فَمُوسَى حَاجَّ فِرْعَوْنَ فَحَجَّهُ، وَكَسَرَ هَذِهِ الصُّورَةَ الْمُتَخَيَّلَةَ مِنْ خَيَالِهِ الْمَرِيضِ، وَبَيَّنَ أَمَامَ الْمَلَإِ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ بِإِلَهٍ، فَلَمْ يَمْلِكْ فِرْعَوْنُ إِلَّا أَنْ هَدَّدَهُ بِالسِّجْنِ لَمَّا أَرَاهُ الْمُعْجِزَاتِ.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109].

الْمَلَأُ -عِلْيَةُ الْقَوْمِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَشُرَكَاؤُهُ فِي الطُّغْيَانِ- زَيَّنُوا لِفِرْعَوْنَ أَنَّ سَحَرَتَهُ مُجْتَمِعِينَ سَيَهْزِمُونَ مُوسَى وَيُخَلِّصُونَهُ مِنْ هَذَا التَّهْدِيدِ. فَلِهَذَا أَوْجَدَهُمْ وَدَرَّبَهُمْ عَلَى السِّحْرِ الَّذِي اشْتَهَرَ بِهِ قَوْمُهُ، لِيُزَيِّنُوا لِلنَّاسِ سَطْوَتَهُ وَجَبَرُوتَهُ. لَكِنْ يَوْمَ الزِّينَةِ انْكَشَفَ لِلْعَامَّةِ هُزَالُ جَبَرُوتِ فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يُهْزَمْ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ فَحَسْبُ بَلْ:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 46-47].

هَؤُلَاءِ مَنْ كَانُوا يَتَمَسَّحُونَ وَيَرْكَعُونَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، لَمَّا هَدَّدَهُمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124].

تَحَدَّوْهُ قَائِلِينَ: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 73].

الطَّاغِيَةُ الْجَبَّارُ بَعْدَ هَذَا الْمَشْهَدِ أَظُنُّهُ سُقِطَ فِي يَدَيْهِ مُكْرَهاً، هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ يُحْكَى أَنَّهُ يُدَرِّبُهُمْ مُنْذُ الصِّغَرِ لِتَرْسِيخِ صُورَتِهِ الْخَيَالِيَّةِ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْمَلَإِ، لَعَلَّ تَسَاؤُلاً فِي نَفْسِهِ: مَاذَا لَوْ حَذَا جَمْعٌ كَبِيرٌ مِنْ أَعْوَانِهِ وَالْعَامَّةِ حَذْوَهُمْ؟ سَقَطَتْ هَيْبَتُهُ وَأَصْبَحَ يَخْشَى يَقِيناً عَلَى مُلْكِهِ. لَعَلَّهُ عَلِمَ الْآنَ وَاسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِ ضَلَالُهُ وَضَعْفُهُ وَقُوَّةُ إِلَهِ مُوسَى، لَكِنْ هَلْ يُؤْمِنُ الطَّاغِيَةُ الْمُسْتَكْبِرُ، وَيُخْلِصُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ بَطْشِهِ؟ حَاشَاهُ. يَظُنُّ وَيُزَيِّنُ لَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّ لَهُ أَمْراً فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ. فَقَتَلَ السَّحَرَةَ أَشْنَعَ قِتْلَةٍ، لَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَمْحُوَ عَارَهُ وَانْهِزَامَهُ.

الْآنَ يُقَرِّرُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْ مُوسَى الَّذِي فَضَحَ هُزَالَ جَبَرُوتِهِ وَقُوَّتِهِ أَمَامَ الْوَاحِدِ الْقَاهِرِ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، كَأَنَّهُ يَقُولُ: "إِنِّي لَا أَخْشَى إِلَهَ مُوسَى فَدَعُونِي أَقْتُلْهُ"، مُشَاوِراً -غَالِباً- أَهْلَ السِّيَاسَةِ وَالرَّأْيِ عِنْدَهُ مِمَّنْ أَصْبَحُوا جَمِيعاً فِي مَهَبِّ الرِّيحِ.

وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ وَرَسَمَ نَمُوذَجَ الطُّغْيَانِ الْفِرْعَوْنِيِّ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ طَاغِيَةٍ مُتَجَبِّرٍ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ، فَهُوَ لَمْ يُخْبِرْهُمْ بِحَقِيقَةِ أَنَّهُ أَصْبَحَ يَخْشَى مُوسَى وَدَعْوَتَهُ، يَخْشَى أَنْ يُؤْمِنَ النَّاسُ بِمُخْرِجِهِمْ وَمُحَرِّرِهِمْ مِنْ ضَنْكِ الْعَيْشِ فِي طُغْيَانِهِ وَبَطْشِهِ وَظُلْمِهِ إِلَى رَحَابَةِ الْعَيْشِ وَفْقَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. فَمُوسَى وَإِنْ دَعَاهُمْ لِلْإِيمَانِ لَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمْ إِلَّا طَلَباً وَاحِداً: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: 47].

أَلَيْسَ هَذَا بِيَسِيرٍ وَمَنْطِقِيٍّ وَعَادِلٍ؟ لَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ التَّغْيِيرَ السِّيَاسِيَّ وَالْعَدْلَ لَيْسَ ضِمْنَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، بَلْ هُوَ نَتِيجَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِتَحْقِيقِهَا فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ شُعُوباً وَمَمَالِكَ، لَكِنَّ الطَّرِيقَ الْحَقَّ إِلَيْهِ هُوَ مَا بَيَّنَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي مَنْهَجِهِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

فِرْعَوْنُ بَشَرٌ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَلَا قُوَّةَ وَلَا حَوْلَ لَهُ، وَمَا طَغَى وَتَجَبَّرَ إِلَّا بِجُنْدٍ وَأَعْوَانٍ أَعَانُوهُ عَلَى ظُلْمِهِ وَبَطْشِهِ وَشَارَكُوهُ الشَّيْطَانَ فِي مَهَمَّتِهِ الْأَبَدِيَّةِ ضِدَّ بَنِي آدَمَ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: 64].

قَدَّمُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ لِفِرْعَوْنَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ وَغَايَتِهِ، خَلَقُوا وَصَنَعُوا نِظَاماً كُلُّهُ تَحْقِيرٌ لَهُمْ، كُلٌّ عَبْدٌ لِمَا فَوْقَهُ، وَأَعْلَاهُمْ "هَامَانُ" مِمَّنْ يَدِينُ لِفِرْعَوْنَ وَيَعْلَمُ يَقِيناً زَيْفَهُ وَكَذِبَهُ، ثُمَّ عَامَّةٌ خَضَعُوا وَرَكَنُوا لِلظَّلَمَةِ وَالطُّغَاةِ، فَلِتَغْيِيرِ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَعِيَ النَّاسُ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مُكَرَّمِينَ عِباداً لِلَّهِ، وَأَنَّ خَيْرَهُمْ هُوَ أَنْفَعُهُمْ لِبَنِي آدَمَ، الْمِعْيَارُ الصَّوَابُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَقَرَّهُ رَبُّ الْبَرِيَّةِ وَرَضَاهُ لِخَيْرِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تَطِيبُ إِلَّا بِمَنْهَجِهِ وَغَايَتِهِ.

لِذَلِكَ عِنْدَمَا أَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ -وَهُوَ رَجُلٌ رَزِينٌ هَادِئٌ- فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَقَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُوراً لَعَلَّكَ تَقْبَلُ بَعْضَهَا: إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِهَذَا الْأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ شَرَفاً سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا فَلَا نَقْطَعُ أَمْراً دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا » فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ »قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:« فَاسْمَعْ مِنِّي » ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرَ سُورَةِ "فُصِّلَتْ" حَتَّى وَصَلَ إِلَى السَّجْدَةِ فَسَجَدَ، فَرَجَعَ عُتْبَةُ إِلَى قُرَيْشٍ بِوَجْهٍ غَيْرِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ![الألباني].

وَكَانَ مِمَّا قَرَأَ لَهُ فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: 6].

فَالشَّاهِدُ هُنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَفَضَ الْمُلْكَ؛ فَلَوْ كَانَ يَسْعَى لِتَغْيِيرٍ سِيَاسِيٍّ لَقَبِلَهُ. أَمَّا فِي الْمَدِينَةِ، فَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ آمَنُوا بِالْغَايَاتِ الرَّحْمَنِيَّةِ فَبَدَّلَ اللهُ حَالَهُمْ؛ فَإِمَارَتُهُمُ الَّتِي قَرَّرُوهَا لِرَأْسِ الْمُنَافِقِينَ "ابْنِ أُبَيٍّ"، لَمَّا آمَنُوا أَبْدَلَهُمُ اللهُ بِهَا خَيْرَ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ أَمِيرًا لِلْمَدِينَةِ، وَأَصْبَحُوا بِهِ مِنْ أُمَرَاءَ عَلَى بُقْعَةٍ مَغْمُورَةٍ إِلَى قَادَةٍ يَحْمِلُونَ لِوَاءَ تَحْرِيرِ الْعَالَمِينَ.

أَمَّا الطُّغَاةُ وَمَلَؤُهُمْ وَزَعِيمُهُمْ إِبْلِيسُ لَا يُرِيدُونَ الْإِيمَانَ بِالغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ لِعِلَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَصَفَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: 56].

وَيَا لَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ! وَصَفَ حَالَهُمْ: لَا مَنْطِقَ عِنْدَهُمْ وَلَا حَتَّى قُوَّةَ يُوَاجِؤُونَ بِهَا خَالِقَهُمْ، الْعِلَّةُ الْوَحِيدَةُ هِيَ (كِبْرٌ)؛ مَرَضٌ نَفْسِيٌّ وَصُورَةٌ يَتَوَهَّمُونَهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، زَيَّنَهَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ وَالْأَتْبَاعُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾، هَذِهِ وَاللَّهِ تَحْتَاجُ لِكُتُبٍ لِبَيَانِهَا، لَكِنْ حَسْبُنَا هُنَا مِنَ الْبَحْرِ قَطْرَةٌ، فَتَأَمَّلْ حَالَ الطُّغَاةِ فِي بُلْدَانٍ كَثِيرَةٍ تَجِدُهُمْ عَبِيداً وَأَذِلَّةً لِرَئِيسِ دَوْلَةٍ عُظْمَى أَوْ قَائِدٍ عَسْكَرِيٍّ أَوْ صَاحِبِ مَالٍ، وَتَجِدُهُ يُدَاهِنُ زُعَمَاءَ الْعَشَائِرِ وَمَنْ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ فِي قَهْرِ النَّاسِ، وَيَبْذُلُ ابْنَهُ وَبِنْتَهُ وَالْمَالَ لِأَجْلِ ذَلِكَ. وَصَدَقَ اللَّهُ؛ هَذَا شُعُورٌ بِالْمَهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي حَقِيقَةِ نَفْسِهِ. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ مِنْ هَذَا الْحَالِ، وَأَيْضاً اسْتَعِذْ بِاللَّهِ لِأَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَلَكَ هَذَا الطَّرِيقَ هُوَ إِبْلِيسُ حِينَ قَالَ:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

أَوَّلُ مَنْ رَفَضَ أَمْرَ اللَّهِ بِتَكْرِيمِ بَنِي آدَمَ، وَقَرَّرَ كِبْراً مِنْ نَفْسِهِ مِعْيَارَ خَيْرِيَّةٍ خِلَافَ الْمِعْيَارِ الْحَقِّ الَّذِي قَرَّرَهُ رَبُّهُ رَبُّ الْبَرِيَّةِ، وَظَنَّ أَنَّ لَهُ أَمْراً فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ. وَفِرْعَوْنُ وَمَنْ سَنَّ سُنَّتَهُ جَمِيعاً رَفَضُوا مِعْيَارَ الْخَيْرِيَّةِ الْحَقَّ، بِهِ وَحْدَهُ تَنْعَمُ الْبَرِيَّةُ وَبِخِلَافِهِ تَشْقَى وَتَهُونُ. وَفِرْعَوْنُ قَرَّرَ أَيْضاً أَنَّ لَهُ أَمْراً فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ؛ فَاللَّهُ اصْطَفَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَانِهِ، وَيُوسُفَ سَكَنُوا مِصْرَ مُكَرَّمِينَ، وَعِنْدَمَا حَكَمَ فِرْعَوْنُ بِاضْطِهَادِهِمْ، أُرْسِلَ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ وَالْآيَاتِ بِطَلَبٍ وَاحِدٍ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾. حَالُ فِرْعَوْنَ حَالُ جَمِيعِ الطُّغَاةِ؛ مَنْ يَظُنُّ نَفْسَهُ هَذَا الَّذِي يَنْصَحُنِي حَتَّى أَتَخَلَّى عَنْ طُغْيَانِي وَبَطْشِي وَأَنَا مَنْ أُقَرِّرُ وَأَحْكُمُ فِي مَصِيرِ الْبَشَرِ.

أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ مَبْعُوثُو الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ فَحَالُهُمْ وَمَقَالُهُمْ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: 6].

نَحْنُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَرَبُّكُمْ وَرَبُّنَا وَاحِدٌ، اسْتَقِيمُوا عَلَى مَنْهَجِهِ وَتُوبُوا، وَالتَّوْبَةُ هُنَا فِكْرِيَّةٌ وَسُلُوكِيَّةٌ؛ فِكْرِيَّةٌ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ الْخَاطِئَةِ عَنِ الْحَاكِمِ. أَنْتُمْ بَشَرٌ مُكَرَّمُونَ، مَا جَعَلَ اللَّهُ لِأَحَدٍ الْبَطْشَ وَالتَّنْكِيلَ بِكُمْ، وَلَا رَضِيَ اللَّهُ أَنْ تُنَكِّلُوا بِغَيْرِكُمْ، فَهَذَا الطَّاغِيَةُ أَنْتُمْ مَنْ صَنَعْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ تُسْقِطُوهُ بِاتِّحَادِكُمْ وَتَغْيِيرِ مَا بِأَنْفُسِكُمْ. فَالدَّاعِيَةُ -حَتَّى فِي الْمَجَالِ السِّيَاسِيِّ- يَجِبُ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ضَعْفَهُمُ الَّذِي جَعَلَ هَذَا الظَّالِمَ يَتَسَلَّطُ عَلَى رِقَابِهِمْ. وَالتَّغْيِيرُ الْإِسْلَامِيُّ هُوَ تَغْيِيرٌ اجْتِمَاعِيٌّ لِأَنَّهُ أَسَاسُ الْإِصْلَاحِ، وَهُوَ مَنْهَجُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَقْضِي عَلَى مَشَاكِلِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ جُذُورِهَا، لَا الَّذِي يَنْظُرُ لِلْأَعْرَاضِ وَيَنْشَغِلُ بِهَا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ﴾

لماذا ؟ احتجَّ فرعون لِفعلِهِ قائلاً: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾. علَّهُ يعني -وإنْ لَمْ يستطعْ- أنْ يُغيرَ دينَكُم، فقد يُقنعُ كثيرينَ بالعقيدةِ والدينِ الجديدِ "الفاسدِ والضالِّ" في رأيِ فرعون، مع أنَّ الفسادَ الحقيقيَّ هو ما يدعو فرعونُ إليهِ، دينٌ يستعبدُ الناسَ ويُعلي مِنْ شأنِ فرعون، أما دينُ الرسلِ فكما قالَ اللهُ عَنْهُ:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

وهو فَرْقٌ يستطيعُ أيُّ بَشَرٍ أنْ يُدركَهُ، فليستْ للرسلِ مصلحةٌ دنيويةٌ عاجلةٌ في أنْ يتبعَ الناسُ الدينَ الحقَّ، وإنْ قالَ قائلٌ: علَّهُمْ يودونَ أنْ يكونوا لَهُمْ أتباعٌ يجنونَ مِنْ ورائِهِمُ المالَ، فقد دحضَ اللهُ ذلكَ أيضاً موجّهاً رسُلَهُ أنْ يقولوا:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72] - قالَ ذلكَ نوحٌ.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 127] - قالَ ذلكَ النبيُّ هودٌ.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 145] - قالَ ذلكَ النبيُّ صالحٌ.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 164] - قالَ ذلكَ النبيُّ لوطٌ.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 180] - قالَ ذلكَ النبيُّ شعيبٌ.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: 47].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 57].

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] - قالَ ذلكَ النبيُّ محمدٌ ﷺ.

فصل: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾

◆

أما حجةُ فرعون الثانية في قتلِ موسى: ﴿أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، فالفسادُ الحقيقيُّ يظهرُ في الأرضِ عندما يتبعُ الناسُ غاياتِ الشيطانِ ومنهجَهُ وسبُلَهُ، ويتركونَ غاياتِ الرحمنِ وسبُلَهُ، كما قالَ عزَّ وجلَّ:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22].

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: 90-92].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: 27].

بلَغَ موسى ما يشاورُ فرعون ملأَهُ فيهِ، فردَّ أنَّهُ لجأَ إلى اللهِ ويلوذُ بِهِ مِنْ فرعون الطاغيةِ المتكبرِ والباطشِ الذي لا يؤمنُ بأنَّ هناكَ قيامةً وحساباً مِنَ اللهِ لعبادِهِ، فلو كانَ يؤمنُ لردعَهُ ذلكَ.

هنا جاءَ دورُ "مؤمنِ آلِ فرعون" الذي كتمَ إيمانَهُ تقيَّةً مِنْ فرعون، ولعلَّهُ علمَ أنَّ موتَهُ لا يخدمُ الدعوةَ في المرحلةِ الحاليةِ، فسحرةُ فرعون كانوا قدوةً وطليعةً يقتدي الناسُ بِهِمْ، أما الآنَ فقد جاءَ دورُهُ ولو اقتضى ذلكَ حياتَهُ، فما حياتُهُ مقارنةً برسولِ الدعوةِ موسى؟ فلما علمَ أنَّ فرعون يريدُ أنْ يقتلَ موسى، وقفَ صادعاً بالحقِّ واعظاً قومَهُ وفرعون:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28].

أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟ يالَهُ مِنْ منطقٍ! فماذا فعلَ موسى غيرَ أنَّهُ صَدَحَ وقالَ إنَّ اللهَ ربي؟ زيادةً على ذلكَ جاءكُم بالآياتِ الباهرةِ والواضحةِ التي تؤيدُ قولَهُ، لكنْ إنْ لَمْ تصدقوا قولَهُ فدعوهُ يكونُ كذبُهُ وبالاً عليهِ، لكنِ احذروا فلو كانَ صادقاً فيما يقولُ ينالُكُمْ بوعيدِهِ وما هدَّدَكُمْ بِهِ جراءَ التكذيبِ والعنادِ، وحذَّرَهُمْ مِنْ عاقبةِ الإسرافِ في البطشِ والبغيِ، والتكذيبِ المبالغِ فيهِ، فكيفَ تتوقعونَ أنْ تُهْدَوْا إلى الحقِّ والطريقِ المستقيمِ وكلَّما جاءتْكُمْ حجةٌ كذبتُمْ بِها؟ ثُمَّ أرادَ أنْ يُزيلَ غشاوةَ الطغيانِ والعنادِ:

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29].

هلِ المُلكُ ما يُطغيكُمْ؟ فكيفَ إنْ زالَ مُلكُكُمْ بسببِ تكذيبِكُمْ للرسولِ؟ فاللهُ بأسُهُ شديدٌ: "فمَنْ ينصرُنا مِنْ بأسِ اللهِ إنْ جاءَنا؟". هنا استشعرَ فرعون قوةَ الحجةِ -وربما ميلَ مَنَ الملأِ للمؤمنِ- فقاطعَهُ قائلاً: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. الطاغيةُ شعرَ أنَّ نتيجةَ الشورى ليستْ ما يريدُ، وأنَّ المؤمنَ حجتُهُ قويةٌ واضحةٌ، فأرادَ منعَها، قالَ: "فالرأيُ رأيي، وما أراهُ لَكُمْ هو سبيلُ الرشدِ والفلاحِ". لكنَّ المؤمنَ لَمْ يلتفتْ لفرعون واستمرَّ ناصحاً بحججٍ قويةٍ:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِّثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 30-31].

ذكَّرَهُمْ بتواريخَ وسِيَرِ قومٍ يعلمونَ ما حلَّ بِهِمْ؛ قومُ نوحٍ وعادٍ وثمودَ كانَ دأْبُهُمُ الطغيانُ وتكذيبُ الرسلِ ومحاولةُ قتلِهِمْ، فماذا حلَّ بِهِمْ؟ تعلمونَ الهلاكَ فاحذروا مصيرَهُمْ إنْ سرتُمْ على دربِهِمْ. هذا مصيرُهُمْ في الدنيا، فكيفَ النكالُ والعذابُ في الآخرةِ؟ لذا وعظَهُمْ مؤمنُ آلِ فرعون:

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: 32-33].

يومُ التنادِ، يومُ ينادي منادٍ مِنَ اللهِ: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

فقد روى أبو وائلٍ عَنِ ابنِ مسعودٍ قالَ:

« يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ مِثْلِ الْفِضَّةِ لَمْ يُعْصَ اللهَ -جَلَّ وَعَزَّ- عَلَيْهَا، فَيُؤْمَرُ مُنَادٍ يُنَادِي: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فَيَقُولُ الْعِبَادُ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ هَذَا الْجَوَابَ سُرُورًا وَتَلَذُّذًا، وَيَقُولُهُ الْكَافِرُونَ غَمًّا وَانْقِيَادًا وَخُضُوعًا » [الألباني].

هو يومٌ ينادي أهلُ الجنةِ أهلَ النارِ:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 44].

وهو يومُ نادى الخلائقُ للحسابِ، حينها ستهربونَ ولكنْ إلى أينَ؟ فلا ملجأَ ولا عاصمَ يومئذٍ إلا اللهُ، فالجؤوا للهِ طالبينَ الهدايةَ قَبْلَ أنْ يختمَ اللهُ على قلوبِكُمْ بسببِ أعمالِكُمْ وإضلالِكُمْ فَلَنْ يهديَكُمْ أحدٌ مِنْ بَعْدِهِ.

وإنْ نسيتمُ الأممَ الأخرى لتطاولِ الأزمنةِ وغشى طولُ الأملِ على أبصارِكُمْ فَلَمْ تذكروا يومَ الحسابِ، فوجهَهُمْ لنبيٍّ يعلمونَ ذكرَهُ وسيرتَهُ، هو مَنْ أتى ببني إسرائيلَ لمصرَ وكانَ عزيزَ مصرَ وخازنَ أموالِها، إنَّهُ يوسفُ:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: 34].

تعلمونَ سيرتَهُ وما كشفَ اللهُ بِهِ مِنَ القحطِ والمجاعةِ، وآتاكُمْ يوسفُ بالبيناتِ التي تبيِّنُ صدقَها كمجاعةِ مصرَ وتأويلِها، وغيرِها مِمَّا تبينتُمْ صدقَهُ، ولكنْ رغمَ ذلكَ لَمْ تؤمنوا وكنتُمْ مرتابينَ بما مَعَهُ مِنَ الحقِّ إلى موتِهِ، وحسبتُمْ أنَّ اللهَ لَنْ يبعثَ بَعْدَهُ رسولاً. ألا ترونَ الأسبابَ الواضحةَ التي تجعلُكُمْ لا تصلونَ للهدايةِ؟ منها الشكُّ والارتيابُ في قولِ كلِّ ناصحٍ.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35].

مِنْ دأبِهِمُ الجدالُ ومحاولةُ تكذيبِ الآياتِ بغيرِ سلطانٍ ولا حجةٍ، يمقتُهُمُ اللهُ المقتَ الشديدَ وكذلكَ الذينَ آمنوا. بهذه الأسبابِ ومِنْ دأبٍ أنْ يأخذوا بِها، يختمُ اللهُ على قلوبِهِمْ بالضلالِ فلا يَرَوْنَ الهدايةَ ولا يصلوا لَها، فيصيرُ التكذيبُ والمجادلةُ التي يقومونَ بِها عناداً، هي صفتُهُمْ والطابعُ الذي عليهِمْ، وترونَ ذلكَ في سَمْتِ كلِّ متكبرٍ جبارٍ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: 36-37].

بلَغتْ حجةُ مؤمنِ آلِ فرعون مَبْلغاً لا يسعُ فرعون أنْ يهددَ أو يُلغيَها ويمنعَهُ مِنَ الكلامِ، فسيظهرُ بموقفِ الضعيفِ منطقياً، ولا بُدَّ مِنْ حيلةٍ أخرى لِصرفِ القومِ عَنِ الإيمانِ أو التشكيكِ فيما يقولُهُ. أَمَرَ فرعونُ هامانَ ببناءِ صرحٍ يبلغُ طُرُقَ السماواتِ لأرى الإلهَ الذي يتحدثُ موسى عَنْهُ، رغمَ أنني أشكُّ فيما قال, فهو عِندي "كاذبٌ"، قالَهُ ليبيّنَ للملأِ حرصَهُ على معرفةِ الحقِّ وسعيَهُ إليهِ، ولكنَّ الحقيقةَ والحالَ يبيّنانِ أنَّ فرعون هو الكاذبُ وأنَّ ما قالَهُ هو صَرْفُ انتباهِ لحججِ موسى القويةِ ومؤمنِ آلِ فرعون، فقالَ عَنْهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾. أعمالُهُ السيئةُ واتباعُ منهجِ الشيطانِ وغايَتِهِ ازدانَ لفرعون، وسعى لِلصَّدِّ عَنْ سبيلِ اللهِ وغايَاتِهِ، ولكنْ رغمَ ذلكَ فكيدُهُ وإنْ عَظُمَ فمصيرُهُ الاضمحلالُ والزوالُ، وسيظهرُ الحقُّ ويهلكُ فرعونُ.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 38-41].

لكنَّ المؤمنَ فطنَ لذلكَ وواصلَ وأعلنَ إيمانَهُ بربِّ موسى وهارون، وحثَّ ملأَ فرعون أنْ يتبعوا سبيلَهُ وهو سبيلُ الرشادِ الحقيقيِّ، وبيَّنَ لَهُمْ حقيقةَ الدنيا؛ فهي وما بِها مِنْ ملذاتٍ قليلةٍ ولفترةٍ محدودةٍ، فهي كما يأخذُهُ المسافرُ ليتقوى بِهِ على رحلتِهِ وطريقِهِ فلا ينبغي أنْ تشغلَهُ ويُكثرَ منها على حسابِ الغايةِ النهائيةِ الدائمةِ؛ وجهةُ الإنسانِ هي الآخرةُ دارُ الإقامةِ الدائمةِ والحسابِ على الحسناتِ والسيئاتِ، والناسُ فيها نوعانِ لا ثالثَ لَهما:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 40].

مَنْ عَمِلَ الأعمالَ السيئةَ فلا يجزى إلا بالسوءِ والعذابِ، أما مَنْ عَمِلَ الأعمالَ الصالحةَ واتبعَ غاياتِ الرحمنِ وسبُلَهُ فرزقُهُ دائمٌ بغيرِ عددٍ أو حسابٍ أو حتى مجهودٍ وعملٍ مقابلَ النعيمِ الأبديِّ السرمديِّ. وبيانُهُ هنا لعلمِهِ أنَّ الملأَ وإنِ اقتنعوا بمنطقِهِ فسيجدونَ صعوبةً في التفكيرِ في الملذاتِ القليلةِ التي اعتادوا عليها مع فرعون. لكنَّ الملأَ قرروا التكذيبَ وأمروهُ بالكفرِ بربِّ موسى وهارون، فردَّهُ المؤمنُ قائلاً:

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي

الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 41-44].

يالعجبٍ لي حالي وحالِكُمْ! أدعوكم للفوزِ والفلاح وتدعونني إلى النارِ والعذابِ، تدعونني لأكفرَ بربي وأُشركَ معَهُ ما لا أعلمُ عَنْهُ سوى أنَّه بَشَرٌ، أما دعوتي فهي للهِ الخالقِ ذو الآلاءِ والصفاتِ العظامِ، العزيزُ الذي لا يضامُ، الغفورُ الذي يغفرُ الذنوبَ العظامَ وسيغفرُ لَكُمْ خطاياكُمْ إنْ آمنتم. كلُّ ذلكَ يبيّنُ أنَّ كلامَكُمْ لا حجةَ أو فائدةَ تترتبُ مِنَ الإيمانِ بِهِ في الدنيا والآخرةِ، فهي دعوةٌ لإذلالِ الإنسانِ الذي كرَمَهُ اللهُ وأسجدَ لَهُ ملائكتَهُ. وسنرجعُ جميعاً يومَ لقاءِ اللهِ وسيحاسبُ كلاً على أفعالِهِ وأعمالِهِ، ومَنْ أسرفَ في تكذيبِ الحقِّ واتباعِ سبلِ الشيطانِ تكونُ عاقبتُهُ النارَ والعذابَ الشديدَ، لعلَّكُمْ حينها تذكرونَ نصحي لَكُمْ وكلامَ رجاءِ نجاتِكُم. أما تهديدُكُمْ لي فأفوّضُ ربي ليُعينني ويُثبتني، فهو يرى ويرعى عبادَهُ المؤمنينَ. موقفٌ قويٌّ مِنْ مؤمنِ آلِ فرعون دفاعاً عَنِ الحقِّ والذبِّ عَنْهُ، واللهُ لا يضيعُ أولياءَهُ ومَنْ ينصرونَ منهجَهُ وسبُلَهُ، فكانتِ النتيجةُ:

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45-46].

وقاهُ وعصمَهُ مِمَّا دبَّروا لَهُ مِنَ المكائدِ والمحنِ في الدنيا، أما آلُ فرعون -كما سنرى- فكانتْ عاقبتُهُم الهلاكَ في الدنيا، وبدأَ عذابُ الآخرةِ مِنْ قبورِهِمْ فيُعرضونَ كلَّ يومٍ على النارِ في الصباحِ والمساءِ -ولعلَّ المقصودَ كلَّ اليومِ- تعذيباً ونكالاً لِمَا فعلوهُ واقترفوهُ في الدنيا، أما في

الآخرةِ فيذوقُ آلُ فرعون أشدَّ العذابِ الذي أعدَّهُ للكافرينَ. وحكى اللهُ لنا ما سيحدثُ حينها بينَهُمْ وبينَ زعمائِهِمْ وفرعون كبيرِهِمْ:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: 47-48].

حسرةُ الضعفاءِ مِمَّنِ اتبعوا فرعون والزعماءَ؛ مؤكدٌ أنَّهُمْ تذكروا تذكيرَ موسى ومؤمنِ آلِ فرعون، ولكنَّهُمْ مالوا لتصديقِ واتباعِ كبارِهِمْ رغمَ الحججِ والآياتِ البينةِ. فقالَ الضعفاءُ: هل يمكنُكُمْ أيها الزعماءُ مِمَّنِ اتبعناكُمْ أنْ تدفعوا عَنَّا جُزءاً يسيراً مِنَ العذابِ جراءَ ذلكَ؟ حينها اعترفَ الزعماءُ بالحقيقةِ؛ أنَّهُمْ عِبادٌ للهِ ضعفاءُ، واللهُ حكَمَ، ولا عزاءَ للأتباعِ. فاللهُ خَلَقَ الجميعَ وأعطاهم مِنَ الآلاتِ والإمكانياتِ ما ييسرُ لَهُمُ اتباعَ منهجِ اللهِ وغَايَتِهِ؛ منهجِ التكريمِ والنعيمِ، فإنِ ارتضوا منهجَ الشيطانِ وغَايَتَهُ واحتقروا أنفسَهُمْ بَعْدَ التذكيرِ والرسلِ والآياتِ البينةِ، فلا سبيلَ لَهُمْ سوى ما ارتضوهُ لأنفسِهِمْ في الدنيا؛ منهجُ الشيطانِ لِشقاءِ الإنسانِ، ليحشرَهُمُ اللهُ مع إبليسَ وأعوانِهِ في العذابِ السرمديِّ الأبديِّ.

فصل: ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾

◆

كَذَّبَ قومُ فرعون المُرْسَلِينَ، وتتابعَ التكذيبُ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: 46-47].

اليدُ والعصا ويومُ الزينةِ، كلُّ المعجزاتِ:

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 48].

كلُّ آيةٍ أقوى وأعظمُ مِنْ أختِها التي سبقتْها، ثُمَّ ابتلاهم اللهُ بالمصائبِ عسى أنْ ترقَّ قلوبُهُمْ، فالنعيمُ أحياناً يقسّي القلبَ والفؤادَ ويؤدّي لِلكِبْرِ والبطرِ، فكما قالَ سبحانَهُ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 130-131].

ضيَّقَ اللهُ على أرزاقِهِمْ وأوجاعِهِمْ، لكنَّ كلَّ ذلكَ زادَهُمْ تكذيباً، فالحسناتُ وما يحدثُ لَهُمْ مِنْ طيباتٍ قالوا: هذه بسببِنا وبسببِ أعمالِنا، ونسبوا كلَّ ما أصابَهُمْ مِنَ المحنِ لموسى ومَنْ آمنَ معَهُ وقالوا: هذا بسببِ شؤمِهِمْ، ولكنْ لا يعلمونَ أنَّ هذا الشؤمَ حلَّ بِهِمْ مِنَ اللهِ نكالاً وجزاءَ أفعالِهِمْ علَّهُمْ أنْ يراجعوا أنفسَهُمْ.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 132].

فأشدَّ اللهُ وطأةَ آياتِهِ وعذابِهِ عليهِمْ:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 133].

فاضَ النيلُ عليهِمْ فيضاناً عظيماً ودمَّرَ بيوتَهُمْ ومحاصيلَهُمْ، ثُمَّ في سنةٍ أخرى -أو تليها- أرسلَ اللهُ عليهِمُ الجرادَ فَلَمْ يبقِ أخضرَ ولا يابساً إلا قضى عليهِ، ثُمَّ أرسلَ اللهُ عليهِمُ القُمَّلَ فَلَمْ يتركْ سريراً ولا جسماً إلا أصابَهُ وحرمَهُ النومَ والراحةَ، وفي كلِّ مرةٍ يلجؤونَ لموسى:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: 49-50].

لكنْ لا يوفونَ بوعدِهِمُ الذي قطعوهُ لموسى، حتى إنَّ فرعون خشيَ مِنْ كثرةِ لجوئِهِمْ لموسى أنْ يكفروا بِهِ ويكفّوا عَنْ تعظيمِهِ، فناداهم معظّماً نفسَهُ وحالَهُ:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 51-54].

انظروا أليسَ لي مُلكُ مصرَ وأنا المُعظَّمُ المُبجَّلُ فيها، وهذه الأنهارُ تجري مِنْ تحتي، هل ستفضلونَ عليَّ موسى هذا الذي لا قَدْرَ لَهُ في مصرَ ولا يستطيعُ أنْ يُفصحَ الكلامَ ويُبينَ لعلةٍ

في لسانِهِ؟ لماذا لا يُلقي ربُّهُ لَهُ أسورةً مِنْ ذهبٍ كالتي عليَّ، أو يرسلُهُ في موكبٍ مِنَ الملائكةِ كحالي حينَ أخرجُ بحشمي وجنودي؟

بهذه الحججِ الواهيةِ استخفَّ فرعون عقولَ قومِهِ ودعاهم إلى سبيلِ التحقيرِ والشقاءِ، سبيلِ الشيطانِ وغَايَتِهِ، واتخاذِ المعاييرِ الماديةِ البحتةِ والبهرجِ الكاذبِ، واتبَعَهُ قومُهُ وهُمْ مسؤولونَ، فلو كانوا قومَ خيرٍ وفلاحٍ ما اتبعوهُ. ومن ثَمَّ تتابعتْ عليهِمُ الضفادعُ فلا يفتحونَ إناءً إلا وجدوا ضفدعاً تحتَهُ، ثُمَّ الدمُ فلا يقربون مَاءً إلا صار دماً عبيطاً، وكلُّ ذلكَ ولَمْ يصبْ بني إسرائيلَ مِنْهُ شيءٌ، حتى فرعون خشيَ خشيةً شديدةً على باطلِهِ ومُلكِهِ.

فصل: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

◆

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87].

أَمَرَ اللهُ أنْ يجعلوا بيوتَهُمْ مُميزةً وأوصاهُمْ بالصلاةِ وتبشيرِ المؤمنِ بقربِ الخلاصِ مِنْ فرعون، لا يدري موسى كيفَ النجاةُ، لكنَّ ما واجهَهُ مِنْ عنادٍ وأذىً مِنْ فرعون وقومِهِ دَعاهُ أنْ يدعوَ اللهَ عليهِمْ بأشدِّ دعوةٍ:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

أَنْ يجعلَ قلوبَهُمْ قاسيةً ويطمسَ على أموالِهِمْ فيموتوا على الكفرِ فلا يذوقوا حلاوةَ منهجِ اللهِ في الدنيا ويخلدوا في العذابِ في الآخرةِ.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 89].

استجابَ اللهُ الدعوةَ وأمرَهُ بالاستقامةِ على منهجِ اللهِ وغَايَتِهِ ومفارقةِ سَبِيلِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ما في منهجِ اللهِ مِنْ تكريمٍ ورفعةٍ للإنسانِ وسعادةٍ في الدارينِ، وما في سَبِيلِ الشيطانِ وفرعون مِنْ مهانةٍ وذلةٍ في الحياةِ الدنيا والآخرةِ مِنْ عذابٍ شديدٍ.

في يومِ عيدٍ لبني إسرائيلَ استعارَ قومُ موسى حُلياً وذهباً مِنَ القِبطِ ليشهدوا بِها احتفالاتِهِمْ، وفي صباح يومِ العيدِ:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: 52].

خرجَ موسى وقومُهُ، وعلمَ فرعون فقرَّرَ:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: 54-60].

هذه الشرذمةُ القليلةُ مِنَ العبيدِ -كما يعتبرُها فرعون- أغاظتْنا وخرجتْ عَنْ طاعتِنا وقررتِ الهربَ، لكنَّنا منتبهونَ لما يريدونَ ويخططونَ فنخرجُ في أثرِهِمْ. وصدقَ اللهُ:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

ليمضيَ أمرُ اللهِ وحكمُهُ في فرعون وجنودِهِ.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 57-59].

فصل: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

أخرجَ اللهُ فرعون بَعْدَ أنْ جمعَ جنوداً مِنَ المدائنِ ليلحقَ بموسى ومَنْ مَعَهُ ويهلكَهُمْ، وسيكونُ خروجُهُ هو سببَ هلاكِهِ وقومِهِ، فالطغيانُ دوماً يمهدُ لنهايتِهِ بخطواتٍ تعميهِ فيها نفسُهُ المتجبرةُ والمتكبرةُ. لكنِ اقتربَ فرعون مِنْ موسى وبني إسرائيلَ، فقد حكى اللهُ:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 60-62].

فرعون وجيشُهُ انطلقوا في أثرِ بني إسرائيلَ وقتَ شروقِ الشمسِ، وذلكَ بَعْدَ أنْ علمَ فرعون بخروجِهِمْ ليلاً، فجمعَ جيشاً عظيماً ليلحقَ بِهِمْ ويمنعَهُمْ مِنَ النجاةِ. نَظَرَ بنو إسرائيلَ لفرعون وجنودِهِ يحثُّونَ الخُطى لحاقاً بِهِمْ وأيقنوا أنَّ فرعون وجنودَهُ سيدركونَهُمْ لا محالةَ، لكنَّ موسى الموقنَ بموعدِ اللهِ أخبرَهُمْ أنَّ اللهَ مَعَهُ وفي صفِّهِ وسيبينُ لَهُ طريقةَ النجاةِ مِنْ فرعون وجنودِهِ.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: 63-68].

وصلَ موسى وقومُهُ البحرَ، وأظنُّ الخوفَ قد بَلَغَ مِنْ بني إسرائيلَ مَبلغاً عظيماً، لكنْ حينها أَمَرَ اللهُ موسى أنْ يضربَ البحرَ بعصاهُ فانقسمَ إلى اثني عشرَ قسماً كلُّ قسمٍ كالجبلِ العظيمِ، وعبرَ موسى وقومُهُ. ثُمَّ أتى فرعون فتردَّدَ ووقفَ خائفاً أمامَ هذه الآيةِ المهيبةِ، ورُوِيَ أنَّ

جبريلَ أتى بفرسٍ واقتحمَ مسرعاً فتبعَهُ فرعون وجنودُهُ، وعندما وصلَ قومُ موسى الشطَّ الآخرَ وعبروا للبرِّ وصارَ فرعون وجنودُهُ جميعاً في البحرِ أَمَرَ اللهُ البحرَ فانطبقَ عليهِمْ جميعاً.

موتُ فرعون حدثٌ خلَّدَهُ اللهُ في القرآنِ، خلَّدتْهُ وعظَّمتْهُ اليهودُ، فرويَ أنَّ:

« أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟" فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ"، فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ » [متفق عليه].

وندبَ لنا صيامَ يومٍ قبلَهُ أو بعدَهُ مخالفةً لليهودِ شعائرياً، فقالَ:

« خَالِفُوا الْيَهُودَ، صُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ، أَوْ يَوْمًا بَعْدَهُ » [الألباني].

وعنهُ أيضاً:

« صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ » [مسلم].

لِننظرْ لِعظمِ ثوابِ الفرج بموتِ طاغيةٍ وظالمٍ أذلَّ العبادَ وأشقاهم، فكيفَ ثوابُ مَنْ عَمِلَ على إسقاطِ طاغيةٍ؟ قالَ عليهِ السلامُ:

« سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ » [الألباني].

كيفَ ماتَ فرعونُ؟

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 90-92].

خرجَ فرعون وجنودُهُ، واقتحمَ جبريلُ بفرسِهِ فجاراهُ فرعون وتركَ تردُّدَهُ، كلُّ هذه الآياتِ لَمْ يؤمنْ فرعون ولَمْ يدعْ بني إسرائيلَ يخرجوا. فرعون الآنَ في وسطِ البحرِ أطبقتْ عليهِ الأمواجُ يصارعُ الغرقَ والموتَ، حينها: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

لكنْ رُويَ أنَّ جبريلَ كانَ يدسُّ الترابَ في فمِهِ خشيةَ أنْ يقولَ كلمةً تُدركُهُ بِها رحمةُ اللهِ، فعدوُّ اللهِ فَعَلَ ما فَعَلَ بعبادِ اللهِ وموسى وقالَ: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)، لكنَّ جبريلَ يعلمُ سعةَ رحمةِ اللهِ ويخشى أنْ تُدركَهُ، لكنَّ فرعون هيهاتَ بَعْدَ كلِّ هذه الآياتِ والبياناتِ، ليس الإعراضُ فقط ولكنَّ الفسادَ والقتلَ والاستعبادَ والسعيَ لإضلالِ عبادِ اللهِ، فحكمَ اللهُ فيهِ: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

هلاكُ فرعون آيةٌ، لكنَّ اللهَ أرادَ أنْ يكونَ جسدُ أعظمِ طاغيةٍ على مَرِّ التاريخِ -الذي واجهَ نبيَّ الأنبياءِ أولي العزمِ مِنَ الرسلِ، الذي كانَ النبيُّ كلَّما أُوذيَ قالَ: « رَحِمَ اللهُ مُوسَى، أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ »- آيةً باقيةً، فقضى اللهُ لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

آيةٌ حسيةٌ، وما أكثرَ آياتِ اللهِ المعنويةِ والحسيةِ: الشمسُ، القمرُ، الكونُ، آثارُ السابقينَ، لكنْ بَعْدَ ذلكَ يغفلُ كثيرٌ مِنَ الناسِ عَنْ طريقِ الرحمنِ وغَايَاتِه، يغويهم الشيطانُ. وقيلَ أيضاً إنَّ سببَ حفظِ نجاةِ فرعون هو أنَّ بني إسرائيلَ لَمْ يصدقوا أنَّ فرعون هَلَكَ فدعا موسى اللهَ أنْ يخرجَ جسدَهُ مِنَ البحرِ، لعلَّهُ ضعفُ الإيمانِ وطولُ الاستعبادِ طمسَ جُزءاً مِنَ الفطرِ البشريةِ التي فطرها اللهُ على الإسلامِ والتوحيدِ، فبعدَ كلِّ هذه الآياتِ البيناتِ والمعجزاتِ أولَ ما عبرَ بنو إسرائيلَ البحرَ..

فصل: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

[الأعراف: 138-141].

رأى قومٌ اتبعوا غاياتِ الشيطانِ وسبُلَهُ، اتخذوا آلهةً لا تضرُّ ولا تنفعُ، فبدلاً مِنْ أنْ ينكروا حالَهُمْ، طلبوا مِنْ موسى أنْ يجعلَ لَهُمْ أصناماً كأصنامِهِمْ، فأجابَهُمْ موسى: يا لَجَهْلِكُمْ! إنَّ هؤلاءِ يجبُ التبرُّؤُ مِنْ أفعالِهِمْ، وعبادةُ الأصنامِ فِعْلٌ باطلٌ لا يصحُّ. يا لَلْعَجَبِ! كيفَ أختارُ لَكُمْ إلهاً سوى اللهِ وهو اختارَكُمْ وزادَكُمْ تكريماً على كلِّ بني آدمَ وحباكُمْ بالرسلِ والكتبِ، ودفعَ عَنْكُمْ عذابَ فرعون العظيمَ الذي كانَ يقتلُ الأبناءَ ويستحيي النساءَ؟ وهذه نِعَمٌ عظيمةٌ مِنْ ربِّكُمْ تستحقُّ الشكرَ لا الكفرَ واتخاذَ آلهةٍ مِنْ دونِهِ.

وربما في القصةِ أيضاً عِبْرَةٌ أنْ يركزَ الداعيةُ على المهمةِ الموكلةِ لَهُ، فرغمَ أنَّ موسى مَرَّ بقومٍ كافرينَ فَلَمْ يُقِمْ مَعَهُمْ لدعوتِهِمْ؛ لأنَّهُ كُلِّفَ بمهمةٍ وهي هدايةُ بني إسرائيلَ وإخراجُهُمْ مِنْ عذابِ فرعون إلى أرضِ الميعادِ. لكنَّهُمْ -بنو إسرائيلَ- مَا عالجَ نبيٌّ أمةً أشدَّ جدالاً ونكوصاً مِنْهُمْ، فقد حكى اللهُ عَنْ حالِهِمْ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 155-158].

فصل: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. بداياتُ نقضِ المواثيقِ بدأتْ مِنْ طلبِهِمْ مِنْ موسى أنْ يجعلَ لَهُمْ إلهاً مِنْ دونِ اللهِ الذي نجاهم مِنْ فرعون، ثُمَّ نقضوا مِنْ بعدها عدداً كبيراً مِنَ المواثيقِ، وقتلوا بَعْدَ موسى عدداً مِنَ الأنبياءِ، وكفروا بعددٍ مِنْهُمْ كعيسى بنِ مريمَ الذي قالوا في أمّهِ قولاً عظيماً كما قالَ اللهُ حكياً عَنْهُمْ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 156].

ثُمَّ ادَّعوا أنَّهُمْ قتلوا المسيحَ ابنَها: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. لكنَّ اللهَ كَذَّبَ ادِّعاءَهُمْ، وحكى عَنْ رَفْعِ اللهِ لعيسى للسماواتِ العُلى. مَنْ هو عيسى الذي ضلَّتْ طائفةٌ مِنْ أتباعِهِ وقالوا إنَّهُ اللهُ وقالوا هو ابنُ اللهِ؟ تعالى اللهُ عما يقولون. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، فرعون ادعى أنَّهُ إلهٌ، وما مِنْ نبيٍّ ادعى الألوهيةَ، فكما قالَ اللهُ عَنْهُمْ:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

حتى إنَّ اللهَ يومَ القيامةِ يسألُ عيسى عَنِ ادِّعاءِ أتباعِهِ أنَّهُ وأمَّهُ إلهانِ إقامةً للحجةِ على أتباعِهِ:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 116-119].

نفى عيسى ذلكَ، قالَ مؤكداً: "ليسَ لي بحقٍّ أنْ أدَّعيَ الألوهيةَ، إنْ كنتُ قلتُ ذلكَ فقد علمتَهُ، أنتَ تعلمُ جميعَ الغيوبِ وتعلمُ ما في نفسي، إنما دعوتُهُمْ لمنهجِ الرحمنِ وغَايَاتِهِ".

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. الغَايَاتُ الرحمانيةُ عبادةُ اللهِ وحدَهُ ربِّ عيسى وربِّ الناسِ في ذاتِهِ الكريمِ، كُلُّهُمْ عبادٌ مكرَّمونَ. سبيلُ الشيطانِ تحقيرُ بني آدمَ سواءً عبدوا الأصنامَ أو عيسى بنَ مريمَ. "وكنتُ شاهداً على مَنْ آمنَ وكفرَ مِنْهُمْ حتى رفعتني إليكَ وبعدها كنتَ مراقباً أعمالَهُمْ وأفعالَهُمْ، وأنتَ الشهيدُ والمطلعُ على كلِّ الأمورِ في السمواتِ والأرضِ".

ثُمَّ التمس لَهُمُ المغفرةَ والعفوَ قائلاً: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. والتمس لَهُمُ العفوَ لأنَّ النصارى كما حكى اللهُ عَنْهُمْ في سورةِ الفاتحةِ هُمُ: ﴿الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]. فأغواهم الشيطانُ فضلُّوا في تصورِ الإلهِ الحقِّ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 2-3]. فنسبوا لَهُ الولدَ والصاحبةَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 43].

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. يومُ القيامةِ مَنْ صَدَقَ ينفعُهُ صِدقُهُ أشدَّ النفعِ فيسكنُهُ مع الإيمانِ باللهِ جناتِ الخلدِ. مع أنَّ الصدقَ ينفعُ في الحياةِ الدنيا لكنَّ نفعَهُ الأكبرَ والأعمَّ في الآخرةِ، والفوزُ يكونُ في الدنيا باتباعِ منهجِ اللهِ وغَايَتِهِ، لكنَّ الفوزَ الكبيرَ والعظيمَ في الآخرةِ فنعيمُها لا حدودَ لَهُ، لا يبلى مع الأيامِ والسنينِ:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 71].

فصل: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾

ادعى طوائفُ مِنَ النصارى الألوهيةَ لعيسى وادعى بعضُهُمْ أنَّهُ ابنُ اللهِ، وكلُّ ذلكَ ردَّ اللهُ عليهِ في القرآنِ، فكيفَ وُلِدَ عيسى ومَنْ هي أمُّهُ مريمُ الصديقةُ؟ أبوها عمرانُ وأمُّها مِنَ الأتقياءِ، وحينَ حَمَلَتْ أمُّها بمريمَ نذرتْ أنْ يكونَ مولودُها في خدمةِ اللهِ ويتفرغَ للعبادةِ فقط:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

وتأملْ قولَها: (مُحَرَّرًا)، فالحريةُ الحقيقيةُ الكاملةُ هي في توحيدِهِ وعبادتِهِ، وخدمةُ غيرِهِ وإنْ كانتْ بأجرٍ فلا يقارنُ بأجرِهِ وجزائِهِ سبحانَهُ في الدنيا قَبْلَ الآخرةِ. في قصةِ عيسى وأمِّهِ شاهدٌ على ذلكَ، لكنَّ المولودَ جاءَ أنثى فاعتذرتْ أجملَ اعتذارٍ:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36].

الأنثى أضعفُ مِنَ الذكرِ فلا تقوى على عبادتِكَ حَقَّ العبادةِ ولا بَشَرٌ يقوى على ذلكَ، ثُمَّ أعاذتْها هي وذريتَها مِنْ إغواءِ الشيطانِ، مِنْ أنْ تسلكَ طريقَ الضنكِ والمشقةِ والتعبِ، وتتركَ طريقَ الرحمنِ طريقَ التكريمِ والنعيمِ في الدنيا والآخرةِ. لكنَّهُ سبحانَهُ مَنْ اقتربَ العبدُ مِنْهُ شبراً إلا اقتربَ منهُ اللهُ ذراعاً، ولا ذراعاً إلا اقتربَ اللهُ مِنْهُ باعاً، ولا أتاهُ يمشي إلا أتاهُ هرولةً، فهو كما قالَ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3].

والأكرمُ هو الذي لا يوازيهِ كرمٌ ولا يعادلُ كرمَهُ نظيرٌ، هو سبحانَهُ الوهابُ الكثيرُ الهبةِ والعطايا، وهو المعطي وهو الرحمنُ الرحيمُ، أسماءٌ كلُّها تدلُّ على سعةِ فضلِهِ وعطائِهِ وثوابِهِ ورحمتِهِ، فيعطي الكثيرَ بلا حَدٍّ على القليلِ واليسيرِ مِنَ العملِ. فكيفَ كافأَ امرأةَ عمرانَ ومِنْ بعدها مريمَ على هذا النذرِ الذي ابتغتْ بِهِ وجهَ اللهِ الكريمِ؟ الإجابةُ هي قصةُ وآيةُ واحدٍ مِنْ أولي العزمِ والرُّسُلِ عيسى بنِ مريمَ؛ يعلمُ عَنْهُ الآنَ على وجهِ الأرضِ ما لا يقلُّ عَنْ أربعةِ مليارات يمثلونَ معظمَ البشريةِ على وجهِ الأرضِ، وصدقَ اللهُ حينَ قالَ:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 50].

وضعتْ أمُّ مريم مريمَ ثُمَّ اعتذرتْ عَنْها لأنَّها أنثى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. لكنَّ اللهَ:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

تقبَّلَ اللهُ مريمَ كعابدةٍ أحسنَ القبولِ، حتى إنَّ عبادَ بني إسرائيلَ الكبارَ كلٌّ مِنْهُمْ يتمنى أنْ يكفلَ مريمَ ويرعاها ويعلّمها لتكونَ مِنْ حسناتِهِ لما توسَّمَ فيها مِنَ الصلاحِ والخيرِ في كفالتِها قالَ اللهُ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44].

اختصموا في أمرِها لكنَّ اللهَ اختارَ لمريمَ خيرَهُمْ زكريا والدَ النبيِّ يحيى -عليه السلام- وزكريا رغمَ عبادته وفضلِهِ رأى الكراماتِ العُجابَ في مريمَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. يأتيها أفضلُ أنواعِ الرزقِ، والفواكهُ حتى في غيرِ أوانِها في مكانِها، قالَ زكريا مستغرباً: "أنى لكِ هذا؟" قالتْ مريمُ: رزقُ اللهِ لأوليائِهِ "إنَّ اللهَ يرزقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ". إنَّهُ طريقُ اللهِ ومنهجُ مَنْ اتبعَ فلا يضلُّ ولا يشقى.

فصل: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

◆

أما الشَّيْطَانُ فَـ ﴿ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾:

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: 268-269].

وهذهِ الحكمةُ أتاها عباداً لَهُ، وهي دعوةُ إبراهيمَ -عليهِ السلامُ- حينَ قالَ: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129]. فبعثَ اللهُ بِها محمداً ﷺ، فَعَلَّمَها وعاشَها الصحابةُ -رضوانُ اللهِ عليهِمْ- وغابتْ عَنَّا نحنُ المتأخرينَ، فَقَدْ قالَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 134].

الغَايَةُ مِنْ خَلْقِ البشرِ عبادتُهُ سبحانَهُ جلَّ وعلا، لكنْ هلِ اللهُ محتاجٌ لعبادتِنا وأعمالِنا؟ الإجابةُ القوليةُ عندَ الجميعِ: لا، لكنَّ أفعالَنا تدلُّ على غيرِ ذلكَ. وأحسبُ مِمَّا فاقمَ المشكلةَ ذهنياً وشعورياً لدينا هو خطابُ بعضِ الدعاةِ -مِنْ غيرِ قصدٍ- فقراءتُهُم الجزئيةُ لبعضِ النصوصِ تدعو لِفصامٍ نَكِدٍ بينَ الاستمتاعِ الحقيقيِّ بالشهواتِ وزينةِ الحياةِ كما أحلَّ اللهُ -وهو الاستمتاعُ الحقيقيُّ والنافعُ- أما غيرُهُ فما حَرَّمَهُ اللهُ إلا لأنَّهُ يجرُّ الإنسانَ للهلاكِ في الحياةِ الدنيا قَبْلَ الآخرةِ.

وما غُرَّ بِهِ الإنسانُ وخُدِعَ إلا مِمَّنْ تزينَ الشيطانُ لَهُ، والتزينُ يعني التجميلَ، وهذا حالُ الشيطانِ مع أبينا آدمَ -عليهِ السلامُ- فقالَ:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: 120].

فأوهمَ أنَّ النَّعيمَ يُنالُ بغيرِ طريقِ طاعةِ اللهِ، فكانتِ العاقبةُ:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: 36].

"مِمَّا كَانَا فِيهِ" مِنَ النَّعيمِ إلى التعبِ والمشقةِ والصراعِ في الحياةِ الدنيا. وتابَ اللهُ على أبينا آدمَ -عليهِ السلامُ-: ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: 122]. وكرَّمَهُ مرةً أخرى، فبيَّنَ لَهُ طريقَ السعادةِ في الحياةِ الدنيا:

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: 123-124].

فالحياةُ الدنيا فيها تعبٌ ومشقةٌ، ولكنَّ اللهَ بيَّنَ لنا الطريقَ الأقومَ لِننعمَ في الحياةِ الدنيا ونُفَكَّ مِنْ مشاقِّها، ولكنَّ حالَ الشيطانِ معنا كحالِهِ مع أبينا آدمَ -عليهِ السلامُ-: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: 120].

ولِتعلَمَ مرادَ اللهِ وغايَتَهُ، ومُرادَ الشيطانِ، وأيضاً لِتَرى الإعجازَ القرآنيَّ الذي قالَ اللهُ فيهِ:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: 37-39].

تأمَّلْ هذهِ الآياتِ مِنْ سورةِ طه التي ابتدأَها اللهُ بـ: ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه: 1-4].

الآياتُ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا * وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ *

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: 113-127].

فلا نَّعيمَ كاملاً في هذهِ الحياةِ الدنيا إلا باتباعِ منهجِ اللهِ، وما مِنْ حياةٍ ذمَّها اللهُ في كتابِهِ إلا لأنَّها تؤدّي إلى ضلالِ الإنسانِ وشقائِهِ، فعندما ذمَّ اللهُ حياةَ الكافرينَ إلا لأنَّها كما قالَ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ [محمد: 12]. فاللهُ لَمْ يحرمِ الطعامَ والشرابَ، فَقَدْ قالَ سبحانَهُ: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: 32].

فالحياةُ المنهيُّ عَنْها هي الحياةُ كحياةِ الأنعامِ التي لا يختارُها عاقلٌ بوعيٍ مِنْهُ، بل قرأتُ لستيفن كوفي (Stephen Covey) -وهو مِنْ أشهرِ المفكرينَ الغربيينَ في مجالِ القيادةِ، وصاحبُ الكتابِ الشهيرِ "العاداتُ السبعُ للناسِ الأكثرِ فعاليةً"- في سياقِ حديثِهِ عَنِ انحدارِ القيمِ نحو "الاعتماديةِ الكاملةِ" وضياعِ الهدفِ، فَقَدْ عَبَّرَ عَنْ هذهِ الفكرةِ في كتابِهِ "العادةُ الثامنةُ" (The 8th Habit) وفي محاضراتِهِ عندَ حديثِهِ عَنْ "عقليةِ الاستحقاقِ" (Entitlement Mentality):

"إنَّنا نربي جيلاً يركزُ على الرفاهيةِ والاستحقاقِ دونَ الجهدِ، حيثُ يصبحُ الفردُ مثل 'الحيوانِ الأليفِ المدللِ' الذي ينتظرُ أنْ يُطعمَ ويُرفَّه، فاقداً للبوصلةِ الأخلاقيةِ وللشعورِ بالمسؤوليةِ تجاهَ

الآخرينَ. إنَّ الغرقَ في الترفِ الماديِّ مع الفراغِ الروحيِّ يحولُ الإنسانَ إلى كائنٍ يعيشُ مِنْ أجلِ إشباعِ رغباتِهِ اللحظيةِ فقط، وهو ما أُسميهِ فَقْدانَ الصوتِ (Loss of Voice)".

وأعظمُ نَّعِيمٍ أتى بِهِ الإسلامُ هو نَّعِيمُ الروح، فَمِنْ دونِها حتى الملذاتُ الحسيةُ تصبحُ عذاباً، فانظرْ لِحالِ مَنْ سُلِبَ الصحةَ أو مَنْ هو في حالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ، هل يأكلُ ويشربُ باستمتاعٍ ولذةٍ؟

وقالَ في ذلكَ فيكتور فرانكل (Viktor Frankl) مؤسسُ العلاجِ بالمعنى، محذراً مِنَ "الفراغِ الوجوديِّ"، ويرى أنَّ توفَّرَ الإمكانياتِ الماديةِ والرفاهيةِ مع غيابِ "المعنى" يؤدِّي إلى المللِ القاتلِ، والملُ يدفعُ الإنسانَ نحو الإدمانِ، العنفِ، أو التبلدِ الشعوريِّ.

فصل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾

◆

فـ نَّعِيمُ الروح لا مُنغِّصَ للسعادةِ مَعَهُ، فحتى أشدُّ العذابِ لا يؤثرُ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ سيدنا بلالٍ كيفَ صَبَرْتَ على الأذى الشديدِ؟ قالَ: «مَزَجْتُ مَرَارَةَ الْعَذَابِ مَعَ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ فَقَاقَتْهُ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ». وما اختارَهُ بلالٌ وخَبَرَهُ هو حياةُ العبوديةِ للهِ لا لِسواهُ. وحتى السادةُ عَرَضَ عليهِمُ الإسلامُ السيادةَ بحقِّها، بصفاتٍ تؤهلُهُمْ لَها، لا استغلالَ المستضعفينَ والعَجَزَةِ، فكما قالَ محمدٌ ﷺ لسادةِ قريشٍ:

« يَا عَمِّ، إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَقُولُهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ » [الألباني].

وشتانَ بينَ الحياتينِ، فقائدٌ كعمرَ كيفَ عاشَ ونَعِمَ بالحياةِ، وسواهُ مِنَ المستبدينَ كيفَ كانتْ حياتُهُمْ. أما الترفُ الشديدُ مِنْ غيرِ هدفٍ يجعلُ الإنسانَ لا يشعرُ بما فيهِ مِنْ نَّعِيمٍ، بل يتحولُ نَّعِيمُهُ لعذابٍ، فانظرْ لِمَنْ أصابتْهُ السمنةُ الشديدةُ كيفَ حركتُهُ وقيامُهُ وهل يستطيعُ الجريَ وممارسةَ الرياضةِ والاستمتاعَ بالألعابِ الحركيةِ؟ بل لا بُدَّ مِنْ مشقةٍ لِتشعرَ بالـ نَّعِيمِ، فلولا الحرُّ لَمَا وجدتَ للتكييفِ والماءِ الباردِ طعماً مختلفاً، ولولا الامتحاناتُ لَمَا شعرتَ بلذةِ الإجازةِ، بل هي حياةٌ راتبةٌ على منوالٍ واحدٍ.

وعندما كانتْ ممارستي لبعضِ الأعمالِ الشاقةِ أتاني شعورٌ بالحياةِ وبالدمِ يجري في عروقي، وأسوأُ ما في النَّعِيمِ اعتيادُهُ دوماً، فهذا ما يستعبدُ الإنسانَ فيستغني عَنْ حريتِهِ وبِها متعتُهُ الحقيقيةُ خوفاً مِنْ خسارةِ ما فيهِ، فانظرْ لِمَنْ تحمَّلَ إهانةَ مديرِهِ مع ما في تحمُّلِها مِنْ أذىً نفسيٍّ جسيمٍ، وهذا لا يُقدَّرُ بأذىً، فكلمةٌ جارحةٌ أمامَ الجمعِ أشدُّ مِنْ مئةِ ضربةٍ في الخفاءِ. ولذلكَ للمجتمعِ والعاداتِ سلطانٌ كبيرٌ على أفعالِنا، وهذا مِمَّا جاءَ الإسلامُ بتغييرِهِ، فكَمْ مِنْ شابٍّ

تأخرَ زواجُهُ بسببِ عاداتٍ ما أنزلَ اللهُ بِها مِنْ سلطانٍ، وشابةٍ كُتِبَ عليها أنْ تقاسيَ الوحدةَ بسببِ أغلالٍ فرضَها المجتمعُ. ومجابهةُ هذا -وهو ما دعا الإسلامُ لَهُ- أيسرُ مِنْ عواقبِ الحياةِ وفقَ هذهِ الأغلالِ، فالشرطُ الوحيدُ الذي اشترطَهُ الإسلامُ الدينُ والخُلُقُ وهو ما يحققُ سعادةَ الزوجينِ، وما سواهُ مِنْ عاداتٍ محدثةٍ لا دَخْلَ لَها وإنْ رآها المجتمعُ ضروريةً كالشَّبكةِ والشنطةِ والحفلةِ وغيرها.

فتخيلوا حالَ مجتمعٍ يُتزوَّجُ فيهِ بالمهرِ -وقد دعا الإسلامُ لتقليلِهِ- والوليمةِ وهي سُنَّةٌ يُثابُ فاعِلُها ولا يأثمُ تاركُها، وكَمْ تركنا مِنَ السُّننِ. وقد نحقرُ هذا الموضوعَ لكنَّهُ منظورٌ متكاملٌ قد يحلُّ معظمَ قضايانا، فالإسلامُ لَمَّا دعانا لذلكَ أرادَ لنا حياةً أهدافُها ساميةٌ مفعمةٌ بالشعورِ الحقيقيِّ، فبدلَ المباهاةِ -وهي لا تحركُ شعوراً بل تولدُ التعاسةَ- أرادَ لنا حياةً نشعرُ فيها بغيرِنا، وإنْ أردنا الفخرَ فَنَفْخَرُ بأفعالٍ إنسانيةٍ عادتْ للبشريةِ بالنفعِ العميمِ لا التعالي الأجوفِ.

أما كيفَ يحلُّ ذلكَ معظمَ مشاكلِنا، فكَمْ في مجتمعاتِنا نشكو مِنَ الفقرِ والحاجةِ للإنفاقِ في توفيرِ الضروريات ونتقاتلُ بزعمِ استئثارِ بعضِنا بمواردِ البلادِ، فلو أنَّ ما أُنفِقَ على المباهاةِ سدَّ ضروريات المجتمعِ لَمَا بقيتْ حاجةٌ تدعو للحربِ أو النهبِ، أو أنْ لا يأمنَ الأغنياءُ. ونبكي على مجاعةٍ أصابتْ إخوانَنا المسلمينَ، ولو أنفقنا ربما عُشْرَ ما نُنفِقُهُ مباهاةً في الأعراسِ لَمَا احتاجوا ربما حتى المماتِ لِمَدَدٍ أو عونٍ مِنْ جهةٍ أخرى، واحسبْ فقط ما ينفقُهُ مليون خليجيٍّ في أعراسِهِ، فكسرُ هذهِ العادةِ قد يبعثُ في مجتمعاتِنا روحاً جديدةً.

فمشكلةُ شقائِنا نحنُ المسلمينَ اليومَ -كما حدَّدَ الإسلامُ مِنْ قَبْلُ- خللٌ في تصوُّرِ أنَّ النَّعيمَ في الدنيا يكونُ بغيرِ هُدىً مِنَ اللهِ. ولا ننسى شقاءَ جَمْعِ هذهِ الأموالِ في سنينَ لِتصبحَ هباءً منثوراً في ليالٍ معدوداتٍ تُنسى مع أولِ عرسٍ لِمُضَيِّعِ أموالٍ جديدٍ، بل قد يكونُ عليكَ شقاءُ سدادِها حتى بقيةِ عُمرِكَ، وأعرفُ مَنْ عليهِ مائتا ألفِ دولارٍ قرضُ زواجٍ وكانَ يبحثُ عَنْ

قرضٍ آخرَ أكثرَ مِنْ ذلكَ، والظاهرةُ عامةٌ جداً في الخليجِ حتى إنَّ الجمعياتِ تسعى لمحاربتِها بندواتٍ ومحاضراتٍ، وقيلَ تندُّراً: ابحثْ إنْ وجدتَ خليجياً ليسَ عليهِ مليونُ قرضٍ (تقاربُ 30 ألفَ دولارٍ)، وحالُنا ليسَ بأحسنَ مِنْهُ، فقط نحنُ ليسَ لنا القدرةُ على حيازةِ هذهِ الأموالِ لتبديدِها.

وخُذْها عامةً في كلِّ ما أَمَرَ ونَهى اللهُ عَنْهُ، فإنْ تأملتَ مآلَهُ والصورةَ العامةَ لَهُ وارتباطاتِهِ تجدُهُ كما قالَ سبحانَهُ: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: 6]. ومِنْ سننِ اللهِ في الحياةِ الدنيا أنَّ النَّعيمَ فيها لا يُنالُ إلا بتعبٍ قليلٍ أو كثيرٍ بحسبِ ما تصبو إليهِ، فَمَنْ لَمْ يتحمَّلْ مشقةَ التغييرِ تحمَّلَ تبعاتِ الوضعِ السيئِ الذي فيهِ سنينَ عدداً، بدلَ مشقةِ فترةٍ محدودةٍ. وأمثلةُ ذلكَ كثيرةٌ جداً، فَمَنْ لَمْ يتحمَّلْ ذلَّ العلمِ ساعةً تحمَّلَ مشقةَ الجهلِ بقيةَ العُمرِ، وقالَ قائلٌ: تظنُّ التعليمَ مكلفاً فما عليكَ إلا أنْ تجربَ الجهلَ. وتخيلْ لو أنَّ اللهَ خيَّرَنا في أنْ نختارَ بينَ ألمِ نموِّ الأسنانِ أو نتركَهُ فنعيشَ بلا أسنانٍ، واختارَ بعضُنا تركَ الألمِ والعيشَ مِنْ غيرِ أسنانٍ، كيفَ سيكونُ حالُهُمْ؟ ومقدارُ المتعةِ التي فقدوها؟ أليسَ هو حالَ الذينَ بلغوا أرذلَ العُمرِ؟ فلا للطعامِ طعمٌ ولا للكلامِ معنىً.

وألمُ المَخاضِ مؤذنٌ بمولودٍ جديدٍ، ولولا ألمُ الفراقِ لَمَا عرفنا حرارةَ اللقاءِ. فأرادَ لِعبادِهِ أنْ يتعلموا تحمُّلَ المشقةِ القليلةِ في سبيلِ النَّعيمِ الطويلِ، ففرضَ رمضانَ، ولكنْ تعاملُنا نحنُ مع رمضانَ كحملٍ ثقيلٍ علينا نتخلصُ مِنْهُ ونهربُ مِنْ مشقتِهِ بالنومِ الطويلِ والأكلِ الكثيرِ جداً ليلاً، وانعكسَ ذلكَ على حياتِنا، فبدلَ تحمُّلِ مشاقِّ التغييرِ للأحسنِ نعيشُ كلَّ يومٍ مشاقَّ أوضاعِنا السيئةِ وتزيدُنا الشكوى ألماً نفسياً على آلامِنا. لعلنا نسعى في رمضانَ هذا أنْ يكونَ موقظاً لنا، فنغيرَ مِنْ عاداتِنا وخوفِنا غيرِ المبررِ ونواجهَ مشاقَّ التغييرِ لِتُرفعَ كفاءتُنا ولِننعمَ بنعيمِ التغييرِ، فَمَنْ لَمْ يتحمَّلْ مشقةَ الحركةِ لَنْ يصلَ إلى ما يريدُ.

فصل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

◆

والصيامُ ركنٌ أساسيٌّ في منهجِ اللهِ، كَتَبَهُ اللهُ علينا وعلى الأممِ مِنْ قَبْلِنا، فقالَ الرحمنُ الرحيمُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: 183].

غَايَةُ الصيامِ هي التقوى، فهل حققناها؟ وما هي التقوى؟ ولماذا أرادَ اللهُ لنا أنْ نكونَ مِنَ المتقينَ؟ فتقوانا وعبادتُنا لا تنفعُ اللهَ بشيءٍ، فسبحانَهُ هو الغنيُّ، يقولُ: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6].

ويقولُ النَّبيُّ ﷺ في الحديثِ القدسيِّ روايةً عَنْ ربِّهِ:

« يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا » [مسلم].

وفي الحديثِ دليلٌ صريحٌ أنَّ تقوانا لا تنفعُ اللهَ بشيءٍ، وإنما أرادَ اللهُ لنا أنْ نجنيَ ثماراً مِنْ تقوانا لَهُ نَنْعَمُ بِها في الدنيا قَبْلَ الآخرةِ. والتقوى هي: "الخوفُ مِنَ الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والاستعدادُ ليومِ الرحيلِ". فما هي ثمارُها في حياتِنا؟

مِنْ ثمارِ التقوى "حلاوةُ الإيمانِ"، وهي منتهى وأعلى النَّعيمِ واللذةِ في هذهِ الحياةِ الدنيا. وهذهِ الحَلَاوَةُ لو ذاقَها الفاجرُ فَلَنْ يعودَ لِفجورِهِ ولو جُلِدَ بالسياطِ، وهي ما عناها قيصرُ حينَ سألَ أبا سفيانَ -قَبْلَ إسلامِهِ- عَنْ حالِ أصحابِ محمدٍ ﷺ فقالَ:

« فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ » [متفق عليه].

وهي التي قصدَها النبيُّ ﷺ بقولِهِ:

« ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا » [مسلم].

وهذا ليسَ كرضانا نحنُ مَنْ نُقدّمُ أهواءَنا على أمرِ اللهِ ورسولِهِ. وهي التي ذاقَها أحدُ التابعينَ فقالَ: "واللهِ لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيهِ مِنَ النَّعيمِ لَجالدونا عليهِ بالسيوفِ" -أي قتلونا-، وهي مَنْ أنطقتْ أحدَهُمْ فقالَ: "إنَّهُ ليمرُّ بالقلبِ أوقاتٌ أقولُ: إنْ كانَ أهلُ الجنةِ في مِثْلِ هذا إنَّهُمْ لفي عيشٍ طيبٍ".

وقالَ بعضُ المحبينَ: "مساكينُ أهلِ الدنيا، خرجوا مِنَ الدنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها"، قالوا: وما أطيبُ ما فيها؟ قالَ: "محبةُ اللهِ، والأنسُ بِهِ، والشوقُ إلى لقائِهِ، والإقبالُ عليهِ، والإعراضُ عما سواهُ. فإنَّهُ لا حياةَ أطيبُ مِنْ حياةِ صاحبِها، ولا نَّعيمَ فوقَ نَعيمِهِ إلا نَّعيمُ الجنةِ". فأرادَ اللهُ أنْ لا نُحرمَ هذا النَّعيمَ.

فحريٌّ بنا نحنُ المسلمونَ المتأخرونَ مِمَّنْ نشأنا في أُسَرِ المعصيةِ والوحشةِ مِنَ الطاعةِ -بل تركِها كليةً- أنْ نعضَّ على رمضانَ بالنواجذِ ونفرحَ لقدومِهِ، ففيهِ هيأَ اللهُ لنا السبلَ بأنْ صَفَّدَ الشيطانَ عدوَّ الإنسانِ مِنْ لدنْ سيدنا آدمَ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، تصدُّكَ عَنْ منهجِ اللهِ وغَايَتِهِ الرحمانيةِ: إخراجُكَ مِنْ ضنكِ الدنيا إلى سعةِ الدنيا والآخرةِ. وفُتحتْ فيهِ أبوابُ الجنةِ لعلَّ ذلكَ لِأنْ يصلَ رَوْحُها القلوبَ فتنعمَ وتعلمَ لذةَ الطاعةِ ونَعيمَها الذي لا يضاهيهِ لذةٌ في هذهِ الحياةِ، ولكنْ منعنا مِنْ ذلكَ كثرةُ حُجبِ المعصيةِ في القلوبِ وغفلتُنا عَنِ اللهِ حتى في رمضانَ.

فالسؤالُ: هل وجدنا الثمرةَ ولماذا؟ وهل سنحققُها في رمضانَ القادمِ؟ وقَدْ تعاقبَ علينا رمضانُ أزمنةً كثيرةً لَمْ يغيّرْ فينا شيئاً! ولذةُ الإيمانِ إنْ نِيلَتْ بَعْدَ جُهدِ سنواتٍ فَقَدْ فُزتَ فوزاً عظيماً لا يقارنُ بشيءٍ مِنْ مُتعِ الدنيا. وإنْ أردتَ أنْ تعلمَ حالَها ومقدارَها فانظرْ لِحالِ مَنْ وهبَهُ اللهُ توبةً عَنِ المعاصي والفجورِ في رمضانَ، كيفَ انقلبَ حالُهُ لِأنسٍ وإقبالٍ شديدٍ على الطاعاتِ؟ ماذا تحسبُهُ وجدَ فيها حتى تغيَّرَ كليةً؟

وانظرْ أيضاً حالَ مَنْ أسلمَ مِنَ الكفارِ، كيفَ تمسُّكُهُ بالطاعاتِ وهجرتُهُ مِنْ بلادٍ حيثُ الشهواتُ والملذاتُ ورغدُ العيشِ لِبلادِنا حيثُ الجهدُ والكدُّ للبقاءِ حياً، ونحنُ مَنْ نُفني الأعمارَ والأموالَ طلباً للهجرةِ لِبلادِهِمْ! أتحسبُهُ وجدَ فرصةَ عَمَلٍ جيدةً عندنا؟ أم هواءً معتدلاً؟ أم أنَّهُ وجدَ ما لا يساوي جميعَ ملذاتِ وشهواتِ بلادِهِ؟ إنَّها حلاوةُ الإيمانِ.

فكيفَ المسيرُ إليها؟ ومِمَّا يحجبُها عَنَّا حالُنا بَعْدَ رمضانَ، فالكثيرونَ عزموا على رمضانَ: "ولى هاتها يا ساقي.. مشتاقةً تسعى إلى مشتاقِ"، مِنَ الرجوعِ لِمَا كانوا عليهِ مِنْ هجرِ الطاعاتِ وفعلِ المعاصي والمنكراتِ! وعلينا أنْ نعلمَ:

أولاً: أنَّ للمعصيةِ عذاباً، وسَلْ مَنْ عاقَرَها وتلذَّذَ بالشهواتِ المحرمةِ، هل وجدَ ما يبحثُ عَنْهُ مِنْ سعادةٍ وسكينةٍ؟ ولا تنظرْ لهذهِ المظاهرِ الاجتماعيةِ الجوفاءِ مِنْ تظاهرٍ بالقوةِ والسعادةِ وعدمِ اعترافٍ بالضعفِ والتعاسةِ، "والطيرُ يرقصُ مذبوحاً مِنَ الألمِ"، أو رمي الظروفِ الخارجيةِ بالذنبِ. ولِمَ المسكراتُ والمخدراتُ والمكيفاتُ إنْ كانَ سعيداً؟ وهذا مِنْ رحمةِ اللهِ بنا لِنعودَ إليهِ فَنَنْعَمَ في الدارينِ.

ثانياً: كما أنَّ طاعتَنا لا تنفعُ اللهَ بشيءٍ فكذلكَ معصيتُنا لا تضرُّهُ بشيءٍ، فيقولُ الغنيُّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

ويقولُ الرسولُ الكريمُ ﷺ:

« يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا » [مسلم].

وما يفعلُ اللهُ بطاعتِنا ذاتِ الدقائقِ المعدوداتِ والقلوبِ الساهياتِ عَنْ جلالِهِ وعظمتِهِ، وعندَهُ الملائكةُ المكرمونَ مَنْ قالَ سبحانَهُ فيهِمْ: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: 38].

وصفَهُمُ النبيُّ ﷺ فقالَ:

« أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ » [الألباني].

وفيها "البيتُ المعمورُ" يحجُّهُ سبعون ألفَ مَلَكٍ يومياً لا يعودونَ إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، ثم يقولونَ: سبحانَكَ ما عبدناك حَقَّ عبادتِكَ.

ثالثاً: رمضانُ جُعِلَ فرصةً لتقليلِ مداخلِ الشيطانِ: "الشهواتُ". فعلمَ إبليسُ مِنَ البدايةِ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ "أجوفَ"، فالإكثارُ مِنَ الشهواتِ حتى المباحِ في ليلِ رمضانَ أحسبُهُ يثقلُ الروحَ ويزيدُ حُجبَ النَّفْسِ، ويغدو بِهِ الإنسانُ ضعيفاً بدلَ أنْ يتقوى برمضانَ ولياليهِ لمجابهةِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ.

رابعاً: لَنْ يجعلَ اللهُ حالَ مَنْ أساءَ بَعْدَ رمضانَ كحالِ مَنْ أحسنَ بَعْدَهُ في شهرِهِ الكريمِ القادمِ، فهو يقولُ:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21].

فواظِبْ على الطاعاتِ بَعْدَ رمضانَ واجتنبِ المعاصي والمنكراتِ وتُبْ إنْ عصيتَ وجاهدْ نَفْسَكَ في ذلكَ، فاللهُ يقولُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

وإنْ هُديتِ النَّفْسُ وزالتْ حُجبُها وذاقتْ حلاوةَ الطاعةِ ونَعيمَها فسينقلبُ حالُكَ، وتنسكبُ نَفْسُكَ أنساً باللهِ وطاعتِهِ:

فَدَعْها فشوقُها قد ساقَها ... يا حبَّذا الوادي الذي قد شاقَها

الباب التاسع

﴿ الآياتُ والذِّكْرُ الحكيمُ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾

◆

فَمريمُ فِي محْرَابِ اللهِ تَنْعَمُ بِعبادةِ اللهِ ونَعِيمِهَا الرُّوحيّ، وأيضاً كُلَّما دَخَلَ زكريا عَليهَا وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً. هُنَا تَمَنَّى زكريا وَلَداً يَهَبُهُ ويَنْذرُهُ لِعبادةِ اللهِ لَمَّا رَأَى مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ عِمرانَ وامرأتَهُ وبِنْتَهُم مريمَ مِنَ الفَضْلِ والكَرامةِ، فَدَعَا رَبَّهُ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38].

"لَدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ"، طَلَبَ هُنَا زَكَرِيَّا "ذُرِّيَّةً" بِمَعْنَى "خَلِيفَةٍ يَتَبَنَّاهُ" أَوْ "خَلَفٍ رُوحِيٍّ" (يَكْفُلُهُ مِثْلَمَا فَعَلَ مَعَ مَرْيَمَ)، وَلِقَوْلِي هَذَا أَدِلَّةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ سَأُفَصِّلُ فِيهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَهَذَا يُبَيِّنُ لِمَاذَا تَعَجَّبَ زَكَرِيَّا حِينَ بَشَّرَهُ اللَّهُ بِالْوَلَدِ مِنْ صُلْبِهِ.

فَلَمْ يَتأَخَّرِ اللهُ السَّميعُ العَليمُ فِي إجابةِ دَعْوةِ زكريا، فالأكرمُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ الَّذي لَا يُخَيِّبُ مَنْ عَبَدَهُ أَبداً ذَكَرَ آلَ زكريا وَفَضْلَهُم قَائلاً:

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 89-90].

فآلُ زكريا يَتسابَقونَ لِفِعْلِ الخيراتِ ويَدْعونَ اللهَ رَغْبةً فِي الثَّوابِ والآخِرةِ ورَهْبةً مِنَ النَّارِ. وحتَّى هَذا الدُّعاءُ كَانَ رَغْبةً فِي الثَّوابِ والفَضْلِ لَمَّا رَأَى مَا أَكْرَمَ اللهُ بِهِ مريمَ بِنْتَ عِمرانَ الَّتي نَذَرها أَهْلُها لِعِبادةِ وخِدْمةِ الرَّحمنِ.

وَزكريا قَبْلَها دعَا اللهَ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُ مَوْلًى يَرِثُ النُّبُوَّةَ والكِتَابَ، فَقَدْ نَظَرَ فِي أَقْرِبائِه فَلَمْ يَجِدْ أَحداً مِنَ الذُّكُورِ أَهْلاً لِذَلِكَ، وخَشِيَ أَنْ يُتْرَكَ أَمْرُ بَنِي إِسْرائيلَ فِي الدِّينِ لِمَنْ لَا يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ، فَجَمَعَ اللهُ لَهُ الاثْنَيْنِ؛ أَنْ رَزَقَهُ الوَلَدَ من صلبه وَجَعَلَ ابْنَهُ يَحيى بْنَ زكريا نَبِيّاً وسَيِّداً عَلَى بَنِي إسرائيلَ:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 2-11].

هُنَا ذَكَرَ زكريا حَالَهُ بِأَنَّهُ عَجوزٌ وامرأتُهُ عَاقِرٌ، لَكِنْ ذَكَّرَهُ اللهُ بِأَنَّهُ عليه هَيِّنٌ وقَدْ خَلَقَ أَبَاكَ آدَمَ مِنْ لَا شَيءٍ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:

9]. فَأَرادَ أَنْ يَجْعلَ اللهُ لَهُ آيَةً (علامةً) يَعْلَمُ بنُو إسرائيلَ بِها أَنَّ مُعْجزةً سَتَتَحَقَّقُ عَلَى يَدَيْهِ، فَأَمَرَهُ اللهُ: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

ثُمَّ خَرَجَ عَلَى بَنِي إسرائيلَ مُبَشِّراً بِاختِصاصٍ وفَضْلٍ لَهُم جَديدٍ مِنَ اللهِ؛ نَبِيٌّ آخَرُ يُبْعَثُ فِيهِم. فَاللهُ جَعَلَ أَكْثَرَ رُسُلِهِ فِي بَنِي إسرائيلَ مِنْ مُوسى عَليهِ السَّلامُ إِلى يَحيى ومِنْ بَعْدِهِ عِيسى بْنِ مريمَ عَليهِ السَّلامُ لِيَدُلَّهُم عَلَى غَايَاتِ الرَّحمنِ ومَنْهَجِهِ فَلا يَشْقَوْنَ وَلا يَضِلُّونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا والآخِرةِ. فَأَمَرَهُم كَمَا أَوْحَى لَهُ اللهُ أَنْ يَقْبَلوا هَذِهِ النِّعمةَ بِالتَّسبيحِ فِي الصَّباحِ والمَساءِ، وَهِيَ مَا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّداً يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 1-3].

ومَا تَعَجَّبَ بِهِ زكريا هوَ مَا تَعَجَّبَتْ مِنْهُ امْرأَةُ إبراهيمَ عَليهِ السَّلامُ (سَارَةُ) وكَانَتْ عَاقِراً لَا تَلِدُ:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: 72-73].

ومَنْ وَلَدَتْهُ هُوَ إِسْحاقُ وَالِدُ يَعْقُوبَ وَالِدُ يُوسُفَ، وَهُوَ أَوَّلُ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللهُ لِبَنِي إسرائيلَ. تَبَوَّأَ بَنُو إسرائيلَ مِصْرَ إِلى أَنْ جَارَ عَلَيْهِم فِرْعَوْنُ واسْتَعْبَدَهُم. ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ لِيَجْعَلَ اللهُ بِذَلِكَ يَحيى ابْنَ زكريا مِنْ أَنْبِياءِ بَنِي إسرائيلَ مِنْ صُلْبِ إبراهيمَ عَليهِ السَّلامُ. وإبراهيمُ دَعَا:

﴿* وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124].

فَجَعَلَهُ اللهُ مِنْ ذُرِيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وأُمَّةً فِي الدُّنيَا، واسْتَثْنَى اللهُ مِنْ ذُرِيَّتِهِ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ. ومَنْ اخْتَارَهُ مِنْ نَسْلِ إبراهيمَ شُعَيْبٌ عَلَيهِ السَّلامُ، وخَتَمَ اللهُ الرِّسالةَ بِخَاتِمِ الأَنْبِياءِ مِنْ ذُرِيَّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ. أَمَّا نَسْلُ إبراهيمَ مِنْ ابْنِهِ إِسْحاقَ: فَيَعْقُوبُ، يُوسُفُ، أَيُّوبُ، مُوسى وأَخُوه هارونُ، إِلْياسُ، اليَسَعُ، دَاوُدُ، سُلَيمانُ، زكريا وابْنُهُ يَحيى عَلَيْهِما وعَلَى جَمِيعِ الأَنْبِياءِ أَفْضَلُ صَلاةٍ وسَلامٍ، ثُمَّ خَتَمَ هَذا الفَرْعَ بِعِيسى ابْنِ مريمَ.

وَتَقَدَّسَ جَلَّ مَنْ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. تَعَجَّبَ زكريا ومِنْ قَبْلِهِ جَدَّتُهُ سَارَةُ العَاقِرةُ، لَكِنَّ اللهَ أَمْضَى أَمْرَهُ وحَمَلَتْ امْرأَةُ زكريا بِيَحيى عَلَيهِ السَّلامُ. وكَانَ يَحيى كَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُ:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 39].

فَالسِّيادةُ والنُّبُوَّةُ والصَّلاحُ كُلُّها أَوْصافُ مَدْحٍ. فَقَدْ حَصَرَ نَفْسَهُ عَنِ النِّساءِ لِيَتَفَرَّغَ لِعِبادةِ اللهِ، وهَبَ سَائِرَ يَوْمِهِ ولَيْلِهِ لِلعِبادةِ والدَّعوةِ والتَّبَتُّلِ. فَلَا نَنْسَى أَنَّ قَدْ طَلَبَها زكريا لِيكونَ مِثْلَ مريمَ؛ كُلُّ وَقْتِهِ كَوَقْتِها عِبادةٌ وتَبَتُّلٌ. ومِنْها قَدْ يُفْهَمُ لِمَاذَا مَنْ فَسَّرَ (الحَصُورَ) بِالامْتِناعِ عَنِ النِّساءِ، فَتَرْكُهُنَّ هُنَا لَا عَنْ عَجْزٍ وإِنَّمَا تَفرُّغاً لِعِبادةِ اللهِ كَمَا فَعَلَتْ مريمُ. واللهُ يُحَذِّرُ المُؤْمِنينَ مِنْ أَنْ تَشْغَلَهُم أَوْلادُهُم ونِساؤُهُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ فَيَقُولُ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

وَهِيَ الدَّرَجةُ الَّتِي سَأَلَ الصَّحابةُ رِضْوانُ اللهِ تَعالى عَنْهَا:

« يَا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأْيَ الْعَيْنِ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ » [مسلم].

حَتَّى أَنَّ بَعْضَ الصَّحابةِ طَلَبَ ذَلِكَ غُلُوّاً حِينَ سَمِعوا عَنْ عِبادةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسَلَّمَ فَكَأَنَّهُم اسْتَقَلُّوها، فَقَالَ أَحَدُهُم: "فَأَمَّا أَنَا فَأَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ"، وقَالَ آخَرُ: "أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَا أَنَامُ"، وأَمَّا الآخَرُ فَقَالَ: "أَمَّا أَنَا فَلَا أَقْرَبُ النِّساءَ"[البخاري] . فَيحيى إِنْ كَانَ لَا يَقْرَبُ النِّساءَ فَإِنَّما ذَلِكَ تَفَرُّغاً وتَخَفُّفاً مِنَ الشَّهَواتِ المُباحةِ لِعبادةِ رَبِّهِ الكَرِيمِ.

وَفِي الثَّلاثةِ هَؤلاءِ قَالَ النَّبِيُّ -الَّذي بُعِثَ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحةِ-: « فَأَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَقْرَبُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[البخاري]. فَهو مَنْ بُعِثَ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحةِ لِيُخَفِّفَ عَنِ النَّصارَى أَتْباعِ عِيسى واليَهودِ أَتْباعِ مُوسى، فاتِّباعُ الغَايَاتِ الرَّحْمانِيَّةِ مِنْهُم بَعْدَ بَعْثَةِ خَاتِمِ الأَنْبِياءِ والمُرْسَلينَ هُم:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

ومِنْ تِلْكَ الأَغْلالِ تَحْرِيمُ أَكْلِ الغَنَائِمِ، فَكانَ فِيمَا مَضَى تُجْمَعُ الغَنَائِمُ وتَأْتِي نَارٌ مِنَ السَّماءِ فَتَأْكُلُها. وَصَفَ اللهُ يَحيى أَيْضاً قَائِلاً:

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 12-15].

أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُطَبِّقَ مَنْهَجَ اللهِ وَلَا يَتَهَاوَنَ فِيهِ، وآتَاهُ اللهُ مَلَكَةَ النُّفُوذِ إِلَى بَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَإِدْرَاكِ غَايَاتِهَا، وَهُوَ لَا يَزَالُ غَضَّ الْإِهَابِ؛ فَسَبَقَتْ حِكْمَتُهُ سِنِيَّ عُمْرِهِ، وَصَارَ تَصَرُّفُهُ مِيزَانًا لِلْحَقِّ، مُطَابِقًا لِلْفِطْرَةِ وَالْوَحْيِ. لَقَدْ طَوَى اللهُ لَهُ مَسَافَاتِ الزَّمَانِ الَّتِي يَقْطَعُهَا الْبَشَرُ كَدْحًا لِسَبْرِ أَغْوَارِ الْحَيَاةِ، فَاسْتَحَقَّ مَقَامَ السِّيَادَةِ بِإِحْكَامِ تَصَوُّرَاتِهِ وَانْضِبَاطِ أَفْعَالِهِ.

وكلُّ ذلك ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ﴾، رحمةً بزكريا وتفضُّلاً عليه وعلى بَنِي إسرائيلَ؛ فزكريا خَشِيَ تركَ ميراثِ الحِكمةِ والنُّبوةِ في مَنْ يتهاونُ فيها فيضيعُ أمرُ بَنِي إسرائيلَ، ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾، جَعَلَهُ اللهُ رَحيماً ذِي خُلُقٍ وذِي تَقْوى. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، البِرُّ بِالوالِدَيْنِ مِنْ أَعْظَمِ صِفاتِ الصَّالِحِينَ. وَفِي القُرآنِ كَثِيراً مَا اقْتَرَنَ حَقُّ اللهِ تَعَالى وتَوْحِيدُهُ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ، ومِنَ الموبِقاتِ والمُهْلِكاتِ فِي الدُّنيَا والآخِرةِ عُقوقُ الوالِدَيْنِ. ولِذَلِكَ أَوْصَى لقمانُ ابْنَهُ وهُو يَعِظُهُ بِبِرِّ الوالِدَيْنِ. لَكِنْ لِنَرَى هَذا الأُسلوبَ البَلِيغَ والفَصيحَ والَّذي لَا

يُدانِيهِ بَشَرٌ مَهْما آتَاهُ اللهُ مِنَ البَلاغةِ والفَصاحةِ، لِنَرَى كَيْفَ يُؤَكِّدُ اللهُ حَقَّ الوالِدَيْنِ ووجوبَ الإِحْسانِ لَهُمَا فِي قِصَّةِ لقمانَ. فَلْنَتَأَمَّلْ وَصايا لقمانَ لِابْنِهِ كَمَا ذَكَرَها اللهُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ.

فصل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾

◆

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 12-19].

آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269]. ومِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ الحِكْمَةِ أَنْ يَعْلَمَ الإِنْسَانُ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ ويَجْتَنِبَ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، لِذَلِكَ اتَّبَعَ لقمانُ نَصَائِحَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

فاتّباعُ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ هوَ شُكْرُ اللهِ لِاخْتِيَارِ الإِنْسَانِ وتَكْرِيمِهِ عَلَى عَدُوِّهِ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ تَبَيُّنِ مَنْهَجِ اللهِ الَّذي بِهِ تَطِيبُ الحَيَاةُ الدُّنيَا، ويَعُودُ بِهِ الإِنْسَانُ إِلى النَّعِيمِ المُقِيمِ. أَمَّا مَنْ أَبَى هَذَا واتَّبَعَ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فَاللهُ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادَتِنَا، لَا تَنْفَعُهُ أَوْ تَزِيدُ فِي مُلْكِهِ، لَكِنْ أَرَادَ لَنَا السَّعَادَةَ بِاتِّبَاعِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وأَعْلَمَنَا عَدَاوَةَ إِبليسَ مَنْ يُرِيدُ لَنَا الشَّقَاءَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14]. ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ وَصِيَّتَهُ بِالوَالِدَيْنِ جَمِيعاً وذَكَّرَ بِمَا تَتَحَمَّلُهُ الأُمُّ فِي سَبِيلِ حَمْلِ الطِّفْلِ ورِعَايَتِهِ إِلى أَنْ يَشْتَدَّ عُودُهُ، ويُشَارِكُهَا الأَبُ الرِّعَايَةَ أَيْضاً. وأَمَرَ الإِنْسَانَ أَنْ يَشْكُرَ لِوَالِدَيْهِ ولَهُ أَنْ أَلْهَمَهُمَا حُبَّ الطِّفْلِ ورَغْبَةَ تَحَمُّلِ المَشَاقِّ فِي رِعَايَتِهِ، وذَكَّرَهُم بِيَوْمِ القِيَامَةِ فَسَيُحَاسَبُ الإِنْسَانُ إِنْ قَصَّرَ فِي ذَلِكَ.

لَكِنَّ بَعْضَ الوَالِدَيْنِ والعَائِلَةِ نَبَّهَ اللهُ أَنَّهُم اتَّبَعُوا: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: 208]، فَصَارُوا مِثْلَهُ كَمَا قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: 14].

بَلْ بَعْضُ الآبَاءِ صَدَقَ فِيهِ قَوْلُ اللهِ:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: 64].

فَهَبُوا أَوْلَادَهُم وأَمْوَالَهُم فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ مُقَابِلَ وُعُودٍ يُبَيِّنُ اللهُ خَوَاءَهَا، ومَا عَلِمَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُم يُسَاعِدُونَ الشَّيْطَانَ فِي هَدَفِهِ الأَبَدِيِّ أَلَا وهوَ تَدْمِيرُ دُنيَا الإِنْسَانِ وآخِرَتِهِ والحَطُّ مِنْ قَدْرِهِ.

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 15]. فَإِنَّ دِفَاعَهُمَا وحَثَّهُمَا عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ آلِهَةٍ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَضُرُّ ولَا تَنْفَعُ -كَمَا فَعَلَ أَبُو إِبراهيمَ مَعَهُ- فَلَا تُطِعْهُمَا، واسْتَقِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ والغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، ولَكِنْ لَا تَنْهَرْهُمَا وإِنْ شَقَّا عَلَيْكَ، بَلْ أَوْصَاكَ اللهُ بِمُصَاحَبَتِهِمَا فِي الدُّنْيَا بِالمَعْرُوفِ والرَّأْفَةِ والرَّحْمَةِ بِهِمَا. فَيَا لَعَدْلِ اللهِ وكَمَالِ مَنْهَجِهِ! حَادُوا عَنْ طَرِيقِهِ فَلَمْ يَسْقُطْ حَقُّهُمَا أَوْ يَأْمُرْ بِالقَسْوَةِ مَعَهُمَا.

وأَوْصَى الإِنْسَانَ أَنْ يَتَّبِعَ سَبِيلَ مَنْ جَانَبَ الشِّرْكَ والغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ ورَجَعَ وأَنَابَ لِلغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. ويَا لَبَلَاغَةِ القُرآنِ! فَالأَصْلُ أَنْ يَتَّبِعَ الإِنْسَانُ وهوَ صَغِيرٌ مَنْهَجَ والِدَيْهِ، فَحَالُهُ هُنَا كَحَالِ مَنْ أَنَابَ ورَجَعَ لِلصَّوَابِ. فِي الآيَةِ الأُولَى ذَكَرَ لِلإِنْسَانِ أَنَّ مَصِيرَهُ إِلَى اللهِ يُحَاسَبُ فِيهِ عَلَى عَمَلِهِ وبِرِّ والِدَيْهِ، أَمَّا فِي الثَّانِيَةِ ذَكَرَ أَنَّهُ هوَ ووَالِدَاهُ مَصِيرُهُم ومَرْجِعُهُم إِلَى اللهِ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، لِيَعْلَمُوا يَقِيناً مَنْ كَانَ عَمَلُهُ صَوَاباً.

وفِي هَذَا تَذْكِيرٌ لَطِيفٌ لِلدَّاعِيَةِ بِأَنْ يَتَحَمَّلَ مُجَاهَدَةَ والِدَيْهِ لَهُ لِيُشْرِكَ، فَهُمَا يَظُنَّانِ أَنَّ هَذَا هوَ المَنْهَجُ الصَّحِيحُ، ويَتَلَطَّفُ مَعَهُم فِي الدَّعْوَةِ لِتَوْحِيدِ اللهِ فَهُمَا أَغْوَاهُمَا الشَّيْطَانُ وظَنَّا أَنَّ هَذَا هوَ

الطَّرِيقُ. والدَّاعِيَةُ عُمُوماً مَأْمُورٌ أَنْ لَا يَسْتَخْدِمَ القَهْرَ فِي دَعْوَتِهِ، فَاللهُ أَرَادَ أَنْ يَؤُبَ النَّاسُ لِغَايَاتِهِ بِحُرِيَّةٍ وكَامِلِ قَنَاعَةٍ، وهَذَا مِمَّا يَعْنِي الدَّاعِيَ أَيْضاً أَنْ يَصْقُلَ خِطَابَهُ ومَهَارَتَهُ البَلَاغِيَّةَ لِتَبَيُّنِ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلإِنْسَانِ وهَدَفِ شَقَائِهِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَ لقمانُ لِابْنِهِ عَظَمَةَ قُدْرَةِ اللهِ وإِحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي الوُجُودِ:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 16].

لَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِ اللهِ شَيْءٌ، وإِذَا أَرَادَ لِشَيْءٍ أَنْ يَحْدُثَ سَاقَ لَهُ الأَسْبَابَ، ومِنْ كَرَامَتِهِ لِأَوْلِيَائِهِ يَجْعَلُ دَائِماً عَاقِبَتَهُم حَمِيدَةً فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ. وأَوْصَاهُ بِوَصَايَا مَن اتَّبَعَهَا كَانَ مِمَّن اتَّبَعَ سَبِيلَ اللهِ وغَايَاتِهِ، أَوَّلُهَا: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾؛ فَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ العَبْدِ ورَبِّهِ، تُرِيحُهُ مِنْ شَتَاتِ الدُّنيَا وتَجْمَعُ هَمَّهُ وتُعَلِّمُهُ الأَنَاةَ والتَّرَكِيزَ، وبِهَا نَعِيمُ رُوحِهِ؛ لِذَلِكَ يَسْعَى الشَّيْطَانُ دَوْماً لِيَجْعَلَ العَبْدَ مُضَيِّعاً لَهَا، وإِنْ أَدَّاهَا يُؤَدِّيهَا سَرِيعاً مُشَتَّتَ الفِكْرِ والفُؤَادِ. فَلَا تَكُنْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ: « أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ » [أبو داود] .

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾؛ أَمَرَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِالمَعْرُوفِ وهو كُلُّ غَايَةٍ رَحْمَانِيَّةٍ تُؤَدِّي لِسَعَادَةِ الإِنْسَانِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، أَمَّا المُنْكَرُ فَهِيَ جَمِيعُ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُغْوِيَ بِهَا الإِنْسَانَ فَيَزِلُّ مِنَ المَرْتَبَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ لَهُ والنَّعِيمِ السَّرْمَدِيِّ فِي الأُخْرَى. بِتَطْبِيقِ هَذِهِ الوَصِيَّةِ يَسْمُو الإِنْسَانُ ويَرْتَقِي، ولِتَطْبِيقِهَا لَا بُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنَ الحِكْمَةِ والعِلْمِ والخُلُقِ الحَسَنِ

فَيَعِيشُ حَيَاةً فَعَّالَةً مُفْعَمَةً بِالفَاعِلِيَّةِ والنَّشَاطِ، نَاهِيكَ عَنْ عَوْنِ اللهِ لَهُ، « فَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا دَامَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » [مسلم]

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]. والأَخِيرُ جِمَاعُ الخَيْرِ كُلِّهِ أَوْ نِصْفُهُ عَلَى الأَقَلِّ، فَالدُّنيَا دَارُ مَشَقَّةٍ ولَنْ تَصْفُوَ دَوْماً لِأَحَدٍ، لَكِنَّ مَنْ تَحَلَّى بِالصَّبْرِ سَيَجِدُ السَّعَادَةَ حَتَّى مَعَ المَصَائِبِ والتَّحَدِّيَاتِ، فَكَمَا قَالَ الرَّسُولُ:

« عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » [مسلم].

أَمَّا لِسِوَاهُ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الجَزَعُ، فَهُوَ لَا يَرْجُو ثَوَاباً أَوْ غُفْرَاناً جَرَّاءَ مَا يُصِيبُهُ فِي الدُّنيَا. وبِلَا صَبْرٍ لَا يُمْكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُحَقِّقَ أَيَّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنيَا، فَكَمَا قِيلَ: "قَدْ أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ، وأَنَّ لَا بُدَّ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَلَذَّذَ بِالعَسَلِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى إِبَرِ النَّحْلِ". وأَعْظَمُ الصَّبْرِ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى أَذَى النَّاسِ وأَنْتَ تَدْعُوهُم لِمَا فِيهِ خَيْرُ دُنيَاهُم وأُخْرَاهُم وتَلْقَى رَغْمَ ذَلِكَ الصُّدُودَ والأَذَى مِنْ قِبَلِهِم رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللهِ. هَذَا مِنْ عَزَائِمِ الأُمُورِ وهوَ طَرِيقُ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ مِمَّنْ خَلَّدَ القُرآنُ ذِكْرَهُم: نُوحٍ ومُوسَى وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.

فصل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]؛ أَيْ لَا تَتَكَبَّرْ عَلَيْهِمْ، فَأَنْتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، كَرَّمَكُمُ اللهُ جَمِيعاً يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ، وجَعَلَ مِيزَانَ التَّفَاضُلِ الخُلُقَ الحَسَنَةَ، لِذَلِكَ: « مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ » [مسلم].

فَبِهَذَا الخُلُقِ يَنْعَمُ المُسْلِمُ والمُجْتَمَعُ بِالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ والتَّنَافُسِ فِي الخَيْرَاتِ، لَا الحَسَدِ والبَغْضَاءِ والتَّنَافُسِ الَّذي يُؤَدِّي لِلكَرَاهِيَةِ والتَّدَابُرِ والتَّقَاطُعِ والحَرْبِ.

وهَذَا الخَيَالُ والكِبْرُ المَادِّيُّ النَّاتِجُ عَنْ مَعَايِيرِ مَنْهَجِ الشَّيْطَانِ كَالمَالِ والمَنْصِبِ والشُّهْرَةِ هِيَ مَا نَهَى لقمانُ ابْنَهُ عَنْهَا قَائِلاً: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾. وهَذَا التَّنَافُسُ المَذْمُومُ فِي مَنْهَجِ اللهِ وغَايَتِهِ سَبَبُهُ الخَيَالُ والكِبْرُ، لِذَلِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وأَوَّلُ مُخْتَالٍ فَخُورٍ عَصَى اللهَ هوَ إبليسُ حِينَ اخْتَارَ مَعَايِيرَهُ الخَطَأَ وسَبِيلَ شَقَائِهِ وشَقَاءِ بَنِي آدَمَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ مِعْيَارُ الحَقَارَةِ والدُّنُوِّ الفَخْرُ بِالعُنْصُرِ، وذَلِكَ حِينَ قَالَ:

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: 77-78]. ثُمَّ طَلَبَ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: 79]، فَاسْتَجَابَ اللهُ لِطَلَبِهِ ودُعَائِهِ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: 80-81].

لِيَكُونَ هَمُّ إبليسَ إلى يَوْمِ الدِّينِ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82]، أَنْ يَحِيدَ النَّاسُ عَنْ مَنْهَجِ رَبِّ العَالَمِينَ، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: 83]؛ إِذْ يَعْلَمُ إبليسُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهِمْ.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 84-85].

هَذَا وَعْدُ اللهِ الحَقُّ فِي الآخِرَةِ لِمَنْ تَبِعَ إبليسَ وغَايَاتِهِ فِي الدُّنيا. أَمَّا مَنْهَجُ الحَقِّ الَّذي أَنْزَلَهُ مَعَ أَبِينَا آدَمَ لِيَطِيبَ بِهِ عَيْشُهُ فِي الدُّنيا، ويَصِيرَ الإِنْسَانُ بِهِ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ وغَايَاتِهِ عَلَيْهِمْ -كَمَا أَقَرَّ إبليسُ بِنَفْسِهِ قَائِلاً: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾- فَقَدْ أَمَرَ اللهُ أَنْبِيَاءَهُ والدُّعَاةَ إلى سَبِيلِهِ أَنْ يَكُونَ حَالُهُم ومَقَالُهُم قَوْلَ أَصْدَقِ القَائِلِينَ:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: 86-87].

لِيَتَمَيَّزُوا عَنْ دُعَاةِ مَنْهَجِ إبليسَ مِمَّن يُزَيِّنُونَ لِلنَّاسِ دَعْوَتَهُمْ، كَمَا زَيَّنَ إبليسُ لِأَبِينَا آدَمَ حِينَ قَالَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]. وغَايَةُ إبليسَ هو أَنْ يَذُوقُوا العَذَابَ الأَلِيمَ مَعَهُ فِي الآخِرَةِ، والضَّنْكَ والضِّيقَ فِي الدُّنيا. ولَا يَخْتَلِفُ دُعَاةُ إبليسَ عَنْهُ، فَهَمُّهُم أَنْ يَشْقَى النَّاسُ لِيُحَصِّلُوا ثَرْوَاتٍ ومَنَاصِبَ وجاهاً، ظَنُّهُم أَنَّ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ -وهِيَ سَبِيلُ إبليسَ لِدَمَارِهِم وبَنِي جِنْسِهِم- زَيَّنَّاهَا لَهُم بِوُعُودِهِ الكَاذِبَةِ كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُ:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 64-65].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 86-88]. نَعَمْ، سَيَعْلَمُ بَنُو آدَمَ جَمِيعاً صِدْقَ هَذَا المَنْهَجِ؛ فَأَمَّا الطُّغَاةُ وزَبَانِيَتُهُم -وإِنْ بَنَوا المَمَالِكَ وجَمَعُوا الأَمْوَالَ بِشَقَاءِ عِبَادِهِ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنيَا- يَجِدُونَ الضَّنْكَ والعَذَابَ، وتَصِيرُ مَا جَمَعُوهُ عَذَاباً ووَبَالاً عَلَيْهِمْ، وقَدْ يَفْقِدُونَهُ فِي سِنِينَ مَعْدُودَةٍ، وأَشَدُّ فَقْدِهِ حِينَ يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ لِأَبْنَائِهِم وبَعْضِ المُقَرَّبِينَ مِنْهُم أَنْ يَغْدِرُوا بِهِم لِيَحُوزُوا هَذِهِ ﴿شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، لِتَبْدَأَ دَوْرَةُ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ ووُعُودِ إِبليسَ الَّتِي قَالَ اللهُ عَنْهَا: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وسُبْحَانَهُ مَا أَنْزَلَ الكِتَابَ وجَعَلَ دَلِيلَ صِدْقِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ قَوْلَهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. فاتَّبَعَ الآيَةَ الَّتِي بَيَّنَ فِيهَا غَايَةَ ودَوْرَةَ سَبِيلِ الشَّيْطَانِ، بِالاسْتِثْنَاءِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65]. وهُم مَنْ أَقَرَّ الشَّيْطَانُ بِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِغْوَائِهِمْ حِينَ طَلَبَ الإِمْهَالَ وبَيَّنَ غَايَاتِهِ لِرَبِّ العَالَمِينَ فَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

وسَيَعْلَمُ عِبَادُ اللهِ المخلصُونَ نَبَأَهُ أَيْضاً حِينَ يَتْقُلُهُم مَنْهَجُ اللهِ وغَايَاتُهُ مِنْ عَبِيدٍ وأَشْخَاصٍ مَغْمُورِينَ أَوْ حَتَّى مُسْتَضْعَفِينَ يَخْدِمُونَ السَّادَةَ والوُجَهَاءَ؛ إِلى مَنَارَاتٍ وسَادَةٍ وخُلَفَاءَ يَنْعَمُونَ -كَمَا يَنْعَمُ غَيْرُهُم- بِالمَنْهَجِ الَّذي يُخْرِجُ النَّاسَ مِنْ ضِيقِ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلى رَحَابَةِ عِبَادَةِ رَبِّ العِبَادِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنيَا وكَدَرِهَا إِلى سَعَةِ الدُّنيَا والآخِرَةِ، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلى عَدْلِ الإِسْلَامِ.

وأَدْنَى نَفَحَاتِ مَنْهَجِ اللهِ وغَايَاتِهِ -ومَا بِهَا دَنِيٌّ- أَنْ يَنْعَمَ عِبَادُهُ المخلصُونَ بِنَعِيمِ الرُّوحِ الَّذي لَا مُنَغِّصَ لَهُ فِي الدُّنيَا؛ تَصِيرُ بِهَا العَذَابَاتُ بَرْداً وسَلَاماً، ويَصِيرُ العَيْشُ بِهِ رُوحاً وريْحَاناً. كَمَا قَالَ أَحَدُ العُبَّادِ:

"لَوْ عَلِمَ المُلُوكُ وأَبْنَاءُ المُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ".

وهِيَ وقَوْلُ ابْنِ القَيِّمِ حِينَ قَالَ:

"إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِالقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا القَلْبُ طَرَباً ويَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا العَيْشِ إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ".

وحَالُ الإِمَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ حِينَ قَالَ:

"مَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي؟ أَنَا جَنَّتِي وبُسْتَانِي فِي صَدْرِي، إِنْ رُحْتُ فَهِيَ مَعِي لَا تُفَارِقُنِي، إِنَّ حَبْسِي خَلْوَةٌ، وقَتْلِي شَهَادَةٌ، وإِخْرَاجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ".

وعِنْدَمَا حُبِسَ قَالَ تِلْمِيذُهُ ابْنُ القَيِّمِ فِي كِتَابِهِ "الوَابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ" عَنْ حَالِهِ:

"وكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الخَوْفُ، وسَاءَتْ مِنَّا الظُّنُونُ، وضَاقَتْ بِنَا الأَرْضُ، أَتَيْنَاهُ، فَمَا هوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ ونَسْمَعَ كَلَامَهُ، فَيَذْهَبُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَنَّا، ويَنْقَلِبُ انْشِرَاحاً وقُوَّةً ويَقِيناً وطُمَأْنِينَةً".

وهِيَ تَفْسِيرُ ابْنِ القَيِّمِ لِلحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي قَوْلِ الرَّحْمَانِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] بِأَنَّهَا:

"حَيَاةُ القَلْبِ ونَعِيمُهُ، وبَهْجَتُهُ وسُرُورُهُ بِالإِيمَانِ ومَعْرِفَةِ اللهِ، ومَحَبَّتِهِ، والإِنَابَةِ إِلَيْهِ، والتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ صَاحِبِهَا، ولَا نَعِيمَ فَوْقَ نَعِيمِهِ إِلَّا نَعِيمُ الجَنَّةِ".

فصل: ﴿آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾

◆

ثُمَّ وَاصَلَ لقمانُ وَصَايَاهُ لِتُبَيِّنَ مَنْهَجَ وطَرِيقَ عِبَادِ اللهِ المخلصينَ:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

فَذُكِرَتِ الصِّفَتَانِ: القَصْدُ فِي المَشْيِ، أَيْ: امشِ مَشْياً مُقْتَصِداً لَيْسَ بِالبَطِيءِ المُتَثَبِّطِ، ولَا بِالسَّرِيعِ المُفْرِطِ، بَلْ عَدْلاً وسَطاً بَيْنَ بَيْنَ.

فَالْمُبْتَلَى بِالْكِبْرِ يُحَاوِلُ "تَوْسِيعَ" حُضُورِهِ الجَسَدِيِّ عَبْرَ المَشْيِ المُتَبَخْتِرِ، وهُوَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ السُّلُوكِ "العَرْضَ الاسْتِعْلَائِيَّ"، وغَايَتُهُ إِشْعَارُ الآخَرِينَ بِالضَّعَةِ. فِي المُقَابِلِ، يَرَى عُلَمَاءُ النَّفْسِ أَنَّ المِشْيَةَ الَّتِي تَتَّسِمُ بِالِاتِّزَانِ (لَا سُرْعَةً مُفْرِطَةً ولَا تَبَاطُؤاً مُتَكَلَّفاً) تَعْكِسُ شَخْصِيَّةً تَتَمَتَّعُ بِـ "الضَّبْطِ الذَّاتِيِّ" (Self-Regulation) العَالِي، وهِيَ شَخْصِيَّةٌ مُسْتَقِرَّةٌ لَا تَحْتَاجُ لِخَيَالٍ اسْتِعْلَائِيٍّ لِتُثْبِتَ وُجُودَهَا. لِذَلِكَ ذَكَّرَ اللهُ الإِنْسَانَ بِحَقِيقَةٍ كَوْنِيَّةٍ مَاثِلَةٍ أَمَامَهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37].

وَلَمَّا فَتَحَ اللهُ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي عَصْرِنَا هَذَا سُبُلَ التَّأَمُّلِ والنَّظَرِ فِي الفَضَاءِ، دَعَا كَثِيراً مِنْهُم لِلتَّوَاضُعِ أَمَامَ خَلْقِ اللهِ وإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ نَكَالِقٍ لِلْكَوْنِ، فَقَالَ كَارْل سَاغَان -عَالِمُ فَلَكٍ وفِيزْيَاءَ فَلَكِيَّةٍ-: "تَخَيَّلْ كَمْ هِيَ تَافِهَةٌ تِلْكَ الصِّرَاعَاتُ والخُيَلَاءُ الَّتِي نُمَارِسُهَا، عِنْدَمَا تُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ تَارِيخِنَا البَشَرِيِّ حَدَثَ عَلَى هَذِهِ 'النُّقْطَةِ الزَّرْقَاءِ البَاهِتَةِ' الَّتِي لَا تَكَادُ تُرَى فِي الفَضَاءِ".

والغَضُّ مِنَ الصَّوْتِ، أَيْ: لَا تُبَالِغْ فِي الكَلَامِ، ولَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ. وغَضُّ الصَّوْتِ فِي عِلْمِ النَّفْسِ الحَدِيثِ يُصَنَّفُ ضِمْنَ "الذَّكَاءِ العَاطِفِيِّ" العَالِي، إِنَّ القُدْرَةَ عَلَى خَفْضِ

النَّبْرَةِ فِي مَوَاقِفِ التَّوَتُّرِ تَعْكِسُ سَيْطَرَةَ الرُّوحِ عَلَى الجَسَدِ، وتَجْعَلُ الكَلِمَاتِ تَنْفُذُ إِلَى عَقْلِ المُتَلَقِّي دُونَ مُقَاوَمَةٍ. فَالصَّوْتُ المُنْخَفِضُ والمُتَّزِنُ يَفْرِضُ عَلَى المُسْتَمِعِ الإِنْصَاتَ التَّامَّ (Active Listening)، ويُرْسِلُ إِشَارَاتِ ثِقَةٍ عَارِمَةٍ بِأَنَّ المُتَحَدِّثَ يَمْتَلِكُ "الحَقِيقَةَ" فَلَا يَحْتَاجُ لِضَجِيجٍ لِيُثْبِتَهَا.

بَيْنَمَا يَصِفُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ رَفْعَ الصَّوْتِ فِي النِّقَاشَاتِ بِأَنَّهُ "آلِيَّةُ دِفَاعٍ بَدَائِيَّةٍ"، فَغَالِبًا عِنْدَمَا يَفْتَقِرُ الإِنْسَانُ لِلْحُجَّةِ المَنْطِقِيَّةِ، يَلْجَأُ لَاإِرَادِيّاً لِرَفْعِ صَوْتِهِ لِتَعْوِيضِ النَّقْصِ فِي القُوَّةِ الفِكْرِيَّةِ بِخَيَالِ السَّطْوَةِ المَادِّيَّةِ. فَالصِّفَتَانِ هُمَا رَسُولَا التَّوَاضُعِ والرِّفْقِ، وكَمَا قَالَ ﷺ: «مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، ومَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ» [مُسْلِمٌ].

وفِي مَيْدَانِ الحِوَارِ والارْتِقَاءِ البَشَرِيِّ، تَبْرُزُ هَاتَانِ الصِّفَتَانِ (وَقَارُ المِشْيَةِ وانْخِفَاضُ الصَّوْتِ) كَبَوَّابَتَيْنِ لِلْكَمَالِ والسَّعَادَةِ؛ فَبِهِمَا يَتَجَلَّى الإِنْسَانُ فِي أَبْهَى صُوَرِهِ: إِمَّا عَالِماً يُمْسِكُ بِزِمَامِ المَنْطِقِ والحُجَّةِ بِسَكِينَةِ الوَاثِقِ، فَلَا يَحْتَاجُ لِصَخَبٍ أَوْ فُحْشٍ لِيُثْبِتَ وُجُودَهُ، وبِذَلِكَ يَسْلَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ "جَبَّاراً" يُدَارِيهِ النَّاسُ اتِّقَاءَ لِشَرِّهِ. وإِمَّا مُتَعَلِّماً لَبِيباً يَتَّخِذُ مِنَ الهُدُوءِ مِصْعَداً لِزِيَادَةِ عِلْمِهِ والسُّمُوِّ بِرُوحِهِ فِي مِضْمَارِ الكَمَالِ الإِنْسَانِيِّ.

وهُنَا يَكْمُنُ الجَوْهَرُ الحَقِيقِيُّ لِمَا نُسَمِّيهِ اليَوْمَ «الثِّقَةَ بِالنَّفْسِ»؛ فَالنَّفْسُ المُمْتَلِئَةُ بِاليَقِينِ لَا تَسْتَجْدِي نَظَرَاتِ الإِعْجَابِ عَبْرَ خُيَلَاءِ المَشْيِ أَوْ ضَجِيجِ القَوْلِ، بَلْ تكتفي بِنُورِهَا الدَّاخِلِيِّ. إِنَّ المُتَكَبِّرَ يَعِيشُ حَالَةً مِنَ «الخَوَاءِ الوُجُودِيِّ»، فَيُحَاوِلُ تَعْوِيضَ نَقْصِهِ بِضَجِيجٍ خَارِجِيٍّ يُخَالِفُ المَنْطِقَ والوَاقِعَ، غَافِلاً عَنْ حَقِيقَةٍ أَنَّهُ مَهْمَا تَعَاظَمَ فِي عَيْنِهِ فَإِنَّهُ ﴿لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾. لَكِنَّهُ حِينَ يَخْتَارُ التَّوَاضُعَ، فَإِنَّهُ يَفْتَحُ لِنَفْسِهِ آفَاقاً أَبْعَدَ مِنْ حُدُودِ المَادَّةِ، لِيَصِيرَ ذَلِكَ المَخْلُوقَ الَّذِي كَرَّمَهُ اللهُ واجْتَبَاهُ، فَالتَّوَاضُعُ هُوَ الطَّرِيقُ الوَحِيدُ الَّذِي يَجْعَلُ مِنْ "ذَرَّةِ الغُبَارِ" البَشَرِيَّةِ كَائِناً يَسْمُو بِرُوحَانِيَّتِهِ فَوْقَ مَدَارَاتِ المَلَائِكَةِ.

أَمَامَ تَمَامِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، فَصَوْتُهُ عَالٍ، مُزْعِجٌ، قَدْ تَخَافُهُ، وَتَتَمَنَّى أَلَّا تَسْمَعَهُ، عَلَى العَكْسِ تَمَاماً مِنَ الحِصَانِ؛ فَصَهِيلُهُ يَبْعَثُ عَلَى الحَمَاسِ أَوِ الرَّهْبَةِ الفِطْرِيَّةِ دُونَ حَاجَةٍ لِلِابْتِذَالِ.

فصل: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾

◆

ونَرجعُ لِلحديثِ عَنْ يحيى فَقَدْ توقَّفْنَا فِي وَصْفِهِ لِنفْسِهِ:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

[مريم: 14-15].

فَوصَفَ اللهُ يحيى بِأَعظمِ صِفةٍ مِنْ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ كَثيراً مَا قَرنَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ بِتوحيدِهِ، ثُمَّ أَثنى عليهِ قائلاً: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

جاءتْ كلمةُ "سَلامٌ" في هذهِ الآيةِ مُنكَّرةً لتفيدَ التفخيمَ والتعظيمَ، فهو ليسَ سلامًا معهودًا، بل هو سلامٌ جليلٌ يليقُ بعظمةِ مُصدِّرِهِ سبحانَهُ وتعالَى.

يومَ وُلِدَ: فيضٌ مِنَ التسبيح

وقد كانتْ ولادتُهُ حدثًا مهيبًا، أمرَ اللهُ فيهِ زكريا عليهِ السلامُ بالانقطاعِ للعبادةِ، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ترقبًا لهذا الحدثِ العظيمِ. فكانَ قدومُ يحيى عليهِ السلامُ سببًا في فيضٍ مِنَ التسبيحِ الجماعيِّ. وقال عنه ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾

يومَ يموتُ: شهادةٌ وتخليدٌ

أما عندَ موتِهِ، فقد اصطفاهُ اللهُ نبيًّا وشهيدًا، وعصمَ دينَهُ مِنَ المداهنةِ، إذ منحَهُ قوةَ المنطقِ والصلابةَ في الحقِّ للوقوفِ في وجهِ ملكٍ غاشمٍ. فقُتِلَ يحيى ولم يمتْ ذكرُهُ، بل صارَ استشهادُهُ

نقطةً فارقةً في تاريخ بني إسرائيلَ، ورمزًا للنقاءِ والنزاهةِ الأخلاقيةِ التي لا تُباعُ ولا تُشترَى. فكانَ سلامُ اللهِ عليهِ في موتِهِ متمثلًا في رفعةِ ذكرِهِ وتخليدِ بطولتِهِ.

يومَ يُبعثُ حيًّا: ذروةُ التعظيمِ والسيادةِ

أما السلامُ عليهِ ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، فهو ذروةُ التعظيمِ؛ حيثُ يُبعثُ يحيى عليهِ السلامُ برتبةٍ استثنائيةٍ تجمعُ بينَ مقامَيِ النبوةِ والشهادةِ. إنهُ سلامُ الأمانِ مِنَ الفزعِ الأكبرِ، وسلامُ التميزِ في الملأِ الأعلى، حيثُ يُنادى عليهِ بأنبلِ الصفاتِ التي استحقَّ بها هذا التكريمَ الإلهيَّ الخاصَّ، ليكونَ في زمرةِ المصطفينَ الأخيارِ الذين آمنَهُمُ اللهُ مِنْ أهوالِ ذلكَ اليومِ.

وهو بذلكَ في سادةِ الشهداءِ، مصداقًا لقولِ النبيِّ ﷺ: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ» [الألباني], فقد نالَ يحيى عليهِ السلامُ هذهِ السيادةَ بجدارةٍ. وفي آخر «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا ابْنَيِ الْخَالَةِ: عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا» [رواه الترمذي] .

مقامُ الاصطفاءِ بينَ يحيى وعيسى عليهما السلامُ

وقد وردَ في الأثرِ عن عيسى عليهِ السلامُ أنهُ قالَ ليحيى: "أنتَ خيرٌ مني؛ سلَّمَ اللهُ عليكَ، وسلّمتُ على نفسي". وذلكَ في إشارةٍ إلى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُهُ تولى السلامَ على يحيى تشريفًا لهُ فقالَ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، بينما سلمَ عيسى على نفسهِ قائلًا: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾، وذلكَ إثرَ معجزةِ نطقهِ بالحقِّ يومَ ولادتهِ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

فصل: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾

◆

فَمِيلادُهُ عَلَى كِبَرٍ جَعَلَ زكريا يَتَعَجَّبُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]. وتعجَّبتْ سارةُ امْرأةُ إبراهيمَ مِنْ وِلادَةِ إسحاق: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72]. لَكِنْ قَالَ اللهُ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9].

سُؤالٌ اسْتِنكاريٌّ مَعناهُ أَنَّ أَهْلَ الكَهفِ والرَّقِيمِ لَيسُوا بِأَعجبَ أَوْ أَعظمَ آيَاتِهِ عَلَى الإِطلاقِ، وكُلُّ آيَاتِهِ عَظِيمٌ وعَجِيبٌ؛ فوِلادَةُ عيسى ابْنِ مريمَ أَعجبُ مِنهُمَا، فكيفَ وُلِدَ عيسى؟

مريمُ الصِّدِّيقَةُ العابِدَةُ، امْرأةٌ قَصَرَتْ نَفْسَهَا عَلَى عِبادةِ اللهِ، جَزاهَا اللهُ بِالرِّزقِ الحَسَنِ والطَّيِّبِ بُكرةً وعَشِيَّةً، وفَوقَ ذَلِكَ كُلِّهِ النَّعِيمُ الرُّوحيُّ؛ لَذَّةُ الإِيمانِ باللهِ وفَراغُ القَلْبِ مِنْ كُلِّ مَا سِواهُ، لَعَلَّهَا بلَغَتْ فِي هَذَا المِضمارِ مَداهُ. فكما قَالَ الإِمامُ العَلَّامَةُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمهُ اللهُ-:

"إِنَّ فِي الْقَلْبِ شَعَثاً: لَا يَلُمُّهُ إِلَّا الإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَيْهِ وَحْشَةً: لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْأُنْسُ بِهِ فِي خَلْوَتِهِ، وَفِيهِ حُزْناً: لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ وَصِدْقِ مُعَامَلَتِهِ، وَفِيهِ قَلَقاً: لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا الاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ وَالْفِرَارُ مِنْهُ إِلَيْهِ، وَفِيهِ نِيرَانَ حَسَرَاتٍ: لَا يُطْفِئُهَا إِلَّا الرِّضَا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَقَضَائِهِ وَمُعَانَقَةِ الصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى وَقْتِ لِقَائِهِ، وَفِيهِ طَلَباً شَدِيداً: لَا يَقِفُ دُونَ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَحْدَهُ الْمَطْلُوبَ، وَفِيهِ فَاقَةً: لَا يَسُدُّهَا إِلَّا مَحَبَّتُهُ وَدَوَامُ ذِكْرِهِ وَالإِخْلَاصُ لَهُ، وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَسُدَّ تِلْكَ الْفَاقَةَ أَبَداً!!".

وقَالَ: "فَإِنَّ ذَوْقَ مَثَاقِيلِ الذَّرِّ مِنْ حَلَاوَةِ الإِيمَانِ لَا تَعْدِلُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا". فَلَا تَتَلَفَّتْ تَبْحَثُ عَنهَا فِي مَعاصِي اللهِ. نَالَتْ مريمُ كُلَّ ذَلِكَ ويَزِيدُ، وبَشَّرَتْهَا المَلائِكَةُ بِالاصْطِفاءِ والاِخْتيارِ والمَقاماتِ العالِيَةِ:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 42-43].

وحَصَّنَتْ فَرْجَهَا حتَّى مِنَ الحَلالِ، فَلِمكانَتِهَا وفَضْلِهَا لَوْ أَرادَتِ التَّقدُّمَ، لَكِنَّهَا اخْتارتْ خِدْمَةَ اللهِ عَلَى الزَّوجِ، فَزوَّجَهَا اللهُ لِخَيرِ البَشَرِ فِي الجَنَّةِ. وحَرَمَتْ نَفْسَهَا مِنْ نِعَمٍ تَمَنَّاهَا الكَثيراتُ مِنَ النِّساءِ، فَوَهبَ اللهُ لَهَا ابْناً وجَعلهُ آيَةً لِلعالمِينَ، وُلِدَ كَما حَكَى اللهُ فِي القُرآنِ:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91].

كَانَتِ البِدايةُ أَنْ بَشَّرَتْهَا المَلائِكةُ:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 45-46].

"كَلِمَةٌ مِنهُ"، آيَةٌ وعَلامةٌ عَلَى قُدرَتِهِ، فَوَهبَهُ اللهُ مَا يُحيِي بِهِ المَوتَى ويُبرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ويُنَبِّئُهُم بِما يَدَّخِرُونَ فِي بُيوتِهِمْ. فَكيفَ بِالخالِقِ مَنْ خَلقَ عيسى بِلَا أَبٍ، ومِنْ قَبْلِهِ آدمَ مِنْ طِينٍ والبَشريَّةَ جَمْعاءَ مِنْ بَعْدِهِ، والسَّماواتِ والأَرَضِينَ؟! ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47]. مريمُ عَجَّدَتِهَا سارةَ عَجِبَتْ، ولَعَلَّهُ عَجَبُ اسْتِفهامٍ؛ فَهِيَ مَا كَانَ يَأْتِيهَا رِزقُهَا فِي المِحْرابِ غُدُوّاً وعَشِيّاً، وأَعْلَمُ النِّساءِ فِي زَمانِهَا بِقُدرَةِ اللهِ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: 48].

مَعَ تَعْلِيمِ عِيسَى إِحْيَاءَ المَوْتَى، بَشَّرَ اللهُ مريمَ بِأَنَّ اللهَ سَيُعَلِّمُهُ حَيَاةَ القُلوبِ والأَجْسامِ مَا تَصْبَحُ بِهِ الحَيَاةُ نَعِيماً ويَزولُ شَقَاؤُهَا. مَنْهَجُ اللهِ وغَايَاتُهُ، هَذَا المَنْهَجُ الَّذي أُنْزِلَ مَعَ آدمَ وبُعِثَ بِهِ كُلُّ مَنْ أُرْسِلَ: الكِتَابُ والحِكمةُ، فَقِراءةُ مَا أَنْزلَ اللهُ لَا تكفي. فكما وَصفَ النَّبِيُّ ﷺ -الصَّادِقُ المَصْدوقُ- أَقواماً يَقْرؤونَ القُرآنَ بِلِسانٍ فَصِيحٍ، لَكِنَّ الإِيمانَ لَا يَدخُلُ قُلوبَهُمْ ولَا تَظهرُ آثَارُهُ فِي أَفْعالِهِمْ، فَقَالَ:

« يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وفِي صَحيح مُسلمٍ: « ... وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ». فَفَهْمُ الكِتَابِ وتَدبُّرُهُ وفَهْمُهُ وإِنْزالُ آيَاتِ مَنْهَجِ اللهِ عليهِ يَحتاجُ لِلحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ وَضْعُ الشَّيءِ فِي مَحَلِّهِ.

أَتَتْ مريمَ البِشارَةُ والنُّبُوَّةُ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا إِلَّا أَنْ تَرَى ذَلِكَ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 16-17].

اعْتَزَلَتْ مريمُ، ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾، اسْتَتَرَتْ بِحيثُ لَا يراهَا أَوْ يَصلُ إِليهَا أَحدٌ. أَرْسلَ لَهَا اللهُ جبريلَ فِي صُورةِ بَشرٍ إِنْسانٍ، رَاعَهَا ذَلِكَ واسْتَعاذَتْ باللهِ مِنْ أَنْ يَمَسَّهَا بِسُوءٍ:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 18-19].

قَالَ لَهَا لَا تُرَاعِي، إِنَّمَا أَنَا رَسولُ رَبِّكِ لِأُحَقِّقَ البِشارةَ وأَهبَ لَكِ الوَلَدَ. ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: 20]؛ هُنَا اسْتَغرَبَتِ اسْتِعْجابَ مُسْتَفْهِمٍ مُسْتفسِرٍ.

فصل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾

◆

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 21]. لَا تَهتمِّي بِالكَيفيَّةِ، هُوَ أَيْسرُ شَيءٍ عَلَى خالِقِكِ، ولِتكونَ وِلادَتُهُ آيَةً لِلنَّاسِ تَدلُّهُمْ عَلَى عَظمةِ الخالِقِ وقُدرَتِهِ. ومِنْ ثَمَّ تَكونُ بَعثتُهُ رَحمةً لِلنَّاسِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ ضَنكِ الغاياتِ الشَّيطانيَّةِ إِلَى سَعَةِ وفَضاءِ الغاياتِ الرَّحمانيَّةِ، مِنْ ضِيقِ الدُّنيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنيَا والآخِرَةِ، ومِنْ عِبادةِ العِبادِ إِلَى عِبادةِ رَبِّ العِبادَةِ. ولِيُخَفِّفَ عَنهُمُ القُيودَ والتَّكالِيفَ الشَّاقَّةَ الَّتِي فُرِضَتْ عليهِمْ بِسَببِ تَعنُّتِهِمْ ومُخالفتِهِمْ أَنْبيائَهُمْ. فَكما حَكَى اللهُ عَلَى لِسانِ نَبِيِّهِ عيسى:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 50].

"بِكَلِمَةٍ منهُ"، قِيلَ فِيهَا قَولُهُ لِلشَّيءِ "كُنْ فَيكونُ" وهُوَ صَحِيحٌ. فَخَلْقُ اللهِ مِثْلَ مَا خَلَقَ اللهُ مُبَاشَرةً كَآدمَ عليهِ السَّلامُ، وهَذا تَكْرِيمٌ بِحدِّ ذاتِهِ. ومِنهَا ذُرِّيَّتُهُ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ بِواسِطَةِ الأَسْبابِ الَّتِي قَدَّرَهَا، وذَلِكَ مَا بَيَّنَ اللهُ فِي قَولِهِ:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7-8].

فَعيسى كَانَ خَلْقاً بِأَمرٍ مُبَاشِرٍ مِنْ اللهِ، لِذَلِكَ قَالَ اللهُ عَنهَا: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91]. وفِي آدمَ قَالَ اللهُ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: 71-73].

فَعيسى مِنْ غَيرِ أَبٍ، فَنَفْخُ الرُّوح فِي بَطْنِ أُمِّهِ جَعَلَهُ مُبَارَكاً جَسَدِيّاً، ومِنْ مُعجزاتِهِ مَا مَسحَ عَلَى ذِي عاهَةٍ إِلَّا بَرَأَ، فَكانَ يَجعلُ الأَعمَى بَصِيراً بِإِذنِ اللهِ والكَسِيحَ مَاشِياً، بَلْ كَانَ يَخلقُ طَيراً مِنْ طِينٍ ثُمَّ يَنفُخُ فِيهِ ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ويُحْيِي المَوتَى بِإِذنِ اللهِ. وهِيَ صِفاتٌ مَا اتَّصَفَ بِهَا بَشَرٌ قَبْلَهُ، فَكأَنَّهَا مِنْ أَثَرِ الَّتي نَفخَهَا فِيهِ المَلكُ مِنَ الرُّوح. والرُّوحُ فِي المَلائِكةِ هُوَ جبريلُ مَنْ نَزلَ بِالآيَةِ والذِّكْرِ الحَكِيمِ، وكَلِماتُهُ الشَّرعيَّةُ وتَعاليمُهُ تَجعلُ الحَيَاةَ الجَامِدةَ المُمِلَّةَ الرَّتِيبَةَ التَّعِيسَةَ الَّتي بِلَا مَعنًى "تَنفُخُ" فِيهَا الرُّوحَ فَتكونُ حَيَاةً مَاتِعةً جَمِيلةً سَعِيدةً طَيِّبَةً، ذاتَ أَثَرٍ ومَغزَى، تُفَجِّرُ طَاقاتِ الإِنْسانِ وتُحَرِّرُهَا. كُلُّ ذَلِكَ هُوَ أَثَرُ الإِيمانِ، وهُوَ جَوابُ مَا سَأَلَتْ عَنهُ المَلائِكَةُ:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]. كَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ اسْتِفْسارٍ سُئِلَ عَنْ آدمَ أَبِي البَشريَّةِ. فَأَجابَ اللهُ العَلِيُّ العَظِيمُ: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يَعْلَمُ سُبْحانَهُ مَا يُفَجِّرُهُ الإِيمانُ بِهِ مِنْ طَاقاتٍ وإِمْكانِيَّاتٍ فِي حَيَاةِ البَشريَّةِ، أَنَّهَا هِيَ اخْتارَتْهُ بِمَحْضِ إِرادَتِهَا لِتَسْعَى لِلغَايَةِ الَّتي أَرادَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ: التَّكْرِيمُ والحَيَاةُ السَّعيدةُ.

وكَانَ يُخبِرُهُمْ بِالغَيْبِ بِما يَأْكُلُونَ ويَدَّخِرُونَ فِي بُيوتِهِمْ، وهُوَ أَيْضاً مِصداقٌ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 26-27]. وتِلْكَ هِيَ مُعجزاتُهُ الَّتِي أَرْسلَهُ اللهُ بِهَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ إِضافَةً إِلَى كَلامِهِ فِي المَهْدِ. نَفخَ جبريلُ فِي جَيْبِ مريمَ، فَحملَتْ بِعيسى عليهِ السَّلامُ:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: 22]. ثُمَّ ابْتعدَتْ مِنْ مكانٍ إِلَى مكانٍ بَعيدٍ مَعزولٍ عِندَهَا.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23]. بَوادِرُ الوِلادَةِ، ويَا لَهَا مِنْ لَحَظاتٍ صَعْبَةٍ حتَّى عَلَى مَنْ هِيَ بَيْنَ أَهْلِهَا ومَعَهَا الطَّبيبُ المُخْتَصُّ أَوِ القابِلَةُ الحاذِقَةُ! لَحَظاتٌ اسْتَحقَّتِ الأُمُّ فَقَطْ بِهَا تَكْرِيماً يَدومُ أَبَدَ الدَّهْرِ وحَقّاً لَا يَزولُ عَلَى الابْنِ. قَاسَتْ مريمُ كُلَّ ذَلِكَ بِلَا أَنِيسٍ أَوْ قَرِيبٍ مِمَّنْ يُخَفِّفُ عَنهَا، فَعَبَّرَتْ عَنْ مَا تُقاسِيهِ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، فَهِيَ عِبارَةٌ تَدلُّ عَلَى مُنتَهَى مُكابَدَةِ الأَلَمِ. قَاسَتْ كُلَّ ذَلِكَ بِلَا طَعامٍ ولَا شَرابٍ، لَكِنَّ رَبَّ العالَمينَ مَنْ رَزقَهَا فِي المِحْرابِ أَرْسلَ لَهَا رَسولاً:

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 24-26].

أَلجأَكِ إِلَى خيرِ غِذاءٍ لِلحَوامِلِ كَمَا أَثْبتَتِ البحوثُ المُتأَخِّرَةُ وهُوَ الرُّطَبُ، وفَجَّرَ لَكِ عَيْناً لِتَشْربِي مِنهَا فَلْتَهْنئِي ولَا تَقلَقِي. وإِذَا مَرَّ بِكِ بَشرٌ ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. حَالَةُ مريمَ لَنْ يُفيدَ فيها الجِدالُ والكَلامُ، نُتعِبُ نَفْسَهَا فَقَطْ، أَرْشَدَهَا خالِقُهَا لِلأَفْضَلِ وأَرادَ لِلمُعجزاتِ أَنْ تَتحدَّثَ لِتُخْرِسَ كُلَّ مُعَانِدٍ مُكابِرٍ.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 27-28].

سَارَعَ قَومُهَا لِاتِّهامِهَا، رَموهَا بِالزِّنَا مُبَاشَرَةً، وعَابُوا عليهَا تَدنيسَ شَرفِ أُسْرَتِهَا الَّتِي اعْتَرفوا لَهَا بِالفَضْلِ والشَّرفِ وسُمُوِّ الأَخْلاقِ. لَمْ تَرُدَّ الصِّدِّيقَةُ مريمُ، فَقَطْ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: 29]. هُوَ مِنْ مُعجزاتِهِ لَكِنْ لَمْ يَفهموا، وأَرادَ اللهُ أَنْ يُقِرّوا بِالْمُعجزةِ قَبْلَ حُدوثِهَا، فَأَنْكَروا إِشارَتَهَا واسْتَغْرَبوا قائلِينَ: "لَقَدْ عَلِمتِ وكُنَّا نَعلمُ أَنَّ الصَّبيَّ فِي صِغَرِهِ لَا يَتحدثُ!". عِندَهَا تَدخَّلَتْ مُعْجزةُ اللهِ:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 30-33].

عَرَّفَهُمْ بِنَفْسِهِ وهُوَ صَغيرٌ قَبْلَ بعثتِهِ، قائلاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. مِنَ المَهْدِ أَقَرَّ لَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ. لَكِنَّ بَنِي إِسْرائيلَ هُمْ بَنُو إِسْرائيلَ؛ بَعْدَ أَنْ أَقَرّوا بِمُعجزاتِهِ جَحدوا واتَّهموا مريمَ بِالزِّنَا، فَكما قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 156].

هَذا قَوْلُ اليَهودِ مَنْ كَفرَ أَحبارُهُمْ بِالْمُعجزةِ الَّتي أَقرُّوهَا، وهَذا حَالُهُمْ دَوْماً، طَلَبٌ لِلرِّئاسَةِ والزَّعامَةِ، كَمَا فِي قِصَّةِ إِسْلامِ ابْنِ سَلَامٍ:

« أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بَلَغَهُ مَقْدَمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ... فَأَجَابَهُ فَأَسْلَمَ فَقَالَ: إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ، فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟ قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ » [البخاري].

اليَهودُ نَقضوا مَواثيقَ خالِقِهِم مَنْ أَبْدَلَهُمْ بَعْدَ ذُلِّهِمْ عِزّاً، وبَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمْناً وسَعَةً، ورَزقَهُمْ رِزقاً لَمْ يَرْزُقهُ أَحداً مِنَ العالَمِينَ فِي هَذِهِ الدُّنيَا (المَنَّ والسَّلوى)، لَكِنْ هُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ فِي الآيَةِ الَّتي قَبْلَ رَمْيِهِمْ لِمريمَ:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 155].

فصل: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

جَحَدَ اليَهودُ مُعجزةَ وِلادَةِ عيسى مِنْ غَيرِ أَبٍ وكَلامَهُ فِي المَهْدِ، أَمَّا النَّصارى المُتَأَخّرونَ فَغَلوا فِي عيسى وقالوا هُوَ ابْنُ اللهِ -تَعالى اللهُ عَمَّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً-. فَرَدَّ اللهُ عليهِمْ فِي الآيَاتِ الَّتي تَلَتْ كَلامَهُ فِي المَهْدِ:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 34-36].

مَا يَنبغي لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً، فَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الوَلَدِ والشَّريكةِ. أَمَّا قَولُهُمْ إِنَّ وَلَدَ اللهِ نَزلَ لِيُخَلِّصَ الإِنْسانَ مِنْ عِبْءِ الخَطيئةِ والمَعصيَةِ، فَلَا يَقولُ بِهِ مَنْ تَفَكَّرَ قَليلاً؛ فَاللهُ مَنْ لَا تَضُرُّهُ مَعصيَةُ البَشرِ ولَا تَنفعُهُ طَاعَتُهُمْ لَيسَ بِحاجةٍ لِيَذوقَ ابْنُهُ الأَلَمَ مِنْ أَجْلِ البَشرِ. وأَيُّ إِلَهٍ هَذَا مَنْ يَسْتَطيعُ البَشرُ أَنْ يَصْلِبوهُ ويُعذِّبوهُ كَمَا ادَّعَتِ اليَهودُ أَنَّهَا فَعَلَتْ بِعيسى؟!

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ۖ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 156-158].

وقَولُ النَّصارى إِنَّ مَنْ صَلَبَهُ اليَهودُ هُوَ ابْنُ اللهِ، ثُمَّ قَامَ مِنْ قَبْرِهِ وصَعدَ لِلسَّماءِ وأَنَّ مَنْ آمَنَ بِهِ مُخَلِّصاً لِلبَشرِ سَيكونُ مَعَهُ فِي مَلكوتِ السَّماءِ، فَكُلُّ الفَريقَيْنِ ضَلُّوا. والحَقيقةُ أَنَّ مَنْ صَلَبَهُ اليَهودُ هُوَ مِنْ تَلامِيذِ عيسى عليهِ السَّلامُ، تَطوَّعَ فَأَلقَى اللهُ شَبَهَ عيسى عليهِ، وسَيُرافِقُ سَيِّدَنَا عيسى فِي الجَنَّةِ. عيسى عَبْدُ اللهِ كَمَا قَالَ هُوَ، ودَحَضَ اللهُ حُجَجَ النَّصارى قائلاً:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

آدمُ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ مِنْ غَيرِ أَبٍ أَوْ أُمٍّ ولَا سَابِقَ لَهُ مِنْ جِنْسِهِ، فَعيسى مِنْ بَابٍ أَوْلَى أَيْسرُ وأَسهلُ، ولَا مُسْتَحيلَ أَوْ صَعْبَ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ. لَكِنَّ النَّصارى عِناداً واسْتِكباراً لَمْ يَرَوْا هَذِهِ الحَقيقةَ النَّاصِعَةَ. وعَلَى حُجَّةِ هَذَا، فآدمُ أَوْلَى أَنْ يَكونَ ابْنَ اللهِ -سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً-. وفِي قِصَّةِ نَصَارى نَجرانَ إِذْ قَدِمَ عليهِ العاقِبُ والسَّيِّدُ وكَانَا حَبرَيْنِ فَجَادَلَا الرَّسولَ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 59-61].

ودَعاهُمْ لِلمُباهلَةِ بِأَنْ يُحْضِرَ كُلٌّ مِنهُمْ أَهْلَهُ ونِساءَهُ ويَثْبُتَ عَلَى قَولِهِ ويَدْعوَ اللهَ أَنْ يُهلِكَ الكاذِبَ، فَأَبَوْا لِعِلمِهِمْ بِضَعْفِ أَوْ بُطْلانِ قَوْلِهِمْ. وطائِفةٌ أُخْرى قَالَتْ إِنَّ اللهَ هُوَ ثَلاثَةٌ ثَلاثَةٌ؛

أَيْ هُوَ مَنْ تَمَثَّلَ فِي الرُّوحِ القُدُسِ وهُوَ مَنْ تَمَثَّلَ فِي عيسى -سُبْحانَهُ وتعالى عَمَّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً-. وذَكَرَهُمُ اللهُ فِي كِتابِهِ قائلاً:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73].

ولَمْ تَبْقَ إِلَّا طائِفَةٌ مِنَ النَّصارى عَلَى أَنَّ عيسى هُوَ عَبْدُ اللهِ ورَسولُهُ. وكُلُّ طَوائِفِ النَّصارى ذَكَرَهُمُ اللهُ فِي كِتابِهِ:

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 71-75].

فَكما ذَكَرَ جَلَّ وعَلَا، فالمسيحُ وأُمُّهُ ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ وهِيَ صِفَةٌ بَشَرِيَّةٌ بِامْتِيازٍ، ومَعَ كُلِّ هَذَا البَيانِ يُصِرُّونَ عَلَى باطِلِهِمْ وأَفْكِهِمْ. ثُمَّ خاطَبَ اللهُ النَّصارى:

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 76-77].

أَيْنَ عُقولُكُمْ لِتَتركوا اتّباعَ الغاياتِ الرَّحمانيَّةِ لِتَتَّبِعوا الغاياتِ الشَّيطانيَّةِ؟! فَتَركوا عِبادةَ مَنْ تَنفعُكُمْ عِبادَتُهُ وتَعبُدونَ مَنْ لَا يَملِكُ لَكُمْ ولَا لِنفسِهِ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، وسَبيلُهُ سَبيلُ شَقائِكُمْ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ. وحذَّرَهُمْ مِنْ سَبيلِ أُمَّةٍ أُخْرى كَانَتْ خَيْرَ أُمَّةٍ، فَغَلَوْا فِي دِينِهِمْ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا عَنْ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ وسُبُلِهِ، فَكانَتْ عَاقِبَتُهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانوا خَيْرَ أُمَّةٍ:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: 78].

تَكلَّمَ عيسى فِي المَهْدِ ثُمَّ نَشأَ وتَرعرَعَ، وبَعثَ اللهُ لِبَنِي إِسْرائيلَ رَسولاً وزَوَّدهُ اللهُ بِالآيَاتِ.

فصل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

◆

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 49-50].

بَرَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِهِ فِي الطِّبِّ، فَكَانَتْ مُعْجِزَتُهُ عِيسَى نِهَايَةَ وَغَايَةَ مَا يَرْغَبُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ، يَجْعَلُ الأَعْمَى مِمَّنْ عَجَزَ الطِّبُّ عَنْ مُدَاوَاتِهِ بَصِيراً، وَكَذَلِكَ الأَبْرَصَ. وَآتَاهُمْ بِمَا لَمْ يَدَّعِهِ أَحَدٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَلَا يَطْمَحُ أَوْ يَدُورُ فِي خَلَدِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي عَصْرِنَا، حَيْثُ بَلَغَ الطِّبُّ مَرَاحِلَ لَمْ يَحْلُمْ أَوْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ وُصُولُهَا. وَلَكِنْ رَغْمَ ذَلِكَ، جُلُّ مَا يَطْمَحُ لَهُ الْعُلَمَاءُ فِي عَصْرِنَا الْحَالِيِّ إِطَالَةُ عُمْرِ الإِنْسَانِ، وَجَعْلُهُ خَالِداً مِنْ خِلَالِ حِفْظِ مَعَارِفِهِ وَتَجَارِبِهِ فِي آلَةٍ، لَكِنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى فَلَمْ يُفَكِّرُوا حَتَّى فِيهِ.

أَمَّا عِيسَى، مَنْ عَاشَ قَبْلَ أَلْفَيْ سَنَةٍ حَيْثُ عِلْمُ الطِّبِّ كَانَ بَدَائِياً، كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، إِضَافَةً لإِخْبَارِهِمْ بِأَخَصِّ أُمُورِهِمْ؛ مَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِهِمْ. لَكِنْ رَغْمَ هَذِهِ الآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، كَفَرَ مُعْظَمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِذَلِكَ. وَصَدَقَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ حِينَ طَلَبَتْ قُرَيْشٌ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَجْعَلَ الصَّفَا ذَهَباً، فَأَجَابَ اللَّهُ -بَعْدَ أَنْ خَيَّرَ نَبِيَّنَا ﷺ أَنْ يُرِيَهُمُ الآيَاتِ فَإِنْ جَحَدُوا

عَجَّلَ اللَّهُ بِعَذَابِهِمْ كَحَالِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ- وَذَكَرَهُمْ فِي مُعْجِزَتِهِ الخَالِدَةِ الَّتِي أَقَرُّوا بِعُلُوِّهَا وَلَكِنِ اسْتَكْبَرُوا وَعِنَاداً أَبَوْا أَنْ يُسْلِمُوا:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59].

فَسُنَّةُ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ يَطْلُبَ الْكَافِرُونَ الآيَاتِ -كَمَا فَعَلَ قَوْمُ صَالِحٍ- إِرْسَالُ الآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِهْلَاكُ الْمُكَذِّبِينَ إِنْ كَفَرُوا بِهَا؛ فَقَدْ أَقَامُوا الْحُجَّةَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. جَحَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ آيَاتِ وَنُبُوءَةَ عِيسَى؛ فَكَمَا حَكَى اللَّهُ بَعْدَهَا:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 52-60].

اعْتَزَلَ عِيسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ ثُلَّةٍ مُؤْمِنَةٍ قَلِيلَةٍ. أَعْلَنُوا عَلَانِيَةً إِيمَانَهُمْ بِعِيسَى، وَهُمُ الْحَوَارِيُّونَ، وَكَانُوا بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً. لَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَرَّرُوا الْمَكْرَ بِهِ وَقَتْلَهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ مَكَرَ بِهِمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

قِصَّةُ مُحَاوَلَةِ قَتْلِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَهِيَ قِصَّةٌ ادَّعَى الْيَهُودُ فِيهَا قَتْلَهُ، وَادَّعَى النَّصَارَى أَنَّهُ ضَحَّى بِنَفْسِهِ فِدَاءً لِلْبَشَرِيَّةِ، وَهِيَ قِصَّةٌ مِحْوَرِيَّةٌ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، لَهَا تَأْثِيرٌ فِي حَيَاةِ أَكْبَرِ مُعْتَنِقِي دِينٍ سَمَاوِيٍّ عَلَى الْأَرْضِ مُنْذُ قِيَامِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَحَتَّى الْآنَ. وَمَوْتُ الْمَسِيحِ وَقِيَامَتُهُ هُمَا مَا يُؤْمِنُ بِهِ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنَ النَّصَارَى الْيَوْمَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُخَلِّصٌ لِلْبَشَرِيَّةِ سَيَكُونُ مَعَهُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.

وَالنَّصَارَى الْأَوَائِلُ اضْطَهَدُوا الْيَهُودَ وَحَمَّلُوهُمْ ذَنْبَ عَذَابِ الْمَسِيحِ، عَلَى الْعَكْسِ تَمَامًا، حَيْثُ وَجَدَ الْيَهُودُ الْأَمَانَ التَّامَّ وَالْحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ فِي بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ أَيَّامَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ مَنَحُوهُمْ أَرْضَ فِلَسْطِينَ كَوَطَنٍ مَوْعُودٍ، حَيْثُ تَبَلْوَرَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ الْحَرَكَةُ الصِّهْيُونِيَّةُ كَرَدِّ فِعْلٍ عَلَى اضْطِهَادِ النَّصَارَى لِلْيَهُودِ، وَجَمْعِ شَتَاتِهِمْ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ -أُوغَنْدَا، الْأَرْجَنْتِينِ، قُبْرُصَ، فِلَسْطِينَ، وَغَيْرِهَا- خَارِجَ أُورُوبَّا الْمَسِيحِيَّةِ، وَأَيْضًا رَغْبَةً أُورُوبِّيَّةً فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الْوُجُودِ الْيَهُودِيِّ فِي أُورُوبَّا.

ثُمَّ وَقَعَ اخْتِيَارُهُمْ عَلَى فِلَسْطِينَ نِسْبَةً لِلدَّافِعِ الدِّينِيِّ، رَغْمَ أَنَّ أَبْرَزَ مُنَظِّرِي الصِّهْيُونِيَّةِ وَالْأَبَ الرُّوحِيَّ وَجَمْعًا مِنْ مُؤَسِّسِيهَا كَانُوا لَادِينِيِّي الْفِكْرِ، رَأَوْا فِي الْعَامِلِ الدِّينِيِّ أَكْبَرَ مُحَفِّزٍ لِتَعْبِئَةِ الْيَهُودِ لِلِاسْتِيطَانِ فِيهَا، وَارْتُكِبَتْ مَجَازِرُ وَلَا تَزَالُ مُسْتَمِرَّةً فِي حَقِّ سُكَّانِهَا الْأَصْلِيِّينَ. وَلِلْيَوْمِ يُمَثِّلُ الِاعْتِقَادُ الدِّينِيُّ مُحَرِّكًا بَارِزًا فِي دَعْمِ الرُّؤْيَةِ الصِّهْيُونِيَّةِ، وَالتَّجَاهُلِ التَّامِّ لِلْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْإِبَادَةِ الْعِرْقِيَّةِ بِوَاسِطَةِ الْمَجَازِرِ الشَّنِيعَةِ.

لَكِنَّ لِلْحَوَارِيِّينَ دَوْراً فِي قِصَّةِ عِيسَى، وَهُمْ مَنْ سَيَتَوَلَّوْنَ التَّبْشِيرَ بِدَعْوَتِهِ بَعْدَ رَفْعِهِ لِلسَّمَاءِ، لِذَا خَصَّهُمُ الْمَسِيحُ بِعِنَايَتِهِ وَصُحْبَتِهِ. صَحِبَ الْحَوَارِيُّونَ عِيسَى، وَفِي يَوْمٍ جَاعُوا فَطَلَبُوا مِنْهُ قَائِلِينَ:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 111-112].

أَلْهَمَ اللَّهُ الإِيمَانَ بِعِيسَى وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ. طَلَبُوا أَنْ يُطْعِمَهُمْ رَبُّهُمْ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، زَجَرَهُمْ عِيسَى فَهُمْ صَفْوَةُ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَحِلُّ أَنْ يَطْلُبُوا آيَاتٍ وَمُعْجِزَاتٍ كَالْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ، لَكِنَّهُمُ اعْتَذَرُوا:

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 113]، دَفَعَنَا الْجُوعُ وَطَلَبٌ فِي زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ آيَةً نَشْهَدُ عَلَيْهَا وَنُخْبِرُ مَنْ بَعْدَنَا.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: 114].

دَعَا عِيسَى رَبَّهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمُ الْمَائِدَةَ لِتَكُونَ عِيداً يَحْتَفِلُونَ بِهِ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ، وَكَانَ، فَإِلَى الْيَوْمِ يَحْتَفِلُ النَّصَارَى، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِـ "الْعَشَاءِ الأَخِيرِ". وَمُعْجِزَةً مِنْكَ وَرِزْقاً لَنَا، ﴿وَأَنتَ

خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، فَاللَّهُ هُوَ مَنْ يَرْزُقُ عِبَادَهُ، وَمَا أَرَادَ لَهُمْ إِلَّا السَّعَةَ وَالرِّزْقَ الْحَسَنَ، عَلَى عَكْسِ الْغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ حَيْثُ يُرِيدُ لَهُمُ الْفَقْرَ وَالضِّيقَ وَالْمَهَانَةَ، فَكَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُ:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268].

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِطَلَبِ الْحَوَارِيِّينَ، لَكِنَّ سُنَنَهُ لَا تَتَغَيَّرُ لِأَيِّ أَحَدٍ كَائِناً مَنْ كَانَ:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 115]. أَنْزَلَهَا اللَّهُ وَأَنْزَلَ مَعَهَا وَعِيدَهُ إِنْ كَفَرُوا بَعْدَ مَا رَأَوْهَا وَعَايَنُوهَا عِيَاناً، فَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. فَكَمَا خَصَّهُمُ اللَّهُ بِعِنَايَتِهِ وَمَزِيدِ فَضْلِهِ، وَاطَّلَعُوا عَلَى مَا لَمْ يَرَهُ غَيْرُهُمْ مِنَ الآيَاتِ، فَإِذَا كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَحَقُّوا عَذَاباً لَمْ يَذُقْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَلَعَلَّ فِي الآيَةِ دَلَالَةً أُخْرَى أَنَّ فِي حَوَارِيِّ عِيسَى مَنْ سَيَكْفُرُ بِهِ.

وَهَذَا عَلَى بَعْضِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنِ النَّصَارَى؛ فَجَمَعَ عِيسَى حَوَارِيَّهُ وَغَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ، فَاسْتَعْظَمُوا وَأَبَوْا، لَكِنْ قَالَ لَهُمْ: "مَنْ رَفَضَ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ"، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَسْتَعْظِمَ كَبِيرُهُمْ مِنْ خِدْمَةِ وَالتَّوَاضُعِ لِمَنْ دُونَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ. ثُمَّ قَالَ إِنَّ هُنَاكَ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ وَيَبِيعُهُ بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَاتٍ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ.

وَكَانَ اللَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ سَيُرْفَعُ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَا، وَقَالَ لَهُمْ: "مَنْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي فِي الْجَنَّةِ؟" فَتَطَوَّعَ أَصْغَرُهُمْ ثَلَاثاً بَعْدَ أَنْ رَدَّهُ عِيسَى وَأَقَرَّهُ فِي الثَّالِثَةِ بَعْدَ إِصْرَارِهِ. وَدَخَلَ الْيَهُودُ بَعْدَ أَنْ رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى، وَدَلَّ أَحَدُ حَوَارِيِّهِ عَلَى شَبِيهِ عِيسَى

ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهُ هُوَ، فَقُبِّلَ رَأْسُهُ وَقَامَتْ رِجَالُ الشُّرْطَةِ بِأَخْذِهِ وَوَضْعِ الشَّوْكِ عَلَى رَأْسِهِ وَالسَّيْرِ بِهِ مَصْلُوباً لِلسَّاحَةِ الْعَامَّةِ إِمْعَاناً فِي إِذْلَالِهِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: "أَنْتَ مَنْ تَزْعُمُ أَنَّكَ تُحْيِي الْمَوْتَى وَتُبْرِئُ الأَعْمَى وَالأَبْرَصَ، خَلِّصْ نَفْسَكَ الآنَ إِنِ اسْتَطَعْتَ!".

وَفِي قِصَّةِ عِيسَى عِبْرٌ وَدُرُوسٌ فِي الدَّعْوَةِ وَالطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى لِلإِبْلَاغِ وَالتَّفْكِيرِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ لِلدَّعْوَةِ؛ فَإِعْدَادُ الْحَوَارِيِّينَ -وَهُمْ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ وَخُلَّصٌ- وَرَفْعُهُ، وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي ظَنَّ الْيَهُودُ أَنَّهُمْ تَخَلَّصُوا بِهَا مِنْ رَأْسِ الدَّعْوَةِ وَبِالتَّالِي دَعْوَتِهِ، كَانَتْ كُلُّهَا مُقَدِّمَاتٍ لِتَسُودَ النَّصْرَانِيَّةُ قُرُوناً بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِلَى الآنَ تُعْتَبَرُ النَّصْرَانِيَّةُ مِنْ أَكْثَرِ الأَدْيَانِ انْتِشَاراً رَغْمَ مَا شَابَهَا مِنْ تَحْرِيفٍ وَتَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ.

فصل: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾

رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى إِلَيْهِ، رُوِيَتْ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ عَنْ كَيْفِيَّةِ رَفْعِ عِيسَى بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ التَّحَقُّقُ مِنْ أَيِّهَا الأَصَحُّ، فَمِنْهَا مَنْ دَلَّ عَلَيْهِ حَيْثُ أَلْقَى اللَّهُ شَبَهَهُ عَلَى مَنْ تَطَوَّعَ (أَصْغَرُ الْحَوَارِيِّينَ) حَسَبَ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِ الأَحَادِيثِ. لَكِنَّ الثَّابِتَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ أَنَّ اللَّهَ تَرَكَهُمْ يَأْخُذُونَ شَبِيهاً ظَنّاً مِنْهُمْ أَنَّهُ هُوَ، وَصَدَقَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

ظَنَّ الْيَهُودُ بِقَتْلِهِمْ عِيسَى أَنَّ مَا يُهَدِّدُ تَحَكُّمَهُمْ فِي عَامَّةِ النَّاسِ وَخِدَاعَهُمْ وَالتَّسَيُّدَ عَلَيْهِمْ قَدِ انْتَهَى، لَكِنَّ عِيسَى كَانَ قَدْ أَعَدَّ الْحَوَارِيِّينَ لِيُبَاشِرُوا التَّبْشِيرَ بَعْدَهُ، لِتُصْبِحَ النَّصْرَانِيَّةُ -رَغْمَ مَا اعْتَرَاهَا مِنْ تَبْدِيلٍ وَتَحْرِيفٍ- أَكْثَرُ الدِّيَانَاتِ انْتِشَاراً عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، يَدِينُ بِهَا الْيَوْمَ مَا يَرْبُو عَنْ اثْنَيْنِ مِلْيَارٍ وَمِائَتَيْ مِلْيُونِ نَسَمَةٍ، أَيْ أَكْثَرُ مِنْ ثُلُثِ سُكَّانِ الْكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى وَلَا يُوجَدُ أَكْثَرُ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ حَوَارِيّاً، وَقِيلَ أَيْضاً كَانَ الْمُؤْمِنُونَ وَقْتَهَا أَوْ بَعْدَهَا بِوَقْتٍ قَلِيلٍ سَبْعِينَ نَصْرَانِيّاً. رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى وَقَالَ:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: 54-55].

فَالْوَفَاةُ هُنَا بِمَعْنَى قَابِضُكَ إِلَيَّ وَرَافِعُكَ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى حَيّاً، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَنْ:

فصل: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

أُسْرِيَ بِنَبِيِّنَا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى مَكَانِ مَهْدِ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الَّذِي جَعَلَهُ مُبَارَكاً وَبَارَكَ حَوْلَهُ حَيْثُ أَمَّ الأَنْبِيَاءَ، وَمِنْ ثَمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَا. فِي الإِسْرَاءِ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ، فَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ يُخَاطِبُ فِيهَا رَبَّهُ وَيُجِيبُهُ وَيُذْهِبُ حُزْنَهُ وَغَمَّهُ. وَهِيَ إِنِ اسْتَطَعْنَا أَنْ نُؤَدِّيَهَا عَلَى الْوَجْهِ الأَكْمَلِ خُشُوعاً لَكَانَتْ لَنَا رَاحَةً تَرْتَاحُ فِيهَا أَرْوَاحُنَا مِنْ ضَنْكِ الْعَيْشِ وَشِدَّتِهِ، وَتَكُونُ سَبِيلاً لَنَا لِلْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ (إِخْرَاجِ الْعِبَادِ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

وَالسَّعَةُ هُنَا أَوَّلاً سَعَةٌ رُوحِيَّةٌ، تَنْعَمُ أَرْوَاحُنَا وَتَسْتَلِذُّ بِالسِّيَاحَةِ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ وَتَتَّصِلُ بِخَالِقِهَا مَنْ كَرَّمَهُ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، فَهُوَ مَنْ نَفَخَ فِي الإِنْسَانِ مِنْ رُوحِهِ فَدَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الطِّينِ. وَكَانَ الرَّسُولُ يَقُولُ : « « يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا » [الألباني] أَرِحْنَا بِهَا »، وَ« كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى » [أبو داود، وحسَّنه الألباني] . وَسَعَةٌ فِي الرِّزْقِ فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

لِذَا أَبَى إِبْلِيسُ إِلَّا أَنْ يَقْعُدَ لِلْمُسْلِمِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، فَإِمَّا يَصُدُّهُ كُلِّيَّةً عَنْهَا فَلَا يُصَلِّهَا وَيَنْشَغِلُ بِاللَّهْوِ بَحْثاً عَنِ الْمُتْعَةِ وَالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ، أَوْ يَنْشَغِلُ بِطَلَبِ الرِّزْقِ عَنْهَا سَعْياً لِلسَّعَةِ فِيهِ، وَمَا عَلِمَ

الْمِسْكِينُ أَنَّ مَا يَطْلُبُ مَوْجُودٌ فِيهَا، وَأَنَّ الشَّيْطَانَ غَرَّهُ وَخَدَعَهُ كَمَا خَدَعَ أَبَاهُ آدَمَ فَأَخْرَجَهُ مِنَ النَّعِيمِ وَالسَّعَةِ لِلضَّنْكِ وَالتَّعَبِ.

فَالشَّيْطَانُ هُوَ الشَّيْطَانُ وَغَايَتُهُ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ إِلَى الْيَوْمِ هِيَ هِيَ: إِخْرَاجُ الإِنْسَانِ مِنْ عِبَادَةِ مَنْ كَرَّمَهُ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ إِلَى عِبَادَةِ الأَرْبَابِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ يَحُطُّونَ مِنْ قِيمَتِهِ وَيُذِلُّونَهُ، وَمِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا تَعَبَ مَعَهُ إِلَى حَيَاةِ الضَّنْكِ وَالْمَشَقَّةِ، وَمِنَ الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُ مَنْهَجَ سَعَادَةٍ وَحَيَاةٍ لِلْقُلُوبِ وَالأَبْدَانِ إِلَى أَدْيَانِ جَوْرٍ تُمِيتُ رُوحَهُ وَتَجْعَلُهُ عَبْداً لِسَدَنَةٍ وَكَهَنَةٍ وَسَادَةٍ نَصَبُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُسَاعَدَةِ الشَّيْطَانِ أَوْصِيَاءَ عَلَى الإِنْسَانِيَّةِ يَهْدُونَ سَبِيلَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ.

أَمَّا إِنْ عَصَى الْمُسْلِمُ الشَّيْطَانَ وَصَلَّى، فَيَعْمِدُ الشَّيْطَانُ لِيَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَلَاتِهِ فَيُوَسْوِسُ لَهُ: "اذْكُرْ كَذَا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، اذْكُرْ كَذَا"« إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ النِّدَاءَ، فَإِذَا قُضِيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ، يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُهُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى » [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] ، فَيَكُونُ جَسَدُهُ فِي الصَّلَاةِ وَرُوحُهُ وَفِكْرُهُ فِي الدُّنْيَا . فَيُصَلِّي صَلَاةً لَا رَاحَةَ وَلَا سَعَادَةَ وَلَا نَعِيمَ لِلرُّوحِ فِيهَا، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: "أَرِحْنَا مِنْهَا لَا بِهَا!". وَلَا مَخْرَجَ إِلَّا بِمُجَاهَدَةِ الشَّيْطَانِ وَغَايَتِهِ لِتَكُونَ الصَّلَاةُ كَمَالَ خُشُوعِ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، فَيَنْعَمُ الإِنْسَانُ بِالْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. فَالصَّلَاةُ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا، فَهَذَا عِيسَى فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ يَقُولُ:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 31-32].

بَارٌّ بِوَالِدَتِهِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ الصِّدِّيقَةِ كَمَا وَصَفَهَا الْقُرْآنُ، وَقَالَ عَنْهَا الرَّسُولُ: « كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ، مِنْهُمْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ »[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ]. الَّتِي بَلَغَتْ أَقْصَى

مَقَامَاتِ الْكَمَالِ، لَمْ يَدْفَعْهَا الْجَانِبُ الأُنْثَوِيُّ مِنْهَا وَاشْتِمَالُهُ عَلَى نَقْصٍ بِسَبَبِ الْعَاطِفَةِ -إِنْ كَانَتْ حُبّاً لِزَوْجٍ أَوْ تَوْقاً لِلْوَلَدِ- أَنْ لَا تَسِيرَ فِي طَرِيقِ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ وَتَبْلُغَ مُنْتَهَاهُ فَتَصِيرَ آيَةً لِلْعَالَمِينَ. أَوْ الْعَاطِفَةُ حِينَ تَعْتَرِي النِّسَاءَ ضَعْفاً فَتَقْعُدَ عَنِ السَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ خَوْفاً مِنْ مُجْتَمَعٍ أَوْ حَاجَةٍ لِمَنْ يُؤَازِرُهَا وَيَشُدُّ مِنْ عَضُدِهَا.

لَكِنَّ مَرْيَمَ بَلَغَتْ مَبْلَغاً لَمْ يَبْلُغْهُ رِجَالٌ كَثِيرٌ، عَابِدَةً لِلَّهِ وَمُرْشِدَةً لِطَرِيقِهِ وَغَايَتِهِ تُسْهِمُ فِي إِخْرَاجِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. خَلَّدَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ وَالإِنْجِيلِ، وَخُلِّدَتْ فِي التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ يَعْرِفُهَا الْيَوْمَ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ أَرْبَعَةِ مِلْيَارَاتٍ مِنَ الْبَشَرِ.

قَدَّسَتِ النَّصَارَى مَرْيَمَ، مِنْهُمْ مَنِ اتَّبَعَ نَهْجَهَا، فَكَثِيرٌ مِنَ الرَّاهِبَاتِ الْيَوْمَ تَرَكْنَ الزَّوَاجَ وَنَذَرْنَ نَفْسَهُنَّ لِلْعِبَادَةِ وَخِدْمَةِ الْمُجْتَمَعِ وَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: 27].

اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْبَشَرِ، لَمْ يُكَلِّفْهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ، بَلْ دَلَّهُمْ عَلَى مَنْهَجِ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ وَالتَّنَعُّمِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، لَكِنَّهُمُ انْحَرَفُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَكَلَّفُوهَا فَوْقَ مَا تُطِيقُ فَوَقَعُوا فِي الْمَحْظُورِ، تَحَوَّلَ مَنْهَجُ اللَّهِ مِنْ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ إِلَى ضِيقٍ وَتَزَمُّتٍ. مَا اسْتَطَاعَتِ الرَّاهِبَاتُ أَجْمَعُهُنَّ أَنْ يَدَعْنَ نِهَائِيّاً شَهْوَةَ الْجِنْسِ وَالْوَلَدِ، فَالْيَوْمَ تُوجَدُ كَنَائِسُ تُبِيحُ الزَّوَاجَ لِلرَّاهِبَاتِ وَالْقَسَاوِسَةِ، وَالأُخْرَى انْجَرَّ أَفْرَادُهَا لِلزِّنَا وَالسُّحَاقِ وَاللِّوَاطِ. وَصَدَقَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32]. فَذَمَّ اللَّهُ الزِّنَا مِنْ وَجْهَيْنِ: الأَوَّلُ كَوْنُهُ فَاحِشَةً، وَالثَّانِي سَبِيلٌ سَيِّئٌ لِقَضَاءِ الْوَطَرِ وَإِفْرَاغِ الشَّهْوَةِ وَالاسْتِمْتَاعِ. مَرْيَمُ الصِّدِّيقَةُ الْقِدِّيسَةُ كَمَا عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّصَارَى،

تَعَجَّبَتْ تَعَجُّبَ الْمُسْتَفْهِمِ الْخَجُولِ كَمَا هُوَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النِّسَاءِ قَبْلَهَا، اسْتَعْجَبَتْ أُمُّ إِسْحَاقَ زَوْجَةُ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72]. بِالإِضَافَةِ لِذَلِكَ كَانَتْ عَاقِراً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29]. فَسَارَةُ زَوْجَةُ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ عَاقِراً، لِذَلِكَ وَهَبَتْهُ هَاجَرَ أَمَتَهَا لَعَلَّهَا تَلِدُ وَلَداً لِإِبْرَاهِيمَ، فَوَلَدَتْ لَهُ إِسْمَاعِيلَ الذَّبِيحَ. بَعْدَ أَنْ حَمَلَتْ هَاجَرُ وَوَضَعَتْ طِفْلَهَا، غَارَتْ سَارَةُ مِنْهَا...

الباب العاشر

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾

◆

فَسارةُ زَوْجَةُ إبراهيمَ كَانَتْ عَاقِراً لَا تَلِدُ، ولِذَلِكَ وَهَبَتْهُ الجَارِيَةَ الَّتِي أَهْدَاهَا إِيَّاهُ النِّمْرُودُ، لَعَلَّهَا تُنْجِبُ لِإبراهيمَ الوَلَدَ. هَاجَرُ أَوَّلُ مَنْ جَرَّتْ ذَيْلَهَا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا فَلَا تَشْتَعِلَ غَيْرَةُ سَارَةَ، وهِيَ طَبِيعَةٌ فِي النِّساءِ لَا تَتْرُكُهَا إِلَّا مَنْ كُمِّلَتْ. ولِذَلِكَ قَالَتْ عَائِشَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ: "«أَلَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟!» [البخاري]"؛ فَمِنْ كَمَالِ الأُنُوثَةِ حُبُّ المَرْأَةِ أَنْ تَمْتَلِكَ الرَّجُلَ وخَاصَّةً العُظَمَاءَ مِنْهُمْ، ولَا تُشَارِكَ فِي قَلْبِهِ وجَسَدِهِ امْرَأَةً أُخْرَى. ولِلْغَيْرَةِ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ قِصَصٌ، مِنْهَا مَا نَزَلَ فِيهَا القُرْآنُ، ومِنْهَا بَيَانُ عَظِيمِ وَفَائِهِ لِخَدِيجَةَ وهِيَ مَيِّتَةٌ، فَمَا غَارَتْ حَبِيبَتُهُ عَائِشَةُ مِن امْرَأَةٍ مِثْلَ مَا غَارَتْ مِنْ خَدِيجَةَ وهِيَ مَيِّتَةٌ؛ فَالرَّسُولُ كَانَ دَائِماً يَذْكُرُهَا، ومَا ذَبَحَ شَاةً إِلَّا أَرْسَلَ لِصُوَيْحِبَاتِ خَدِيجَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأَرْضَاهَا-.

الجَارِيَةُ هَاجَرُ اقْتَرَنَتْ بِنَبِيِّ اللَّهِ إبراهيمَ وحَمَلَتْ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، فَكَانَ لَهَا مَعَ التَّارِيخِ والخُلُودِ فِيهِ شَأْنٌ آخَرُ، فَالقُرْآنُ وغَايَاتُ الرَّحْمَنِ لَا تَعْتَرِفُ بِالنَّسَبِ أَسَاساً لِتَمَيُّزِ الإِنْسَانِ. فَالبَشَرُ -مِنْ حَيْثُ هُمْ بَشَرٌ- مُكَرَّمُونَ جَمِيعاً مِنْ خَالِقِهِمْ، لَا فَرْقَ لِأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ ولَا أَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى، وهِيَ سُلُوكُ مَنْهَجِ اللَّهِ واتِّبَاعُ غَايَتِهِ، فَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13].

لَا فَرْقَ بَيْنَ عَبْدٍ وَحُرٍّ، وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللهُ أَحْرَارًا، فَزَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِبَنِي آدَمَ اسْتِعْبَادَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. والْحُرِّيَّةُ الْحَقِيقَةُ هِيَ اتِّبَاعُ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ واجْتِنَابُ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَلَا يَخْضَعُ الإِنْسَانُ إِلَّا لِرَبِّ السَّمَاءِ مَنْ خَصَّهُ بِالتَّكْرِيمِ والرِّفْعَةِ وأَرَادَ لَهُ النَّعِيمَ والْخُلُودَ. فَلَمَّا عَصَى، أَرْسَلَ رُسُلَهُ وأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيَهْدِيَهُ طَرِيقًا: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 123].

هَاجَرُ حَمَلَتْ بِإِسْمَاعِيلَ ووَضَعَتْهُ وصَارَ رَضِيعًا، وفَرِحَ بِهِ إِبراهيمُ فَرَحاً عَظِيماً وتَعَلَّقَ بِهِ. ورُوِيَ فِي الرِّوَايَاتِ أَنَّ هَاجَرَ غَلَبَتْهَا نَفْسُهَا عَلَى الغَيْرَةِ، لَكِنَّ اللَّهَ كَانَ يُرِيدُ شَيْئاً آخَرَ لِهَاجَرَ وابْنِهَا؛ فَخَرَجَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وهِيَ تُرْضِعُهُ إِلَى الْجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ حَتَّى وَصَلَ مَكَّةَ.

فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، ولَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ولَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ ووَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَاباً فِيهِ تَمْرٌ وسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، وتَرَكَهَا فِي صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ لَا مَاءَ ولَا غِذَاءَ ولَا بَشَرَ، فَقَطْ جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ورِمَالٌ وشَمْسٌ حَرَّاقَةٌ، ولَا أَثَرَ لِحَيٍّ يَسْكُنُ.

ومَعَهَا جِرَابُ مَاءٍ وتَمْرٌ، تَرَكَهَا وأَفَلَ رَاجِعاً. قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقاً فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: "يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ ولَا شَيْءٌ؟!". فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَاراً وجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا. مَاذَا يُجِيبُهَا؟ لَكِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَقَالَتْ لَهُ: "آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟!". قَالَ: "نَعَمْ". قَالَتْ: "إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا". ثُمَّ رَجَعَتْ.

هَاجَرُ مُؤْمِنَةٌ مُتَيَقِّنَةٌ يَقِيناً لَا تُزَحْزِحُهُ الجِبَالُ الرَّوَاسِي أَنَّ اللَّهَ سَيَحْفَظُهَا ولَنْ يَأْمُرَ بِأَمْرٍ فِيهِ هَلَاكُهَا وطِفْلُهَا. رَجَعَتْ قَانِتَةً وتَرَكَتْ إِبْرَاهِيمَ يَذْهَبُ. وإِبْرَاهِيمُ مُؤْمِنٌ أَشَدُّ مِنْهَا؛ فَانْطَلَقَ حَتَّى

إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ ورَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: 37].

فِي هَذَا القَفْرِ الَّذِي رُبَّمَا لَمْ يَسْكُنْهُ بَشَرٌ مُنْذُ طُوفَانِ نُوحٍ عليه السَّلامُ دَعَا إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾، طَلَباً لَهُمْ بِبَشَرٍ ونَاسٍ يَسْكُنُونَ مَعَهُمْ ورِزْقٍ وثَمَرَاتٍ. وتَوَسَّلَ لِلَّهِ فِي بِدَايَةِ الدُّعَاءِ بِأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وإِقَامَةً لِلصَّلَاةِ، وخَتَمَ دُعَاءَهُ بِطَلَبِ الرِّزْقِ لَهُمْ لِيَقُومُوا بِعِبَادَةِ الشُّكْرِ. إِبْرَاهِيمُ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَنْجَاهُ مِنَ النَّارِ ومِنْ قَبْلُ خَلَقَهُ مِنَ العَدَمِ، أَنَّ هَذَا عَلَيْهِ لَيَسِيرٌ.

إِبْرَاهِيمُ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ وآخِذٌ بِالأَسْبَابِ وأَهَمُّهَا دُعَاءُ مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ. وهَاجَرُ مُؤْمِنَةٌ مُتَوَكِّلَةٌ، تُرِكَتْ فِي قَفْرٍ لَا مَاءَ ولَا غِذَاءَ ولَا بَشَرَ ومَعَهَا طِفْلٌ رَضِيعٌ، لَمْ تُوَلْوِلْ وتَنْدُبْ وتَتَسَخَّطْ، فَهَذَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ، لَكِنْ سَعَتْ سَعْيَ الْمُطْمَئِنِّ قَلْبُهُ لِمَوْعُودِ اللَّهِ، وعَلِمَتْ أَنَّ اللَّهَ مُنَفِّذٌ وَعْدَهُ، فَقَطْ عَلَيْهَا السَّعْيُ والِاجْتِهَادُ، فَاللَّهُ قَضَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَنْ يَسْعَى الإِنْسَانُ لِيَنْعَمَ ويَهْنَأَ.

« رَحَلَ إِبْرَاهِيمُ عليه السَّلامُ، وجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وعَطِشَ ابْنُهَا وجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى (أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ). فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَداً؟ فَلَمْ تَرَ أَحَداً. فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتِ

الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا ونَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَداً؟ فَلَمْ تَرَ أَحَداً. ففَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا »[البخاري].

كُلُّ ذَلِكَ بَحْثاً عَنْ مَخْلُوقٍ أَوْ مَاءٍ... سَبْعَ مَرَّاتٍ تَجْرِي كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُلْتَهِبَةِ وفَوْقَ تِلْكَ الرِّمَالِ الْمُحْرِقَةِ!! سَعْياً كَافَأَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَنْ صَارَ شَعِيرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَحُجُّونَ بَيْتَهُ، يَتَذَكَّرُونَ سَعْيَ الأُمِّ هَاجَرَ لِتَجْلِبَ الْمَاءَ والطَّعَامَ لِطِفْلِهَا ويَشْرَبُونَ مِنْ زَمْزَمَ الَّتِي فَجَّرَهَا الْمَلَكُ تَحْتَ أَقْدَامِ إِسْمَاعِيلَ عليهِ السَّلامُ.

« فَبَعْدَ مَا أَكْمَلَتِ الشَّوْطَ السَّابِعَ، أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتاً فَقَالَتْ: "صَهٍ!" (تُرِيدُ نَفْسَهَا)، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضاً فَقَالَتْ: "قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ". فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ (أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ)، ووَجَدَتِ الْمَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِ إِسْمَاعِيلَ والْمَلَكُ مَنْ شَقَّ الأَرْضَ بِجَنَاحِهِ واقِفاً يَقُولُ لَهَا: "لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وأَبُوهُ، وإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ »[البخاري]".

مِنْ فَرْطِ فَرَحِهَا صَارَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُحَوِّضُهُ وتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. أَيْ كَانَتْ تُحِيطُ الْمَاءَ لِكَيْ لَا تَدَعَهُ يَتَدَفَّقُ ويَنْسَابُ بَعِيداً عَنْهَا، وكَانَ كُلَّمَا غَرَفَتْ فَارَ الْمَاءُ مَرَّةً أُخْرَى. ومَا عَلِمَتْ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهَا أَنَّ زَمْزَمَ مَنْ شَرِبَتْ مِنْهَا هِيَ وابْنُهَا ومَنْ سَكَنَ بَعْدَهَا والْمَلَايِينُ إِلَى اليَوْمِ يَشْرَبُونَ مِنْهَا ويَمْلَؤُونَ الأَوْعِيَةَ الكَبِيرَةَ يَرْحَلُونَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِمْ، وتَتَدَفَّقُ زَمْزَمُ مثلمَا تَدَفَّقَتْ أَوَّلَ مَا فَجَّرَهَا الْمَلَكُ قَبْلَ قُرُونٍ. ولَوْ تَرَكَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ولَمْ تُحَوِّطْهُ بِالتُّرَابِ بِيَدِهَا لَكَانَتْ زَمْزَمُ نَهراً يَجْرِي إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كَمَا:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ -أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا » [البخاري].

سَعَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ بَيْنَ الصَّفَا والْمَرْوَةِ سَبْعَ أَشْوَاطٍ، سَعْياً خَلَّدَهُ اللَّهُ بِأَنْ صَارَ مِنْ شَعَائِرِ الْحَجِّ. حَتَّى الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ الإِسْلَامِ كَانُوا يَسْعَوْنَ سَعْيَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، حَتَّى أَنَّ الصَّحَابَةَ تَحَرَّجُوا مِنْ أَنْ يَسْعَوْنَ بَيْنَهُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 158].

﴿ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾؛ إِضَافَةُ تَكْرِيمٍ وإِجْلَالٍ سَنَّهُمَا اللَّهُ اقْتِدَاءً وتَخْلِيداً لِسَعْيِ هَاجَرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ عليهِ السَّلامُ، وتِبْيَاناً لِحَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، اطْمِئْنَانُ القَلْبِ والسَّعْيُ بِالْجَوَارِحِ لِتَحْقِيقِ الْمَطْلُوبِ.

هَاجَرُ مُتَوَكِّلَةٌ، تُرِكَتْ فِي صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ لَمْ تَتَبَرَّمْ أَوْ تَشْكُ عِنْدَمَا عَلِمَتْ أَنَّ هَذَا هُوَ مُرَادُ اللَّهِ، سَعَتْ فَقَطْ لِتَجِدَ الأَسْبَابَ الَّتِي يَجْعَلُ اللَّهُ نَجَاتَهَا فِيهَا.

سَعَتْ تَبْحَثُ عَنِ الأَسْبَابِ الأَرْضِيَّةِ، فَأَمَدَّهَا اللَّهُ بِأَسْبَابِ السَّمَاءِ، أَرَادَتْ مَاءً قَلِيلاً تَسُدُّ بِهَا ظَمَأَهَا فَأَمَدَّهَا اللَّهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، آيَةً مِنْ عِنْدِهِ، تَشْرَبُ وشَرِبَ مِنْهُ الْمَلَايِينُ ويَقُصُّونَهُ ويَأْخُذُونَ مِنْهُ إِلَى بِلَادِهِمْ. أَرَادَتْ تَنْجُو هِيَ وابْنُهَا، فَجَعَلَهَا اللَّهُ هِيَ وابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ، اليَوْمَ مِلْيَارٌان ونيف مُسْلِمٍ يَوَدُّ مُعْظَمُهُمْ أَنْ يَحُجَّ بَيْتَ اللَّهِ فَيَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا والْمَرْوَةِ اقْتِدَاءً بِسَعْيِ هَاجَرَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ عليهما السَّلامُ. تَحَقَّقَ الجُزْءُ الأَوَّلُ مِنْ دَعْوَةِ إِبراهيمَ لَهُمَا: ﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾.

« مَرَّ بِهِمْ رَهْطٌ مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُمَ فَرَأَوُا الطَّيْرَ يَحُومُ حَوْلَ زَمْزَمَ فَقَالُوا: "إِنَّ هَذَا الطَّيْرَ لَعَائِفٌ مَاءً"، أَيْ وجَدَ مَاءً، ومَا هَذَا بِمَكَانِ مَاءٍ لِعِلْمِهِمْ بِهَذَا سَبَقاً. فَأَرْسَلُوا نَفَراً مِنْهُمْ إِلَى مَكَانِ زَمْزَمَ فَوَجَدُوا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وابْنَهَا، فَاسْتَأْذَنُوهَا فِي الإِقَامَةِ مَعَهَا فَوَافَقَتْ بِشَرْطِ أَنْ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الْمَاءِ

فَرَضُوا بِذَلِكَ »[البخاري]. كَمَا فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ، جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ مَنْ تَؤوي وتَوَدُّ أَنْ تُقِيمَ مَعَ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ فَيُؤْنِسُوا وحْشَتَهَا.

إِبْرَاهِيمُ مُجَدِّدُ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ فِي الأَرْضِ بَعْدَ نُوحٍ عليهِ السَّلامُ، بَانِي بَيْتِ اللَّهِ فِي الأَرْضِ الَّذِي سَيَحُجُّهُ الأَنْبِيَاءُ، وتَحُجُّهُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، الْمَنُوطَةِ بِهَا حَمْلُ رَايَةِ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ؛ إِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ. مَنُوطَةٌ بِهَذِهِ الأُمَّةِ حَمْلُ هَذِهِ الرَّايَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، مَنْ قَالَ فِيهِ الخَالِقُ جَلَّ وعَلَا:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل: 120-122].

الأُمَّةُ الْجَامِعُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ، وأُمَّةٌ أَيْضاً فِي الفَعَالِيَّةِ؛ فَلَوْ قِيسَ جُهْدُ إِبْرَاهِيمَ بِجُهْدِ أُمَمٍ لَفَاقَهُمْ فِي مِضْمَارِ الإِرَادَةِ والسَّعْيِ لِخَيْرِ البَشَرِيَّةِ ونَفْعِهِمْ، وحَمْلِ رَايَةِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وسَعْيِهِ لِدَحْرِ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ. أَرَادَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَرْتَقِيَ إِلَى مَرْتَبَةٍ لَمْ يَصِلْهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ ولَا بَعْدَهُ مَاعَدَا نَبِيَّنَا مُحَمَّداً ﷺ (حَفِيدَ إِبْرَاهِيمَ وتَحْقِيقَ دَعْوَتِهِ لِلَّهِ الَّتِي سَأَلَ اللَّهَ فِيهَا قَائِلاً):

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 127-129].

أَلَا وهُوَ مَقَامُ الْخُلَّةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: 125].

فصل: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

◆

مَا هِيَ الخُلَّةُ وكَيْفَ تَرَقَّى إِبْرَاهِيمُ لَهَا ومَا فَائِدَتُهَا لِمَنْ حَمَلُوا لِوَاءَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، ومَا مُتَطَلَّبَاتُهَا وتَبِعَاتُهَا؟

قَالَ ثَعْلَبُ: إِنَّمَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلاً لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ تَتَخَلَّلُ القَلْبَ فَلَا تَدَعُ فِيهِ خَلَلاً إِلَّا مَلَأَتْهُ، وأَنْشَدَ قَوْلَ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ:

قَدْ تَخَلَّلْتِ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وبِهِ سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلَا (الطبري).

ومَعْنَى الخَلِيلِ: الَّذِي لَيْسَ فِي مَحَبَّتِهِ خَلَلٌ؛ فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سُمِّيَ خَلِيلاً لِلَّهِ بِأَنَّهُ الَّذِي أَحَبَّهُ واصْطَفَاهُ مَحَبَّةً تَامَّةً. وجَائِزٌ أَنْ يُسَمَّى خَلِيلَ اللَّهِ أَيْ فَقِيراً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ فَقْرَهُ ولَا فَاقَتَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُخْلِصاً فِي ذَلِكَ. والِاخْتِلَالُ الفَقْرُ، فَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا رُمِيَ بِالْمَنْجَنِيقِ وصَارَ فِي الهَوَاءِ أَتَاهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَقَالَ: "أَلَكَ حَاجَةٌ؟". قَالَ: "أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا". فَخُلَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ نَصْرَتُهُ إِيَّاهُ. (الطبري).

وفِي تَفْسِيرِ السَّعْدِيِّ: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾؛ والخُلَّةُ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ، وهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ حَصَلَتْ لِلْخَلِيلَيْنِ مُحَمَّدٍ وإِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِما الصَّلَاةُ والسَّلَامُ-، وأَمَّا الْمَحَبَّةُ مِنَ اللَّهِ فَهِيَ لِعُمُومِ

الْمُؤْمِنِينَ، وإِنَّمَا اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً لِأَنَّهُ وفَّى بِمَا أُمِرَ بِهِ وقَامَ بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ إِمَاماً لِلنَّاسِ، واتَّخَذَهُ خَلِيلاً، ونَوَّهَ بِذِكْرِهِ فِي الْعَالَمِينَ.

قَالَ الآلُوسِيُّ: "والخَلِيلُ مُشْتَقٌّ مِنَ الخُلَّةِ -بِضَمِّ الخَاءِ- وهِيَ إِمَّا مِنَ الخِلَالِ -بِكَسْرِ الخَاءِ- فَإِنَّهَا مَوَدَّةٌ تَتَخَلَّلُ النَّفْسَ وتُخَالِطُهَا مُخَالَطَةً مَعْنَوِيَّةً، فَالخَلِيلُ مَنْ بَلَغَتْ مَوَدَّتُهُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ. وإِمَّا مِنَ الخَلَلِ عَلَى مَعْنَى أَنَّ كُلاًّ مِنَ الخَلِيلَيْنِ يُصْلِحُ خَلَلَ الآخَرِ. وإِمَّا مِنَ الخَلِّ -بِالْفَتْحِ- وهُوَ الطَّرِيقُ فِي الرَّمْلِ، لِأَنَّهُمَا يَتَوَافَقَانِ عَلَى طَرِيقَةٍ. وإِمَّا مِنَ الخَلَّةِ -بِفَتْحِ الخَاءِ- بِمَعْنَى الخَصْلَةِ لِأَنَّهُمَا يَتَوَافَقَانِ فِي الخِصَالِ والأَخْلَاقِ". وأُطْلِقَ الخَلِيلُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ تَخَلَّلَتْ نَفْسَهُ وخَالَطَتْهَا مُخَالَطَةً تَامَّةً، أَوْ لِتَخَلُّقِهِ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ تَعَالَى.

والْمَعْنَى: واتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً لَهُ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ -عليه السَّلامُ- كَانَ خَالِصَ الْمَحَبَّةِ لِخَالِقِهِ -عَزَّ وجَلَّ- ومُبْغِضاً لِكُلِّ مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ مِنَ الشَّرِيكِ والأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وغَيُوراً عَلَى إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وعَلَى تَمْكِينِ دِينِهِ فِي الأَرْضِ؛ فَوَصَفَهُ اللَّهُ -تَعَالَى- بِهَذَا الوَصْفِ الجَلِيلِ، وأَسْبَغَ عَلَيْهِ الكَثِيرَ مِنْ أَلْوَانِ نِعَمِهِ وفَضْلِهِ. (الوسيط للطنطاوي).

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ أَيْ صَفِيّاً، والخُلَّةُ: صَفَاءُ الْمَوَدَّةِ. وقَوْلُهُ: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ عَطْفُ ثَنَاءٍ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مَدْحِ مَنِ اتَّبَعَ دِينَهُ زِيَادَةَ تَنْوِيهٍ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ. والخَلِيلُ فِي كَلَامِ العَرَبِ الصَّاحِبُ الْمُلَازِمُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ صَاحِبِهِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الخِلَالِ، وهُوَ النَّوَاحِي الْمُتَخَلِّلَةُ لِلْمَكَانِ: ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [النور: 43]، ﴿ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: 33]. هَذَا أَظْهَرُ الوُجُوهِ فِي اشْتِقَاقِ الخَلِيلِ. ويُقَالُ: خِلٌّ وخُلٌّ بِكَسْرِ الخَاءِ وضَمِّهَا، ومُؤَنَّثُهُ: خُلَّةٌ بِضَمِّ الخَاءِ، ولَا يُقَالُ بِكَسْرِ الخَاءِ. قَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ:

أَكْرِمْ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ

وَجَمْعُهَا خَلَائِلُ. وتُطْلَقُ الخُلَّةُ بِضَمِّ الخَاءِ عَلَى الصُّحْبَةِ الخَالِصَةِ: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: 254]، وجَمْعُهَا خِلَالٌ: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ [إبراهيم: 31]. ومَعْنَى اتِّخَاذِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً شِدَّةُ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ، إِذْ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ الخُلَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ تَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ فَأُرِيدَ لَوَازِمُهَا وهِيَ الرِّضَى، واسْتِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وذِكْرُهُ بِخَيْرٍ، ونَحْوُ ذَلِكَ.تفسير التحرير والتنوير | الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

وقَوْلُهُ: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ، حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ العِبَادُ لَهُ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الخُلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ، ومَا ذَاكَ إِلَّا لِكَثْرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ، كَمَا وَصَفَهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: 37]. قَالَ كَثِيرُونَ مِنَ السَّلَفِ: أَيْ قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ ووَفَّى كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ جَلِيلٌ عَنْ حَقِيرٍ، ولَا كَبِيرٌ عَنْ صَغِيرٍ. وقَالَ تَعَالَى:

﴿ * وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: 124].

وقَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل: 120-122].

وقَالَ البُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: "إِنَّ مُعَاذاً لَمَّا قَدِمَ اليَمَنَ صَلَّى الصُّبْحَ بِهِمْ، فَقَرَأَ: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ

إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: لَقَدْ قَرَّتْ عَيْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ".تفسير القرآن العظيم" للإمام ابن كثير

فَالخُلَّةُ هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ، فَمَحَبَّةُ اللَّهِ لِإِبْرَاهِيمَ أَعْلَى دَرَجَاتِ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِأَيِّ مَنْ خَلَقَ. وهَلْ يُحِبُّ اللَّهُ خَلْقَهُ؟ نَعَمْ. فَلَا عَجَبَ مِمَّنْ يُحِبُّ الْمَخْلُوقُ خَالِقَهُ اللَّهَ الَّذِي كَرَّمَهُ عَلَى جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ وحَمَلَهُ فِي البَرِّ والْبَحْرِ، وأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، وطَرَدَ الشَّيْطَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ لِرَفْضِ تَكْرِيمِ الإِنْسَانِ. اللَّهُ مَنْ هُوَ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الأُمِّ بِوَلَدِهَا.ومَا رَحْمَةُ الخَلْقِ لِبَعْضِهِمُ البَعْضِ، رَحْمَةُ الأُمِّ عَلَى وَلِيدِهَا والقَرِيبِ عَلَى قَرِيبِهِ، بَلْ حَتَّى البَهَائِمِ، رَحْمَةُ البَهِيمَةِ بِوَلَدِهَا تُرْضِعُهُ وتَدْفَعُ عَنْهُ ولَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهَا، كُلُّ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ مِئَةِ جُزْءٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وتَرَكَ بَقِيَّةَ التِّسْعِ وتِسْعِينَ جُزْءاً لِيَوْمِ القِيَامَةِ. فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

« جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ » [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

بَلِ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَ عَرْشِهِ أَنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي. والْحَدِيثُ أَيْضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

« إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

وصِفَاتُهُ سُبْحَانَهُ صِفَاتُ كَمَالٍ، فَهُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِكَمَالِ الْجَمَالِ والْجَلَالِ. فَالْمَخْلُوقُ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ، ولَوْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ لَأَحَبَّ اللَّهَ حُبّاً يَمْلِكُ شَغَافَ قَلْبِهِ ولَا يَتْرُكُ لِمَخْلُوقٍ آخَرَ مَكَاناً فِي قَلْبِهِ. ولِذَلِكَ نَجِدُ العَارِفِينَ والْعُبَّادَ والنَّاسِكِينَ مِمَّنْ سَعَوْا لِتَفْرِيغِ قُلُوبِهِمْ حَتَّى مِنْ مُبَاحَاتِ الدُّنْيَا وانْقَطَعُوا عَنْهَا طَلَباً لِتَعَلُّقِ قُلُوبِهِمْ بِاللَّهِ، نَجِدُهُمْ دَوْماً يَنْطِقُونَ بِحُبِّهِ سُبْحَانَهُ ويَسْعَوْنَ لِمَقَامٍ

يَتَفَرَّغُ قَلْبُهُمْ مِنْ سِوَاهُ لِمَا عَلِمُوا مِنْ صِفَاتِهِ. فَأَنْ يُحِبَّ العَبْدُ رَبَّهُ لَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ، بَلْ هُوَ مَطْلَبٌ لَوْ عَلِمَ العَبْدُ قَدْرَهُ وفَضْلَهُ وعُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا مَا ارْتَضَى بَدَلاً مِنْ أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ.

فصل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾

◆

كُلُّ مَا تَعَلَّقَ قَلْبُكَ بِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّمَا هُوَ لِتَعَبِكَ وَشَقَائِكَ، فَتُصْبِحُ مَشَاعِرُكَ مُسْتَرَقَّةً لَهُمْ، وَيَمُنُّونَ عَلَيْكَ بِالنَّظْرَةِ وَاللِّقَاءِ، وَقَدْ لَا تَجِدُهَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ وَتَعَبٍ وَسَعْيٍ. فَهَذَا مَجْنُونُ لَيْلَى (قَيْسُ بْنُ الْمُلَوَّحِ) أَفْنَى عُمُرَهُ فِي غَمَرَاتِ وَجْدِهِ بِهَا، أَنْشَدَ الْأَشْعَارَ، وَهَامَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَنَحُلَ جِسْمُهُ، وَخَاطَرَ بِنَفْسِهِ لِقَاءَ نَظْرَةٍ، وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا رَفَضَ أَهْلُهَا أَنْ يُزَوِّجُوهُ لَيْلَى.

صَحِيحٌ سَارَتْ بِشِعْرِهِ الرُّكْبَانُ، وَاسْتَمْتَعَتِ الْعَرَبُ بَعْدَهُ بِأَدَبٍ صَادِقٍ نَابِعٍ مِنْ نَفْسٍ أَضْنَاهَا الْبِعَادُ، لَكِنَّهُ قَضَى حَيَاتَهُ تَعِيسًا هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ، وَوُجِدَ مَيْتًا بَيْنَ الْأَحْجَارِ، وَمَا امْتَلَأَتْ نَظَرَاتُهُ مِنْ مَحْبُوبَتِهِ. وَقَدْ قَالَ شَاهِدٌ عَلَى نَفْسِهِ مُقِرًّا بِعَقِيمِ سَعْيِهِ:

وَمَا نِلْتُ مِنْهَا نَظْرَةً تُشْفِي الْجَوَى ... بَلِ الشَّقْوُ مِمَّا نِلْتُ كَانَ أَدِينَا

(وَالْأَدِينُ هُنَا بِمَعْنَى الْأَقْرَبِ أَوِ الْأَلْزَمِ؛ أَيْ أَنَّ نَيْلَهُ لَمْ يَشْفِ مَا بِهِ مِنْ وَجْدٍ، بَلْ كَانَ الشَّقَاءُ هُوَ رَفِيقَهُ الْأَقْرَبَ).

وَلَعَلَّ أَبْلَغَ بَيْتٍ يَصِفُ كَيْفَ أَنَّ هَذَا التَّعَلُّقَ صَارَ عَنَاءً خَالِصًا لَا نَفْعَ فِيهِ، هُوَ تَشْبِيهُهُ لِحَالِهِ بِقَوْلِهِ:

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَقَابِضٍ ... عَلَى الْمَاءِ، خَانَتْهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ

فَهُوَ يُشَبِّهُ كُلَّ كَدِّهِ وَسَعْيِهِ خَلْفَهَا بِمَنْ يُحَاوِلُ إِمْسَاكَ الْمَاءِ بِيَدَيْهِ، فَمَهْمَا بَذَلَ مِنْ مَجْهُودٍ وَتَعَبٍ، يَخْرُجُ فِي النِّهَايَةِ بِصِفْرِ الْيَدَيْنِ. وَفِي مَقَامِ فَنَاءِ الْجَسَدِ وَنُحُولِهِ حُزْنًا، يَقُولُ:

أَلَا يَا حَمَامَاتِ الْعِرَاقِ أَعِنَّنِي ... عَلَى شَجَنِي، حَتَّى نَنُوحَ سَوِيًّا

فَإِنِّي مِنَ الْحُبِّ الْمُبَرِّحِ لَمْ أَزَلْ ... نَحِيلًا، لِأَشْوَاقِي أَذُوبُ قَصِيًّا

وهَذَا "عَنْتَرَةُ"، فَارِسٌ مُغْوَارٌ خَاضَ لِأَجْلِ "عَبْلَةَ" الْمَعَارِكَ العِظَامَ، مَادِحاً نَفْسَهُ ومُرَغِّباً عَبْلَةَ وأَهْلَهَا فِيهِ بِمَا نَالَهُ مِنْ عِزٍّ وشَرَفٍ، حَيْثُ يَقُولُ:

هَلَاَّ سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ... إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي ... أَغْشَى الْوَغَى وأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

ولَمْ يَكْتَفِ بِفِعْلِهِ، بَلْ أَنْشَدَ طَالِباً رِضَاهَا بِبُلُوغِ المَرَاتِبِ القَصِيَّةِ:

دَعْنِي أَجِدُّ إِلَى العَلْيَاءِ فِي الطَّلَبِ ... وأَبْلُغُ الغَايَةَ القُصْوَى مِنَ الرُّتَبِ

لَعَلَّ عَبْلَةَ تُضْحِي وهِيَ رَاضِيَةٌ ... عَلَى سَوَادِي وتَمْحُو صُورَةَ الغَضَبِ

يَا عَبْلَ قُومِي انْظُرِي فِعْلِي ولَا تَسَلِي ... عَنِّي الحَسُودَ الَّذِي يُنْبِيكِ بِالكَذِبِ

لَقَدْ أَحَبَّ عَنْتَرُ عَبْلَةَ حُبّاً اسْتَهْلَكَ لُبَّهُ وحَيَاتَهُ، فَقَدْ كَانَ يَذْكُرُهَا فِي أَحْلَكِ مَوَاطِنِ الوَغَى، حِينَ تَبَارَقُ السُّيُوفُ فَوْقَ الرُّؤُوسِ، فِي مَشْهدٍ يَنْدُرُ فِيهِ الوفاءُ، حَيْثُ يَقُولُ:

ولَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ ... مِنِّي وبِيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

إِنَّهُ حُبٌّ مَا تَرَكَ لِصَاحِبِهِ مَهْلَكَةً إِلَّا وأَلْقَاهُ فِيهَا. لَكِنْ، مَاذَا لَقِيَ أَشْجَعُ العَرَبِ وأَحْسَنُهُمْ خُلُقًا؟ مَا لَقِيَ عَنْتَرُ سِوَى الجُحُودِ والنُّكْرَانِ مِنْ عَمِّهِ (وَالِدِ عَبْلَةَ)، الذي حَصَرَ قِيمَتَهُ فِي "رِقِّهِ" لِأَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ أَمَةً، غَافِلاً عَنْ نُبْلِ رُوحِهِ وسُمُوِّ فِعْلِهِ.

ولَا يَضِيرُ عَنْتَرَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ الذي كَرَّمَ البَشَرَ جَمِيعاً، ولَا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الحَامِلِينَ لِلرَّايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ (رَايَةِ تَكْرِيمِ الإِنْسَانِ كَائِناً مَنْ كَانَ)؛ فَهَاجَرُ "الأَمَةُ" خَلَّدَهَا اللَّهُ فِي دِينِهِ وتَارِيخِهِ، وجَعَلَ مِنْ سَعْيِهَا مَنْسَكاً، وخَلَّدَ ابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ نَبِيّاً رَسُولاً.

لَكِنَّ عَنْتَرَ لَمْ يُدْرِكِ الإِسْلَامَ الذي كَانَ سَيُحَرِّرُ قَلْبَهُ مِنْ قَيْدِ طَلَبِ الرِّضَا مِنَ المَخْلُوقِ إِلَى عِزَّةِ الرِّضَا مِنَ الخَالِقِ؛ لَكِنَّ عَنْتَرَ لَمْ يُدْرِكِ الْإِسْلَامَ الَّذِي كَانَ سَيُحَرِّرُ قَلْبَهُ مِنْ قَيْدِ طَلَبِ الرِّضَا مِنَ الْمَخْلُوقِ إِلَى عِزَّةِ الرِّضَا مِنَ الْخَالِقِ؛ فَكَمَا قَالَ أَحْمَدُ شَوْقِي: "لَوْ أَدْرَكَ عَنْتَرَةُ الْإِسْلَامَ مَا كَبَا ... ومَا قَالَ: اذْكُرِي يَا عَبْلَةُ أَيَّامَ الصِّبَا"، أَيْ لَسَخَّرَ هَذِهِ القُوَّةَ الجَبَّارَةَ والشَّجَاعَةَ النَّادِرَةَ فِي خِدْمَةِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ العُلْيَا، بَدلاً مِنْ أَنْ يَفْنِيَهَا فِي اسْتِرْضَاءِ مَنْ لا يَرَى قِيمَتَهُ.

إِنَّ حُبَّ كُلِّ مَا دُونَ اللَّهِ يَنْقَسِمُ إِلَى مَسْلَكَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا:

أولاً: مَقَامُ الكَمَالِ البَشَرِيِّ (المَحَبَّةُ المَشْرُوعَةُ)

وهُوَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِيَسُدَّ بِهِ ضَعْفَ الإِنْسَانِ، ويُعِينَهُ عَلَى السَّيْرِ فِي سَبِيلِ سَعْيِهِ نَحْوَ الكَمَالِ عَبْرَ "الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ". فَالإِنْسَانُ مَخْلُوقٌ مَفْطُورٌ عَلَى الاحْتِيَاجِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وهَذَا الضَّعْفُ يَجْعَلُهُ يَفْتَقِرُ إِلَى الصَّاحِبَةِ والوَلَدِ، فَجَاءَ التَّشْرِيعُ مُهَذِّباً لِهَذَا الاحْتِيَاجِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]. فَالْمَوَدَّةُ هُنَا هِيَ "الحُبُّ المَشْرُوعُ"؛ ذَلِكَ الرِّبَاطُ الَّذِي يَسْكُنُ إِلَيْهِ القَلْبُ فَيَقْوَى عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وإِعْمَارِ الأَرْضِ، فَكَانَ حُبّاً يُؤَدِّي إِلَى الكَمَالَاتِ.

ثانياً: مَقامُ الضَّعْفِ المُهْلِكِ (التَّعَلُّقُ المَذْمُومُ)

وهُوَ الضَّعْفُ البَشَرِيُّ الخالِصُ الَّذِي لَمْ يُهَذِّبْهُ الشَّرْعُ، بَلْ هُوَ "غَايَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ" زَيَّنَهَا الشَّيْطَانُ لِشَقَاءِ الإِنْسَانِ وَهَلَاكِهِ. هَذَا المَسْلَكُ يَدْفَعُ المَرْءَ لِيَخْدِمَ مَصَالِحَ غَيْرِهِ بِلَا وَعْيٍ، وَيَصِلُ بِهِ إِلَى دَرَجَةِ "الاسْتِرْقَاقِ الوجداني"؛ فَيَصِيرَ القَلْبُ رَهْنَ إِشَارَةِ مَحْبُوبِهِ، يُسَيِّرُهُ حَيْثُ شَاءَ وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ عَنَتُهُ وَبَوَارُهُ.

وَمِنْ هُنَا جَاءَ القَوْلُ أَنَّ "العُظَمَاءَ لَا تَتَمَلَّكُهُمُ الأَهْوَاءُ"؛ أَيْ أَنَّ مَنْ مَلَكَ قَلْبَهُ—بِفَضْلِ اللَّهِ—لَا يَنْسَاقُ خَلْفَ تَعَلُّقَاتٍ تَدْفَعُهُ لِتَرْكِ مَعَالِي الأُمُورِ وَطَلَبِ العَظَائِمِ سَعْياً وَرَاءَ رِضَا مَخْلُوقٍ قَدْ لَا يَرْضَى أَبَداً.

إِنَّ الحُبَّ ضَعْفٌ لَوْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ المَشْرُوعَ حَتَّى أَهْلَكَ صَاحِبَهُ فِي أَوْدِيَةِ التَّعَلُّقِ، لَكِنَّ حُبَّ اللَّهِ هُوَ الحُبُّ الوَحِيدُ الَّذِي يَجْبُرُ كَسْرَ الضَّعْفِ البَشَرِيِّ وَيَقُودُ نَحْوَ كَمَالِ الرُّوحِ.

فَكَيْفَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ؟

اللَّهُ مَنْ لَا يَحْتَاجُ لِطَاعَتِكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ وَلَا تَنْقُصُهُ مَسْأَلَةُ الخَلْقِ جَمِيعاً لَوِ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ واحِدٍ وسَأَلَ كُلٌّ مَسْأَلَتَهُ فَأَعْطَاهُمْ مَا أَنْقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ شَيْئاً. فَهَذَا هُوَ العَجِيبُ، فَلَوْ أَحَبَّكَ اللَّهُ قَالَ تَعَالَى:

« مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ » [البخاري].

لِيُكْمِلَ نَقْصَكَ البَشَرِيَّ ونَقْصَ صِفَاتِكَ؛ فَنَظَرُكَ ضَعِيفٌ لَنْ يُحِيطَ بِمَا تَرْجُوهُ فَيُمِدُّكَ اللَّهُ بِبَصَرٍ مِنْهُ، وسَمْعُكَ ضَعِيفٌ لَا يُحِيطُ بِمَا يَرْجُو نَفْعَهُ أَوْ مَا يَدْفَعُ الضَّرَّ عَنْكَ فَيُكْمِلُكَ اللَّهُ بِسَمْعٍ مِنْهُ. تُرِيدُ أَنْ تَبْطِشَ بِمَنْ يُعَادِيكَ وتَهْزِمَهُ لَكِنَّكَ ضَعِيفٌ لَا تَمْلِكُ قُوَّةً، يُمِدُّكَ اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِنْهُ، وأَعْظَمُهَا أَنْ تَصِيرَ وَلِيّاً لِلَّهِ؛ مَنْ عَادَاكَ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ وآذَنَهُ اللَّهُ بِالحَرْبِ والدَّمَارِ.

فصل: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾

◆

وإِبْرَاهِيمُ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ خَلِيلَهُ -وهِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ- فَلَا بُدَّ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَعْلَى الكَمَالَاتِ البَشَرِيَّةِ. والإِنْسَانُ خُلِقَ ضَعِيفاً، هوى الْمُلْكِ والْخُلْدِ جَعَلَتْ لِإِبْلِيسَ مَدْخَلاً إِلَيْهِ فَأَشْقَاهُ وأَخْرَجَهُ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ. ومِنْ ضَعْفِ الإِنْسَانِ عَاطِفَةُ الحُبِّ الَّتِي لَوْ تَمَكَّنَتْ مِنَ القَلْبِ لَأَذَلَّتِ الإِنْسَانَ.

وإِبْرَاهِيمُ بَلَغَ كُلَّ الكَمَالَاتِ، لَكِنَّ الوَلَدَ مَنِ انْتَظَرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ثُمَّ جَاءَ مِنْ هَاجَرَ، رُبَّمَا تَعَلَّقَ شَغَافٌ مِنْ قَلْبِ إِبْرَاهِيمَ بِهِ. ولَكِنَّ إِبْرَاهِيمَ مَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِمُهِمَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ الْمَهَامِّ فِي التَّارِيخِ، ومِنْ بَيْنِ أَنْبِيَائِهِ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أُولِي العَزْمِ مِنْهُمْ. لِيُنْقِذَ نَفْسَهُ والبَشَرِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ خَالِصاً لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ الفَرْدِ الصَّمَدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ وحُكْمِهِ. فَأَرَادَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ تَزُولَ هَذِهِ "الشَّغْفَةُ" فَلَا تَكُونَ مَدْخَلاً لِلشَّيْطَانِ لِإِشْقَائِهِ، وأَرَادَ اللَّهُ لِقَلْبِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَكُونَ خَالِصاً خُلُوصاً لَا تَشُوبُهُ شَائِبَةٌ لِرَبِّ الأَرْبَابِ ومُسَبِّبِ الأَسْبَابِ.

طَبْعًا لَا بُدَّ لِلشَّيْطَانِ مِنْ مَسْعًى حَتَّى لَا يَبْلُغَ إِبْرَاهِيمُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، فَقَدْ سَعَى لِإِبْرَاهِيمَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ، لَكِنَّ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ -فِي سَبِيلِ السَّعْيِ لِلْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَاجْتِنَابِ الْغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ- «رَجَمَهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ» [صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ]،

فَصَارَ ذَلِكَ مَنْسَكًا وَشَعِيرَةً لِأُمَّةٍ تَعْدَادُهَا الْيَوْمَ مِلْيَارَانِ وَنِيِّفٌ، لِيَتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَرْجُمُوا الشَّيْطَانَ فِي الْحَجِّ حِسِّيًّا. يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الشَّيْطَانَ تَرْجُمُونَ، وَمِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ تَتَّبِعُونَ» [الْحَاكِمُ]، وَيَرْجُمُوهُ فِي الْحَيَاةِ مَعْنَوِيًّا بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِ اللهِ. وَلِيَذْكُرُوا غَايَتَهُ وَوَعْدَهُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَمَا رَفَضَ أَمْرَهُ بِالسُّجُودِ تَكْرِيمًا لِأَبِينَا آدَمَ : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]، فَقَعَدَ لِإِبْرَاهِيمَ كَيْ لَا يَبْلُغَ أَسْمَى الْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ: خُلَّةَ اللهِ تَعَالَى.

فَفِي الْحَدِيثِ: "لَمَّا أَتَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللهِ الْمَنَاسِكَ، عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَرَجَمَهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ، فَرَجَمَهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ، فَرَجَمَهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ". (رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ وَصَحَّحَهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ).

فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَذْبَحَ تَعَلُّقَ إِبْرَاهِيمَ بِوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ لِيَبْلُغَ إِبْرَاهِيمُ غَايَةَ وَنِهَايَةَ الكَمَالَاتِ البَشَرِيَّةِ. نَامَ إِبْرَاهِيمُ وَفِي المَنَامِ: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: 102]. رَأَى فِي المَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ فِلْذَةَ كَبِدِهِ، ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ، بَعْدَ فَتْرَةِ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ لَمْ يَرْزُقِ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ فِيهَا الوَلَدَ. وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَعْلَمُ أَنَّ رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ فَهِيَ لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَقَّقَ، ذَهَبَ لِوَلَدِهِ مُمْتَثِلاً أَمْرَ رَبِّهِ: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾.

هَلْ جَزِعَ إِسْمَاعِيلُ؟ هَلْ سَخِطَ عَلَى وَالِدِهِ وَرَفَضَ الأَمْرَ؟ كَلَّا! بَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ وَتَرْبِيَةُ نَبِيٍّ وَمُؤْمِنَةٍ هَاجَرَ، امْتَثَلَ قَائِلاً: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: 102]. فَافْعَلْ وَلَا تَجْزَعْ لِي أَمْرِي، سَأَصْبِرُ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ. فَجَمِيعُهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ بِهَذَا إِلَّا لِحِكْمَةٍ وَخَيْرٍ وَإِنْ جَهِلُوا حَقِيقَتَهُ، وَلِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَايَشُوا الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةَ وَأَثَرَهَا فِي حَيَاتِهِمُ اليَوْمِيَّةِ.

وصَدَقَ جَلَّ مَنْ قَالَ فِي حَقِّ اليَهُودِ وبَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ عَايَشُوا الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ حَيْثُ أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِمُوسَى مِنْ ضَنْكِ العُبُودِيَّةِ لِفِرْعَوْنَ ومَا أَصَابَهُمْ مِنْ قَتْلٍ وذُلٍّ واضْطِهَادٍ إِلَى فَضَاءِ الْحُرِّيَّةِ وعِبَادَةِ اللَّهِ مَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ والسَّلْوَى ورَزَقَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، لَكِنَّهُمْ مَا بَلَغُوا أَبَداً كَمَالَاتِ العَيْشِ وفْقَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا * ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: 66-70].

فَحَتَّى لَوْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ القَتْلَ وتَرْكَ الدِّيَارِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَكِنَّهُمْ أَبَداً مَا فَهِمُوا الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. لَكِنَّ إِسْمَاعِيلَ وإِبْرَاهِيمَ عَايَشُوا وفَهِمُوا الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ ومَآلَاتِهَا فَامْتَثَلُوا لِتُسَطَّرَ فِي التَّارِيخِ قِصَّةٌ أُخْرَى مِنْ قِصَصِ الخُلُودِ البَشَرِيِّ.

الآنَ إِسْمَاعِيلُ مُلْقًى عَلَى الأَرْضِ، ورُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ: "ضَعْ وجْهِي عَلَى الأَرْضِ حَتَّى لَا تَرَانِي فَتَحِنَّ"، وإِبْرَاهِيمُ بِيَدِهِ السِّكِّينُ وجَّهَهَا نَحْوَ عُنُقِ ابْنِهِ لِيَنْحَرَهُ، مَا تَرَدَّدَ ولَا تَرَاجَعَ. أَيُّ ابْتِلَاءٍ هَذَا؟! أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ مَنْ جَاءَهُ بَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ، وأَرَادَ اللَّهُ -كَمَا نَظُنُّ- أَنْ يَذْبَحَ إِبْرَاهِيمُ "الشَّغَفَةَ" الَّتِي فِي القَلْبِ والَّتِي تَعَلَّقَتْ بِحُبِّ إِسْمَاعِيلَ، وبِذَبْحِهَا يَكُونُ قَلْبُ إِبْرَاهِيمَ خَالِصاً لِمَوْلَاهُ فَيُرْفَعَ مَرْتَبَةً هِيَ أَعْلَى الكَمَالَاتِ البَشَرِيَّةِ عَلَى الإِطْلَاقِ: مَرْتَبَةُ الخُلَّةِ؛ ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾.

هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ سِوَى مُحَمَّدٍ وإِبْرَاهِيمَ، وهِيَ مَرْتَبَةٌ تَقْضِي أَنْ يَصِلَ القَلْبُ كَمَالاً لَا يَكُونُ فِيهِ حُبٌّ إِلَّا لِلَّهِ، ولَا يُؤْثِرُ فِي قَلْبِهِ عَلَى اللَّهِ أَحداً. ولِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

« لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا » [البخاري].

والخُلَّةُ هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ ولَا تَنْبَغِي فِي حِسَابَاتِ البَشَرِ لِاثْنَيْنِ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَّخِذُهُ خَلِيلاً فَيُشْرِكُهُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ؟! ولَا اللَّهُ يَتَّخِذُ خَلِيلاً إِلَّا مَنْ أَرَادَ لَهُمْ كَمَالَ التَّكْرِيمِ. ذَبَحَ إِبْرَاهِيمُ هَذِهِ "الشَّغَفَةَ" الَّتِي تَعَلَّقَتْ فِي قَلْبِهِ، أَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ لِلسِّكِّينِ أَنْ لَا تَعْمَلَ ونَادَى مُنَادِي اللَّهِ مِنْ فَوْقِهِ:

﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾

[الصافات: 104-106].

سُبْحَانَهُ! هَذَا أَوَّلُ دَرْسٍ تَعَلَّمَتْهُ البَشَرِيَّةُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ السُّلُوكِيِّ، ولِلْآنِ هُوَ مِنْ أَشْهَرِ العُلومِ: وهُوَ تَعَلُّقُ الفِكْرِ والعَمَلِ والعَاطِفَةِ.

أَمَّا إِسْمَاعِيلُ الذَّبِيحُ فَقَدْ فَدَاهُ اللَّهُ بِكَبْشٍ عَظِيمٍ، وَصَارَتْ تِلْكَ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، يَذْبَحُونَ الْأَضَاحِيَّ وَيَذْكُرُونَ قِصَّةَ الذَّبِيحِ إِسْمَاعِيلَ وَأَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ. وَحَتَّى الْيَهُودُ طَلَبُوا هَذَا الشَّرَفَ بِالتَّحْرِيفِ فَقَالُوا: إِنَّ إِسْحَاقَ هُوَ الذَّبِيحُ -وَهُوَ قَوْلٌ قَالَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَعَدَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ لَكِنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى خِلَافِهِ-؛ لِأَنَّ إِسْحَاقَ جَدُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِسْمَاعِيلَ جَدُّ الْعَرَبِ. وَصَدَقَ اللَّهُ مِنْ قَائِلٍ:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 67-68].

وذَلِكَ حِينَ ادَّعَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى انْتِسَابَ إِبْرَاهِيمَ لَهُمْ، لَكِنَّ اللهَ بَيَّنَ كَذِبَ ادِّعَائِهِمْ قَائِلاً:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 65-66].

فالتَّوْرَاةُ والإِنْجِيلُ وأَتْبَاعُهُمْ أَتَوْا بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ بَعْدَ بَعْثَةِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، والسُّؤالُ الاسْتِنْكَارِيُّ يُبَيِّنُ ضَعْفَ حُجَّتِهِمْ وتَهَافُتَ قَوْلِهِمْ؛ فَلَيْسَ لَهُمْ حَقٌّ فِي أَنْ يُحَاجُّوا فِي هَذَا الْمَوْضوعِ وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ "النَّصْرَانِيَّ" و"اليَهُودِيَّ" تَسْمِيَةٌ وجِدَتْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ جِدّاً.وبَيَّنَ أَنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالانْتِسَابِ لِإِبْرَاهِيمَ هُمْ أَتْبَاعُهُ فِي حَيَاتِه، وَمِنْ ثَمَّ الْمُسْلِمُونَ وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ؛ فَهُوَ بُعِثَ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَهُوَ يُصَلِّي إِلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ، وَمِنْ أَرْكَانِ دِينِهِ الْحَجُّ الَّذِي أَمَرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَٰلِكَ وَمَن

يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: 27-30].

فصل: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

◆

حِينَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ البَيْتَ كَمَا حَكَى اللَّهُ لَنَا، قَدِمَ إِبْرَاهِيمُ لِإِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِمَكَّةَ قَائِلاً: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ تُعِينُنِي فِيهِ"، فَقَالَ إِسْمَاعِيلَ: "لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ". الأَمْرُ هُوَ بِنَاءُ بَيْتِ اللَّهِ بِمَكَّةَ كَمَا بَشَّرَ الْمَلَكُ هَاجَرَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ البَيْتُ كَمَا حَكَى عَنْهُ جَلَّ وعَلَا:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 96-97].

أَوَّلُ بَيْتٍ يَقْصِدُهُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُعَظِّمَ اللَّهَ. هَذَا البَيْتُ مُبَارَكٌ فِي نَفْسِهِ، وتَحُلُّ بَرَكَتُهُ بِمَنْ سَكَنَ حَوْلَهُ أَوْ قَصَدَهُ، فَمَنْ سَكَنَ رَزَقَهُ اللَّهُ بِالثَّمَرَاتِ، وأَوَّلُهُمْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ وابْنُهَا، تَرَكَهُمْ جِوَارَ البَيْتِ حَتَّى قَبْلَ بِنَائِهِ فَفَجَّرَ اللَّهُ لَهُمْ زَمْزَمَ تَجْرِي مِنْ يَوْمِئِذٍ إِلَى الآنَ، وآوَتْ لَهُمْ كُبْرَى القَبَائِلِ تَسْكُنُ مَعَهُمْ. وبَارَكَ اللَّهُ رُوحِيًّا، فَمَا مِنْ سَاكِنٍ لِلْبَيْتِ إِلَّا وآتَتْهُ الرَّاحَةُ النَّفْسِيَّةُ والأَمَانُ الْمَعْنَوِيُّ.

أَمَّا الأَمَانُ الْحِسِّيُّ فَحَدِّثْ ولَا حَرَجَ، فَكَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾، فَالعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ -وهُمْ مَنْ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ويُغِيرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ- حَفِظُوا أَمَانَ البَيْتِ، فَمَنْ لَاذَ بِالْبَيْتِ أَمِنَ مِنَ القَتْلِ والإِغَارَةِ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الْحَرَمِ فَلَا يُخَوِّفُهُ ولَا يَسْأَلُهُ لِمَا لِلْحَرَمِ مِنْ حُرْمَةٍ وعَظَمَةٍ. بَلْ حَتَّى الْحَيَوَانُ يَأْمَنُ الصَّيْدَ والقَتْلَ فِي الْحَرَمِ إِلَّا خَمْساً اسْتَثْنَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِضَرَرِهَا وأَذَاهَا، فَالصَّيْدُ مُحَرَّمٌ فِي الْحَرَمِ حَتَّى أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ تَأْمَنُ فِي حَرَمِ اللَّهِ وبَيْتِهِ.

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾، فِي مَكَّةَ والبَيْتِ دَلَائِلُ واضِحَةٌ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وفَضْلِ زَمْزَمَ، ومَا خَصَّ اللَّهُ بِالذِّكْرِ هُنَا ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾، هَذَا الْمَكَانُ الَّذِي كَانَ يَقِفُ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ مُنَاوِلاً إِسْمَاعِيلَ الطِّينَ لِيَبْنِيَ بِهِ البَيْتَ ويَضَعَ الأَسَاسَ ويَرْفَعَ قَوَاعِدَ البَيْتِ، كَمَا بَيَّنَ اللَّهُ لَنَا حَالَهُمَا:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: 127].

لِيَصِلَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ حَصَلَتْ مُعْجِزَاتٌ وآيَاتٌ بَيِّنَاتٌ، فَاللَّهُ يَقُولُ:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا

مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

[الحج: 26-29].

حَدَّدَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البَيْتِ وأَوْصَاهُ ومَنْ بَعْدَهُ بِعَدَمِ الإِشْرَاكِ بِاللَّهِ، وأَنْ يَقُومَ بِتَطْهِيرِ البَيْتِ لِلطَّائِفِينَ والقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ. فِي ذَاكَ الوَقْتِ كَمْ عَدَدُ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الأَرْضِ؟ لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ جَمّاً غَفِيراً جِدّاً مِنَ النَّاسِ سَيَحُجُّ بَيْتَهُ، وأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِالأَعْدَادِ لِذَلِكَ مَعْنَوِيّاً وحِسِّيّاً.

ثُمَّ أَمَرَهُ بِالأَذَانِ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ، رُوِيَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: "صَوْتِي لَا يَبْلُغُهُمْ!"، فَوَقْتَهَا مَكَّةُ عِبَارَةٌ عَنْ مِسَاحَةٍ صَغِيرَةٍ جِدّاً فِي أَكْبَرِ مِسَاحَةٍ صَحْرَاوِيَّةٍ عَلَى وجْهِ البَسِيطَةِ، ولَكِنَّ اللَّهَ تَكَفَّلَ بِالبَلَاغِ. وأَذَّنَ إِبْرَاهِيمُ، وإِلَى يَوْمِنَا هَذَا يَفِدُ الْحُجَّاجُ مِنْ فِجَاجِ الأَرْضِ، فِي أَفْرِيقيَا عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَانَ الْحُجَّاجُ يَمْشُونَ مَشْياً عَلَى الأَقْدَامِ سِنِينَ، بَلْ يَعْمَلُونَ فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي مَرُّوا بِهَا سِنِينَ لِيُحَصِّلُوا الزَّادَ لِلْحَجِّ، بَعْضُهُمْ رِحْلَتُهُ قَدْ تَسْتَغْرِقُ عِشْرُونَ عَاماً! هَؤُلَاءِ مَنْ أَتَوْا رِجَالاً عَلَى أَرْجُلِهِمْ، أَمَّا مَنْ يَمْلِكُ الدَّوَابَّ فَحَدِّثْ ولَا حَرَجَ، واليَوْمَ بِالطَّائِرَاتِ مَلَايِينُ تَحُجُّ كُلَّ عَامٍ. هَؤُلَاءِ الْحُجَّاجُ يَطُوفُونَ ويُصَلُّونَ فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ويَشْهَدُونَ اليَوْمَ الْمَشْهُودَ.

فصل: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: 1-8].

﴿ شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾، قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ أَنَّ اليَوْمَ الْمَشْهُودَ هُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ، يَشْهَدُهُ الْحُجَّاجُ فِي أَكْبَرِ مَشْعَرٍ يُوَحِّدُ اللَّهُ فِيهِ:

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ ».

تَشْهَدُ الْمَلَايِينُ مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ، مِنْ أَقْصَاهُ لِأَدْنَاهُ، بِوَحْدَانِيَّةِ سُبْحَانَهُ جَلَّ وعَلَا، فِي أَعْظَمِ شَهَادَةٍ يَشْهَدُهَا البَشَرُ فِي الدُّنْيَا. فَمَنْ هَذَا العَظِيمُ الَّذِي يَطْمَحُ أَنْ يَشْهَدَ لَهُ الأُلُوفُ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ بِوَحْدَانِيَّةِ والعَظَمَةِ والْمُلْكِ؟! نَاهِيكَ أَنْ تَشْهَدَ لَهُ أُنَاسٌ مِنْ مُخْتَلِفِ أَقْطَارِ الأَرْضِ، مِنْ بِقَاعِهَا وسُهُولِهَا، أَسْوَدِهَا وأَبْيَضِهَا، صَغِيرِهَا وشَابِّهَا وكَهْلِهَا، أُنْثَاهَا وذَكَرِهَا. مَلَايِينُ قَطَعُوا الفَيَافِيَ وصَرَفُوا الأَمْوَالَ لِيَشْهَدُوا لِمَنْ لَهُ الْجَبَرُوتُ والْكِبْرِيَاءُ والعَظَمَةُ:

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ ».

شَهِدَ الْمَلَايِينُ، ومَلَايِينُ أُخْرَى ودَّتْ أَنْ تَشْهَدَ، مِنْهَا مَنْ مَنَعَهُ قِلَّةُ الْمَالِ والزَّادِ والعَافِيَةِ، ومِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ العَدَدُ الْمُقَرَّرُ فَأُلُوفٌ مِنْ بَلْدَتِهِ سَابَقُوهُ بِأَخْذِ تَصَارِيحِ الْحَجِّ وهُوَ مَعَ البَقِيَّةِ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ لِيَشْهَدَ بِالتَّوْحِيدِ والوَحْدَانِيَّةِ لِلْمُهَيْمِنِ ذِي الْمَلَكُوتِ والْكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ. تَشْهَدُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ عَظَمَةَ الْمَوْقِفِ ويُبَاهِي الأَحَدُ الصَّمَدُ بِعِبَادِهِ مَلَائِكَتَهُ، وتَشْهَدُ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُ مَنًّا وفَضْلاً ورَحْمَةً بِعِبَادِهِ، فِي الْحَدِيثِ:

« مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟ » [مسلم].

وفِي آخِرِهِ يُشْهِدُ اللَّهُ مَلَائِكَتَهُ عَلَى غُفْرَانِ ذُنُوبِ عِبَادِهِ:

« إِذَا كَانَ يَوْمُ عَرَفَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي، أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ » [الألباني].

شَهِدَتْ هَذِهِ الْجُمُوعُ بِوَحْدَانِيَّةِ وعَظَمَةِ الْخَالِقِ، وقَبْلَهُمْ شَهِدَتْ أُمَمٌ وأَفْرَادٌ وأَنْبِيَاءُ. وكَانَتْ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ لِأَصْحَابِ الأُخْدُودِ، شَهِدُوا أَنَّ عَظَمَةَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُتْرَكَ مِنْ أَجْلِ مَلِكٍ طَاغِيَةٍ حَفَرَ الأُخْدُودَ وأَضْرَمَ النِّيرَانَ وخَيَّرَهُمْ بِأَنْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ ويَتَنَعَّمُوا بِالْحَيَاةِ، أَوْ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ فَتَشْوَى النِّيرَانُ أَجْسَادَهُمْ. فَاخْتَارُوا تَوْحِيدَ اللَّهِ جَمِيعاً، مَا تَخَلَّفَ عَنْهُمْ رَجُلٌ أَوِ امْرَأَةٌ، فَالْحَيَاةُ بِدُونِ تَوْحِيدٍ -بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ الإِيمَانِ- لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعَاشَ. لَبَّى أَصْحَابُ الأُخْدُودِ بِأَجْسَامِهِمْ وهِيَ تَحْتَرِقُ فِي النِّيرَانِ أَعْظَمَ تَلْبِيَةٍ عَلِمَتْهَا البَشَرِيَّةُ:

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ ».

أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ فِي صَحْرَاءَ مُقْفِرَةٍ:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: 27-34].

مِصْدَاقٌ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ، ورَغْمَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: "صَوْتِي لَا يَبْلُغُهُمْ!"، فَأَجَابَ اللَّهُ أَنَّ عَلَيْهِ البَلَاغَ، لِيَأْتِيَ النَّاسُ ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ لِيَشْهَدُوا لِلرَّقِيبِ الشَّهِيدِ بِالوَحْدَانِيَّةِ. والتَّوْحِيدُ مُبْتَدَأُ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ ومُنْتَهَاه؛ فَالدُّخُولُ فِيهِ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ومَنْ حَجَّ البَيْتَ ولَبَّى شَاهِداً لِلَّهِ بِالوَحْدَانِيَّةِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الرُّكْنَ الأَخِيرَ مِنَ الإِسْلَامِ؛ الرُّكْنُ الوَحِيدُ الَّذِي تُشَدُّ الرِّحَالُ لَهُ.

التَّوْحِيدُ بِهِ تُسْتَجْلَبُ النِّعَمُ وبِهِ تُدْفَعُ النِّقَمَةُ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96]. وهُوَ قَوْلُ نُوحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا *

وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا * مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: 10-13].

وبِالتَّوْحِيدِ يُسْتَجْلَبُ الأَمْنُ والأَمَانُ: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82]. والظُّلْمُ هُنَا الشِّرْكُ بِاللَّهِ، فَلَا ظُلْمَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُسَوِّيَ اللَّهَ بِمَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ خَلَقَهُ اللَّهُ، وهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13]. والتَّوحِيدُ يَسْتَجْلِبُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ السَّعِيدَةَ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97]. وبِضِدِّهِ الشِّرْكُ، يَحْيَا الإِنْسَانُ حَيَاةَ الضِّيقِ والتَّعَاسَةِ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: 124-126].

فَمِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وقَبْلَهُ نُوحٌ ولِخَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ وأَنْزَلَ الكُتُبَ لِيُعْبَدَ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أَوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ ولِيٌّ صَالِحٌ. نَحْنُ وهُمْ مَأْمُورُونَ بِتَوْحِيدِهِ ودُعَائِهِ، لَا نَدْعُو عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، ولَا نَحُجُّ قُبُورَهُمْ وآثَارَهُمْ، بَلْ نَحُجُّ بَيْتَهُ ونَدْعُوهُ هُوَ الفَرْدُ الأَحَدُ الصَّمَدُ ونُلَبِّي دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ والأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً.

« خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [الترمذي].

وصِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ: « أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ » [مسلم].

أَعْظَمُ شَهَادَةٍ صَادِقَةٍ وحَقٍّ شَهِدَتْهَا البَشَرِيَّةُ جُزْءٌ مِنْهَا عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ والأَيَّامِ. جَعَلَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وخَفَّفَهَا إِلَى اثْنَيْنِ لِلْمُتَعَجِّلِ فَقَالَ:

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: 203].

فصل: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

◆

إِنَّهَا الغَايَاتُ الرَّحْمَانِيَّةُ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ. لَيْسَ فَقَطْ تَيْسِيرٌ فِي العِبَادَةِ بَلْ فِي الرِّزْقِ أَيْضاً، فَكَمَا قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، فَجَعَلَ اللَّهُ فِي الْحَجِّ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةً عَظِيمَةً، فَلِأَهْلِ البَيْتِ هَذَا الكَمُّ الْهَائِلُ مِنَ البَشَرِ قُوَّةٌ شِرَائِيَّةٌ عَظِيمَةٌ تَجْلِبُ الْمَنْفَعَةَ مِنْ بَيْعِ البَضَائِعِ وتَوْفِيرِ السَّكَنِ والطَّعَامِ. أَمَّا القَادِمُونَ فَقَدْ أَتَوْا مِنْ مُعْظَمِ بِقَاعِ الأَرْضِ، يَلْتَقُونَ يَتَعَارَفُونَ، يَجْلِبُونَ بَضَائِعَ مِنْ مَنَاطِقِهِمْ ويَشْتَرُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ؛ فُرَصٌ كَبِيرَةٌ لَهُمْ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى إِخْوَانٍ فِي شَتَّى بِقَاعِ الأَرْضِ، ثَقَافَتِهِمْ تِجَارَتِهِمْ تَعْلِيمِهِمْ أَوْضَاعِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ والاقْتِصَادِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ. التِقَاءُ هَذَا الكَمِّ الْهَائِلِ مِنَ الأَجْنَاسِ والأَعْرَاقِ، بِمُخْتَلِفِ الاهْتِمَامَاتِ والْمَجَالَاتِ والْحِرَفِ والْمِهَنِ، يَخْتَلِفُونَ اخْتِلَافاً كَثِيراً، لَا تَجْمَعُهُمْ سِوَى الشَّهَادَةِ بِالوَحْدَانِيَّةِ لِذِي الْمَلَكُوتِ والْكِبْرِيَاءِ والعَظَمَةِ.

فِي هَذَا الْمَقَامِ، وهُوَ يَبْنِي، دَعَا إِبْرَاهِيمُ بِدَعْوَةٍ أَجَابَ اللَّهُ وكَانَ تَحْقِيقُهَا مَا ذَكَرْنَاهُ سَلَفاً مِنْ حِجِّ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا لِبَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 128-129].

يَرْفَعُونَ قَوَاعِدَ البَيْتِ، أُسُساً لِعِبَادَةِ الْحَجِّ، ويَطْلُبُونَ القَبُولَ مِنَ اللهِ وأَلَّا تَشُوبَ عَمَلَهُمْ شَائِبَةُ رِيَاءٍ أَوْ سُمْعَةٍ. رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ ورَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ. هَذَا الْمَقَامُ الَّذِي وقَفَهُ وهُوَ يُنَاوِلُ إِسْمَاعِيلَ الطِّينَ لِبِنَاءِ البَيْتِ، ولَعَلَّهُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ شُكْراً لِلَّهِ بَعْدَ الِانْتِهَاءِ شُكْراً لِلِاخْتِيَارِ ولِإِعَانَةِ اللهِ عَلَى أَدَاءِ الْمُهِمَّةِ. هَذِهِ الرَّكْعَتَانِ مَأْمُورٌ كُلُّ مُسْلِمٍ أَنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ شَاهِدٌ عَلَى عَظَمَةِ اللهِ وتَفَرُّدِهِ بِالْمُلْكِ. شَهِدَ بِهَذَا أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ فِي أَعْظَمِ شَهَادَةٍ عَلِمَتْهَا الْبَشَرِيَّةُ، شُهُودٌ فِي ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ بِأَنَّ الَّذِي لَهُ ﴿ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هُوَ اللهُ، رَغْمًا عَنْ أَنْفِ طَاغِيَتِهِمُ الْمَلِكِ الَّذِي ظَنَّ أَنَّ حُكْمَ قِطْعَةٍ صَغِيرَةٍ فِي مَلَكُوتِ اللهِ يُعْطِيهِ الْحَقَّ فِي أَنْ يَكُونَ الْإِلَهَ الَّذِي تُرَدُّ إِلَيْهِ الْعِبَادَةُ مِنْ دُونِ اللهِ.

وصَدَقَ حَدِيثُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ لِفَتْرَةٍ وجِيزَةٍ أُخْرَى مِنْ تَارِيخِ الإِنْسَانِيَّةِ، ولَعَلَّ فِي حَدِيثِ الْمَلَائِكَةِ غَيْرَةً عَلَى حُرُمَاتِ اللهِ أَنْ تُنْتَهَكَ، لَكِنَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30]. يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا يُفَجِّرُهُ الإِيمَانُ بِهِ مِنْ طَاقَاتٍ لَا قُوَّةَ لِلشَّيْطَانِ وبَاطِلِهِ إِلَّا وتَزُولُ وتَضْمَحِلُّ مَعَهَا، فَهُوَ سُبْحَانَهُ:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 18].

الباب الحادي عشر

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾

✧ ——— ❖ ——— ✧

كتاب الصراع الأبدي بين غايات الرحمن وغايات الشيطان

فصل: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾

◆

وولِدَ حَفيدُ آدمَ، الغُلامُ المَذكورُ، قَوْمُهُ ومَلِكُهُم فِي قِصَّةِ الأُخْدودِ -عَلَى أَصَحِّ مَا رُوِيَ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدِي والْحَدِيثُ فِي التِّرْمِذِيِّ-. الغُلَامُ وُلِدَ فِي عَهْدِ طَاغِيَةٍ حَسِبَ نَفْسَهُ إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وكَانَ لَهُ سَاحِرٌ عَظِيمٌ كَسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ، يُزَيِّنُ لِلنَّاسِ بِأَلَاعِيبِهِ عَظَمَةَ وجَلَالَ ذَلِكَ الْمَلِكِ. فَالْمَادَّةُ وتَشْكِيلُهَا زُورًا -كَمَا فَعَلَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ- تَخَيُّلاً لَا حَقِيقَةً، تَلَاعُبٌ بِحَاسَّةِ البَصَرِ حِينَ حَوَّلُوا الحِبَالَ وخَيَّلُوا لِلنَّاسِ وسَحَرُوا أَبْصَارَهُمْ فَصَارَتْ تَسْعَى كَالأَفَاعِي.

فَالأَذَى والبَطْشُ الَّذِي يَبْدُو ظَاهِرِيّاً فِي يَدَي الْمُلُوكِ، فَكَمَا قَالَ النِّمْرُودُ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: 258].

فَجَاءَ بِرَجُلَيْنِ فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا وتَرَكَ الآخَرَ. فَتَصَوُّرَاتُ الطَّاغِيَةِ وأَتْبَاعِهِ بِسَبَبِ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، أَنَّ هَذِهِ القُدْرَةَ الْمَحْدُودَةَ جِدّاً -وهِيَ قُدْرَةٌ يَسْتَطِيعُ أَيُّ شَخْصٍ امْتَلَكَ عَدَداً مِنَ الأَتْبَاعِ أَنْ يَفْعَلَهَا، بَلْ أَيُّ شَخْصٍ يُجِيدُ القِتَالَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتُلُ واحِداً ويَتْرُكُ واحِداً- فَهَبْ أَنَّ هَذِهِ القُدْرَةَ امْتَلَكَهَا أَلْفُ شَخْصٍ الآنَ عَلَى الأَرْضِ، فَمَنْ يَكُونُ الأَحَقُّ بِالعِبَادَةِ مِنْهُمْ؟ وكُلٌّ يَدَّعِي

أَنَّهُ عَظِيمٌ. ودُونَكَ العِصَابَاتُ الإِجْرَامِيَّةُ وزُعَمَاؤُهَا كَيْفَ أَفْسَدُوا دُوَلاً وحَيَاةَ الكَثِيرِينَ، وأَذَلُّوا واسْتَعْبَدُوا كَثِيرِينَ بِظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ بِمَا امْتَلَكُوهُ مِنْ قُوَّةٍ مَادِّيَّةٍ مَحْدُودَةٍ يَحِقُّ لَهُمُ التَّحَكُّمُ بِحَيَاةِ البَشَرِ.

ومَنْهَجُهُمْ ومَنْهَجُ سَيِّدِهِمُ الشَّيْطَانِ أَنْ تَعِيشَ مَنْ فِي دَائِرَةِ تَحَكُّمِهِمْ فِي الضَّنْكِ والْمُعَانَاةِ والسُّخْرَةِ. نَعَمْ، هُنَا يَصْدُقُ حَدَثُ الْمَلَائِكَةِ: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: 30]. وهُوَ أَيْضاً مَلْمَحٌ ومِصْدَاقٌ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 22].

تَنَزَّهَ سُبْحَانَهُ عَمَّنْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ قُدْرَتَهُمُ الْمَحْدُودَةَ جِدًّا تُخَوِّلُهُمْ أَنْ يَصِيرُوا آلِهَةً مِثْلَهُ. وَأَلْهَمَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يُوَجِّهَ النِّمْرُودَ لِلْحَقِيقَةِ النَّاصِعَةِ وَهِيَ: أَنِ ادَّعَيْتَ كَذِبًا أَنْ تُسَوِّيَ اللهَ فِي قُدْرَةِ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ -وَهِيَ قُدْرَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ وَكَّلَهَا لِبَعْضِ الْبَشَرِ كَعِيسَى فِي إِحْيَائِهِ الْمَوْتَى، وَقُدْرَةُ عِيسَى رَغْمَ أَنَّهَا جُزْئِيَّةٌ وَمَحْدُودَةٌ فَهِيَ حَقِيقِيَّةٌ، لَا كَالنِّمْرُودِ فَهِيَ إِجْرَائِيَّةٌ فَقَطْ؛ أَمَرَ بِالْقَتْلِ فَقَطْ وَتَرَكَ الْآخَرَ- فَقَالَ:﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: 258] ف

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 258].

فَبُهِتَ النِّمْرُودُ، لَا يَسْتَطِيعُ حَتَّى ادِّعَاءَ الكَذِبِ فِي أَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُغَيِّرَ فِي نَامُوسِ الكَوْنِ وآيَاتِ اللَّهِ الْمَادِّيَّةِ كَالشَّمْسِ، ولَا يَسْتَطِيعُ سَحَرَتُهُ أَنْ يَسْحَرُوا ويُخَيِّلُوا لَهُمْ أَنَّ النِّمْرُودَ أَوْ فِرْعَوْنَ أَوِ الْمَلِكَ صَاحِبَ الأُخْدُودِ يَتَحَكَّمُ فِي حَرَكَةِ الشَّمْسِ. وصَدَقَ اللَّهُ:

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: 14].

كَذَّبَ هَؤُلَاءِ وقَوْمُ عَادٍ وثَمُودَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِالآيَاتِ البَيِّنَةِ والدَّلَائِلِ الواضِحَةِ عَلَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ كَسَائِرِ خَلْقِ اللَّهِ، رَغْمَ أَنَّ نُفُوسَهُمْ تَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ بِذَلِكَ، لَكِنْ أَرَادُوا الِاسْتِعْلَاءَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ بِهَذَا الِادِّعَاءِ. ولَا غَرَابَةَ؛ فَقَائِدُهُمْ فِي ذَلِكَ إِبْلِيسُ -عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ- فَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اسْتَنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ. خَلَقَ اللَّهُ مُمَيَّزاً عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَنْ جَعَلَهُ مُخَيَّراً أَنْ يَعْصِيَ أَوَامِرَ خَالِقِهِ إِنْ شَاءَ، فَكَانَ خَلْقُ آدمَ وتَكْرِيمُهُ تَهْدِيداً وتَدْمِيراً لِهَذِهِ الْمَكَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا حَسِبَ إِبْلِيسُ.

وإِبْلِيسُ رَغْمَ أَنَّهُ شَهِدَ عَظَمَةَ الخَالِقِ عِلْمَ اليَقِينِ فَهُوَ خَلَقَهُ، وإِبْلِيسُ عَاشَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ العَظِيمِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَعِيشَ ورَأَى بِأُمِّ عَيْنِهِ عَظَمَةَ اللَّهِ وعَرْشَهُ وعَظَمَةَ مَخْلُوقَاتِهِ وحِكْمَتَهُ الْمُطْلَقَةَ وعَدْلَهُ، لَكِنَّ ظَنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ الْحَقِيرِينَ أَنَّ لَهُمْ رَأْياً ومُلْكاً فِي مَلَكُوتِ خَالِقِهِمْ وأَنَّهُمْ عُظَمَاءُ لِدَرَجَةٍ يُشَارِكُونَ فِي حُكْمِهِ. ويَالَهَا مِنْ كَبِيرَةٍ! فَهُوَ سُبْحَانَهُ: ﴿ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾.

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 26].

ويَا عَظَمَةَ القُرآنِ وتَحَدِّيهِ! فَهِيَ وردَتْ فِي سُورَةِ الكَهْفِ فِي قِصَّةِ الْمَلِكِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفِتْيَةِ الَّذِينَ كَانَتْ جَرِيرَتُهُمْ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ البُرُوجِ:

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: 8-9].

فَنَجَّاهُمْ سُبْحَانَهُ وجَعَلَ نَجَاتَهُمْ آيَةً، وهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ حِينَ قَالَ: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: 15-16]. فَمَا عَرْشُ الظَّالِمِينَ جِوَارَ عَرْشِهِ سُبْحَانَهُ؟! بَلْ مَا

السَّمَاوَاتُ والأَرَضُونَ جِوَارَ عَرْشِهِ سُبْحَانَهُ؟! وهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ولَيْسَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ، ومَا ولَا يَمْلِكُ مُلُوكُ الأَرْضِ إِلَّا أَنْ يُنَفِّذُوا أَوَامِرَهُ الكَوْنِيَّةَ.

فَقَضَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَهُ بِالعِزِّ والتَّمْكِينِ، فَكَانَ سِجْنُ العَزِيزِ لَهُ مُقَدِّمَةً أَنْ يَخْرُجَ يُوسُفُ ويُزِيحَ العَزِيزَ عَنْ مَنْصِبِهِ. وكَذَا صَاحِبَا يُوسُفَ أَرَاهُمَا رُؤْيَا تُبَيِّنُ مَصِيرَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ حَتَّى الْمَلِكُ بِحُكْمِهِ فِيهِمْ:

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 40].

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

عَلِمَ يُوسُفُ عِلْمَ اليَقِينِ صِدْقَ هَذِهِ الآيَةِ، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ كَفَرَ بِهَذِهِ الآيَةِ ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ رَغْمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ يَقِينَ صِدْقِهَا، فَهِيَ سُنَّةُ وسُنَّةُ الْمُلُوكِ الْمُتَجَبِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِ. لَكِنَّ العَاقِبَةَ واحِدَةٌ، انْظُرْ لِإِبْلِيسَ ولِلضَّنْكِ فِي الدُّنْيَا والعَذَابِ الأَبَدِيِّ فِي الآخِرَةِ، وفِرْعَوْنَ أَضْنكَ اللَّهُ حَيَاتَهُ بِرُؤًى تَنَبَّأَ بِزَوَالِ مُلْكِهِ واسْتِبْدَادِهِ.

لَكِنَّ إِبْلِيسَ رَغْمَ ذَلِكَ حَقَدَ عَلَى آدمَ وذُرِّيَّتِهِ وسَعَى لِإِشْرَاكِهِمْ فِي شَقَائِهِ فِي الدُّنْيَا الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا، فَكَانَ أَوَّلُ انْتِصَارٍ لِغَايَتِهِ عَلَى رَسُولٍ مِنْ أُولِي العَزْمِ عَلَى البَشَرِ أَنْ أُهْبِطَ لِدَارِ الشَّقَاءِ. لَكِنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَى آدمَ والبَشَرِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِ فَأَنْزَلَ مَعَهُ الْمَنْهَجَ الَّذِي لَا يَضِلُّ ولَا يَشْقَى مَنِ اتَّبَعَهُ.

لَكِنَّ الشَّيْطَانَ صَدَقَ وعْدَهُ وتَابَعَ مُهِمَّتَهُ لِيَصْرِفَ البَشَرِيَّةَ عَنِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، فَكَمَا رَأَيْنَا أَغْوَى الشَّيْطَانُ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَرَمَوْهُ فِي البِئْرِ، ثُمَّ أَغْرَى العَزِيزَ وزَوْجَتَهُ فَأَدْخَلَاهُ السِّجْنَ، وهُنَاكَ لَقِيَ سَاقِيَ الْمَلِكِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ يُوسُفُ وبَشَّرَ بِنَجَاتِهِ حِينَ فَسَّرَ رُؤْيَاهُ وطَلَبَ مِنْهُ الأَخْذَ بِالأَسْبَابِ.

فصل: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾

◆

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: 42].

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ أَيِ الْمَلِكِ لِيُخْرِجَنِي مِنَ السِّجْنِ، فَأَشْغَلَهُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ خُرُوجِهِ عَمَّنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾. ولَكِنْ مَا يُجْدِي الشَّيْطَانُ وغَايَتُهُ مَعَ إِرَادَةِ رَبِّ العَالَمِينَ؟! شَاءَ اللَّهُ أَنْ يكُونَ سَبَبُ خُرُوجِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- رُؤْيَا رَآهَا الْمَلِكُ، كَمَا كَانَ سَبَبُ إِلْقَابِهِ فِي البِئْرِ وبِدَايَةُ رِحْلَتِهِ نَحْوَ التَّمْكِينِ رُؤْيَا رَآهَا هُوَ، وهَذَا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي الأَرْضِ؛ فَالْأَهْدَافُ العَظِيمَةُ هِيَ بِدَايَاتُ الغَايَاتِ العَظِيمَةِ.

وإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الأَهْدَافُ مُنْسَجِمَةً مَعَ غَايَاتِ اللَّهِ فِي إِخْرَاجِ البَشَرِ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الآخِرَةِ والدُّنْيَا، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ، ومِنْ عِبادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبادَةِ رَبِّ العِبَادَةِ، تَجْلِبُ الْمِحَنَ ثُمَّ الْمِنَحَ العَظِيمَةَ. أَمَّا الْمِحْنَةُ فَلَعَلَّهَا اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ كَمَا قَالَ:

﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: 1-3].

فِي هَذَا الطَّرِيقِ يَصْطَفِي اللَّهُ عِبادَهُ السَّائِرِينَ فِيهِ. وتَذَكُّرُ السَّاعِي أَوْ غَفْلَتُهُ عَمَّنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِسَبَبِ الشَّيْطَانِ، كَانَتْ بِسَبَبِ رُؤْيَا فَسَّرَهَا لَهُ يُوسُفُ. ورُؤْيَا الْمَلِكِ لَمْ يَطْلُبْ حَتَّى أَنْ يُنْظَرَ فِي قَضِيَّتِهِ لِيُفَسِّرَهَا، بَلْ فَسَّرَهَا ولَمْ يُسَاوِمْ عَلَى حُرِّيَّتِهِ مِنَ السِّجْنِ نَظِيرَ وَضْعِ خُطَّةٍ تُنْجِي مِصْرَ مِنَ القَحْطِ، بَلْ فَسَّرَ الرُّؤْيَا ووَضَعَ حَلاً لِلْمُشْكِلَةِ. وحَتَّى عِنْدَمَا عَلِمَ الْمَلِكُ بِنِيَّتِهِ إِخْرَاجَهُ مِنَ السِّجْنِ لَمْ يَسْتَعْجِلْ، فَقَدْ عَلِمَ عِلْمَ اليَقِينِ:

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: 38].

فَأَرْشَدَ سَاعِيَ الْمَلِكِ: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 50].

لِبِضْعِ سِنِينَ ذَاقَ يُوسُفُ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَهُ لِيَكْشِفَ بِهِ مَجَاعَةً كَانَتْ سَتَسْتَمِرُّ سَبْعَ سِنِينَ، يَذُوقُ فِيهَا أَهْلُ مِصْرَ الجُوعَ والفَاقَةَ، ويَجِدُ إِبْلِيسُ سُوقاً لِغَايَاتِهِ:

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: 268-269].

أَمَرَ بِالْفَاحِشَةِ ووَعَدَ بِالْفَقْرِ والْحَاجَةِ فَيَزِلُّ الإِنْسَانُ ويَقْتُلُ ويَسْرِقُ أَخَاهُ، لَكِنْ شَاءَ اللَّهُ لِيُوسُفَ -بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ وحِكْمَةٍ- أَنْ يَكْشِفَ عَنْ مِصْرَ هَذِهِ الغُمَّةَ، ويَتَحَقَّقَ مَوْعِدُ فَضْلٍ ونِعْمَةٍ، وتَكْرِيمٌ لِيُوسُفَ وأَبَوَيْهِ، ومَغْفِرَةٌ وتَكْرِيمٌ لِإِخْوَةِ يُوسُفَ مَنْ اتَّبَعُوا الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، وسَعَةٌ لِبَنِي أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ (جُدُودِهِمْ) وإِسْكَانُهُمْ مِصْرَ.

إِلَى أَنْ يُزَيِّنَ إِبْلِيسُ لِفِرْعَوْنَ أَنَّ لَهُ حُكْماً مَعَ اللَّهِ فَيَقْضِي اسْتِعْبَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ والتَّضْيِيقَ عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ ومَعَاشِهِمْ، ولِتَحَقُّقِ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ لِيُصْبِحُوا عَبِيداً لِلْعِبَادِ، وتَضِيقَ الدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ جَعَلَ فِرْعَوْنُ فِي دِينِهِ حَتَّى القِبْطَ أَتْبَاعَهُ طَبَقَاتٍ؛ جُنُودٌ يَكِدُّونَ ويَمُوتُونَ فِي سَبِيلِ فِرْعَوْنَ، وحَاشِيَةٌ تُحِيطُ بِهِ وتُزَيِّنُ لِلْعَامَّةِ عِبادَتَهُ، وسَعَّ لَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي عَطَايَاهُ لَهُمْ. فِرْعَوْنُ جَحَدَ آيَاتِ اللَّهِ ظُلْماً وعُلُوّاً فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ الْهَلَاكَ، وكَذَا النَّمْرُودُ وعَادٌ وثَمُودُ.

فصل: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

◆

فَكَمَا حَكَى اللهُ بَيْنَ يَدَيَّ قِصَّةَ يُوسُفَ:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: 111].

تَشَاكُلٌ وتَجَانُسٌ عَجِيبٌ بَيْنَ كَلَامِ سُبْحَانَهُ، وتَبْيِينُ سَبِيلِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ (السَّعادَةُ والْعَيْشُ الْهَنِيءُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ)، وسُبُلِ اجْتِنَابِ مَصَائِدِ وطُرُقِ الشَّيَاطِينِ لِتَسْفِيهِ الإِنْسَانِ وشَقَائِهِ فِي الدَّارَيْنِ. وفِيهِ تَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ أَيْ وَضْعُ مَنْ ظَنَّ أَعْوانُ إِبْلِيسَ أَنَّ الغَلَبَةَ فِي لِوَسَائِلِ سَيِّدِهِمْ، هَدَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ورَحِمَهُمْ بِتَبْيِينِ سُبُلِ النَّجَاةِ والسَّعادَةِ. فَأُمُّ مُوسَى جَعَلَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ مَنْ يَرْعَى ويُنْشِئُ مُحَرِّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ومُخْرِجَهُمْ مِنْ عَذَابِ وضَنْكِ فِرْعَوْنَ. وأَهْلُ الكَهْفِ يَنَامُونَ ثَلَاثُمَائَةِ سَنَةٍ. والنّمْرُودُ يَهْدِي اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ سُبُلَ النَّجَاةِ مِنْهُمْ، لِيَبْنِيَ أَعْظَمَ صَرْحٍ يُشْهَدُ لِلَّهِ فِيهِ بِالوَحْدَانِيَّةِ والْعِظَمِ. لَا سِيناريُو مَرَّ عَلَى البَشَرِيَّةِ أَوْ سَيَمُرُّ إِلَّا وفِي القُرآنِ بَيَانُ سُبُلِ الرَّحْمَنِ وغَايَاتِهِ.

مَنْ آتَاهُمُ اللَّهُ الْمُلْكَ واسْتَخْلَفَهُمْ وجَعَلَهُمْ أَحْرَاراً مِنْ نَاحِيَةِ إِطَاعَةِ الأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ -إِنْ شَاؤُوا اتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وسُبُلَهُ أَوْ سَلَكُوا طَرِيقَ الضَّلَالَةِ والْغَوَايَةِ- ظَنُّوا أَنَّهُ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ حُكْمٌ فِي آيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ كَالْإِمَاتَةِ والْإِحْيَاءِ التَّأَمُّنِ أَوْ إِسْعَادِ النَّاسِ وشَقَائِهِمْ. وهُوَ ظَنٌّ خَاطِئٌ، ومَا يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ لِأَتْبَاعِهِمْ أَنْ مَاثَلُوا اللَّهَ بِذَلِكَ، ولَا حَتَّى مِنَ النَّاحِيَةِ الصُّورِيَّةِ الَّتِي قَالَ فِيهَا النِّمْرُودُ: "أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ". فَهَذِهِ الْجُزْئِيَّةُ الصَّغِيرَةُ جِدّاً شَارَكَهُمْ فِيهَا مَلَايِينُ غَيْرُهُمْ مِنَ البَشَرِ، ومَا تَمَكَّنُوا مِنْهَا إِلَّا فِي فَتْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ وهِيَ اشْتِدَادُ عُودِهِمْ وقُوَّتِهِمْ، أَمَّا حِينَ كَانُوا صِغَاراً لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً ولَا نَفْعاً، أُوكِلَ لَهُمْ مَنْ يَرْعَاهُمْ ويُزِيلُ الأَذَى عَنْهُمْ، وسَيَعُودُ لِتِلْكَ الحَالَةِ بَعْدَ سِنِينَ حِينَ تَنْحَنِي ظُهُورُهُمْ وتَضْعُفُ قُوَّتُهُمُ البَدَنِيَّةُ؛ فَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ مُذَكِّراً لَهُمْ ولِغَيْرِهِمْ:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: 54-55].

فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الَّتِي يَكُونُ قَدْ بَلَغَ الإِنْسَانُ فِيهَا أَشُدَّهُ واسْتَوَى، الَّتِي لَا تَتَجَاوَزُ سِتِّينَ سَنَةً فِي الغَالِبِ، وهَذِهِ الْمُدَّةُ مَا هِيَ إِلَّا جُزْءٌ واحِدٌ مِنَ الأَلْفِ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَ بَدْءِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؛ فَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: 4]. فَهَذِهِ الْمُدَّةُ الَّتِي يَعِيشُهَا الإِنْسَانُ الْمَعْنِيُّ بِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَوِيَّ البِنْيَةِ هِيَ كَقَطْرَةِ مَاءٍ فِي مُحِيطٍ فِي يَوْمٍ واحِدٍ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

وَأَيْضًا، لِيَصِيرَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى قَتْلِ إِنْسَانٍ آخَرَ فِي مُحِيطِهِ الْقَرِيبِ أَوْ دَوْلَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَاسَبَ، غَالِبًا مَا يَحْتَاجُ إِلَى أَعْوَانٍ وَشُرَكَاءَ وَأَتْبَاعٍ يُمَكِّنُونَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّنْفِيذِ، وَمِنْ

تِلْكَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْحُصُولِ عَلَى الْهَيْبَةِ وَالشَّوْكَةِ الَّتِي تَجْعَلُ أَوْلِيَاءَ الْمَقْتُولِ لَا يَسْعَوْنَ لِلثَّأْرِ مِنْهُ. فَانْظُرْ لِحَالِ الْمُلُوكِ الطُّغَاةِ الجَبَابِرَةِ كَيْفَ يَتَذَلَّلُونَ لِطَاغِيَةٍ أَعْظَمَ مِنْهُمْ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ البَطْشِ؛ فَدُونَكَ الْحَجَّاجَ مَثَلاً، فَهُوَ وإِنْ كَانَ طَاغِيَةً عَلَى أَهْلِ البَصْرَةِ فَهُوَ عَبْدٌ ذَلِيلٌ عِنْدَ عَبْدِالْمَلِكِ. وأَيْضاً لَا بُدَّ لِهَؤُلَاءِ الطُّغَاةِ إِرْضَاءُ زُعَمَاءِ العَشَائِرِ وكِبَارِ القَادَةِ العَسْكَرِيِّينَ وتَبْجِيلُهُمْ وبَذْلُ الأَمْوَالِ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ إِهْدَاءُ بَنَاتِهِمْ وتَزْوِيجُهُمْ لِلْخُلَفَاءِ لِضَمَانِ دَعْمِهِمْ وعَدَمِ الانْقِلَابِ عَلَيْهِمْ. وهَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَافٍ؟ لَا، بَلْ هُمْ فِي خَوْفٍ دَائِمٍ مِمَّنْ يُحِيطُونَ بِهِمْ، ويَبْعَثُونَ الجَوَاسِيسَ ويُحْبِكُونَ الْمُؤَامَرَاتِ لِضَمَانِ السَّيْطَرَةِ عَلَى مَنْ هُمْ دُونَهُمْ، ويَخْشَوْنَ حَتَّى إِخْوَانَهُمْ وأَبْنَاءَهُمْ. وصَدَقَ مَنْ قَالَ وهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ:

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: 24-25].

فَلَا هَنَاءَ لَهُمْ دَائِماً ولَا سَعَادَةَ، بَلْ هُمْ شَقَاءٌ وضَنْكٌ أَكْثَرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ عِبادِ اللَّهِ. رُوِيَ عَنْ زِيَادِ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنَّهُ قَالَ لِجُلَسَائِهِ: "مَنْ أَنْعَمُ النَّاسِ عِيشَةً؟". قَالُوا: "أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ!". فَقَالَ: "وأَيْنَ مَا يَلْقَى مِنْ قُرَيْشٍ؟!". قِيلَ: "فَأَنْتَ!". قَالَ: "وأَيْنَ مَا أَلْقَى مِنَ الْخَوَارِجِ والثُّغُورِ؟!". قِيلَ: "فَمَنْ أَيُّهَا الأَمِيرُ؟". قَالَ: "رَجُلٌ مُسْلِمٌ لَهُ زَوْجَةٌ مُسْلِمَةٌ لَهُمَا كَفَافٌ مِنَ العَيْشِ قَدْ رَضِيَتْ بِهِ ورَضِيَ بِهَا، لَا يَعْرِفُنَا ولَا نَعْرِفُهُ".

فَكُلُّ أَمِيرٍ وزَعِيمٍ بِحَاجَةٍ لِشُرَكَاءَ كُثُرٍ لِيُنَفِّذَ حُكْمَهُ فِي دَائِرَةٍ ضَيِّقَةٍ مِنَ الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ، أَمَّا وهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً، وهُوَ إِنْ قَضَى فَمَا لَا يَمْلِكُ مُلُوكُ الأَرْضِ إِلَّا أَنْ يُنَفِّذُوا حُكْمَهُ.

« يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » [الألباني].

ولَوْ تَأَمَّلْتَ حَالَ الزُّعَمَاءِ فِي عَصْرِنَا هَذَا لَعَلِمْتَ، فَأَمْرِيكَا الدَّوْلَةُ العُظْمَى كَمَا تَدَّعِي، يَتَحَكَّمُ أَصْحَابُ الْمِلْيَارَاتِ بِزَعِيمِهَا لَا يَسْتَطِيعُ فِي أَغْلَبِ حَالِهِ أَنْ يُخَالِفَهُمْ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، وهُوَ يَتَحَكَّمُ بِرُؤَسَاءِ الدُّوَلِ الحَلِيفَةِ كَمَا تُسَمَّى، فَزَعِيمُهُمُ الأَسَدُ العَرَمْرَمُ عَلَى شَعْبِهِ نَعَامَةٌ وعَبْدٌ ذَلِيلٌ لَمْ تُمَكِّنْهُ كُلُّ أَمْوَالِهِ وأَسْلِحَتِهِ مِنْ أَنْ يُخَالِفَ رَئِيسَ أَمْرِيكَا.

ولَعَلَّكَ تَسْأَلُ: لِمَ هَذَا الزَّعِيمُ الْمُنْتَفِخُ عَلَى شَعْبٍ يَكَادُ يَلْعَقُ أَقْدَامَ رُؤَسَاءِ الدُّوَلِ الْكُبْرَى؟ السِّيَاسِيُّ صَاحِبُ الْخُطَبِ الرَّنَّانَةِ وَالْعَصْمَاءِ رُبَّمَا لَا يَأْنَفُ مِنَ التَّذَلُّلِ تَحْتَ أَقْدَامِ مَنْ يَمْلِكُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُ عَبْدًا لَهُمْ، يُنَفِّذُ مَصَالِحَهُمْ، ويَقْتُلُ ويَسْرِقُ مِنْ أَجْلِهِمْ. أَجَابَ اللهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: 56].

يَالَعَظَمَةِ القُرآنِ! كِبْرٌ، مَرَضٌ نَفْسِيٌّ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ وأَعْظَمُ مِنْ عِبادِ اللَّهِ. ويَالإِعْجَازِ القُرآنِ! ﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾، أَيْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَبَداً أَنْ يَصِلُوا لَهُ حَتَّى بِمَعَايِيرِهِمْ ومَنْطِقِهِمُ البَاطِلِ الَّذِي ارْتَضَوْهُ، فَهُمْ بَسَطُوا سُلْطَتَهُمْ عَلَى عَدَدٍ مَحْدُودٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لَا بُدَّ لَهُمْ أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ. فَإِحْسَاسُهُمُ الدَّاخِلِيُّ بِالْمَهَانَةِ والذِّلَّةِ الَّذِي دَفَعَهُمْ لِطَلَبِ العُلُوِّ والتَّجَبُّرِ سَيَظَلُّ مُلَازِماً لَهُمْ طَوالَ حَيَاتِهِمْ، فَلَنْ يَصِلُوا أَبَداً لِشُعُورٍ حَقِيقِيٍّ بِالْعُلُوِّ والتَّكْرِيمِ، فَقَدْ خَالَفُوا الْمَنْهَجَ الوحِيدَ الَّذِي أَنْزَلَهُ وقَرَّرَهُ مَنْ كَرَّمَ النَّاسَ وفَضَّلَهُمْ عَلَى سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ. لِذَا أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ونَحْنُ مِنْ بَعْدِهِ: ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

فَلَوْ تَأَمَّلَ الإِنْسَانُ هَذِهِ الْجُزْئِيَّةَ لَعَلِمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ عِبَارَةٌ عَنْ هَلَافِيتَ وأَذِلَّاءَ لَا قِيمَةَ لَهُمْ حَتَّى بِمَقَايِيسِ القُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ، لَكِنْ كَيْفَ عَلَوْا فِي الأَرْضِ وأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ؟ نَعَمْ؛ بِتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لِمَنْ تَحْتَهُمْ أَنَّهُمْ أَذِلَّاءُ وعَبِيدٌ لَهُمْ، وأَنَّ هَؤُلَاءِ الأَتْبَاعَ ضَيَّقُوا أَنْظَارَهُمْ حَتَّى عَنِ العَظَمَةِ الْمَادِّيَّةِ لِخَالِقِ الأَرْضِ والسَّمَاوَاتِ؛ لِذَلِكَ افْتَتَحَ اللَّهُ سُورَةَ البُرُوجِ وقِصَّةَ الغُلَامِ بـ: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾

فصل: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

◆

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج: 1].

غُلامٌ عَهِدَ بِهِ الْمَلِكُ لِسَاحِرٍ لِيُعَلِّمَهُ السِّحْرَ لِيَخْلُفَهُ فِي مُهِمَّتِهِ فِي إِعْمَاءِ أَبْصَارِ الْخَلَائِقِ عَنْ عَظَمَةِ وقُدْرَةِ الْخَالِقِ، ويُزَيِّنَ لَهُمْ ويُصَوِّرَ لَهُمْ هَذَا البَشَرَ الضَّعِيفَ كَإِلَهٍ لَا تُقْهَرُ قُوَّتُهُ. وهَذَا مَا يَفْعَلُ السِّحْرُ، فَفِي قِصَّةِ مُوسَى خَيَّلُوا لِلنَّاسِ الْحِبَالَ كَأَفَاعِيَ، لِيَشْقَى النَّاسُ بِعِبَادَةِ هَذَا الْمَلِكِ، واحِدٌ مِنْ كَثِيرٍ مَرُّوا فِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ، ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾. لَكِنْ سَخَّرَ اللَّهُ لِلْغُلَامِ رَاهِباً يَعْبُدُ اللَّهَ.

« فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ! فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوُضِعَ الْمِنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ » [رواه مسلم].

هُنَا العِبْرَةُ العَظِيمَةُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الأُخْدُودِ، لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ هَذِهِ القُوَّةَ المَادِّيَّةَ المَحْدُودَةَ جِدّاً الَّتِي حَازَهَا المَلِكُ بَعْدَ سِنِينَ طَوِيلَةٍ، ولِاسْتِخْدَامِهَا يَحْتَاجُ أَعْوَاناً ووُزَرَاءَ كُثُراً، لَكِنَّهُ ضَخَّمَهَا جِدّاً وسَحَرَ أَعْيُنَ قَوْمِهِ واسْتَرْهَبُوهُمْ بِوَاسِطَةِ سَحَرَتِهِ، وأَرَادَ أَنْ يُشْقِيَ الإِنْسَانَ ويُرْضِيَ هَذَا الغُرُورَ والكِبْرَ فِي نَفْسِهِ، فَكَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: 24]. هَزَمَهَا صَبِيٌّ عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْماً وأَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ المُعْجِزَاتِ.

كَانَ يُمْكِنُ لِلْمَلِكِ وأَتْبَاعِهِ أَنْ يُفَارِقُوا سَبِيلَ الشَّيْطَانِ ويُؤْمِنُوا ويَعِيشُوا فِي ظِلِّ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ أَسْعَدَ حَيَاةٍ، لَكِنْ هَيْهَاتَ! فَأَوَّلُ قَضَاءِ اللهِ أَنْ لَا يَهْدِيَ القَوْمَ الظَّالِمِينَ، فَهُمْ كَمَا حَكَى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: 14]. فَسُبْحَانَهُ مَا ظَلَمَهُمْ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

وهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالُ: سَقَطَ السِّحْرُ عَلَى أَيْدِي السَّاحِرِ، وفَشَلَتْ سُبُلُ الغَوَايَةِ الفِكْرِيَّةِ وهِيَ أَخْطَرُ وسَائِلِ الشَّيْطَانِ:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: 120].

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: 20].

عَلَّمَ اللَّهُ الغُلَامَ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّ مَنْهَجَ اللهِ هُوَ السَّبِيلُ لِكُلِّ الغَايَاتِ السَّامِيَةِ والسَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِلْبَشَرِيَّةِ، وكَذَا عَلِمَ جَلِيسُ المَلِكِ، وعَلِمُوا أَيْضاً أَنَّ القُوَّةَ المُطْلَقَةَ وأَنَّ الفَاعِلَ الحَقِيقِيَّ فِي الكَوْنِ الَّذِي تَسْتَمِدُّ مِنْهُ كُلُّ الأَسْبَابِ فَعَّالِيَّتَهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَمَا صَدَّهُمْ وعِيدُ المَلِكِ أَوْ بَطْشُهُ عَنْ سُلْطَانِ طريقِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

ولِذَا، كَمَا أَرَى، حِينَ قَصَّرَ الدُّعَاةُ إِلَى سَبِيلِ اللهِ فِي هَذَا الجَانِبِ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ العِبَادِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ. بَلْ ولِلْأَسَفِ صَوَّرُوا لِلنَّاسِ أَنَّ الدِّينَ عِبَارَةٌ عَنْ أَغْلَالٍ تُكَبِّلُ النَّاسِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَنْعَمُوا بِالحَيَاةِ الأُخْرَى، وفَسَّرُوا فِي ذَلِكَ آيَاتٍ وأَحَادِيثَ كَانَتْ مَهَمَّتُهَا مُعَالَجَةَ جُزْئِيَّةٍ صَغِيرَةٍ جِدّاً مِنْ تَرْبِيَةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُنَاطُ بِهِمْ مُصَادَمَةُ حَمَلَةِ الرَّايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ.

جَعَلُوهَا الأَسَاسَ وظَنُّوا أَنَّ مِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ لِعَمَّارٍ وسُمَيَّةَ: "صَبْراً آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ لَكُمُ الْجَنَّةَ"[الْأَلْبَانِيُّ]، فَمَنْ قَاتَلَ وقُتِلَ قَبْلَ الفَتْحِ إِنَّمَا هُمْ مُقَدَّمَاتٌ ضَرورِيَّةٌ لِانْتِصَارِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وهِيَ سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ، فَحَتَّى بَعْدَ الفَتْحِ يُصِيبُ الْمُؤْمِنُونَ مَا يُصِيبُ الكَافِرِينَ عِنْدَ الصِّدَامِ والْمَعَارِكِ:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: 140].

لَكِنَّ الفَرْقَ هُوَ عَاقِبَةُ الْمُؤْمِنِينَ الشَّهَادَةُ والْجَنَّةُ، وعَاقِبَةُ الكَافِرِينَ القَتْلُ والْخُلُودُ فِي النَّارِ. فَكَمَا أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ عُمَرَ أَنْ يَقُولَ: « لَا سَوَاءَ، قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ » حِينَ نَادَى أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ: "يَوْمٌ بِبَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ" [رواه البخاري].

فصل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾

◆

وأَجْزِمُ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ الإِعَاقَاتِ الفِكْرِيَّةِ الَّتِي لَحِقَتْ بِأُمَّتِنَا الإِسْلَامِيَّةِ وكَانَتْ سَبَباً فِي شَقَائِهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ العُصُورِ السَّابِقَةِ، وهِيَ السَّبَبُ الرَّئِيسِيُّ فِي شَقَائِنَا الْمُعَاصِرِ، فِكْرَةُ أَنَّ الإِسْلَامَ كُلَّهُ مَدَارُهُ الْحَاكِمُ، وأَنَّ الْمُسْلِمَ سَيُسْأَلُ فَقَطْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ هَلْ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِلإِمَامِ مُسْلِمٍ، وأَنَّ الْحَاكِمَ فَقَطْ هُوَ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقِيمَ شَرْعَ اللَّهِ فِي الأَرْضِ.

وأَزْعُمُ أَنَّ حَدِيثَ: "إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ" (حَدِيثٌ عَنْ عُثْمَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-) عِبَارَةٌ أُخْرِجَتْ عَنْ سِيَاقِهَا تَمَاماً، فَالنَّبِيُّ عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يُمَلِّكَ العَرَبَ عَلَيْهِمْ عَلَى أَنْ يَدَعَ مَنْهَجَهُ، مَنْهَجَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، الْمَنْهَجَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ وهُوَ مَا نَزَلَ عَلَى سَيِّدِنَا آدمَ عِنْدَ هُبُوطِهِ لِدَارِ الشَّقَاءِ والْمُعَانَاةِ، مِنْ مِشْكَاةٍ واحِدَةٍ لِغَايَةٍ واحِدَةٍ هِيَ:

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 123].

فَالدَّاعِيَةُ مَأْمُورٌ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ عِلَلَهُمُ الَّتِي مَكَّنَتِ الشَّيْطَانَ -بِسَبَبِهَا- مِنْ شَقَائِهِمْ، ومِنْ صُوَرِ هَذَا الشَّقَاءِ تَسَلُّطُ مَلِكٍ أَوْ زَعِيمٍ ظَالِمٍ. وبِاتِّبَاعِهِمْ مَنْهَجَ اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ تُكْشَفَ غُمَّةُ الظُّلْمِ ويَسْقُطَ

هَذَا الزَّعِيمُ. كَانَ هَذَا السُّقُوطُ سُقُوطَ مَنْزِلَةٍ كَحَالِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ الَّذِي كَانَ مُفْتَرَضاً أَنْ يَكُونَ مَلِكَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، فَلَمَّا اتَّبَعُوا الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ أَبْدَلَهُمُ اللَّهُ بِزَعِيمٍ خَيْرٍ مَبْعُوثٍ أُرْسِلَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، صَارُوا بِهِ نُجُومَ مَعَالِمَ تُنِيرُ لِلنَّاسِ سُبُلَ السَّيْرِ نَحْوَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

أَوْ كَانَ هَذَا السُّقُوطُ هَلَاكَ الطَّاغِيَةِ، فَلَمَّا آمَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ واتَّبَعُوا الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ أَهْلَكَ اللَّهُ الطَّاغِيَةَ فِرْعَوْنَ وورَّثَهُمْ دِيَارَ وأَمْوَالَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ. ولَمَّا عَادُوا عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ عَادَ اللَّهُ مِصْدَاقاً لِقَوْلِ سُبْحَانَهُ: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 8]. فِي الآيَةِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ أَنَّ مِنَ العَذَابِ فِي الدُّنْيَا: تَسَلُّطَ وطُغْيَانَ الطُّغَاةِ. فَعَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّغَاةَ والظَّالِمِينَ. وتَنَكَّبَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فَسَلَّطَ اللَّهُ الْمُلُوكَ الْجَبَّارِينَ.

لَعَلَّ اللَّهَ يُيَسِّرُ لَنَا وَقْفَةً مُنْفَصِلَةً مَعَ أَحْدَاثٍ عَاصَرْتُهَا وَغَيْرِهَا نُحَلِّلُهَا بِوَاسِطَةِ مَفَاهِيمِ اتِّبَاعِ الْغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقًا وَاحِدًا لِلنَّجَاةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ دَوْلَةِ الظُّلْمِ أَوْ زَوَالِهَا، وَهُوَ اتِّبَاعُ مَنْهَجِ اللَّهِ. وَسَنَجِدُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ وَاحِدَةٌ، وَصَدَقَ سُبْحَانَهُ حِينَ قَالَ:

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 62].

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: 43].

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: 23].

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ الْجَمَاهِيرُ فَعَّالَةً سَاعِيَةً لِإِلْجَامِ الظَّلَمَةِ وَزَبَانِيَتِهِمْ بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِهِ سُبْحَانَهُ فَيَنْعَمُوا بِالسَّعَادَةِ والدَّوْلَةِ العَادِلَةِ الْمُزْدَهِرَةِ، أَوْ يَرْكَنُوا لِلظَّلَمَةِ فَيُصَبَّ عَذَابُ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، تَمَسُّهُمُ النَّارُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ، فَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

[هود: 113].

وفِي الآيَةِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ وتَلْخِيصٌ شَامِلٌ لِعَاقِبَةِ الرُّكُونِ لِلظُّلْمِ، فَكأَنَّ مَسَّ النَّارِ يَبْدَأُ مِنَ النَّاحِيَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَيُعَذَّبُونَ فِيهَا بِالضَّنْكِ وضِيقِ العَيْشِ. ويَا لَعَجَائِبِ القُرآنِ! يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ الرَّاكِنِينَ لِلظَّلَمَةِ أَنَّ قُوَّةً ومَنَعَةً يَسْتَمِدُّونَ مِنْهُمْ قُوَّتَهُمْ، فَبَيَّنَ اللَّهُ لَهُمْ خَطَأَ ومَصْيَدَةَ الشَّيْطَانِ هُنَا، فَالوَلِيُّ الْحَقِيقِيُّ والَّذِي لَهُ القُوَّةُ الْمُطْلَقَةُ هُوَ اللَّهُ، ثُمَّ خِتَامُ الآيَةِ: ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

هَذِهِ الدَّوْلَةُ القَائِمَةُ عَلَى القَهْرِ والغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ مَصِيرُهَا لِلاضْمِحْلَالِ والزَّوَالِ، سَوَاءٌ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهَا دَوْلَةً أُخْرَى، أَوْ مَكَّنَ اللهُ لِلضُّعَفَاءِ والعَبِيدِ -حَسَبَ ظَنِّ سَادَةِ قُرَيْشٍ والعَرَبِ- فَارْتَقَى هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ وعَلِمُوا مَنْبَعَ القُوَّةِ الحَقِيقِيَّ لِلْإِنْسَانِ، وجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ (إِخْرَاجِ العِبَادِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ العِبَادِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ) كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَقَطَ طَوَاغِيتُ قُرَيْشٍ عَلَى أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ رُومَا والفُرْسُ، حِينَمَا بَشَّرَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وهِيَ حَقِيقَةٌ حَتْمِيَّةٌ لَا مَنَاصَ مِنْهَا.

وصَدَقَ التَّارِيخُ، بِمَا بَشَّرَ مُحَمَّدٌ ﷺ الصَّحَابَةَ وهُمْ فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ، حِينَ أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمَدِينَةِ إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ حِينَ:

« اعْتَرَضَتِ الْمُسْلِمِينَ صَخْرَةٌ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ،

وَضَرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا » [صحيح الألباني].

نَعَمْ، بَشَّرَ بِسُقُوطِ دَوْلَةِ اليَمَنِ ومُلْكِ كِسْرَى عَلَى أَيْدِيهِمْ. بَلْ هُنَاكَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ، عِنْدَمَا آمَنَ مَعَ الرَّسُولِ قِلَّةٌ مُسْتَضْعَفَةٌ أَغْلَبُهُمْ عَبِيدٌ وتآمَرَ سَادَةُ مَكَّةَ عَلَى البَطْشَةِ الشَّدِيدَةِ بِالدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالْهِجْرَةِ، وهِيَ مِنْ سُبُلِ التَّغْيِيرِ الرَّحْمَانِيَّةِ حِينَ يَأْبَى الطُّغَاةُ إِلَّا البَطْشَ والنَّكَالَ بِحَمَلَةِ رَايَةِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، ويَرْكَنُ مُعْظَمُ الشَّعْبِ لِلظَّلَمَةِ ويَتَّخِذُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وهُنَا قِصَّةٌ لِسُرَاقَةَ، رَجُلٌ لَهُ قَبْلَ الإِسْلَامِ قَبَسُ صِفَاتٍ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ.

فصل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾

◆

مِئَةٌ أَوْ مِائَتَا بَعِيرٍ لِمَنْ يَأْتِي بِمُحَمَّدٍ ﷺ وصَاحِبِهِ حَيّاً أَوْ مَيّتاً، جَائِزَةٌ رَصَدَتْهَا قُرَيْشٌ حِينَ هَاجَرَ مُحَمَّدٌ وأَبُو بَكْرٍ نَحْوَ الْمَدِينَةِ. الْتَقَطَ سُرَاقَةُ الْخَبَرَ، فَهُوَ فَارِسٌ لَهُ جَوَادٌ سَرِيعٌ، جَيِّدُ الإِعْدَادِ، يُسَابِقُ الرِّيحَ لِيَغْتَنِمَ مَا يُغَيِّرُ حَيَاتَهُ. خَرَجَ فِي إِثْرِ جَائِزَةٍ، لَا انْسِجَاماً مَعَ الرَّأْيِ الْعَامِّ الَّذِي طَوَّعَ طُغَاةَ قُرَيْشٍ ضِدَّ مُحَمَّدٍ ﷺ، ولَا مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ أَسْيَادِ مَكَّةَ كَأَبِي جَهْلٍ لِيَحْظَى بِمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ عَالِيَةٍ فِي سُلَّمِ عُبُودِيَّةِ الأَسْيَادِ، خَرَجَ لِيُحَقِّقَ أَهْدَافَهُ الشَّخْصِيَّةَ لِيَنَالَ الجَائِزَةَ.

غَاصَتْ قَدَمَا فَرَسِهِ فِي التُّرَابِ مَرَّاتٍ عِدَّةً حِينَ رَأَى مُحَمَّداً ﷺ وصَحْبَهُ، لَمْ يَنْدَبْ حَظَّهُ ويَشْكُ ويَبْكِ لِأَنَّهُ قَطَعَ الْمَفَازَةَ إِثْرَ رَجُلٍ لَا يُمْكِنُ التَّغَلُّبُ عَلَيْهِ؛ رَأَى فِي ذَلِكَ فُرْصَةً أُخْرَى تَنْفَعُهُ ومَغْنَماً جَدِيداً، فَهُوَ لَا يُرَكِّزُ عَلَى الأَشْخَاصِ وإِنَّمَا الأَهْدَافِ، فَهُوَ يَعْرِفُ مَا يُرِيدُ: الْمَغْنَمُ لَا غَيْرُهُ. فَطَلَبَ الأَمَانَ مِنْ مُحَمَّدٍ فَأَمَّنَهُ، وعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُخَذِّلَ عَنْهُ القَوْمَ مُقَابِلَ أَنْ يُكْرِمَهُ حِينَ يُظْهِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. أَحْسِبُ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ عَلِمَ أَنَّ فِيهِ نَفْساً كَرِيمَةً تَوّاقَةً طَمُوحَةً فَقَالَ: «كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟» [ابن حجر] . ذُهِلَ سُرَاقَةُ ومَضَى.

نَالَ سُرَاقَةُ الْأَسْوِرَةَ، وآبَ سَادَةُ قُرَيْشٍ بِالْخُسْرَانِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا عَرْضَ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ قَالَ لَهُمْ: "كَلِمَةً تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ"، فَفِي الْحَدِيثِ:« يَا عَمِّ، إِنِّي أُرِيدُهُمْ عَلَى

كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُولُونَهَا تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ. قَالُوا: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ نَعَمْ وَأَبِيكَ عَشْرَ كَلِمَاتٍ! قَالَ: قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »[أحمد/الترمذي]. عَرَضَ عَلَيْهِمُ السِّيَادَةَ الْحَقِيقَةَ بِمَنْهَجِ اللَّهِ، بِصِفَاتٍ تُؤَهِّلُهُمْ لِلصَّدَارَةِ، لَا الرُّكُوبَ عَلَى ظَهْرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَاسْتِعْبَادَهُمْ وَاسْتِغْلَالَ جَهْلِهِمْ. عَرَضَ حَتَّى عَلَى السَّادَةِ تَحْرِيرَهُمْ مِنْ ضَعْفِهِمْ؛ فَلَيْسَ الضَّيْرُ أَنْ يَمْلِكَ الدُّنْيَا لَكِنَّ الضَّيْرَ أَنْ تَمْلِكَ الدُّنْيَا الإِنْسَانَ فَتُشِيقَهُ وَتَشْقَى بِهِ.

اسْتَغَلَّ سُرَاقَةُ الفُرْصَةَ فَغَنِمَ وَخَلَّدَهُ التَّارِيخُ. وسُرَاقَةُ ذُو هِمَّةٍ عَالِيَةٍ، ذُو إِعْدَادٍ جَيِّدٍ، لَا يَخْدِمُ سِوَى أَهْدَافِهِ الشَّخْصِيَّةِ، يَسْعَى لِلْغَنِيمَةِ دَوْماً. صَقَلَ الإِسْلَامُ سُرَاقَةَ وخَرَّجَ آلافاً غَيْرَهُ؛ مِنْ عَبِيدٍ سَاسُوا الدُّنْيَا والنَّاسَ. خَرَّجَهُمْ بِمَنْهَجِ اللَّهِ؛ فَتَوْحِيدُ اللَّهِ عَلَّمَهُمْ قِيمَةَ أَنْفُسِهِمْ فَهُمْ والسَّادَةُ سَوَاءٌ؛ عَبِيدٌ لِلَّهِ. و﴿ سَابِقُوا ﴾ و﴿ وَسَارِعُوا ﴾ عَلَّمَتْهُمُ النَّشَاطَ والْحَيَوِيَّةَ والإِيجَابِيَّةَ:

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا » [الألباني].

عَلَّمَتْهُمُ السُّمُوَّ بِأَهْدَافِهِمْ واهْتِمَامَاتِهِمْ، وبُعِثْتُ لِأُكَمِّلَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ عَلَّمَتْهُمْ سُمُوَّ الْخُلُقِ والأَدَبِ، وتَرْكَ التَّشَكِّي وتَحَمُّلَ الْمَسْؤُولِيَّةِ والْجَلَدَ والصَّبْرَ وغَيْرَهُ كَثِيرٌ. وبِالْفُرَصِ والْجَوَائِزِ الكَبِيرَةِ مِنَ اللَّهِ، كَصِيَامِ عَاشُورَاءَ يُكَفِّرُ سَنَةً مَاضِيَةً، ويَوْمِ عَرَفَةَ يُكَفِّرُ سَنَتَيْنِ، ولَيْلَةِ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ؛ تَعَلَّمُوا الطُّمُوحَ وسُمُوَّ الأَهْدَافِ وقِيمَةَ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا يَسْعَوْنَ إِلَّا لِلنَّفِيسِ مِنَ الغَايَاتِ والأَهْدَافِ. لَبِسَ سُرَاقَةُ سِوَارَيْ كِسْرَى وتَاجَهُ بِمَنْهَجِ اللَّهِ، ولَبِسَتِ الأُمَّةُ اليَوْمَ أَغْلَالَ الذِّلَّةِ والاِسْتِعْبَادِ بِالْحَيْدَةِ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ.

صَحِيحٌ أَنَّ مَدَارِسَنَا لَا تُدَرِّسُ كَيْفِيَّةَ العَيْشِ بِمَنْهَجِ اللَّهِ، وإِعْلَامَنَا يُضَلِّلُكَ ويُصَوِّرُ لَكَ السَّعَادَةَ بِالْحَيْدِ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ، بَلْ يُهَيِّئُكَ لِيَسْتَعْبِدَكَ غَيْرُهُ لِتَشْقَى. لَكِنْ هَا أَنْتَ لَا تَجِدُ السَّعَادَةَ والْحُبُورَ بَلِ الضِّيقَ والضَّنْكَ. لَا تَحْسَبْ أَنَّ السَّعَادَةَ فِيمَا يَنْقُصُكَ مِنْ مَالٍ وجَاهٍ وشُهْرَةٍ؛ فَانْظُرْ لِمَنْ

حَازَهَا: هَلْ وجَدَهَا؟ وتَمَعَّنْ لَا تَخْدَعْكَ الصُّوَرُ. السَّعَادَةُ والْحُرِّيَّةُ الْحَقِيقَةُ هِيَ بِالْعَيْشِ وفْقَ مَنْهَجِ اللَّهِ. حَتَّى الِاسْتِمْتَاعُ الْحَقِيقِيُّ بِالشَّهَواتِ والْعَيْشُ الْهَنِيُّ يَنْقُصُ بِقَدْرِ الْحَيْدَةِ عَنْ مَنْهَجِهِ:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: 41].

فَلَا أَمَانَ واطْمِئْنَانَ بَلْ حُرُوبٌ ودَمَارٌ، وانْظُرْ لِلسُّعَارِ الْجِنْسِيِّ والْمُخَدِّرَاتِ وحُمَّى الِاسْتِهْلَاكِ؛ فَكُلُّ يَوْمٍ شَيْءٌ جَدِيدٌ لَعَلَّهُمْ يَسُدُّونَ جَوْعَتَهُمْ. والْغَرِيبُ أَنَّا فِي دَرْبِهِمْ سَائِرُونَ. وتَبْحَثُ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ لِتَعِيشَ فِيهِ وسَتَجِدُهُ رَغْمَ رُكَامِ الْمَنَاهِجِ الْبَشَرِيَّةِ الْأُخْرَى، وسَتَعْرِفُهُ وتَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ فِيهِ؛ فَحَتَّى الطُّغَاةُ ومَنْ يَصُدُّونَ عَنْهُ يَعْلَمُونَهُ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: 14].

وابْدَأْ بِـ "اقْرَأْ" وفَكِّرْ وتَدَبَّرْ وخَالِفِ العَامَّةَ إِلَّا فِي خَيْرٍ، لِتَعْلَمَ حِينَهَا عِلْمَ اليَقِينِ: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 50]. ولِتَعْلَمَ أَيْضاً: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97]. ولِتَفْهَمَ: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة: 138]. وصِبْغَةُ اللَّهِ هِيَ آثَارُ مَنْهَجِ اللَّهِ فِي مَنْ ارْتَضَوْهُ فَتَطَبَّعُوا بِهِ.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257].

أَخْرَجَ اللَّهُ سُرَاقَةَ ومَنْ مَعَهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ إِلَى نُورِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ؛ سُرَاقَةُ لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ولِيّاً. وكَذَلِكَ جَلِيسُ الْمَلِكِ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الوَلِيُّ الْحَقِيقِيُّ لَا الْمَلِكُ

الطَّاغِيَةُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَصُدَّهُ عَنِ الحَقِّ فَعَذَّبَهُ والرَّاهِبَ عَذَاباً شَدِيداً، بَلْ أَتَى بِالْمِنْشَارِ وهَدَّدَ بِشَقِّهِ نِصْفَيْنِ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُرْهِبْ قَلْباً عَلِمَ حَقَّ اليَقِينِ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ. هَذَا جَوَابٌ عَنْ سُؤالِ الْمَلَائِكَةِ عَنْ خَلْقِ الإِنْسَانِ: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30].

فصل: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾

◆

شَقَّ الْمَلِكُ الرَّاهِبَ وجَلِيسَهُ نِصْفَيْنِ. وحِينَمَا كَثُرَ العَذَابُ عَلَى الصَّحَابَةِ، طَلَبُوا مِنَ الرَّسولِ أَنْ يَسْتَنْصِرَ لَهُمْ. وقَبْلَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَغْلَظُوا القَوْلَ لِسَيِّدِنَا مُوسَى ﷺ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ:

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 129].

أَجَابَ مُوسَى، وأَجَابَ مُحَمَّدٌ حِينَ شَكَى لَهُ الصَّحَابَةُ الْمُتَقَدِّمُونَ، وهُمْ حِينَئِذٍ فِئَةٌ قَلِيلَةٌ مُسْتَضْعَفَةٌ، وهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: "أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟". فَقَالَ:

« قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » [البخاري].

الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ.

سُنَّةُ اللَّهِ لَا تَتَغَيَّرُ، والفِئَةُ الأُولَى الْمُسْتَضْعَفَةُ يَقَعُ عَلَيْهَا عَذَابُ الطُّغَاةِ الشَّدِيدُ، فَهُمْ لَا حِيلَةَ لَهُمْ ولَا مَنْطِقَ مَعَ مَنْهَجِ اللَّهِ وغَايَاتِهِ. لِذَا نَبَّهَ اللَّهُ نَبِيَّهُ إِلَى أَعْظَمِ جِهَادٍ، وهُوَ أَعْظَمُ مِنْ جِهَادِ السِّنَانِ، أَلَا وهُوَ الجِهَادُ الفِكْرِيُّ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 52].

فَالخَلَلُ فِي فَهْمِنَا لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَا يُغَيِّرُ اللَّهُ حَالَنَا إِلَّا إِذَا غَيَّرْنَا مَا بِأَنْفُسِنَا. وَأَذْكُرُ أَنَّ خَاطِرَةً جَاءَتْنِي وَكُنْتُ فِي أَلْمَانِيَا رَمَضَانَ 2023م، وَصَلَّيْتُ فِي مَسْجِدٍ صَغِيرٍ (يَسَعُ 200 مُصَلٍّ) وَالْمَدِينَةُ صَغِيرةٌ بِهَا ثَلَاثَةُ مَسَاجِدَ، وأَظُنُّ أَنَّ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا قَدْ يَصِلُ إِلَى أَلْفٍ. ودُونَكَ فَرَنْسَا بِهَا أَكْبَرُ جَالِيَةٍ مُسْلِمَةٍ فِي أُورُوبَّا، مَا يَقْرُبُ مِنْ سِتَّةِ مِلْيُونَ، سَكَنَهَا أَجْدَادُهُمْ لِمُدَّةٍ تَصِلُ إِلَى قَرْنٍ.

فَقَالَ فِي خَاطِرِي: لَوْ خمسون صَحَابِيّاً جَاؤُوا إِلَى أَلْمَانِيَا أَوْ أَيِّ دَوْلَةٍ أُخْرَى ومَا كَانَ بِهَا مُسْلِمٌ واحِدٌ، مَاذَا سَيَحْدُثُ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ؟ والظَّنُّ عِنْدِي أَنَّهُمْ سَيَتَحَوَّلُونَ مُعْظَمُهُمْ لِلإِسْلَامِ، وحَتَّى إِنْ قَرَّرَتِ السُّلُطَاتُ التَّضْيِيقَ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ لَمَا تَمَكَّنُوا مِنْ حَجْبِ نُورِ اللَّهِ. لَكِنِ انْظُرْ لِحَالِ الْمُسْلِمِينَ اليَوْمَ؛ يَشْكُونَ أَنَّ فِي أُورُوبَّا (إِسْلَاموفوبيا) ويَدْعُونَ السُّلُطَاتِ لِمُكَافَحَةِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ! وهَذِهِ الظَّاهِرَةُ تَعْنِي أَنَّ فِئَةً ذَاتَ سُلْطَةٍ ونُفُوذٍ تَخْشَى أَنْ يَتَحَوَّلَ أَغْلَبُ الشَّعْبِ لِلإِسْلَامِ، فَقَادَةُ الإِسْلَامِ يَدْعُونَ السُّلُطَاتِ لِمُحَارَبَتِهَا! وظَنِّي أَنَّ الصَّحَابَةَ لَوْ جَاؤُوا لَأُورُوبَّا لَأَخْبَرُوا هَؤُلَاءِ الْمُتَنَفِّذِينَ أَنَّ كَلَامَهُمْ صَحِيحٌ، وأَنَّ الإِسْلَامَ سَيَسُودُ ويَنْتَشِرُ شَاؤُوا أَمْ أَبَوْا، فَهُوَ مَنْهَجُ اللَّهِ لِسَعَادَةِ البَشَرِيَّةِ وسَبِيلُ إِخْرَاجِهَا مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ، ومِنْ جَوْرِ الْمَسِيحِيَّةِ الْمُحَرَّفَةِ وغَيْرِهَا مِنَ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ.

لَكِنْ لَا غَرَابَةَ، فَنَحْنُ عَاجِزُونَ حَتَّى عَنْ إِقْنَاعِ أَنْفُسِنَا وأَهْلِنَا وشُعُوبِنَا الْمُسْلِمَةِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ النَّاصِعَةِ. ولِقُرُونٍ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِكَثِيرٍ مِنَ الدُّعَاةِ أَنَّ الْحَدِيثَ: « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ

الْكَافِرِ » [مسلم] هُوَ مَدَارُ الإِسْلَامِ واخْتِصَارُهُ! وهُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ عِنْدِي أَنَّ العَذَابَ الشَّدِيدَ لِلْكَافِرِينَ فِي الآخِرَةِ سَيَجْعَلُهُ يَعْلَمُ أَنَّ مُنَغِّصَاتِ الدُّنْيَا وعَذَابَهَا هُوَ جَنَّةٌ لَهُ مُقَارَنَةً بِذَلِكَ، وأَيْضاً أَنَّ النَّعِيمَ الدُّنْيَوِيَّ لِلْمُؤْمِنِ هُوَ كَالسِّجْنِ والعَذَابِ مُقَارَنَةً بِنَعِيمِ الآخِرَةِ. لَعَلَّ تَفْسِيرَهُ أَوْضَحُ فِي الْحَدِيثِ الآخَرِ، وكَمَا قِيلَ: وبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الأَشْيَاءُ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

« يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ له: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ » [مسلم].

فَالْفِئَةُ الأُولَى الْمُوَاجِهَةُ لِلْغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ يُصَبُّ عَلَيْهَا العَذَابُ الدُّنْيَوِيُّ صَبّاً، ورَغْمَ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَخْلِطُهُ بِالنَّعِيمِ الرُّوحِيِّ لَا يُعَدُّ شَيْئاً يُذْكَرُ، كَحَالِ بَلَالٍ. وهِيَ مَأْمُورَةٌ بِالتَّحَمُّلِ والصَّبْرِ لِسَبَبَيْنِ: أَوَّلُهُمَا أَنَّهَا عَلَى الحَقِّ وأَنَّ هَذَا هُوَ سَبِيلُ الْحُرِّيَّةِ؛ فَلَوْ ضَعُفَتْ وركَنَتْ لِلطُّغَاةِ لَعَاشَتْ حَيَاةً تَعِيسَةً، حَيَاةَ مَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ وظَلَمَهَا اتِّقَاءَ بَطْشِ الظَّالِمِينَ. وحَتَّى الْمُعَاصِرُونَ يَقُولُونَ: "مَنْ خَسِرَ العَالَمَ وكَسَبَ نَفْسَهُ فَمَا خَسِرَ شَيْئاً، ومَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ وكَسَبَ العَالَمَ فَمَا كَسَبَ شَيْئاً". هَذَا الشُّعُورُ البَائِسُ بِخَسَارَةِ النَّفْسِ وهَوَانِهَا هُوَ كَشُعُورِ الْمَرِيضِ بِالضَّعْفِ، ويُصْبِحُ مَعَهُ مَلَذَّاتُ الدُّنْيَا لَا طَعْمَ لَهَا. وعَكْسُهُ شُعُورُ التَّكْرِيمِ والرِّفْعَةِ واتِّبَاعِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، هُوَ شُعُورٌ يَجْعَلُ لأَيِّ شَيْءٍ -ولَوْ قَلِيلٍ- مُتعَةً ولَذَّةً لَا تُقَارَنُ.

والثَّانِي: هَؤُلَاءِ مُعَدُّونَ لأَعْظَمِ مُهِمَّةٍ عَرَفَتْهَا البَشَرِيَّةُ: إِخْرَاجِ البَشَرِيَّةِ مِنَ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ إِلَى الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِعْدَادٍ خَاصٍّ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ، وهِيَ مُهِمَّةٌ لَا يَصْطَفِي اللَّهُ لَهَا إِلَّا الخُلَّصَ أَقْوِيَاءَ الإِيمَانِ بِهِ وغَايَاتِهِ. لِذَا أَخْبَرَ الرَّاهِبُ الغُلَامَ: "إِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ". وهُنَا

ابْتِلاءُ الغُلَامِ فَاقَ طَاقَتَهُ وتَحَمُّلَهُ، وهُوَ مَعْذُورٌ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَمِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ رَخَّصَ لِعِبَادِهِ حَتَّى الكُفْرَ بِهِ قَوْلاً إِذَا فَاقَ العَذَابُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُطِيقُوه. ولَوْلَا العَذَابُ لَمَا عَلِمُوا أَنَّ لَهُمْ طَاقَاتٍ وأَمْكَانِيَّاتٍ يُفَجِّرُهَا الإِيمَانُ بِهِ سُبْحَانَهُ والْعَمَلُ فِي سَبِيلِهِ.

فَدَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَعُذِّبَ وشُقَّ نِصْفَيْنِ، لَمْ يَرُدَّهُ ذَلِكَ عَنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وعِبَادَةِ الطَّاغِيَةِ، وكَذَا جَلِيسُ الْمَلِكِ؛ فَخَلَّدَهُمُ اللَّهُ كَمَا خَلَّدَ أَنْبِيَاءَهُ وأَصْفِيَاءَهُ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ بِسُورَةٍ يُؤْمِنُ بِهَا الْيَوْمَ مَا يَزِيدُ عَنْ مِلْيَارَيْ مُسْلِمٍ. أَمَّا الغُلَامُ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ الْمَلِكُ أَنَّهُ صَارَ تَهْدِيداً لَهُ ولِتَسَلُّطِهِ وسِحْرِهِ لِلْعَامَّةِ، وعَلِمَ أَنَّهُ سَيُخْرِجُ قَوْمَهُ مِنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ العِبَادِ؛ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ قَتْلَهُ لِدَرْءِ ذَلِكَ. ومَا عَلِمَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ حُكْمٌ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ أَنَّ الحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ قَوْمَهُ فَلَا قُوَّةَ فِي الأَرْضِ تَسْتَطِيعُ مَنْعَ ذَلِكَ. بَلْ كَمَا جَعَلَ اللَّهُ مَهْلَكَ فِرْعَوْنَ يُرَبِّي بِوَاسِطَتِهِ:

« فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِذَا رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ » [مسلم].

هُنَا سُقِطَ فِي يَدَيِ الْمَلِكِ وبَطَلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ. هُنَا أَرْشَدَهُ الغُلَامُ:

« فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ

قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ » [مسلم].

أَرَادَ الْمَلِكُ ضَلَالَ الرَّعِيَّةِ وَأَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُمْ؛ فَجَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى يَدِهِ وبِسَبَبِ فِعْلِهِ. هُنَا كَانَ يُمْكِنُ لِلْمَلِكِ أَنْ يُؤْمِنَ، لَكِنَّ اللَّهَ قَضَى فَهُوَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ؛ بِسَبَبِ أَفْعَالِهِمْ تَتَعَطَّلُ عُقُولُهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقَائِقِ النَّاصِعَةِ.

« فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ » [مسلم].

شَهِدَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ بِجُسُومِهِمْ أَعْظَمَ شَهَادَةٍ عَرَفَتْهَا البَشَرِيَّةُ؛ تَدَافَعُوا فِي الأُخْدُودِ تَدَافُعَ الحَجِيجِ وهُمْ يَطُوفُونَ بِمَكَّةَ يُرَدِّدُونَ: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ النِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ". مَا تَرَدَّدَ مِنْهُمْ رَجُلٌ ولَا امْرَأَةٌ، إِلَّا واحِدَةٌ سَعَى الشَّيْطَانُ لِيُضِلَّهَا؛ فَهِيَ تَحْمِلُ ابْناً رَضِيعاً، لَعَلَّهُ وسْوَسَ لَهَا: "مَا ذَنْبُ هَذَا أَنْ يَمُوتَ مَعَكِ؟". لَكِنْ هُنَا هِدَايَةُ اللَّهِ الَّتِي حَجَبَهَا عَنِ الظَّالِمِينَ، أَمَدَّ بِهَا أَوْلِيَاءَهُ، فَنَطَقَ الرَّضِيعُ: « اصْبِرِي يَا أُمَّاهْ فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ ».

لِمَاذَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ الزَّبَانِيَةُ ومَلِكُهُمْ كُلَّ هَذَا بِالْمَرْأَةِ والرَّضِيعِ وقَوْمِهَا؟

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج: 8-9]. لِأَنَّهُمْ شَهِدُوا بِالْحَقِّ؛ إِنَّ اللَّهَ العَزِيزَ الحَمِيدَ، هُوَ الْمَلِكُ

فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وأَنَّهُ حَتَّى بِالْمَقَايِيسِ الْمَادِّيَّةِ البَحْتَةِ هُوَ أَعْظَمُ الْمُلُوكِ. فَهُوَ الْمَلِكُ الوحِيدُ الَّذِي أَنْشَأَ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾، وهُوَ أَيْضاً الْمَلِكُ الوحِيدُ الَّذي ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج: 13].

بَدَأَ قِصَّةَ البَشَرِيَّةِ والصِّرَاعَ الدُّنْيَوِيَّ السَّرْمَدِيَّ بَيْنَ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ والشَّيْطَانِيَّةِ بِخَلْقِ آدمَ وتَكْرِيمِهِ بِالْعِلْمِ والإِرَادَةِ، واصْطِفَائِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وأَعْلَمَ أَنَّ عَدُوَّهُ إِبْلِيسَ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُضِلَّهُ ويُشْقِيَهُ. لَكِنَّ أَبَانَا آدمَ عَصَى رَبَّهُ فَغَوَى، أُهْبِطَ مِنَ الجَنَّةِ دَارِ النَّعِيمِ إِلَى الأَرْضِ دَارِ الِابْتِلَاءِ. لَكِنَّ اللَّهَ تَابَ عَلَى أَبِينَا آدمَ وأَنْزَلَ مَعَهُ الْمَنْهَجَ الَّذِي بِاتِّبَاعِهِ لَا يَضِلُّ الإِنْسَانُ ولَا يَشْقَى.

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْدَأَ صِرَاعٌ جَدِيدٌ، مَلِكٌ طَاغِيَةٌ وقَوْمُهُ عَبَدُوا إِلَهاً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وفِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْنَاهُمْ هُدىً، اتَّبَعُوا إِلَهَ الحَقِّ ذِي العَرْشِ الْمَجِيدِ:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: 14-15]. رَغْمَ البَطْشِ الشَّدِيدِ مَا اتَّبَعُوا الشَّطَطَ والضَّلَالَ البَيِّنَ خَطَؤُهُ، حَتَّى لَوْ خُدِعَ بِهِ فِئَامٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ قَوْمِهِ، وتَبَنَّاهُ هَذَا البَاطِلَ مَلِكٌ جَبَّارٌ يَدَّعِي أَيْضاً أَنَّ لَهُ حُكْماً فِي مَلَكُوتِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ. فَأَبَى أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وبَيْنَ هَؤُلَاءِ الفِتْيَةِ والنَّاسِ لِيُؤْمِنَ مَنْ شَاءَ بِمَنْطِقِهِمْ ويَكْفُرَ مَنْ شَاءَ. بَلْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ أَنْ تَوَعَّدَ

الفِتْيَةَ بِالْعَذَابِ والبَطْشِ الشَّدِيدِ إِنْ لَمْ يَكْفُرُوا ﴿ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

تَآمَرَ عِلْيَةُ القَوْمِ ومَلِكُهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ الفِتْيَةِ، فَقَرَّرَ الفِتْيَةُ الاِعْتِزَالَ والنَّجَاةَ مِنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ الظَّالِمِينَ: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: 16]. فَرَفَقَ اللَّهُ بِهِمْ أَشَدَّ رِفْقَةٍ عَلِمَتْهَا الإِنْسَانِيَّةُ؛ أَنَامَهُمْ فِي الكَهْفِ ثَلَاثِمَائَةٍ وتِسْعَ سِنِينَ، هَلَكَ خِلَالَهَا الطَّاغِيَةُ وقَوْمُهُ، وأَبْدَى اللَّهُ فِي دَوْلَتِهِمْ مُجْتَمَعاً مُؤْمِناً بِاللَّهِ وغَايَتِهِ الرَّحْمَانِيَّةِ، وجَعَلَ أَهْلَ الكَهْفِ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ.

شَاءَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ تَعُودَ الكَرَّةُ مَرَّةً أُخْرَى بِتَمَلُّكِ فِرْعَوْنَ وزَبَانِيَتِهِ، فَيَتَحَكَّمُوا فِي مَصَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. طَغَى فِرْعَوْنُ طُغْيَاناً شَدِيداً هُوَ وجُنُودُهُ، فَأَعَادَ اللَّهُ تَجْدِيدَ مَعَالِمِ مَنْهَجِهِ بِبَعْثَةِ مُوسَى. أَخْرَجَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبَعْثَةٍ مِنْ سَبِيلِ القَتْلِ والاِسْتِعْبَادِ إِلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ والرِّفْعَةِ:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 137].

بَطَشَ اللَّهُ بِفِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ، كَمَا حَكَى عَنْ نَفْسِهِ فِي سُورَةِ البُرُوجِ، أَوَّلاً بَطْشُ نِذَارَةٍ وتَخْوِيفٍ لِيَعْلَمَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ وجُنُودُهُ: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: 12].

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ

عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: 133-135].

ثُمَّ لَمَّا أَصَرُّوا عَلَى طريقِ الغَايَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ وأَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وعَدُوهُ: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 136]. غَفَلَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ البَيِّنَةِ مِنْ بُطْلَانِ سِحْرِ كَهَنَةِ فِرْعَوْنَ فِي يَوْمِ الزِّينَةِ. فِرْعَوْنُ وملَأُهُ مَنْ دَعَوُا النَّاسَ وجَمَعُوا السَّحَرَةَ، سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ هُمْ مَنْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ أَنَّهُمْ فِي كَنَفِ فِرْعَوْنَ وَرِعَايَتِهِ، وَهُمْ مَنْ يُزَيِّنُونَ لِلنَّاسِ قُوَّتَهُ وَجَبَرُوتَهُ وَحَتَّى أُلُوهِيَّتَهُ البَاطِلَةَ. لَكِنْ فِي يَوْمِ الزِّينَةِ:

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: 118-122].

رَغْمَ جَبَرُوتِ فِرْعَوْنَ وطُغْيَانِهِ الشَّدِيدِ بِتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، مَنْ يَظُنُّ أَنَّ لَهُ حُكْمًا فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ قَتَلَ واسْتَعْبَدَ، رَغْمَ ذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى بِدَعْوَتِهِ إِلَى الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ بِالْمَوْعِظَةِ والْكَلِمِ الْحَسَنِ، فَاللَّهُ ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ [البروج: 14]. يَتَوَدَّدُ لِعِبَادِهِ لِيَسْلُكُوا سَبِيلَهُ ويُفَارِقُوا سَبِيلَ عَدُوِّهِمُ الشَّيْطَانِ، سَبِيلَ الشَّقَاءِ والضَّنْكِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، رَغْمَ غِنَاهُ عَنْهُمْ وحَاجَتِهِمُ الْمَاسَّةِ لَهُ. بَلْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَعِيشُوا لَحْظَةً مِنْ دُونِ رَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ، فَهُوَ أَقْرَبُ لِفِرْعَوْنَ ولِجَمِيعِ عِبَادِهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ، وإِنْ شَاءَ لَأَهْلَكَ فِرْعَوْنَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ طَرْفُهُ. لَكِنْ صَدَقَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ: ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: 147].

لَكِنْ مَا طَغَى فِرْعَوْنُ وظَلَمَ نَفْسَهُ وقَوْمَهُ إِلَّا بِطُغْيَانِ أَتْبَاعِهِ ورُكُونِ قَوْمِهِ لِلظُّلْمِ واتِّخَاذِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: 46-56].

اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ بِكَلَامٍ بَاطِلٍ بَيِّنِ البُطْلَانِ، وذَلِكَ بَعْدَ أَنْ رَأَى قَوْمُهُ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ؛ آيَاتٍ مَادِّيَّةً مَحْسُوسَةً تَبَيَّنَ لَهُ أَنْ حَتَّى وفْقَ مَقَايِيسِهِمُ الْمَادِّيَّةِ البَحْتَةِ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: 58].

هَذِهِ الآيَاتُ الكَوْنِيَّةُ هِيَ مَا لَفَتَ اللَّهُ إِلَيْهَا عِبَادَهُ فِي بِدَايَةِ سُورَةِ البُرُوجِ حِينَ قَالَ: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾.

فصل: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

◆

سُبْحَانَهُ خَالِقَ السَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ، والقَائِلِ بَعْدَهَا:

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج: 3]

شَهِدَ لَهُ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ بحسومه فِي ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج: 5]، أَعْظَمَ شَهَادَةٍ يَشْهَدُهَا البَشَرُ فِي الدُّنْيَا:

« لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والـمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ »

واليَوْمَ يَشْهَدُ لَهُ أُنَاسٌ مِنْ مُخْتَلِفِ أَقْطَارِ الأَرْضِ، مِنْ بِقَاعِهَا وسُهُولِهَا، أَسْوَدِهَا وأَبْيَضِهَا، صَغِيرِهَا وشَابِّهَا وكَهْلِهَا، أُنْثَاهَا وذَكَرِهَا. مَلَايِينُ قَطَعُوا الفَيَافِيَ وصَرَفُوا الأَمْوالَ لِيَشْهَدُوا لِمَنْ لَهُ الجَبَرُوتُ والكِبْرِيَاءُ والعَظَمَةُ، بِبَرَكَةِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ إِمَامِ مِلَّةِ التَّوْحِيدِ:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129]

حَيْثُ شَهِدَ فِي النَّارِ العَظِيمَةِ مَقْذُوفاً فِيهَا بِالـمَنْجَنِيقِ بِأَنَّ:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82]

والظُّلْمُ هُنَا -كَمَا قَالَ إِمَامُ المُرْسَلِينَ المَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، واسْتِجَابَةً مِنَ العَزِيزِ الحَكِيمِ لِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ- عِنْدَمَا سَأَلَهُ الصَّحَابَةُ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

« لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13] » [البخاري]

وَهِيَ وَرَدَتْ فِي وَصَايَا لُقْمَانَ الحَكِيمِ لِابْنِهِ لِيَسْلُكَ سَبِيلَ عِبَادِ الرَّحْمَنِ وَيَتَجَنَّبَ سَبِيلَ الشَّيْطَانِ، مُخْرِجِ أَبِينَا آدَمَ مِنَ الجَنَّةِ مُتَوَعِّداً أَحْفَادَهُ وذُرِّيتَهُ:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 82]

وَصَدَقَ وَعْدُهُ لِأَبِينَا آدَمَ فَأَخْرَجَهُ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ لِدَارِ الضَّنْكِ والشَّقَاءِ، تِلْكَ الَّتِي لَا تَطِيبُ إِلَّا بِمَنْهَجِ اللهِ وغَايَاتِهِ،أَنْزَلَهَا مَعَ آدَمَ وَحَوَّاءَ -عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- حِينَ تَبَيَّنَا عَاقِبَةَ إِطَاعَةِ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 23].

فَامْتَنَّ الرَّحْمَنُ :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 26]

ولِبَاسُ التَّقْوَى هُوَ مَا بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِصْدَاقاً لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: 123]

لِيُخْرِجَ الصَّحَابَةَ مِنْ عَبِيدٍ وضُعَفَاءَ ومَغْمُورِي الذِّكْرِ، وقَوْمٍ كَانُوا أَسْوَأَ ذَاتِ بَيْنٍ، إِلَى حَمَلَةِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ؛ فَيَقِفُ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ لِقَائِدِ الفُرْسِ رُسْتُمَ فِي مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ عِنْدَمَا سَأَلَهُ: "مَا جَاءَ بِكُمْ؟" فَقَالَ:

" اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، ومِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، ومِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلَامِ ".

وها نَحْنُ اليَوْمَ مِلْيَارَانِ ونِّيفٌ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، أَزَلْنَا الشَّيْطَانَ عَنِ اتِّبَاعِ قَوْلِ الرَّحْمَنِ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

[البقرة: 208]

فَصَدَقَ فِي حَالِنَا قَوْلُ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ لِلصَّحَابَةِ:

« يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَمِنْ قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: لَا، ولَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يُجْعَلُ الوَهْنُ فِي قُلُوبِكُمْ، ويُنْزَعُ الرُّعْبُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، لِحُبِّكُمُ الدُّنْيَا وكَرَاهِيَتِكُمُ المَوْتَ » [الألباني]

لَكِنَّ المَخْرَجَ هُوَ مَا أَخْرَجَ اللهُ بِهِ يُوسُفَ مِنَ البِئْرِ والعُبُودِيَّةِ والسِّجْنِ إِلَى رَحَابَةِ قَوْلِ اللهِ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: 56-57]

فَيُوسُفُ كَانَ مِنَ المُحْسِنِينَ:

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: 38]

، لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ أَوْ يَشُكُّ أَقْدَارَهُ فِي جَمِيعِ مِحَنِهِ ومَكْرِ الإِخْوَةِ والحَاكِمِ وامْرَأَةِ العَزِيزِ وصَوَاحِبِهَا، واتَّبَعَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ واجْتَنَبَ مَسَاوِئَهَا قَائِلاً:

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: 23]

، فِي مَوْقِفٍ عَزَّ نَظِيرُهُ فِي الدُّنْيَا حِينَ اخْتَارَ السِّجْنَ عَلَى الهَوَى وتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ. وفِي السِّجْنِ والنَّعِيمِ حَمَلَ رَايَاتِ الغَايَاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، فَجِهَادُ الهَوَى والشَّيْطَانِ...فَصَارَ هَذَا المَكْرُ وَالمِحَنُ كُلُّهَا قَوْلَ اللهِ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ:

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 76]

فَصَارَتْ هَذِهِ المِحَنُ مِنَحاً وَتَكْرِيماً، وَأَتْتهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ.

وأَصْحَابُ الكَهْفِ والرَّقِيمِ فَارَقُوا الشِّرْكَ ودَعَوْا مَلِكَهُمْ وقَوْمَهُمْ لِلتَّوْحِيدِ، فَأَبَوْا وأَرَادُوا فِتْنَتَهُمْ، فَاتَّبَعُوا سُنَّةَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ اعْتَزَلَ الشِّرْكَ وأَبَاهُ وقَوْمَهُ بَعْدَ أَنْ قَامَ للهِ مَقَامَاتٍ فِي دَعْوَتِهِ وتَذْكِيرِهِمْ، ومَا تَرَكَ سَبِيلاً لِذَلِكَ إِلَّا اتَّبَعَهُ، فَأَلْقَوْهُ فِي النَّارِ ونَجَّاهُ اللهُ واجْتَبَاهُ، فَصَارَتْ مِلَّتُهُ عَلَماً لِمُتَّبِعِي غَايَاتِ الرَّحْمَنِ:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: 125]

وصَدَقَ رَجُلٌ مِنَ اليَمَنِ حِينَ صَلَّى خَلْفَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فَسَمِعَ الآيَةَ فَقَالَ: "لَقَدْ قَرَّتْ عَيْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ"؛ نَعَمْ، قَرَّتْ فِي الدُّنْيَا:

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: 49-50]

هذا اللسانُ -ذكرُ إبراهيمَ- سمعَ بهِ ملياراتٍ ونيفٌ منَ المسلمينَ، وتنازعَ شرفَ الانتسابِ إلى إبراهيمَ النصارى (وهمُ اليومَ حوالي مليارينِ ونصفِ المليارِ نسمةٍ) واليهودُ، ويطوفُ الملايينُ منَ المسلمينَ سنوياً بالكعبةِ التي بناها إبراهيمُ وإسماعيلُ -عليهما السلامُ- ويصلونَ في مقامِ إبراهيمَ، ويسعونَ سعيَ هاجرَ زوجِ إبراهيمَ حينَ تركها في قفرةٍ موحشةٍ لا إنسانَ ولا طعامَ ولا ماءَ فيها، خلا جرابِ تمرٍ، وسقاءِ ماءٍ، فلم تشكُ أقدارَ اللهِ عندما أجابَ سؤالَها: «آللهُ أمرك بهذا؟» قالَ: «نعمْ». قالتْ:

« إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا » [البخاري]

وَرَجَعَتْ بِيَقِينِ المُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ تَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِ فَرَجِ اللهِ الأَرْضِيَّةِ، فَأَمَدَّهَا اللهُ بِالأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وجَعَلَ سَعْيَهَا مَنْسَكاً إِلَى يَوْمِ البَعْثِ والنُّشُورِ، وجَعَلَ فِدَاءَ وَلَدِهَا إِسْمَاعِيلَ قُرْبَاناً عَلَى القَادِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومَنْ عَلَيْهَا. ورَجَمَ إِبْرَاهِيمُ الشَّيْطَانَ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ، ويَقْتَدِي الحَجِيجُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا بِهَذَا النُّسُكِ.

فَاعْتِزَالُ إِبْرَاهِيمَ قَوْمَهُ كَانَ هُوَ عَيْنَ الفَاعِلِيَّةِ والإِيجَابِيَّةِ لِيُمَهِّدَ طَرِيقَ أَقْوَامٍ مِنْ بَعْدِهِ انْتَسَبُوا لِمِلَّتِهِ مِلَّةِ الرَّحْمَنِ، واتَّبَعُوا غَايَاتِهِ غَايَاتِ الرَّحْمَنِ، وبِذَلِكَ اسْتَنَّ أَصْحَابُ الكَهْفِ:

﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: 16]

فَحَقَّقَ اللهُ دُعَاءَهُمْ وجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: 9]

وإِنْ ضَلَّ فِيهِمْ طَائِفَةٌ مِنَ المُوَحِّدِينَ:

﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: 21]

، فَمَا عَلِمُوا أَنَّ أَوَّلَ شِرْكٍ كَانَ بِاللهِ فِي الأَرْضِ حِينَ وَفَى الشَّيْطَانُ لِوَعْدِهِ فِي قَوْمِ نُوحٍ:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 62]

، فَاحْتَنَكَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ فَأَشْرَكُوا بِاللهِ فَعَبَدُوا تَمَاثِيلَ صَالِحِينَ، فَأَرْسَلَ اللهُ نُوحاً:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: 1]

، فَلَمْ يَسْمَعُوا النَّذِيرَ:

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح: 21-22]

فَشَارَكَ الشَّيْطَانُ أَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَقَاتَلُوا تَحْتَ رَايَاتِهِ، فَسَعَوْا لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وغَايَتِهِ وفِتْنَةِ واضْطِهَادِ الفِئَةِ القَلِيلَةِ المُؤْمِنَةِ مَعَ نُوحٍ، فَتَحَقَّقَ مَوْعِدُ الشَّيْطَانِ فِيهِمُ الشَّقَاءُ والهَلَاكُ فِي الدُّنْيَا والعَذَابُ الأَلِيمُ فِي الآخِرَةِ. فَأَذِنَ اللهُ لِآيَةِ الطُّوفَانِ:

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

[القمر: 11-12]

هَلَاكٌ لِلْمُكَذِّبِينَ وَنَجَاةٌ لِنُوحٍ وَعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الصَّابِرِينَ.:

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 13-15]

وهِيَ آيَةٌ كَوْنِيَّةٌ لَا يَزَالُ صَدَاهَا يَتَرَدَّدُ فِي مَلَاحِمِ البَشَرِ-مُؤْمِنُهُمْ وكَافِرُهُمْ- وحَضَارَاتِهِمُ الَّتِي تَعَاقَبَتْ بَعْدَ نُوحٍ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ إِلَى أَدْنَاهَا، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وحَمَلَتْ فِي ذَاكِرَتِهَا رِوَايَتَهَا الخَاصَّةَ عَنْ ذَلِكَ الغَمْرِ العَظِيمِ، كَمَا وَثَّقَ وبَرْهَنَ عَلَى ذَلِكَ عُلَمَاءُ "الأَنْثُرُوبُولُوجْيَا" المُعَاصِرُونَ -ذَلِكَ العِلْمُ الَّذِي يَتَفَحَّصُ كَيْنُونَةَ الإِنْسَانِ ويَفُكُّ شِفْرَاتِ حَضَارَتِهِ المُمْتَدَّةِ عَبْرَ مَلَايِينِ السِّنِينِ خَلَتْ-.

فَإِنْ كَانَ مِنْ ذِكْرَى فِي نِهَايَةِ هَذَا السِّفْرِ، فَتَنْقِيَةُ التَّوْحِيدِ مِنْ أَيِّ شَوَائِبَ لِلشِّرْكِ، واتِّبَاعُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وهِيَ وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 133]

وهِيَ مَا نَجَّى اللهُ بِهَا يُوسُفَ ومِلَّكَ، وهِيَ مِلَّةُ مُحَمَّدٍ مَخْرَجُ رِبْعِيِّ بْنِ عَامِرٍ وبِلَالٍ وعُمَرَ وصُهَيْبٍ. وأَنْ نَسْتَبِقَ الخَيْرَاتِ كَمَا فَعَلَ زَكَرِيَّا والِدُ يَحْيَى:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: 90]

خَاصَّةً فَرَائِضَ اللهِ وأَرْكَانَ الإِسْلَامِ مِنْ صَلَاةٍ وصِيَامٍ، ثُمَّ نَتَعَرَّضُ لِرَحَمَاتِ اللهِ فَمَا اصْطَفَى مِنْ أَيَّامِهِ كَلَيْلَةِ القَدْرِ، وعَشْرِ ذِي الحِجَّةِ، وعَرَفَةَ وعَاشُورَاءَ، ثُمَّ نَقْتَدِي بِمُحَمَّدٍ ﷺخَيْرِ البَشَرِ أَجْمَعِينَ: «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ» [الأَلْبَانِيُّ],سُلُوكاً وَمِعْيَارَ تَفَاضُلٍ فِي المُجْتَمَعِ.

وأَحْسَبُ مِمَّا يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ تُذَكِّرَ نَفْسَكَ أَنَّكَ لَسْتَ مَشْغُولًا لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ؛فَلْتَفْعَلْ كُلَّ يَوْمٍ فِعْلاً إِيجَابِيّاً. قَدْ يَكُونُ إِدْخَالَ سُرُورٍ عَلَى شَخْصٍ، أَوْ إِمَاطَةَ أَذًى عَنِ الطَّرِيقِ، أَوْ تَعْلِيمَ جَاهِلٍ، أَوْ إِعْمَالَ فِكْرٍ فِي حَلِّ مُعْضِلَةٍ تُوَاجِهُ المُجْتَمَعَ، أَوْ حَتَّى تَحْفِيزَ غَيْرِكَ لِيَعْمَلَ مِثْلَكَ. ثَلَاثُونَ فِعْلًا فِي الشَّهْرِ، لَوْ بَرْمَجْتَ لَرُبَّمَا حُلَّتْ بِهَا مُعْضِلَةٌ كُبْرَى، ولَكِنِ ابْدَأْ عَلَى كُلِّ حَالٍ. ولَوْ فَعَلَ مِثْلَكَ مِلْيُونُ إِنْسَانٍ، لَغَيَّرُوا وَجْهَ بِلَادِهِمْ وواقِعَهَا، بَلْ لَرُبَّمَا تَغَيَّرَ بِهِمْ وَجْهُ العَالَمِ أَجْمَعَ. هِيَ فِكْرَةٌ جَمِيلَةٌ، فَابْدَأِ التَّنْفِيذَ إِذَنْ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ.

وهِيَ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ تَعِيشُهَا وإِنْ لَمْ تُغَيِّرِ الأُمَّةُ مِنْ نُفُوسِهَا فَسَيُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالِكَ، فَقَدْ قَضَى ولَا رَادَّ لِحُكْمِهِ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11]

يَسَّرَ لَنَا اللهُ تَدَبُّراً فِي سِفْرٍ آخَرَ نَقُصُّ فِيهِ حَدِيثَ الجُنُودِ تَأَوُّلاً لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ فِي خِتَامِ سُورَةِ البُرُوجِ:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ [البروج: 17-18], و ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: 7-8]

✧ خاتمة ✧

غَفَرَ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، فَمَا كَانَ فِيهِ مِن زَلَلٍ فَمِن نَفْسِي وَالشَّيْطَانِ، وَنَخْتِمُ بِدُعَاءِ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: 101]

الفهرس

الباب الأول: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	.....	1
فَصْلٌ: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	.....	1
فَصْلٌ: ﴿شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾	.....	4
فَصْلٌ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾	.....	6
فَصْلٌ: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾	.....	8
الباب الثاني: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾	.....	12
فَصْلٌ: ﴿أَكْرَمَكُمْ﴾ (خِيَارُكُمْ)	.....	13
فَصْلٌ: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾	.....	16
فَصْلٌ: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (شِرَارُكُمْ)	.....	18
فَصْلٌ: ﴿مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾	.....	19
الباب الثالث: أَحْسَنُ الْقَصَصِ	.....	20
فَصْلٌ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾	.....	21

فَصْلٌ: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾	.....	25
فَصْلٌ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾	.....	27
فَصْلٌ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾	.....	34
فَصْلٌ: ﴿أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾	.....	40
فَصْلٌ: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾	.....	43
فَصْلٌ: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾	.....	48
فَصْلٌ: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾	.....	52
فَصْلٌ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾	.....	58
فَصْلٌ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾	.....	62
فَصْلٌ: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾	.....	65
فَصْلٌ: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾	.....	67
فَصْلٌ: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾	.....	70
الباب الرابع: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾	.....	72
فَصْلٌ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	.....	73
فَصْلٌ: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾	.....	77
فَصْلٌ: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي﴾	.....	81

فَصْلٌ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾	.....	86
فَصْلٌ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾	.....	89
فَصْلٌ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾	.....	91
فَصْلٌ: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾	.....	95
الباب الخامس: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾	.....	102
فَصْلٌ: ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾	.....	103
فَصْلٌ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾	.....	112
فَصْلٌ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾	.....	125
فَصْلٌ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾	.....	132
فَصْلٌ: ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾	.....	138
فَصْلٌ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾	.....	147
فَصْلٌ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾	.....	149
فَصْلٌ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾	.....	153
الباب السادس: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾	.....	155
فَصْلٌ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾	.....	156

فَصْلٌ: ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾	.....	161
فَصْلٌ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾	.....	163
فَصْلٌ: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾	.....	172
فَصْلٌ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	.....	176
فَصْلٌ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾	.....	178
الباب السابع: ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾	.....	182
فَصْلٌ: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾	.....	183
فَصْلٌ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾	.....	186
فَصْلٌ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾	.....	191
فَصْلٌ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾	.....	211
فَصْلٌ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾	.....	217
الباب الثامن: ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾	.....	220
فَصْلٌ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾	.....	221
فَصْلٌ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾	.....	227
فَصْلٌ: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾	.....	235
فَصْلٌ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	.....	239

فَصْلٌ: ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	.....	241
فَصْلٌ: ﴿مُتَبَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾	.....	245
فَصْلٌ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾	.....	247
فَصْلٌ: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾	.....	250
فَصْلٌ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾	.....	253
فَصْلٌ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾	.....	258
فَصْلٌ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾	.....	261
الباب التاسع: الآياتُ والذِّكرُ الحكيمُ	.....	266
فَصْلٌ: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾	.....	267
فَصْلٌ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾	.....	274
فَصْلٌ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾	.....	279
فَصْلٌ: ﴿آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾	.....	284
فَصْلٌ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾	.....	287
فَصْلٌ: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾	.....	289

فَصْلٌ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾	.....	293
فَصْلٌ: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾	.....	298
فَصْلٌ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾	.....	302
فَصْلٌ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾	.....	308
فَصْلٌ: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾	.....	309
الباب العاشر: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾	.....	313
فَصْلٌ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾	.....	314
فَصْلٌ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾	.....	321
فَصْلٌ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾	.....	326
فَصْلٌ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾	.....	331
فَصْلٌ: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾	.....	337
فَصْلٌ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾	.....	340
فَصْلٌ: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾	.....	345
الباب الحادي عشر: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾	.....	347

فَصْلٌ: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾	.....	348
فَصْلٌ: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾	.....	353
فَصْلٌ: ﴿عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾	.....	356
فَصْلٌ: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾	.....	361
فَصْلٌ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾	.....	365
فَصْلٌ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	.....	369
فَصْلٌ: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾	.....	373
فَصْلٌ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	.....	382